

من حكايات

الغول الأحمر الأخير

(فانتازيا تاريخية)

د. محمد الدواخلي

شكر وإهداء

إلى أساتذتي في الحياة: والدي ووالدتي وشيخي السعداوي.

إلى أستاذي في الأدب، راعي الكتاب الشباب، الناقد الكبير د/ سيد البحراوي

إلى قرّائي الأوائل، الذين يصبرون على خربشاتي في صورها الأولى، أخوتي: خالد ومنى وإيمان ووجدان وأميمة

إلى الأعزاء، أول من وجهوا نقدا مفيدا لهذا العمل: محمد عبد القهار، أحمد رشاد، وأصحاب الأسماء المستعارة الناقل المحيطي وشكولاتة

إلى رفاق الدرب: محمد عيد، وعبد العزيز أبو الميراث، وأحمد خشبة

وطبقا لوعد قديم، ففصل حكاية الأميرة سارة مهدى إهداءً خاصا لشقيقتي منى.


عصير
الكتب

(١)

قال الراوي

ابتسمت لمياء لابنتها، وهي تربت على كتفها مطمئنة، وأخذت تهمس لها بما أزال القلق من وجهها، قبل أن تنهض الصغيرة إلى داخل الخيمة، لتنام مع إخوتها. وما أن غابت عن أنظارنا، حتى نظرت لمياء لدليلنا بشراسة الأم الملتاعة، وقالت بصوت خفيض لكنه مهدد:

"أنت تجعلنا ندور في دوائر. هذه المنطقة كنا بها بالأمس."

رد بارتباك:

"أؤكد لك سيدتي أنه مجرد تشابه."

ردت بحنق:

"وما أدراك ؟"

قال:

"أبسط شيء هو البوصلة يا سيدتي. منذ أن خرجنا عن الطريق الرئيسي بعد هذه السيول وأنا ملتزم بالسير شرقا، من المستحيل أن نكون في نفس المكان."

هنا تدخلت قائلا:

"ربما كنا في وادي الموت "وادي القائد الأسود؟"

ردت لمياء:

"لا، الوادي كان على الجانب الآخر من الطريق، فقد زرناه قبل يومين."

وأضاف الدليل:

"وأيا كان مكاننا فالبوصلة ستعمل."

ولأول مرة تكلم السائق الأسمر قائلا:

"حسناً، على الأرجح نحن في وادي الموت، فالموجود على الجانب الآخر من الطريق جزء صغير معزول منه، يستخدم لزيارات السياح؛ أما باقي الوادي فمساحته هائلة، وهو خطير لأن من المستحيل أن يعرف الأدلاء دروبه، لأنها تتغير دوما بسبب حركة الكثبان الرملية."

قال الدليل:

"أعرف هذا؛ ولكن البوصلة.... أعني إننا نمشي على هداها، سنمشي شرقا، وسنصل حتما لطريق العاصمة الرئيسي."

هنا قلت:

"لكني سمعت إن تربة هذا الوادي غنية بأكسيد الحديد المغناطيسي، مما يؤثر على البوصلات."

ساد الصمت الثقيل لفترة، ثم نظر الدليل إلى السماء، وأخذ يتأملها ردحا من الزمن. فسألته (لمياء) في تحفز:

"ماذا تفعل بتأمل جمال النجوم الآن؟ "

قال:

"أبحث عن النجم القطبي....آهه..... هل هو ذلك؟ آه لا.... نعم ها هي المغرفة و........... حسنا يا رفاق هذا هو الشمال. فعلا البوصلة معطلة أو متأثرة بهذا الحديد المغناطيسي الذي تكلم عنه الأخ."

نظرت لمياء له نظرة نارية، ثم رفعت رأسها إلى السماء، وهتفت بأعلى صوتها:

"اللهم أنجدنا من أدلاء آخر زمن!"

شعرت أن الموقف سينفجر مرة أخرى، فحاولت تلطيف الجو قائلا:

" على أي حال، لقد عرفنا الآن خطأنا، ونستطيع الانطلاق من الغد إلى الطريق الصحيح، وغدا سيكون كل هذا ذكرى مضحكة."

أضاف الدليل:

"كل ما علينا هو أن نجعل النجم القطبي على يميننا، وسنصل إلى طريق العاصمة الرئيسي خلال يوم على الأكثر."

لم تحتمل لمياء أكثر من هذا، فانفجرت فيه:

"على يسارنا أيها الأحمق! لكي نتجه شرقا، نجعل الشمال على يسارنا! أم إنك تريد أن تقودنا لقلب الصحراء، لنهلك جوعا وعطشا."

وأخذت ترغي وتزبد في شراسة الأم التي تخاف على أطفالها، واكتفيت أنا بمراقبة التهامها للدليل قليل الخبرة، الذي لم يعرف المنطقة أكثر منا إلا بشهر واحد، إلى أن أشفق عليه أحدنا، واستغل لحظة توقفت فيها لمياء لالتقاط الأنفاس وقال:"يجب أن ننطلق الآن ونحن نرى النجم القطبي. لنتحرك ليلا، ونرتاح نهارا."

فذهبت لمياء لإيقاظ أطفالها، الذين لم يدخروا جهدا في الاحتجاج، وتذمروا بإخلاص شديد، إلى أن أقنعتهم أمهم بالطريقة التقليدية.

وبينما كانوا يمسحون دموع الاقتناع، أراد الدليل إلهائهم عن الألم الذي أوقعهم – وأوقعنا - فيه فقال للصغار:

"أتدرون يا أطفالي ما اسم هذا المكان؟"

رد الشقي الأكبر بجفاء:

"اسم يبعث على الاطمئنان! وادي الموت، أو وادي القائد الأسود كما سمعت من شجاركم؟"

بدا الخوف على وجه الأصغرين، الذين لم يمتلكا شقاوة أخيهما الأكبر، فأكمل الدليل:

"نعم، لكن هل تعرفون أن وراء هذا الاسم قصة؟"

لم يجد منهم ردا فأكمل:

"بإمكاني أن أحكيها لكم؛ لكن لا أدري أأنتم شجعان بما يكفي أم لا؟"

الحيلة القديمة! تريد أن تجعل الطفل يفعل أي شيء، فما عليك إلا أن تسأله إن كان شجاعا أو كبيرا بما يكفي؟

وبالطبع رد الشقي الأكبر:

"نحن أشجع منك، لسنا صغارا لتخيفنا قصة."

تردد في ذهني صوت يدعوني لإخراس الدليل، لم أكن أذكر الأسطورة تماما، ولكنها كانت تتحدث عن موت قائد كبير،

وأشباح، وأشياء من هذا القبيل. لكني افترضت بحسن نية أنه سيحدثهم عن القصة التاريخية، التي قرأتها في الكتب، فالتزمت الصمت.

وهنا - للمرة المائة - أثبت حماقته! مهما كانت شجاعة الطفل، فإن الأمر لا يصل إلى إمكان أن تخبره بوجود شبح في الصحراء، يبحث عن التائهين فيها، بزعم إنقاذهم، قبل أن يقتلهم!

قصة غير مناسبة بتاتا لأطفال تائهين في الصحراء! دعك من أنهم افترضوا، تلقائيا، أن هذا الدليل الأحمق، الذي كلما حاول إنقاذنا، زاد الموقف سوءً، هو القائد الأسود. وأعذرهم في ذلك، فأدلتهم قوية لا تناقش. فالشبح موجود، لأن الكبار يسمون الوادي على اسمه، ونحن كنا بأمان في السيارة، حتى قرر هذا الدليل (إنقاذنا) بالمضي في الصحراء نحو طريق العاصمة الرئيسي.

على أي حال، كان يجب أن أتدخل، قبل أن يضيع الدليل المسكين جريرة حماقته، ولأنقذ لمياء من السجن المؤبد بتهمة القتل، فأسرعت أقول للأطفال:

"هذه مجرد قصة يخيفون بها الأطفال هنا، حتى لا يلعبوا في تلك الصحراء الخطيرة، ولكن الاسم سببه -كما هو مذكور في الكتب - إنه قد جرت هنا معركة هائلة، بين قائد محلي من أقصى شرق البلاد، عرف باسم القائد الأسود لأنه كان ينتمي

لقبائل بني الأسود في الشرق، وليس لأنه كان ساحرا شريرا يمارس السحر الأسود، كما يزعم هذا الدليل الطيب."

قال الدليل:

"أنا لم..........."

قاطعته مكملا:

"حارب هذا القائد غزاة كانوا آتين من الغرب، وقاتلهم قتالا مريرا دفاعا عن البلاد؛ لكنه هزم بعد أن قتل من الطرفين أعدادا مهولة، فسمي هذا الوادي باسم وادي الموت تخليدا للقتلى الكثر. قبل هذا، كان يسمى لخطورته وادي الضياع. أما القائد الأسود، فلم يحتمل الهزيمة، فبقى حينا متحصنا مع بعض رجاله في الوادي، حتى هلكوا جميعا، لكنه ظل يحكم الوادي لفترة، فسمي باسمه وادي القائد الأسود."

قالت الصغيرة:

"يا له من بطل دافع عن بلاده حتى النهاية."

وجدتها فرصة للحديث عن الشجاعة والانتصار للوطن، فبدأت أخاطب الأطفال بالبطولات، التي يبذلها المجاهدين في سبيل حرية بلادهم.

وهنا سأل الشقي الكبير:

"وماذا فعل الغزاة بعد انتصارهم؟"

لم أكن أعلم الجواب فقلت مخمنا:

"طبعا حكموا البلاد إلى أن أتى الثوار وأخرجوهم."

هنا تكلم أخيرا السائق الأسمر، وهو الوحيد بيننا الذي ينتمي لأهل المنطقة، فقال:

"حسناً، أنا أذكر القصة التي حكاها لي جدي عن جده عن جده عن جدنا الأكبر، ويحكيها الجدود في بلدتنا لأحفادهم عن الغول الأحمر، والقائد الأسود........."

قاطعته لمياء:

"مالنا ومال الغيلان والأشباح. نحن نتحدث عن البطولة والفداء يا أسطى."

أكمل السائق:

"وأنا أتحدث عن أسمى معاني البطولة والفداء. لكن القائد الأسود لم يكن بطلا، بل كان أسودا الفعل والاسم. لكن كعادة التاريخ هو من بقى أثره في الكتب، أما البطل الحقيقي، الذي قام برحلة تفوق الخيال من أجل بلاده، مكافحا ضد أسوأ عدو يبتلى به الإنسان.. ضد اليأس، وضد كلمة لا فائدة، وكلمة لا تحاول غيرك كان أشطر.. كلمات قاتلة كان يواجهه بها كل من يقابله ويفترض فيه المعاونة، لكنه أصر على بذل كل ما يمكنه في سبيل ما يراه واجبا عليه،

سأله الصغير:

"من هو هذا الرجل وما حكايته؟"

قال السائق:

"اسمه (عبد الشهيد)، وهو ابن (سمعان) الصياد ،وله قصة عجيبة سأحكيها لكم، كما سمعتها عن جدي، وكما سمعها جدي الأكبر من (عبد الشهيد) نفسه.

(٢)

حكاية عبد الشهيد بن سمعان وشيخ بلدته غلاب

قال الراوي:

" كنت أحرث الأرض استعدادا لبذر القمح، أهم محصول طوال العام، فهو الذي نقتات منه أيام الحصار؛ ولكني كنت متأخرا عن البقية، لأنني لا أجد من يعاونني في القرية، بينما خبرتي القليلة لا تسعفني في زراعة تلك الرقعة التي ورثتها عن والدي (سمعان الصياد). ولذا، بقيت وحدي وسط الخلاء، لا يحوطني بشر إلا من عابر سبيل، يظهر مبتعدا على مرمى البصر.

ولذا كانت دهشتي كبيرة ، حينما رأيت (محمدين) ، جاري، والشخص الوحيد الذي يبادلني كلمات مقتضبة في البلدة، لأنه يرى إثم مقاطعة الجار أشد من عيب محادثتي.

وازدادت دهشتي، حينما أدركت أنه يقصدني، فيتجه نحوي مسرعا، إذ لم يحدث أبدا أن بادرني بالحديث. وقد أبقيت له تلك العادة، إذ غلبني فضولي، فهتفت:

"كيف حالك يا أبا عبد الرحمن؟ ما الأمر؟"

قال:

"شيخ البلد يريدك."

قلت متعجبا:

"وماذا يريد مني الشيخ غلاب؟"

هز كتفيه وقال:

"علمي كعلمك!"

مضيت معه مندهشا. فخلال ثلاث سنوات قضيتها هنا، لم يدعني أبدا الشيخ غلاب لبيته، الذي لم أدخله سوى مرة واحدة، حينما جئت للقرية مطالبا بميراثي من أبي. حتى حينما يدعو شيخ البلد كل الشباب للقتال ضد اللصوص والهجامة وجماعات المماليك المارقة، لا أعرف بالأمر إلا صدفة، ولهذا فاتتني أكثر من معركة كنت في أشد الحاجة للمشاركة فيها، لإثبات شجاعتي ومروءتي وولائي لأهل قريتي.

ويبدو أن فضول أبي عبد الرحمن كان أشد، فسألني:

"أتعرف شخصا يدعى (نوري)؟ ربما كان من الأعيان"

قلت:

"لا، والاسم لا يبدو مألوفا، ولعله ليس من بلادنا."

قال:

"أتى شخص يرتدي ملابس غالية، ويركب حصانا لم أر له مثيلا، فحدث شيخ البلد كما لو كان يعرفه، وهمس له قليلا، ثم اندفع للشرق مسرعا. وبعد قليل، أرسل الشيخ رسولا إلى نائب القاضي، في زمام الشيخ عصفور، وألح عليه في الإسراع، ثم بعد قليل أرسلني لك."

أردت اجتذابه لثرثرة تذيب بعضا من جليد القلوب، فسألته

"نائب القاضي؟ أليس هذا لقب زعيم خدام الضريح؟"

قال:

"نعم، هو بعينه. أظنه الآن شابا اسمه (الحسيني)، وهو ابن شقيق سلفه (سعيد)؟"

قلت:

"لَم يسمي نفسه بنائب القاضي؟ ليس في قرى الزمام أو خارجها قضاة. إني لم أر قاضيا إلا في حاضرة البلاد، بعيدا عن هنا مسيرة أسابيع."

قال:

"لأنه يقضي بين أهل الزمام وما حوله من القرى، إلى جانب قيادته لخدم الضريح."

قلت:

"إذن فلم لم يُسمِ نفسه بالقاضي؟"

قال مبتسما:

"لم تترب بيننا لتعرف! لقد خجل سلفه أن يسمي نفسه قاضيا في حضرة ضريح الشيخ عصفور. وكره أن يسمي نفسه أميرا، أو قائدا للجند، حتى لا يشبه أولئك الأجلاف."

قلت:

"أظن أن ضريح الشيخ عصفور بعيد عن هنا، جهة الجنوب؟"

قال:

"ألم تذهب لتتبرك بالمقام من قبل؟ إنه سيرا يستغرق يومين للجنوب."

قلت:"لعلك تذهب معي لنقرأ له الفاتحة قريبا؟"

لم أترك له مفرا، هكذا أورطه في صداقتي رويدا، رويدا.. فمن ذا الذي يرفض أن يدل شخصا على مقام الولي الصالح، الشيخ عصفور، أو يفكر في صده عن قراءة الفاتحة له؟

كنت قد سمعت الكثير عن هذا الشيخ، الذي كان آخر قاض عاش في الإقليم الغربي من المملكة، وكان حازما حاسما، غزير العلم، محبا للعدل، مجاهدا للظلم. وقد ساعد الكثيرين في أيام الفتن السوداء، دون أن يرهب أميرا جائرا، أو غنيا فاجرا،

أو مملوكا باطشا. واليوم، بعد مرور العقود على وفاته، مازال ضريحه ملجئا للمظلومين، ومقرا لجماعة الجند التي أسسها لإقرار العدل، تتوارث مهمتها المقدسة داخل الزمام، لتجعل منه واحة شاذة من الأمان، وسط صحراء الخوف. أمان يجعلني أغفر كل ما أرفضه من مظاهر التقديس، واختراع الكرامات، وأعمال الجهالة، التي تفرض للمخلوق معجزات لا تجوز لغير الخالق. كل هذا تربيت على نبذه في كتّاب شيخي بالزرقاء، حيث نشأت؛ لكن تشبث الناس هنا بقشة كرامات الشيخ، لتحميهم من طوفان الفتن حولهم، لأمر جدير بالاحترام، بل الاستغلال.

عاد فضوله يلح:

" أما تدري لماذا يريدك الشيخ غلاب؟"

قلت:

"هذه أول مرة يطلبني فيها منذ عودتي إلى هنا. لكن حدثني عن هذا النوري كيف كان؟"

قال:

"كان يرتدي زيا مزركشا نفيسا، ذا لون أبيض مخلوط بصفار ذهبي، وغطاء رأس عجيب، لا هو ذو زر فأقول طربوش، ولا ملفوف فأقول عمامة، وحتما ليس بطاقية."

سألته:

"قل لي أكان يرتدي حذاءا؟"

قال:

"كان قبقابا بسيطا على ما أذكر، فقد كان (يطرقع) على بلاط مسطبة الشيخ غلاب."

ابتسمت في فهم، وقلت:

"أكان يمسك سوطا، أو كان معه سلاح أو رفاق؟"

هز رأسه نفيا:

"لا هذا ولا ذاك!."

"كيف كان جواده؟"

رد:

"رائعا فتانا. لم أر في حياتي له مثيلا في رشاقته وخفته."

قلت "حسناً، هذا على الأرجح أحد الخدم في قصور الأثرياء، علم بأمر خطير، فاختلس حصان سيده، ليسرع لأقرب قرية، ثم عاد مسرعا."

بدا القلق على وجه (محمدين)، إذ أن النبأ الخطير القادم من الأغنياء لن يكون خيرا أبدا، فقال في شراسة:

"وما أدراك أنت؟"

قلت:

"هذا الحصان الثمين لم يملكه إلا ثري، والثري لن يمضي وحيدا، ولن يترك حصانه لخادم. وهذا (النوري) يرتدي ملابس كملابس الخدم والمماليك الذين يعملون داخل قصور الأثرياء. عادة ما يلبسونهم أبهى الأزياء أمام ضيوفهم، ولا يهتمون لأحذيتهم. على أن المملوك لن يمضي دون سلاح أو كرباج."

أخذت أفكر، على الأرجح سمع (نوري) هذا أمرا خطيرا من سادته أثناء استقباله لضيف هام، وربما كان يعرف شيخ البلد، أو لعلنا كنا أقرب قرية، فأراد إبلاغنا لنبلغ نائب القاضي بالأمر الجلل، الذي جعله يختلس حصان سيده.

انتزعني (محمدين) من أفكاري بقوله:

"هل يرتدي الخدم في القصور مثل هذا؟"

قلت مبتسما لتعجبه:

"رأيت في الزرقاء والحاضرة أشد من ذلك!"

قال:

"تخيفني بحديثك، وتتحدث عما لا تعلم. أتدرك ماذا يعني أن يضمر الأثرياء لنا الشر مرة أخرى؟"

كان هذا ما أفكر فيه فرددت:

"يعني العودة لأيام أليمة، ولعل شيخنا استعد لهذا اليوم، وأعد العدة بتجنيد نوري هذا داخل قصورهم."

هنا لاح لنا منزل شيخ البلد الفسيح، المجاور للمسجد حتى يسهل عليه صعود المئذنة، ومراقبة ما حول القرية وقت الشدة. وكان بالفعل فوقها، ينظر نحونا كالمتربص. فلما وصلنا لبابه، نزل وصرف أبا عبد الرحمن لحال سبيله، وأدخلني إلى حجرة مغلقة من المنزل، لأجد الطعام ينتظرني.

جلست لآكل لقيمات قليلة وأنا متربص، فلم آكن جائعا، وإنما طامع في رباط المودة، الذي تفرضه المشاركة في الطعام على رؤوس الكرام.

كان وجه الشيخ متجهما، ولم آكن لأفهم سر طلبه لي. الاحتمال الوحيد إنه يريد سؤالي إن كنت سأكرر فعلة أبي، أو إنه يرغب في شراء أرضي، قبل أن أرحل، وإلا فلم يمسك بكيس نقوده في يده؟

ابتدرني بالحديث:

"لعلك تتساءل لم أريدك؟"

قلت:

"أنا في خدمتك دوما يا شيخ (غلاب)."

قال:

"أنت رجل شجاع، ومنذ جئت هنا وأنت تقاتل إلى جوارنا بكل شجاعة دفاعا عن القرية. لذا فعندي لك أمر مستحق للشجاعة."

لم أرد في البداية، انتظرت منه التوضيح، ثم عدلت عن رأيي فقلت:

" أخبرني أبا عبد الرحمن عن مجيء رجل لك، كانت صفاته كما يوصف خدم الأثرياء؟"

قال: " هذا صحيح."

قلت: " لعله جاء ليخبرك بنبأ سيء عاجل؟"

قال: " صحيح!"

لم يزد، فأكملت:

"إذًا فالأغنياء سيحاولون مرة أخرى إحضار المرتزقة للاستيلاء على الأراضي والمزارع حولهم، وتحويل الفلاحين فيها إلى عبيد أرض. ولعلك تظن أنني سأفعل مثل أبي وأرحل؛ بينما القرية بحاجة لكل يد مقاتلة؟

قال:

"أنت مثل والدك! لا أعني فراره؛ بينما كنا نحتاجه، وزواجه من بلد بعيد؛ بينما أراملنا وأيتامنا لا يجدون من يتكفل بهم. لكنه

كان ذكيا، يجيد معرفة الكثير، ويظن أنه يعرف الأكثر من أقل القليل."

قلت: "إذًا فالأمر صحيح."

قال: "وماذا ستفعل؟"

قلت بحزم: "لن أرحل عن البلد مهما كان."

قال:

"ليت والدك كان مثلك! أنا أثق فيك، وأدرك أنك لن تهرب مثله قبل أن يعود لنا ولدك، الذي لم نره من قبل، ليطالب بميراثه من الأرض، التي حميناها بدمائنا، وحافظنا عليها بعرقنا، فيأخذها جاهزة سائغة، دون دم أو عرق."

قلت مصرا متجاهلا نكأه للجراح القديمة:

"سأقاتل دفاعا عن أرضي وقريتي."

قال لي:

"سأتجاوز عن هذا الحديث، رغم أنني لا أنكر على من يقول إنك ولدت وتربيت بعيدا عنا، فيصعب أن نسميها قريتك. سأدع الأفعال تثبت قولك.. ما كنت أقوله أن والدك كان يظن أنه يعرف الأكثر، مصدقا كل ظنونه؛ لكن بعضها لم يكن مصيبا."

قلت بتوجس: "لا أفهم يا سيدي؟"

قال:

"أنا لا أعرف حتى الآن ما الذي يدبره الأغنياء. كل ما في الأمر أن (نوري) ،وهو خادم في قصر ابن العبدلي، الذي هو رجل واسع الثراء، لم نر منه من قبل خيرا أو شرا، ويعتزل عادة معارك الأمراء، فلا نعرف عنه الكثير، خاصة إنه يعيش منعزلا في قصره، الأشبه بالحصن على ربوة عالية منعزلة قرب الجبل. هذا الرجل – فجأة - أرسل رسله في طول البلاد وعرضها، يستدعي كل أمير، وقائد جند، وزعيم قبيلة، وحتى كبار المماليك والأثرياء. وأرسل بعض الخدم - ومنهم (نوري) - ليجمعوا كل زعيم ذي بطش، يدعوهم ليضيفهم في قصره. وأخبرني (نوري) إنه لم يكتف بزعماء الغرب، بل أحضر ضيوفا آخرين من الإقليم الشرقي."

تعجبت قائلا: " ولم كل هذا؟"

قال:

" لا أعلم، هو يرسل رسائل مختومة، لا يعرف رسله ما تحمله. أما الخدم الهائمون مثل (نوري)، فلم يقل لهم سوى أن يبحثوا عن كل صاحب جند يحسب حسابه "فاخبروه إنني أدعوه لقصري، لأضيفه، ومن يأتي معه، بسخاء في وليمة ليس لها مثيل، عقب صلاة الجمعة القادمة."

قلت: "أي بعد غد؟"

" نعم. لم يرسل هؤلاء إلا بالكاد على الموعد. أما كبار القادة، فأغلبهم بالفعل في قصره أو اقتربوا منه."

قلت: "لكن لماذا؟"

قال الشيخ غلاب:

" لم يعرف (نوري) شيئا. الرجل يحمل لي معروفا قديما، لم أطلب مقابله إلا أن يأتني بأي أخبار مريبة في قصور الأثرياء وأحاديثهم. لذا انحرف عن طريقه وأتاني."

قلت بقلقك

"لكن هذا أمر خطير جدا. لو اتحد أصحاب الجند جميعا مع الأثرياء، فلن يستطيع الفلاحون في أي قرية أو مدينة الوقوف في وجههم."

أكمل ما أفكر فيه بقوله:

" ولو بدأنا من الآن بالاستعداد، وعمل الأحلاف، وتحصين البيوت فسيضيع موسم الزراعة، لنمر بقحط شديد، وجوع أشد."

-"وماذا نفعل إذًا؟"

-" أردت مشورة نائب القاضي، لكن حينما يأتي رسوله سيكون الوقت قد تأخر. لذا فكرت في إرسال شخص لهذا الجمع يتلصص عليه."

أجبت بسرعة:

"لكني لا أصلح لهذا الأمر، فأنا لا أعرف أهل البلد، ولا حتى الطرق والقرى."

قال:

"حسنا الأمر خطير. لو اكتشفوا أمرك، فأنت مقتول، لذا ستتنكر في شكل أمير، أتى لحضور الضيافة، فلن يعرفك أحد وسط الزحام."

سألته بشك: " ولماذا أنا بالذات؟"

قال:

" لكي نصل لمعلومة كبيرة، فلن ننالها إلا من الكبار. والكبار لن يتحدثوا إلا لمن هو مثلهم، وعندي زي مزود بالدروع، استعرته من صديق لي، يليق بأمير، لكنه لا يناسب إلا رجلا فارع الطول."

قلت مجادلا:

" يوجد في القرية سبعة آخرون من فارعي الطول. مثلا (عطية) وهو الأبرع في ركوب الخيل والمبارزة، و(حسن السماك

) وهو حلو الحديث، واسع الدهاء، حاد السمع، يستطيع إخراج الأنباء من الأفواه المغلقة."

قال:

" (حسن) له زوجة وأولاد، و(عطية) يسعى على والدين عجوزين."

أكملت بحنق:

"و(إبراهيم) له أخوة يحزنون عليه، أما (عبد الشهيد ابن سمعان) فخسارته ليست جسيمة، ولا أهل له أو ولد، ولا حتى جيران يطيقونه!"

أدرك الرجل زلة لسانه، فصمت، ولم يرد، فقلت:

"أريد رمحا!"

نظر لي بدهشة وسأل: "ماذا؟"

قلت بإلحاح:

"أريد رمحا. أنا لست بارعا في المبارزة بالسيف، ولم أرث عن والدي مهارته في الرمي بالسهام، ولا أجيد إلا القتال بالرمح. وإذا كنت ذاهبا لألقي نفسي بين ذئاب لا ترحم، فليكن معي سلاح أجيده، وأنا أجيد الرمح."

تنهد في ارتياح، وقال:

" ليست مشكلة. ليس رمحا فحسب، بل أفضل رمح في البلدة كلها! هذا الذي اشتراه ابني من زمام الشيخ عصفور، وهو رمح ممتاز جدا، وقوي، ويصلح لرجل طويل مثلك."

قلت مكملا:

"وأريد من يرعى أرضي في غيابي، وسأدفع له الأجر. وإذا لم يكرمني الله بالعودة سالما، فإن وصيتي أن تذهب الأرض لوريثي الشرعي الوحيد، ابن عمتي (سعد الكلاف)، بدون جدال أو نزاع."

قال مندهشا:

"ألست تكرهه كوالدك ؟"

قلت:

"بلى. لكني لا أريد مقابلة ربي وحقه الشرعي معلق في رقبتي."

قال:

"دعك من هذا التشاؤم، وخذ الزي والدروع، وهذا الكيس من الذهب لنفقاتك، وليس عليك أن تخشى من صرف بعضه أو كله. لو أتت الأنباء الطيبة، فلن يهتم أحد بأين ذهبت بعض الدنانير."

قلت:

"لا أفعل هذا لأجل بضعة دنانير. إنما لأجل ما هو أغلى."

هز رأسه في تفهم يشوبه السأم..

"حين تعود ستكون من أبناء القرية، وسنعترف لك جميعنا بهذا."

هززت رأسي نفيا، وقلت:

"لا أفعل هذا لأكون من أبناء القرية، وإنما لأنني من أبناء القرية."

تجاهلني كعادته، وهكذا وجدت نفسي بدأت اليوم مرتديا أسمالا قذرة، وأحمل فأسا يأخذ من طين الأرض لينثر على جسدي، وأنهيته مغتسلا وأنا أرتدي زيا رائعا ثمينا، مزودا بدروع حمراء منقوشة، يملأ قلب مرتديه بالرفعة والقوة، وأحمل رمحا ممتازا باهظ الثمن، وشيخ البلد بنفسه ينثر عليّ من عطره الخاص، ويقودني لحظيرته، لأنظر مبهورا لهذا الجواد البديع الذي يخفيه عنا. جواد أصيل نبيل يليق حقا بأمير مثلي!

لكن شيخ البلد تجاوزه وهو يقودوني نحو جمل ضخم ويقول:

" هذا الجواد، الذي يعجبك، لا يصلح لسفر طويل، ولا نريد أن يعرف الناس أنك أتيت من مسيرة أقل من يوم. أنت تجيد ركوب الجمال، أليس كذلك؟"

بالطبع كنت أجيدها. لو لم أركب الجمال مع والدي، أثناء فرارنا في صحراء الشرق المهلكة، هربا من الزرقاء بعد سقوطها، لما بقيت على قيد الحياة. لكن ركوب الجمل مرهق، دعك عن كونه مرعبا لمن لا يجيده، مثل أكثر الفلاحين. الأهم هو أن الجمل بطيء، بالنسبة للخيول، ولو اضطررت للهرب، فسأختار الجواد السريع، وليس الجمل القوي الذي يقطع مسافة أطول لن أعيش لكي أكملها!

لكن إقناع الشيخ (غلاب) ليس أمرا سهلا أبدا! كما لم أقنعه بأن يرسل معي شخصا آخرا، لتكون فرصة عودة أحدنا بالأخبار أكبر وقال:

" إذا اكتشفوك، فلن ينفعك سوى دابة البراق ذاتها! عندهم من الخيالة البارعة، والخيول السريعة ما يفوق قدرتك. لا فرق بين جوادي الثمين وجملي البطيء! والرجلان يكشفان بعضهما أكثر من الرجل الواحد! ستكون وحدك ذائبا وسط الحشد، لا تتكلم، ولا يسمع صوتك فلا ينتبهون لك."

وهكذا سلمت أمري لخالقي، وتوكلت عليه، وحملت متاعي وزادي القليل، الذي وضعه الشيخ (غلاب) في أكياس كبيرة تسع أضعافه، وحملت كل ذلك على راحلتي، وأنختها لأركبها، فإذا بالشيخ يخرج مترددا من حزامه صرتين أخرتين محشوتين بالذهب، بهما ما يفوق ثمن أرضي الصغيرة، التي أنكرها علي

وجادلني فيها طويلا. ولا أستطيع أن أنكر عليه هذا الأمر، فقيمة الأرض ليست في ثمنها، وإنما أنت تخلق من ترابها وتنمو بثمارها، وتسكن على سطحها، ثم تدفن في جوفها. فكل حياتك أنت ومن حولك رهينة بالأرض كما كان والدي يقول لي وهو يحثني على العودة لأرضه بعد موته.

وانطلقت، وقد أطبق عليّ الليل، مهتديا بالنجوم، التي أجدت قراءتها على يد دليل ممتاز، قادني في رحلتي الطويلة من الحاضرة إلى هذه القرية، عبر دروب صحراء الغرب المخادعة، بعيدا عن أيدي جامعي الضرائب والجباة من أتباع أمراء المدن. وتعلمت حينها أن أسافر ليلا دوما. فرغم كثرة السباع في الليل، إلا إنه أكثر الأوقات أمنا للمسافر الوحيد، لأنه يستره من أصحاب البطش.

وعند الفجر، متبعا أوامر الشيخ (غلاب) ، درت حول الجبل، متخذا الطريق الطويل، حتى لا يعرف أحد من أي طريق جئت. وقد أعطت الحيلة أثرها، فبدا عليّ من غبار الطريق، وإرهاق سفر الليل دون نوم، أني آت من مسيرة عام.

كان مشهدا عجيبا،، لم أر مثله في حياتي. قد يكون كما وصفه فيما بعد (ابن البصري) أشبه بمعسكر جيش زاحف. عشرات الخيام الضخمة ذات ألوان بهيجة، وبينها أقوام كثر، أغلبهم يلبس

زي القتال، ومدججون بالسلاح والدروع، مثلي، ويتجول بينهم غلمان، يحملون الطعام والشراب.

أتاني أحدهم ليضم جملي لحظيرة مهولة، بعد أن أعلمني كيف أجده فيها، وكيف استرجعه منها، فنفحته دينارا كاملا. ولما رأيت الحبور في وجهه، تشجعت، وسألته:

"أخبرني فيم يريدنا سيد القصر؟"

قال لي:

" لا أدري يا سيدي، لقد أرسل لسيدي، يستأجر منه كل خدمه وعبيده، بمال كثير، ويدعوه لهذه الوليمة."

قلت ملوحا بدينار ثان من ذهب الشيخ (غلاب):

"ألم يعرف سيدك سبب الدعوة؟"

قال بلهفة:

" لا، لكني سمعت من خدم آخرين أنباءً عظيمة."

دسست الدينار الثاني في يده، وسألته عنها، فأجاب:

" يقولون إنهم سيناقشون أمرا، يحدد مصير البلاد كلها، والبعض يزعم أنهم لا يعنون الإقليم الغربي فحسب، بل كل البلاد. وواحد من زملائي يظن أنهم سيتفقون على تقسيم الإقليم بينهم، لينهوا حروبهم إلى الأبد."

أقلقني حديثه، لأن تقسيم البلد، وإنهاء الخلافات بين القادة والأثرياء يعني حلفا ضخما من كل ذي نفوذ ضد كل مسكين. ومن ناحية أخرى لا أظن أنهم اجتمعوا لينصبوا حاكما يوحد البلاد، فهذا أبعد ما يكون عن أطماعهم. ولو حدث، لكان هذا الجمع في الحاضرة، وليس في قرى الغرب وواحاته المتناثرة.

واختلطت بالجموع، أتسمع سمرهم، دون أن أحاول العثور على مكان للنوم، رغم ما أصابني من تعب، خشية أن يستصغرني الناس إذا وجدوني أنام وحيدا، بلا خدم أو حشم. فحتى الآن، أعطتني ملابسي مفعولها القوي، ونظر لي الجميع بهيبة واحترام.

ولم أستطع النوم إلا بعد صلاة العشاء، حينما أصبح المسجد خاويا تماما، (وللأسف كان شبه خاو أثناءها!)؛ لكن خلال هذا الوقت علمت بالكثير.

علمت بوجود ضيوف من الشرق على قدر كبير من الأهمية، كما إنني سمعت أحد الأمراء الكبار يقول لند له إن رسالته كانت تحمل وعدا طيبا، لم يفصح عنه، وآخر تحدث عن أمر ما حدث في العاصمة، بدا أن الجميع يعرفونه، وأنه شديد الخطر.

وأخذت أحاول جمع القطع مع بعضها، فلم أجد ما يريحني.. الوعد الطيب قد يكون أرضا تنزع من أصحابها، وما حدث في العاصمة قد يكون حرب جديدة ثارت على حاكمها الطاغية، القائد الأسود. فحاضرة البلاد تحولت، منذ زمن بعيد، لأسوأ

مكان على ظهر الأرض، بسبب القتال المتكرر فيها وعليها، وربما كان أمراؤنا ينوون الانضمام لهذا الجانب أو ذاك، ليجروا الغرب المسالم لتلك الحروب المهلكة مرة أخرى.

كان والدي يحكي لي إنه منذ انتهت الفتنة العظيمة، التي أطاحت بالملك، لم يدخل حكام الغرب في صراعات خارجه، فتمتع بسلام وأمان أكثر من غيره، يرجع أغلبه لغلبة الصحراء، التي تفصل بين قرانا وواحاتنا، إلى أن قرر الأثرياء الاستيلاء على كل أرض تزرع، واقتسامها بينهم، ليدور صراع على الحياة نفسها، وليس على مجرد كراسي الحكم، كما في الحاضرة وغيرها.

ولكن حتى في تلك الأيام السوداء، لم يخرج المحاربون نحو الشرق، أو يأتوا بجيوش الشرق لنا.

وجلست متربصا في المسجد، انتظر انصراف الناس للنوم، فلاحظت رجلا بهي الطلعة، ثابت الجنان، صموت، يرقبني بعض الوقت، قبل أن ينصرف لحاله، فسألت عنه، لأعلم أنه ابن العبدلي، صاحب الدعوة العجيبة، التي استطاع بها حشد كل هؤلاء الفرقاء، وأقنعهم بالمجيء، لا أدري كيف!

كان نومي بالمسجد من حسن الطالع؛ رغم إنني أذكر أن شيخ الكتاب كان ينهانا عن مثل هذا الأمر، ويقول مكروها. لكن هذا النوم منحني سبقا في الصباح الباكر، إذ جلست عقب الفجر في الصفوف الأولى، لا يستطيع جسدي المنهك

مغادرتها، فأصبحت في مكان ممتاز، حيث احتشد الكبار، يعقبهم الحراس، الذين أبعدوا البقية قسرا، لكنهم وجدوني (أنا الذي لا يزيد عن قاع الحثالة بين الحاضرين!) سبقتهم للمكان، جالسا جوار المنبر، ولعل ردائي أرهبهم، فلم يقترب مني أحد!

كنت محميا بستار قوي من جهلهم بشخصي، وهو ستار أجلسني وسط ثلاثين من أقوى رجال البلاد وأشدهم علوا. يستطيع الواحد منهم - بكلمة واحدة - أن يدمر كل من كنت أخشاهم من جامعي الضرائب، وقطاع الطرق، وقادة الجند، وشيوخ البلد! كل من يمثلون لي كابوسا، سيرتجفون رعبا لمرأى واحد فقط من تلك الزمرة التي أجالسها كتفا بكتف!

وسرعان ما صعد الإمام على المنبر. كان مرتجفا، مرتبكا، وخطب خطبة قصيرة للغاية، ليس لها معنى. ولو إنني كنت مكانه، أخطب في عصبة من الفجار ذوي البطش، الذين لا يرجى منهم رحمة، فماذا أفعل؟ أأنهاهم عن منكر يفعلونه بلا خشية، أم آمرهم بمعروف يبغضونه بلا حياء، أم لعلي أحدثهم عن أحكام الصلاة، التي لا يؤدونها غير هذه المرة!.. ربما ذكرت بعض أحداث الصحابة، وقصص الجهاد، فيتهمونني بالتحريض على محاربة الفرنجة والأهبال، الذين أصبحوا حلفائهم. لا أستطيع في مثل هذه الخطبة أن أقول اتقوا الله، لأتقي أذاهم!

ونزل الإمام، كما صعد، مرتجفا، ليصطف خلفه حكام البلاد، والقابضين على شئون العباد. لم أر في حياتي صلاة جمعة أقصر وأثقل من هذه!

بعد الصلاة، خرجنا نبغي الوليمة. فوجدت الموائد المفروشة مكان الخيام، وعليها اصطفت كل ألوان الطعام والشراب بلا استثناء. أراهن إنك لو سألتني عن أي صنف من الطعام، حلاله وحرامه، لذيذه وسقيمه، رخيصه وغاليه، لوجدته على تلك الموائد!.. ورغم ذلك، لم تكن لنا، بل كانت للجند والخدم ممن صاحبوا الزعماء، أما أصحاب المقامات الرفيعة (مثلي!)، فكانت موائدهم داخل القصر، حيث نصبت في الفناء أفرشة أخرى، أفخم حالا، تطغى روائحها البعيدة عن تلك الموائد القريبة، المقامة بالخارج.

دخل الفناء كل من أسمى نفسه زعيما، وهو أمر مذهل أن تجد لإقليم واحد، من أقاليم البلاد الثمانية، كل هذا العدد من الزعماء! أنى لي أن أحصيهم!.. لربما كانوا خمسمائة، توزعوا على الموائد المختلفة، لكني لم أتبعهم. إذ لاحظت حفنة دخلت إلى داخل القصر، فأدركت أنه يوجد هناك مائدة ثالثة للمصطفين الأشرار، وعزمت على أن أنضم إليها، لأنه لو كان هناك نبأ هام، فسيكون بالداخل.

لكن مضيف القصر أوقف نواياي، إذ وقف على رأس هذا الحشد، وقال بصوت جهوري:

" أرحب بكم جميعا في قصري، وأرجو أن يعجبكم طعامي، لكن الآن قبل الطعام، أريد منكم أن تتعرفوا على صاحب الدعوة الحقيقي، وهو صديق قديم لي، طلب جمع كل وجهاء الغرب، لكي نجتمع على قلب رجل واحد في أمر جلل."

وأفسح المجال لشيخ وقور، ربما كان في الثمانين من عمره، يستند على عصا من خشب أسود لامع، لم أر له مثيلا من قبل، إلا مع بعض التجار الآتين من أقصى الجنوب، كانوا قد وقعوا في أسر القراصنة، وبيعت تجارتهم في الزرقاء، قبل سقوطها بقليل، بأثمان باهظة.

تكلم هذا الشيخ الوقور بصوت منخفض منهك؛ بينما إلى جواره شاب صغير - يبدو كما لو كان ابنا أو حفيدا له - يردد كلماته بصوت يهز المكان.

"بعضكم يعرفني؛ لكني جئت من أقصى الشرق، لذا فلمن لا يعلم، أنا شيخ بني الأسود."

وملئني الرعب! القائد الأسود بنفسه! لا بد أني هالك لا محالة، بل لابد أن كل القرى هالكة لا محالة.

ثم أيقظتني كلماته..

"كلكم سمعتم عن ابني، الذي يلقب نفسه بالقائد الأسود، هذا العاق، الذي طردته من القبيلة، ليزداد خطره، حتى إنه منذ أيام أعلن نفسه في العاصمة ملكا. لقد قطعت كل تلك الرحلة الطويلة بحثا عن حلفاء يعينوني عليه، لأكف أذاه عن الشعب."

هنا تدخل مضيفنا قائلا:

"أتينا جميعا، ليتفق الإقليم الغربي على كلمة رجل واحد. إما أن نمضي مع الأسود الكبير جميعا، لاتقاء شر القائد الأسود، وإما أن نجتمع على رفض الحرب، ونتحالف مع القائد، ونقبل به ملكا ينهي عقودا من الحروب في بلادنا بصفوف موحدة، لنربح منه أكثر، ونتقي من عدوه الخسارة الأكبر، التي سيتحمل أغلبها السكان المساكين.

لكن الآن، بعد تحية شيخ شيوخ بني الأسود، لنتناول الطعام، وليتفضل معي كبار الوجهاء لمائدتي الخاصة بالداخل."

وتقدم بعض الرجال يعلنون عن أنفسهم، منهم من هو من زعماء الغرب المشاهير، ومنهم من هم من حلفاء بني الأسود في الشرق، وبين الأخيرين، انتبهت لرجل شديد البياض، يرتدي حريرا مزركشا، إذ سمعته يعلن عن نفسه:

"الأمير الأبيض حاكم الزرقاء"!

الأمير العظيم، حاكم الميناء الأكبر في بلادنا، أتى بنفسه، عبر كل البلاد من طرفها على الساحل الشرقي إلى هنا! لابد أن

قلوب الناس ارتجفت هيبة للأمر، لا يدركون أنه مجرد ألعوبة لا قيمة لها. فالقراصنة الذين استولوا على المدينة، واتخذوا ميناءها قاعدة لهم، أمّروا عليهم أميرين من الفرنجة، الذين سقطوا أسرى في أيديهم، ويقال إنهما شقيقين من أبناء الملوك، فقط ليكونوا واجهة جميلة، تحفظ حقوق المدينة لدى باقي الأمراء من جيرانها.

ولكم تدفقت الكراهية في قلبي تجاه هذا الأمير الأبيض، رغم إنني أكثر من يعرف أنه بلا حول ولا قوة. لكن الرعب الذي شاهدته حين سقوط المدينة، ترك في نفسي ندوبا لا تندمل.

كان المزيد من الأمراء يتقدمون معلنين عن أنفسهم، فكان المضيف يشير إلى بوابة القصر اليمنى، حيث دخل الأسود الكبير حينا، وإلى بوابة يسرى أحيانا، هي -على الأرجح- لمن يظنهم مدعين.

وأصبحت في حيرة من أمري، فلو توجهت للباب الأيسر، فلن أبتعد فقط عن الأنباء الحقة، وإنما أهدد بكشف أمري، حينما أجلس وسط جمع صغير من الأمراء الحانقين، الذين يظنون أنه قد تم احتقارهم، بينما البوابة اليمنى مغلقة للكبار جدا فقط.

لكن حدث ما طمأن قلبي، إذ تقدم نائب القاضي معلنا عن نفسه (كان رجلا في الأربعين، اسمه شريف بن الأشرف، وليس الحسيني كما زعم لي محمدين!) هذا الرجل يقود وقت السلم

خمسمائة رجل، يزيدون وقت الحرب لخمسة آلاف، وله حلفاء كثر يمكن أن يمدوه بالمزيد.

لكنه إذ أعلن عن نفسه باللقب الذي يعرفه الجميع، زعيم خدام الضريح، وجهه المضيف للقاعة اليسرى. بينما أتى في عقبه زعيم أسود الجبل، فأرسله الساذج لليمنى، وأسود الجبل ما هم إلا جماعة من قطاع الطرق، الذين لم يجدوا ما يكفي من تجارة لسرقتها، فتحولوا لمرتزقة يؤجرون سيوفهم لمن يحتاجها من أصحاب القرى.

وإذ رأيت هذه النكتة تقدمت واثقا لألحق بهم، بينما كان المضيف قد هم بالانصراف، فدلفت الباب الأيمن خلفهم، وارتبكت إذ وجدت المضيف يرفع لفمه كوبا من الماء يرطب لسانه، الذي أحرقه الحديث الطويل.

شيخ الأساودة جالس، وحوله زمرة من رجاله، ينتظرون أمرا ما، وخلف ظهري احتشد عدد لا بأس به من الصغراء، الذين ظنوني متسللا، وأحبوا أن يتبعوني. لكن ما أربكني حقا، كان الحرس، الذين امتدت أيديهم إلى السلاح، يرمقونني ويتأملون رمحي في تحفز. ليس أمامي إلا منفذ واحد؛ أن أقلد من سبقني، وأعلن عن نفسي، فلان زعيم قبيلة كذا، لكن يجب أن أنتقي اسما مخيفا فخما له رهبة، لأقنع هذا المضيف الساذج.

لأقول مثلا إنني الأحمر، زعيم قبيلة الغيلان. اسم مخيف، ولائق بدروعي الحمراء، ونقش الغيلان عليها. الأحمر زعيم قبيلة الغيلان.

وفي ارتباك دققت الأرض برمحي، كما يفعل جامع الضرائب وسط سوق القرية بعصاه، حينما يعلن عن الزيادة الجديدة.

وابتلعت ريقي بصعوبة. ماذا يخيفك؟ الأمر سهل! فقط لتقل الأحمر، زعيم قبيلة الغيلان.. الأحمر زعيم قبيلة الغيلان! ليست جملة صعبة لهذا الحد.

وخرجت السيوف مشهرة نحوي، فاندفعت أقول بصوت صارم "القبيل زعيم الغيلان الحمر!"

تبا أي اسم سخيف هذا؟

لكن ما حدث عقبها أثبت أنه ليس بالاسم السخيف.. بل الخطير.. ربما أخطر مما حلمت بكثير!"

(٣)

القبيل زعيم الغيلان الحمر

دوى الصمت في أذني! صمت أشد عليّ وطأة من نعيق ألف غراب! وامتلأ قلبي بالرعب، حين رأيت الناس انقسمت لفريقين: فريق مذهول لما سمعه مني، وعلى رأسه المضيف، الذي ترك كوبه يسقط على الأرض متهشما، والأسود الكبير الذي انتصب جسده المحني فجأة في فزع. وفريق ثاني جله من الصغار خلفي، والحرس أمامي مندهش لاندهاش الكبراء، ومتربص، ليرى ما يكون من أمرهم.

ولا ثالث لتلك الفرقتين، إلا رجلا أحمقا مسكينا، لم يترك الرعب في قلبه غير مكان ضئيل في عقله، لا يستطيع التفكير إلا في أي مصيبة تلك التي أوقعت فيها نفسك يا (عبد الشهيد)؟!

استمر الأمر مجمدا على هذا الحال بضع لحظات، لكني حين أدركت أن الجند لن يقتلوني، أو على الأقل لن يفعلوها الآن، اطمأن قلبي بعض الشيء. لكني بقيت في مكاني، أنتظرهم. إلى أن كان شهاب الشركسي - حاكم مدينة وقلعة ساوة - هو أول من أخرج نفسه من الدهشة، فقال بصوت متحشرج:

"ظننتكم ذهبتم؟"

ذهبتم؟ ترى ماذا يعني؟ أيعني أن تلك الغيلان الحمر هلكت، أم رحلت، أم اختفت؟ لذا قررت الالتزام بردود قصيرة غامضة، فلم أقل سوى:

"عدنا!"

قلتها بما بدا لهم ثباتا وجرأة؛ لكنه كان في الحقيقة تجمدا من الخوف، يغلفه خداع يائس، يكافح لأجل الحياة.

سأل رجل لا أعرفه: "كم عددكم؟"

رددت: "سبعة!"

وسكت. لم أقل سبعة آلاف، أم سبعة أشخاص، فقط قفز الرقم لذهني، ربما لأن عدد الغيلان المنقوشة على كل درع من دروعي سبعة.

وهنا نطق الأسود الكبير بما أراحني:

"هم دائما سبعة!"

لم أفهم، لكني ارتحت قليلا، وتشبثت بثباتي الظاهري أكثر.

سألني الأسود الكبير:

"نعرف أين كنتم وقت الفتنة الكبيرة، فيا ترى في أي جانب ستكونون هذه المرة؟"

قلت: " في الجانب الصحيح!"

لم يعجبهم ردي؛ لكنهم لم يناقشوه، ومضوا جميعا نحو مائدتهم. وأكاد أقسم إنهم كانوا ينظرون لي نظرة خوف!.. هم الجبابرة يخافون مني!.. تبا!.. ترى من هؤلاء الغيلان الحمر؟

وبينما ندلف لحجرة الطعام، قال الشركسي:

"ربما كان كاذبا؟"

لم أفهم أنه يقصدني، إلا حينما رد عليه الأسود الكبير:

"أي أحمق سيزعم إنه من الغيلان الحمر، إلا إن كان من الغيلان الحمر!"

بدا لي رد الأسود مبتهجا بعض الشيء، كأن ظهور تلك الغيلان قد غير حساباته للأفضل. أما مضيف القصر، فلم يخرج بعد من صدمته، ومازال وجهه كمن رأى الموت يطلبه، وعيناه مثبتتين نحوي، وأزعم إنه يطيل النظر لذلك النقش على دروعي.

الوحيد الذي بدا متشككا في أمري، الأمير الأبيض الإفرنجي اللعين. كان ينظر لي بمكر، ويبتسم، بينما الباقون - بما فيهم الشركسي الجلف فظ اللسان - بدوا يهابونني، ويسلمون بأمري.

لكن أمري هذا سرعان ما توارى حينما بدأ النقاش. ففجأة، اندفع ابن عامر - أقوى رجل في الغرب، وسيد الثغر الكبير – بقوله:

"لماذا أتيت بكل أولئك الرعاع في الخارج يا ابن العبدلي؟"

رد ابن العبدلي:

" يا أبا وكيع، هم لا قيمة لهم إن اتفقنا على رأينا، سيطيعوننا بلا مناقشة، ولكن تحت كل يد منهم بضع مئات من الجنود، وبعض الحلفاء الصغار. فلو أرضيناهم، وحشدنا كل من معهم معا، لمنحونا جيش كبير، نحن في أشد الحاجة له."

قال ابن عامر بلهجة صارمة:

"فقط لو حاربنا؟"

رد ابن العبدلي:

" وحتى لو انضممنا للقائد الأسود، فكلما كان موقفنا أقوى، استطعنا أن نفرض عليه ما نحب من مكاسب."

بدا الضيق على وجه الأسود الكبير، لكنه لم يعلق. وفي الحقيقة فقد دهشت لموقف هذا الرجل، نعم سمعت أنه نبذ ابنه منذ سنوات بعيدة، وطرده من القبيلة؛ لكن هذا الابن بين قوسين، أو أدنى، من أن يصبح ملك البلاد كلها، وحتما حاول من قبل

استمالة قلب والده، الرجل القوي، الذي تنتفض بأمره قبائل بني الأسود كلها، وما أدراك ما قبائل بني الأسود!

ما أن أنهينا الطعام، الذي لم أذق - ولم أتصور أن أذق - ما هو ألذ منه (حتما يليق بأن يكون آخر زادي!)، حتى استأنفت المناقشة من حيث انتهت.

إذ انبرى ذلك الرجل المهيب - الذي لا أعرف اسمه – وقال:

"ولماذا نحارب الأسود؟ هل نخاف من جبروته؟ أليس أفضل من الفوضى التي تغرق كل البلاد؟ لا أحد يأمن على نفسه، حتى لو كان محاطا بالحراس المدججين بالسلاح، لأن هؤلاء الحراس ربما ينقلبون عليه، فلا يوجد من يردعهم أو يعاقبهم على فعلتهم. البلاد بحاجة ماسة لملك، وملك قوي. ولا يوجد بيننا من يصلح، أو يملك تلك القوة التي ينازع بها الأسود في مبتغاه."

قال شاب جلِد، أقسم - مطمئنا - أن ضربة يده قادرة على فلق الحجر:

"كلكم يعلم أنني رجل الأسود في الغرب، لأنني أملك من الشجاعة ما يجعلني أعلنها، بينما الكثير منكم يراسله سرا، في الظلام، وينتظر جيشه، لينضم له، منقلبا على إخوانه. لا أمل ولا نفع من قتاله، ولا هدف من معاندته، سينتصر حتما، وسيصبح ملك البلاد شئتم أم أبيتم، ولا جدوى من هذا الاجتماع!"

قال ثالث بغضب " لن أسلم نفسي للقائد الأسود أبدا. سيقتلني كما فعل بأهلي في العاصمة. لقد فررت لهنا، لأن الغرب هو المكان الوحيد، الذي لم يمد له نفوذه. وأقول لكم: لا تأمنوا له. سيمزقكم عند أول فرصة سانحة، لا فارق عنده بين من حاربه ومن حالفه، ولكم في (ميت الدم) عبرة!.. ألم يهدمها على رؤوس أهلها بعد أن أعطاهم الأمان؟ وسيوزع أرضكم وأموالكم على حلفائه الأقوياء من الفرنجة والأهبال، ليلحق بكم جوار الذل والمهانة والخيبة، وزر الخيانة، وتسليم البلاد لأعداء الدين."

مرة أخرى تدخل ابن العبدلي، ليعيد ما قاله من قبل:

"لن نحارب، أو نعاهد الأسود إلا على قلب رجل واحد. لو فعلنا هذا، فسنحصل على الأمان والمكاسب الكبيرة، سواء حالفناه أو حاربناه. فقط لتتفقوا على قرار واحد."

قال لازوردي، وهو واحد من كبار أمراء المماليك، وسبحان من ملكه ثمانية آلاف مملوكا، بعد أن كان هو نفسه مملوكا، يباع ويشترى!

"لا أمل، ولا فائدة من قتاله. سينتصر حتما، ولسنا ندا لجيوشه، أو جيوش حلفائه الأهبال. لماذا نقف في وجه العاصفة العاتية، بينما يمكن أن ننحني لها حتى تمر، وكل منا متربص في قلعته؟"

لا أدري لماذا أحسست أن عيونهم تعلقت بي، بعد أن قال كلمته.. لعلهم ينتظرون رأيي، وربما خشية أن يفضحني الصمت، الذي أستتر به، أو لأن الفضول كان يقتلني بهذا السؤال، أو لخشيتي أن أفتي في هذا الشأن الخطير، لتحمِّلني كلمتي وزر مصائر الألوف، فقلت نازعا كل سلاح من كلماتي، ومغيرا مجرى الحديث:

"لا أفهم لماذا يعادي الأسود الكبير ابنه ؟"

وهنا، كأنني فتحت بابا للجنة، تسابقوا عليه! واحد يصرخ:

"نعم نعم! هو ابنه فما أدرانا أنه سيغدر بنا ؟"

وآخر يهتف:

"هل سيرسل لنا جنودا تساعدنا ؟"

وتجرأ ثالث:

"ماذا بعد موته ؟ هل سيبقى الأساودة على حلفهم معنا ؟"

ورابع، وخامس يتدافعون، لا يكادون يتركون فرصة للرد. بل لعلهم لا يريدون ترك فرصة للرد.

ظل الرجل صامتا، حتى فرغ المحتجون من ضجيجهم، ثم تكلم بهدوء أخرس الباقين فورا:

"أنا لا أطلب منكم محاربة ابني لأجلي. وإنما أناشدكم الوقوف في وجه طاغية، لأجل أنفسكم وأهلكم. كلما قتل ولدي بريئا، أحسست بدمه معلقا في عنقي، وحينما ينصب نفسه ملكا، فسيجتاح البلاد، ويهدر دم العباد، ويدخل في أراضينا الأغراب، وكل هذا الذنب معلق في عنقي، لأنني من تركته يبطش، ويفلت دون عقاب، واكتفيت بطرده من القبيلة، وأشفقت عليه من القتل شفقة الأبوة اللعينة. لكن من دفع الثمن كان شعبا مغبونا، مغلوبا على أمره. وها أنا أقص عليكم جرائم شبابه، وهو تابع لا متبوع، لتحسبوا ما سيكون عليه جوره، حين يملك رقاب العباد في أنحاء البلاد."

(٤)

حكاية القائد الأسود

قال الأسود الكبير:

ربيت أولادي على خير ما يفعله بنو الأسود. نحن الأساودة نربي أبناءنا على الفروسية، والمبارزة، والكرامة، والانتماء للقبيلة، والفخر بها على كل ما عاداها. كنت في جاهلية الشباب، ولم تخبرني السنون بعد، إن ما ورثته عن آبائي ظلم، لأن الميراث الأعظم أتى من ظهر واحد، ثم توزع على الأمم. لكني علمت بهذا بطريق مؤلم.

أنشأت أبنائي على إن بني الأسود خير مما عاداهم، فنما في نفوس بعضهم إنه خير ممن سواه، وأن بني الأسود لا يستوون مع البشر في عصمة الدم.

كنت عائدا من حاضرة البلاد، حيث كنت، ورجالي، نقاتل دفاعا عن حقوقنا في حكم البلاد، وعدت بعد أن أدركت أن الفتنة ستستمر - حتما - عقودا طويلة، وأن لا أمل من محاولة السيطرة على تلك المدينة المجنونة، وباقي البلاد بالقوة، لأن

حلفاءك سينقلبون عليك، بمجرد أن تقضي على أعدائهم، وقبل أن تجهز على باقي أعدائك.

لكنني رغم المعارك التي حاربتها، والجيوش التي هزمتها، والخيانات التي نجوت منها، كنت دوما متأكدا أن الشرق لي. هو خالص لي، مستكين، يسلمني أمره، أنا القابض على أمور الأساودة، الممسكين بأرواح الخلائق في كل الشرق. لذا كانت صدمتي مهولة، حين نظرت أمامي، أتأمل تخوم الإقليم، فالتقط بصري - الذي كان يوما حادا - مشهد حشود مجتمعة فوق الجبل، كأنما كانت تنتظرني!

إذًا، فالشرق قد جن جنونه، ويريد أن يتملص من قبضتي! أنى يكون هذا!

وحتى إن أصابهم الجنون والحمق، أليس أهلي وعشيرتي هنا، ليردوا لهم عقولهم؟.. أتراهم خانوني، كما خانني غيرهم؟.. كيف وابني، الأسد الجسور فخر قبائل الأسود، على رأسهم من خلفي؟

تقدمت نحو طلائعي، يتبعني الخدم والرفاق، وهتف بي واحد ممن أثق فيهم:

"لا تغضب نفسك يا مولاي! مرنا نسحقهم ونهدم الجبل على رؤوسهم. فربما طالت غيبتك، فراودتهم أنفسهم مراودة لن يعرف لمثل الندم عليها ندما!"

قلت بغضب:

"إنه شرقي يا حسام، شرقي! ملكي، لا ينازعني فيه أحد؛ فكيف يجرؤون؟"

قال:

"إذًا، فلا تخاطر بنفسك، ومرنا نبيدهم."

قلت:

"الأمر ليس كذلك. يجب أن أعرف من، وكيف."

اندفع الرجال خلفي يثرثرون بأنهم سيجيبونني، وينتزعون الكلمات من بقايا جثثهم، لأعرف ما أشاء. لكني كنت مصرا، فتجاهلتهم، إلى أن وصلت للطلائع الذين توقفوا ينتظرونني. وأحسست أن أمرا عظيما قد وقع عليهم، فدب في قلبي هاجس مريع، فبادرتهم بالسؤال المخيف:

"أهم الأهبال؟"

نفوا سريعا، دون أن يفصحوا. فلم أطق صبرا، واستللت سيفي، وصرخت بقائدهم:

"من هم وإلا قتلتك؟"

ظل صامتا متأرجحا، كأنما ينوء تحت حمل ثقيل، فتدخل أحد أتباعه بقوله:

"هم خارجون."

قلت:" هم ماذا؟"

قال:" متمردون هاربون من سيدي الأسود الصغير."

قلت:"هل تعقل ما تقول يا رجل؟ نحن في الشرق، موطن قبائل بني الأسود، ومستقر ملكها، ولا يوجد شيء اسمه خروج علينا أو تمرد."

قال:

"مرنا نفتك بهم يا سيدي."

لكنني لست كذلك. لست من يأخذ الأمور على علاتها، فأندفع لما لا يمكن الرجوع عنه أو تداركه. كان عمي يقول لي دوما إنني أجيد النظر لما وراء الظواهر، وأخبر البواطن، ولذا فضلني على أبنائه، وأخوتي الأكبر، لأخلفه في المشيخة الكبرى لقبائل الأسود. لو لم أكن كذلك، لما عدت ذاك اليوم لموطني، ولظللت أحارب ثلاثة عقود، بحثا عن سراب النصر، القريب دوما، والهارب دوما. أي رجل غيري كان سيظل في حرب أبدية، مغترا بانتصارات متوالية، ومدفوعا بحنق خيانات متتالية، حتى يفنى جيشه رجلا بعد رجل.

وحينما نزعت نفسي من سراب النصر، عدت لأجد كابوس التمرد!

أفي أرضي أنا تخرج الناس؟ أتشق عصا طاعتي؟ الفتك بهم وتمزيقهم اليوم لا ينفع. عصا الطاعة إن شقت يوما، لا تلتئم أبدا.

لم يكن هناك منفذ يجده عقلي، إلا أن أنهي اليوم دون قتال، وأعيد الغنم الشارد لحظيرتي، بعد أن أتاها راعيها الكبير، يصلح ما أفسده الصغار، ويحاسب هذا الذي تركته خلفي، فخاب. حتى لو كان حسابا وهميا أمام الناس فحسب، لمجرد أن أوهمهم أنهم لم يثوروا عليّ أنا، شيخ الشيوخ، وإنما على ابن غر ساذج لم يكتسب بعد حكمة الكبار أمثالي. كظمت غيظي وأنا أرمق الحشد، واستعددت لأقلب الأمر لصالحي، فقلت لهذا التابع:

" لم ثاروا؟ ومن قائدهم؟"

صمت الرجل مبهوتا، كأنما سألته أن يأتي بالشمس من المغرب، فنظرت لقائده، الذي أحنى رأسه وصمت، كأنما يظلله العار. وأخيرا تكلم التابع متلعثما:

" هم رعاع. خرجوا ظنا أن مولاي ذهب وابتعد عنهم."

قلت بحسم " إن كنت لا تدري من قائدهم، وماذا يريدون، فليس لك مكان بين طلائعي."

ارتجف الرجل، كأنما حكمت عليه بالموت، فتجاهلته، ونظرت لقائد الطلائع:

" أرسل رجلا للعشيرة ينبئوني عن هؤلاء، ورسولا لذلك المعسكر، ليرسلوا ليّ قائدهم."

وكأنما أزحت حجرا يثقل لسانه، تكلم أخيرا قائد طلائعي:

"هو رسول من العشيرة يا مولاي." وأشار للذي ظننته تابعا!

وتنبهت، حينها فقط، أن هذا المتحمس للدماء لا تظهر عليه وعثاء السفر وإنهاك القتال، فنظرت له غاضبا، وقلت:

"إن كنت كذلك، فكيف لا تعرف عن أمر هؤلاء شيئا، ولم لم تأتني بدلا من التلكؤ هنا؟"

قال:

"إنما كنت أحذرهم من تلكم العصبة الخائنة، وأنبئهم أن يستعدوا لقتالهم."

قلت بصوت مزلزل:

"أتأمر جنودي وأنا بينهم أيها العبد!"

قال بصوت متحشرج:

"حاشا لله يا مولاي! أنا عبد ضعيف، وإن هي إلا رغبة خليفتك، وساعدك، وابنك المبجل."

ظهر لي الأمر جليا، الطلائع لم تنتظرني، بل كانوا يجادلون رسول ابني. ورفاقي لم يتبعوني خوفا عليّ؛ وإنما ليمنعونني من رؤية ما يحدث.

يا للسماء! كم بلغ ابني من الحنكة حتى يصل لأقرب المقربين لي، فيحجب عني ما يشاء؟ وكم بلغ من غرور، فيظن أنه يعلم كيف أفكر، وأنه سيدفعني لذبح خطاياه فوق الجبل، وكم بلغ من حمق وخيبة حتى يستطيع إثارة الشرق الغافي دوما فوق وسادتي؟

نظرت ببرود للتابع وسألته:

"من معك جاء من العشيرة؟"

فأشار مرتجفا لرجل بين أذيال القوم، قريب من آذان ندمائي، منكمش يرجو أن تخطئه عيني، فتيقنت من صحة ما ذهب له عقلي، وازداد عزمي على معرفة ما وراء ذلك التمرد.

قلت لهما:

"أخبراني أيها المتعوسان، لم لم يقم ابني، المبجل كما تزعمان، بسحق هؤلاء، بدلا من انتظاري؟"

لم يجيبا، وكنت أخشى ذلك. إذًا، فالفتى الغرير يخشى إن خرج بمن معه لهؤلاء أن يثور غيرهم! أي كارثة تلك التي فعلتها يا ولدي لتحدث كل ذلك؟

نظرت لمن حولي محتقرا صمتهم، فهم يتآمرون مع ولدي ليخفوا عني النكبات، التي لطخ بها عرش أجداده. بل إن بعضهم يخشاه. لا بأس عندي أن يخشوا ولدي، ولكن أيجرؤون على خشيته أكثر مني؟

قلت لهم:"سأذهب لأرى من شأن هؤلاء."

قال التابع الأخرق:

"لا يا مولاي، لا يجوز. نذهب نحن، ونأتي لك بالرسل."

تركته يتلوى في ألمه، ناظرا بذهول ليده الملقاة أرضا، وأعدت السيف لغمدي وأنا أقول:

"هل هناك من يجرؤ على منعي من أمر أريده؟ أنا الأسود الكبير، فمن يريد منعي من شيء، فليخبرني من هو؟"

ومضيت لا ألوي عن أمري، يتبعني الرجال متثاقلين حتى وصلت للسفح، فرأيت ما أذهلني وجمد عقلي بصقيع الحيرة. أمازال بصري حاد،ا وما أراه هو ملابس أطفال منشورة لتجف، ونساء مكللات بالسواد يطبخن! وعجائز يبكين؟ أهذا جيش يطلب قتالي كما يزعمون؟ ما هم إلا مساكين يطلبون الملاذ.

ووجدت، على رأس الطريق الصاعد للجبل، ثلة من جنود مدججين بالسلاح، يرتدون الزي الأسود الذي فتن به ولدي،

فأدركت أنهم جماعة من صعاليكه، الذين جمعهم ودربهم ورغب في ضمهم لجيش القبائل، لولا إنني نبذتهم رغما عن أنفه، لأن أمثالهم لا يوثق فيهم.

ورفع أولئك الصعاليك سلاحهم في وجهي، وهتف أحدهم:

"ارجع أيها الشيخ العجوز، فلن يصعد أحد حتى يأتي الأسود نفسه بالجيش.. ألم نقل لكم سابقا ارجعوا، وأخبروا سيدكم إن هناك خوارج راغبة في قتله؟ ألا تفهمون شيئا يا حمقى."

فهمت الآن لم كان قائد الطلائع يشعر بالعار، فقد أحس بجرم سفك دماء النساء والأطفال، رغم فزعه من ولدي.

قلت لهم محاولا ترويض غضبي:

"من أمرك بهذا؟"

قال:

"القائد الأسود بنفسه."

لم أكن قد سمعت هذا اللقب، الذي اختاره ولدي لنفسه من قبل، لكني أدركت من يقصد. الفتى الغرير يريد أن يبز شأني حتى في الاسم. شيخ الأساودة مقابل القائد الأسود!

قلت متذرعا بالصبر:

" ولم يريد هذا؟"

رد:

" وما شأنك أنت أيها العجوز؟ أتجرؤ على تحديه؟"

قلت:

"أوتدري من أنا؟ ماذا سيفعل بكم الأسود الكبير إن علم بذلك؟"

هز كتفيه مستهزئا، وقال بنبرة تهديد:

"أتريد اللحاق بأبي جلدة؟ يا عجوز لا تتعجل، فشيبتك ستطفأ شوقك له!"

لم أدر بنفسي، إلا وسيفي يمزق خمسة منهم. تبا لك يا ولدي! قلت لك من قبل إنك، مهما فعلت فيهم، فسيظلون صعاليكا حمقى!

رغم كبر سني، وأن سيفي كان في غمده، فقد مزقت منهم خمسة، قبل أن يفيقوا من فزعهم. وحينما استلوا سيوفهم، أخيرا، كان الأوان قد فات. وبينما كنت أحصد اثنين آخرين، أتت الهتافات لمن خلفي:

"لبيك يا أسود."

فزع الصعاليك إذ أدركوا شخصي، وأدركوا أن ثرثرتهم طالت ما يكرهه سيدهم الصغير، ففروا هاربين، لم يعرف لهم طريق.

وإذ وصلت تلبية أصحابي لمسامع الجبل، فكأنما بعثت فيه الحياة بعد موات، مهللا وهاتفا، فنزل المستجيرين منه باكين، قائلين:

"الغوث يا أسود، الغوث يا أسود!"

وعلمت كل شيء يومها.

أراد ولدي الأحمق جمع جيش يدين له هو بالولاء دون سواه، فجمع مئات الصعاليك، وألحقهم بجنده، وابتز بهم أتباعي ليطيعوه، وخوفهم في أهلهم، فأصبحوا يرجعون له بالأمر قبلي. ولما غادرت لحربي الفاشلة، توسع في مد نفوذه، والبطش بالمخلصين لي، حتى أن أبي جلدة ابن الجلاد، الذي زعموا لي أنه مات غريقا، إنما قتل على يده، لأنه رفض أن يمده بالمال، لكي يدفع نفقات أتباعه، الذين أكثرهم الطمع.

كنت - كعادة من سبقوني - أترك المال في يد غير اليد التي أخلفها على القوم، ولم أجد خير من رفيق الصبا ابن الجلاد ذي العشيرة والشوكة.

لكن بطش ولدي إذ كسر شوكة ابن الجلاد، لم يكسر هيبتي عندهم، فلم يخلوا بينه وبين المال، فقام الفتى الغر بجلد الفلاحين، ونهب القرى، حتى ازداد وزر صعاليكه، ففر البسطاء هاربين للقرى البعيدة. وأثار هذا غضبه، فتبعهم بجند

ارتدوا السواد على الأجسام والقلوب، كسيل عارم، حرق تلك القرى، وأشبع أهلها والمستجيرين تقتيلا.

ولما ضاقت على الناس الأرض بما رحبت، وأحسوا أنهم إن بقوا في قراهم نهبوا، وإن غادروها قتلوا، لجئوا للتلال، إلى أن أتاهم نبأ عودتي، فخرجوا عن بكرة أبيهم للجبل، متحصنين به حتى آتي وأنصفهم.

وأدرك ولدي أنه لن يستطيع الاستيلاء على الجبل قبل عودتي، إلا بجمع كل رجال القبيلة، وحينها قد تنقض عليه عشيرة ابن الجلاد، طلبا للثأر. فلجأ لحيلة خائبة، ليلوث يدي أنا بدم الفقراء.

هنا جلست أفكر وحدي، مقلبا الأمر على كل وجه. وكلما حاولت أن أجد عذرا للفتى، وجدت حماقته تذهبه.

أأقول مخلص لي وللقبيلة، يرغب في زيادة جندها وهيبتها بقبضته الصارمة؟ فماذا عن قتل أعواني، وإخفاء الحقائق عني؟

أأفترض أنه شاب طموح، يريد أن يبني لنفسه ملكا راسخا لا يستطيع أحد منازعته فيه بعد موتي، خاصة مع تربص أولاد عمومتي الساعين لعودة المشيخة في نسلهم؟

فماذا عن فشله في الحكم، وعدم قدرته على تدبير أمواله، رغم كل ما نهبه؟

لم يستطع أن ينجح في العدل، أو يربح من الظلم!.. بل خرب الأرض، وأهلك الماشية، وهدد الشرق بالمجاعة. ولن نستطيع أخذ ما اعتدناه من ضرائب من حطام الفقراء، إلا بعد سنوات عدة.

أأحسبه متآمرا، يرغب في قتلي والانفراد بالحكم؟ يا له من متآمر بائس، لم يُجِد حتى تدريب أعوانه، فلم تصمد ثلة منهم أمام رجل عجوز لخمس دقائق.

من كل وجه هو مذنب. مذنب في إخلاصه بتآمره، وفي تآمره بفشله!

وأصبح العقاب حتما مقضيا. فأعددت المحاكمة.

رفض الفتى أن يمثل أمام قضائي قائلا:

"أتحاكمني أمام هؤلاء يا والدي؟ ولأجل من؟ أنا القائد الأسود، ابن الأسود الكبير، فخر الأساودة، أحاكم لأجل حفنة من الفلاحين وسكان القرى القذرين؟"

قلت له:

"سفكت الدماء، ونهبت الأموال بغير ذنب."

قال:

"ولأي غرض؟ لأبني جيشا وملكا. ما هؤلاء إلا الحطب الذي أوقد به نار مجدي!"

رددت بغضبك

"وإذا ما نفد الحطب يا أحمق؟ تنطفئ نارك ولا يبقى سوى السخام!"

هز كتفيه قائلا:

"بل أنتزع الحطب من أيدي من حولي!"

هنا أدركت ألا أمل في إصلاحه. أفهم أن يرى الأساودة فوق غيرهم، وأتجاوز عن كبره تجاه أقرانه الأدنى من عشيرته، فأقول لنفسي إن الأيام ستهذبه. أأغفر له كل ما فعل، فأقول أخطأت في كذا وكذا، وكان يجب أن تفعل بدلا منه كذا، وأرشده لما كان أحنك وأمكر؟ لكني، لما سمعت جهالته، نظرت للمستقبل، فلم أر ابني إلا جرادة كبيرة، تدمر ولا تعرف البناء.

وصنع المجد، إن كان يحتاج لتدمير ملك غيرك، فلن يكتمل إلا ببناء ملكك. وولدي عاجز عن البناء، ولو تركته اليوم، فسيشق وحدة بني الأسود لشراذم متحاربة، والفلاحون، الذين هربوا اليوم، سيقاتلونه غدا.

فكرت أن أبقيه، وأنقل الخلافة لغيره، لكن الفتى شديد الذكاء؛ رغم افتقاده للحكمة، وسيكون لعنة بلا شفاء على كل من يتربع في المشيخة. مازال الملك لي؛ لكنه نجح في اختراق أضيق صفوفي، وفتنة الملك سلطانها عليه لن يخبو.

ولإنقاذ بني الأسود، والشرق كله، من حرب بين الإخوة، حكمت عليه بالطرد والنبذ من القبيلة.

هو لا يحتاج للقتل، بل يحتاج لعقل أحكم، وربما إذ تروضه السنون يعود لي عاقلا، فأعفو عنه وأبوئه مقعدي.

لكنه نظر لي غير مصدق للحكم، وقال:

"أشهد إنك ستندم على هذا."

وقد صدق، فليتني ضربت عنقه. فلو فعلت، ما ثار ما أثاره في الحاضرة، ولا جلسنا اليوم نتشاور في شأنه. نخاف على أنفسنا مصير الجبلي والمرصفي.

(٥)

حكاية الجبلي والمرصفي

خرج ولدي على رأس بضع مئات، ممن بقوا من صعاليكه، وأثبت أخيرا شيئا من الفطنة، ففتك بكل عشيرة بني الجلاد قبل الرحيل، حتى لا يطلبوا ثأره، ونزع منهم بعض ما يقبضون عليه من مال. ثم أثبت المزيد من الفطنة، باختياره للعاصمة مستقرا له - فرغم خروجي منها، لكن تمزقها بين الأمراء، يعطي لحفنته من الرجال قيمة أكبر من حقيقتها - فانطوى تحت ظل أمير، يقال له الجبلي. وأخذت أتتبع أنباءه، لعلي أرسل له بالعفو فيما بعد، لكنه زاد في الطيش لدرجة أفزعتني.

كانت بدايته طيبة. حيث استضافه الأمير الجبلي، وكان مملوكا شاميا تسلطن على بعض الرجال، وشارك في حروب بعض من استأجروه، إلى أن تعب الجميع من الحرب، وانفرد كل منهم بما تحت يده، فاستأثر هو بالجزر الجميلة، التي ترصع صفحة النهر في شمال العاصمة.

ولكن كما هو الحال مع كل حي من أحيائها، نازعه في هذا المكان القائد المرصفي. كان المرصفي ابن واحد من قادة الجند في جيش الملك، وورث الزعامة عن أبيه، وحاول أن يزيد عدد رجاله، ليبني جيشا مهيبا؛ لكنه لم يبؤ إلا بحرب دامية بينه بين الجبلي، يتنافسان على جمع الحلفاء والأتباع والمال والمرتزقة.

وحين أتى القائد الأسود بمئات الرجال، أكرمه الجبلي أيما إكرام، وبسط له الحماية والمأوى، وأقرضه المال ليناصره ضد المرصفي.

وكما ينتظر من فخر بني الأسود، أثبت الشجاعة والبراعة، حتى أذاق جنود المرصفي الرعب. وازداد بأس صعاليكه، ذوي اللباس الأسود، الذي عرفه بهم القاصي والداني من وقتها.

كان للمرصفي بنتا جميلة، ورثت عن أمها - التي يزعمون أنها كانت من الأشراف - بهاءً وحسنا، جلب لباب أبيها أفواجا من الخطاب، فضن بها عليهم، ينتظر أن يجد حليفا يستحقها.

فأتاه القائد الأسود سرا، وقال له إنه رآها عفوا، فطار لبه وسلبت روحه.

وقال للمرصفي:

"أيها الأمير أنا عبدك. لو وافقت على أن تزوجني ابنتك، فسأتخلص من الجبلي."

وانتهز المرصفي الفرصة، فوافق. فطلب منه القائد الأسود أن يوافيه، في ميعاد معين، بأموال ورجال، وسط الصحراء، خارج المدينة.

وخرج له المرصفي برجاله سرا، فوجد كمينا من جنود الأسود والجبلي، قتلوه ومن معه، ونهبوا المال.

واجتز الأسود رأس المرصفي، ووضعها في سلة. وأمر رجال الجبلي بالبقاء في الصحراء منتظرين، لأن المزيد من جنود المرصفي آتين.

ورحل عنهم بجنده، صانعا موكبا عظيما صاخبا، فخرج له الجبلي فرحا، ليشاهد رأس غريمه المقطوعة. ولما حملها عاليا في يديه يريها لأبنائه، استل القائد الأسود سيفه، وقطع رأسه هو الآخر، لتتدحرج الرأسين الغريمين معا عند قدميه.

وهرب بمن معه مختبئا في الجنوب، بينما خرج أبناء المرصفي جميعا، يقودون الجند للثأر من الجبل،ي لا يعرفون بأمر مقتله.
واستمرت الحرب بين الفريقين أياما دامية، أنهكتهما معا،
وضاعت ريح أبناء الجبلي، إذ تفرق عنهم المماليك، لأن المال كان هو جامعهم، وقد انفرد به كبيرهم في قلعة حصينة.

وزحف أبناء المرصفي، يحاصرون القلعة طمعا في المال، وقد أشاع الأسود بينهم أنه يختبئ فيها، فزاد من إصرارهم برغبة الثأر.

وإذ انشغل الكل بحصار القلعة، اجتذب الأسود بعضا من رجال الجبلي، الهاربين بما نهبه من مال المرصفي، فجمعهم، وهجم هجمة محسوبة على قصر المرصفي، فأحرقه، وقتل أغلب أبنائه وهم نيام. ثم اتفق مع كبير مماليك الجبلي أن يكسر الحصار، مقابل نصف الثروة، ليمزق بمن معه جنود المرصفي، ويهرب آخر أبنائه جنوبا خارج العاصمة. وأصبح عاجزا خانعا، وهو اليوم من أتباع الأسود!

أما أخته الحسناء، فلم يعرف لها أثر، وقيل إن أحد الجنود اختطفها، وباعها إلى حكام الأهبال.

وهكذا قضى الأسود على الغريمين معا، واستولى على أغلب كنوزهما، والكثير من رجالهما، وسرعان ما حول حلفاءه لأتباع. كان مازال في حسن الفطنة، وتعلم من خطئي، فلم يقبل أن يجعل في جيشه أميرا غيره، لا يأتمر الجند بغير أمره، ومن يريد مخالفته، فليعلم أن عليه طاعته طاعة مطلقة. ورغم ذلك فقد زاد عدد جيشه للألوف في وقت قصير.

على أن انفراده بكل شمال العاصمة، بما تحويه من قلاع وجزر، أثار حفيظة باقي الأمراء، خاصة الحلفاء السابقين للجبلي والمرصفي، وأعداء الأساودة. فتحالفوا معا على طرده، وجمعوا جيشا كبيرا لسحقه.

لكنهم كانوا يواجهون من لا قبل لهم به!

جنوده - على قلتهم - منظمون مدربون، بينما جنودهم أخلاط من غث وسمين. وزاد من حرجهم أن نجح بجواسيسه في إيقاع الفتنة بينهم، وتجنيد عدد من أتباعهم وخدمهم، فانقض عليهم قبل أن ينقضوا عليه، وأشبع جنودهم ذبحا وتقتيلا، لم يعرف مثله منذ غزو الأهبال، واغتال أكثر من نصف أمراء العاصمة في ضربة واحدة، فتشتتوا مهزومين، يتلمسون الطرق لقصورهم وقلاعهم.

لكنه تتبع أعداءه بالجواسيس والقتلة المأجورين، يقتلهم في قعور بيوتهم واحدا تلو الآخر، حتى رفعوا راية الاستسلام، وسلموا له أكثر من نصف العاصمة خالصة بلا مراء.

لما بلغ هذا الشأن، فكرت أن أرسل له عفوي وفخري بولدي، الذي أثبت براعة في الحرب، وحنكة في القيادة، ومهارة في السياسة. لكنه كرر خطأه الأكبر مرة أخرى، أثقل على أهل العاصمة بالضرائب والمكوس، حتى فسدت التجارة، وزاد الفقر والفاقة، وهرب الناس من أرضه إلى أرض غيره.

لم يفهم ولدي أبدا كيف يحافظ على البقرة الحلوب، فينتفع منها دون ذبحها، أو إهلاك عجولها. ظل يستنزفها حتى جف الضرع، وضمر اللحم.

ولما تناقصت الأموال معه، وتزايدت الأحقاد عند خصومه، أقدم على جريمة لم يسبقه لها أحد، وما كان للعفو مكان بعدها.

أعطى الأمان لبعض التجار والأمراء بعهد مكتوب، ثم غدر بهم، فقتلهم، واستخلص أموالهم. وكرر الفعلة مع عدد من حلفائه الأغنياء، ولعل ذكرى (ميت الدم)، والهول الذي فعله فيها، تخبركم عن الأهوال التي يذيقها للحلفاء قبل الأعداء.

لكن هذا البطش أثار الرعب في القلوب مع ما أذاعه عن نفسه من أكاذيب، كأنه مآخٍ للجن، وأن له باعا في السحر، يعرف به ما يدور في النفوس. فامتد سلطانه على العاصمة كلها، وما حولها، ليوحدها لأول مرة منذ سقوط الملك.

ثم تحالف مع الأهبال، وتعاهد مع الفرنجة، لتزيد أمواله برشاهم، وقويت شوكته، وسحق كل من تسول له نفسه أن يتحداه.

واليوم، بعد أن امتد سلطانه على إقليم الوسط بأكمله، توج نفسه في قصر الملك القديم، وأعلن نفسه حاكما على كل البلاد.

إني أحذركم من اتّباعه. سيفسد في الأرض، ويعيش الناس في عهده رعبا دائما، كما إنه سيمنح الأهبال والفرنجة من الأراضي ما عجزوا عن انتزاعه بسيوفهم منا.

نحن في الشرق محاصرون بينه بين الفرنجة والأهبال، ولا أمل في الشمال الذي هجر، ولا الإقليمين الجنوبيين الذين امتلكهما قطاع الطرق، ومن بقى فيه من أمراء وقبائل يتذلل للأسود.

لكنكم في الغرب أملنا الوحيد، للوقوف ضد هذا الليل الغاشم، فلم تمزقكم الحروب قدر ما مزقتنا، وحلفاء الأسود هنا قليلون لا

يخلص لهم ولا يخلصون له، وليس له الكثير من الجواسيس هنا. فلو حالفتم بني الأسود بسيوفهم الجبارة، فسنستأصل هذه القرحة الخبيثة، وتخلص البلاد.......

هنا قاطع استرساله الرجل المهيب صارخا:

"خالصة!.... لمن؟ لأشتات من أمراء؟ ستعود البلاد لسيرتها الأولى من تفكك وتمزق. هذا لو لم يهزمنا الأسود جميعا، سواء في أول مرة، أو حينما يعود بعشرات الألوف من الفرنجة والأهبال، لتضيع أراضينا وأموالنا، ويزيد الثمن الذي سيقبضه الفرنجة والأهبال من أرضنا. لو عاهدنا الأسود وحالفناه، فسنحقن الدم المهدور عبثا."

(٦)

عن الوريث الأخير

عم الصمت المكان بعد تلك الكلمات. أراهن إنكم مثلي لم تتأثروا كثيرا بحديث العجوز الفارغ، ونفاقه المفضوح. لكن من معي كان يمعن النظر في جبروت الأسود، ويوازن بالخوف من غدره. بينما كنت أفكر في كيف يزالفنا هذا العجوز بالحديث عن العدل والبناء؛ بينما مأخذه الوحيد على ابنه ليس الدماء البريئة، وإنما فشله في الطغيان على الوجه الصحيح!

ولذا كنت أول من تكلم، كنت الوحيد المنشغل بأحوال البسطاء لأنني منهم، ببساطة لو لم يكن هناك بديلا للأسود، فأنا أرحب به ملكا! أي ملك ينظم حياتنا، أفضل من لا شيء. لكن إن وجد من هو أفضل من الطاغية حليف الأهبال، فلم لا؟

وهكذا كسرت الصمت بقوليك

"لو اتفقتم على حرب الأسود، فمن يقود البلاد؟ يجب أن نتفق على ملك بديل له، يحارب الأهبال من بعده وغلا، فحتى لو

انتصرتم، سيعود على رأس جيش منهم، لا يبقي ولا يزر. يجب أن تختاروا ملكا بديلا."

صرخ الشركسي:

"لعلك تريد تسليم البلاد للغيلان الحمر!"

قاطعه ابن عامر:

"ليقصد ما يقصده، المهم إن السؤال صحيح. إما أن نتفق – والآن - على شخص لا ينازعه أحد في الملك، ولا يقول له أحد: أنا أحق منك، وإما أن نسلم أمرنا للأسود."

تكلم لأول مرة أمير شاب مترف "لو اجتمعنا كلنا على مبايعة ابن عامر، أو حتى على الشيخ الأسود، فلن يجتمع لهما الناس في باقي الأقاليم، وستجدون من يخرج قائلا "إن كان هو يطلب بالملك لكذا فأنا مثله وأحق بالملك منه."

اندفع آخر:

"إما أن يأتي شيخنا باسم يبدل الأسود، لا يختلف عليه اثنان، أو يريحنا من إلحاحه وأحلافه المدمرة."

نظر الجميع بتحدٍ لشيخ الأساودة، لكنه قابلنا بابتسامة غريبة، كأنما أتينا لما يرغب. وظل هادئا، منتظرا فراغنا من الحديث، ففكرت أنه إنما أتى ليرسخ في أذهان الأمراء الاستسلام للقائد الأسود، وطاعته بدلا من محاربته.

لكنه تكلم بغير ذلك تماما. أتى بما لا يفهمه عقل، أو يطيقه صدر. تكلم عن سليل الخلفاء، وريث الملوك، حامل عهد الخليفة. هذا الوغد كان يتحدث عن الوريث الأخير لملك البلاد!

تبا له، لو كان الأمر بيدي لفتكت به، وشاركني في الثورة عليه الجميع، وأعني بالجميع كل من في القاعة، حتى أتباعه الذين كانوا يقفون خلفه، فقد نظروا لسيدهم كأنما به مس بالجنون، لا "كأنما" وإنما هو به مس من الجنون فعلا!

هذا الدعي الكاذب المارق أوجد طريقا لأذن السود الكبير؟ أوبلغ به الخرف والجنون أن ينسى كم من آلاف أضاع أرواحهم هذا الدعي الكاذب؟ هدر دم أبي عبثا، ومات كمدا بسبب هذا المنافق. أنعود لهذه المأساة مرة أخرى؟ ندور بالدعاة بين المساكين والبسطاء والدراويش إن آخر أحفاد الملك، سليل الخلفاء، صاحب الحق الشرعي في الملك ، كما سلم له الخليفة به في الخطاب المشهور؟ أما يذكر كيف هجر الآلاف بيوتهم يتبعون (صاحب الحق الوريث الأخير) على أمل أن يرد لهم ما انتزع منهم ظلما في الفتن، التي تتابعت عليهم كقطع الليل المظلم، وعدد من المغلوبين، الذين طمعوا في استعادة المجد بإتباعه، ثم انتبه له القائد الأسود - ولم يكن قد وصل لما وصل له اليوم من قوة - فهاجمه ومزقه هو وجنوده شر ممزق، ثم افتضح كذبه وإنه ليس سوى داعية من دعاة الخوارج، خدع الخليفة ليسلب منه

البلاد، فانفض عنه الناس، بعد أن أرسل الخليفة تبرؤً منه، واختفى في أحراش الشمال لم يعرف له مصير.

هتفت محتميا بأصوات البقية:

"لم يكن هذا الوريث سوى داع كاذب، وثبت برهان هذا للناس كافة."

أخيرا استطاع الرجل أن يرد علينا، ويا لهيبة زعيم الأساودة، فما أن نطق بكلمته الأولى، حتى خرست الألسنة منصتة.

"هذا كان دعيّ كاذب فاسق، وسنه كان أكبر من سن الوريث الأخير الحقيقي، لكنه استخدم أنباءً حقيقية، ونسبها لنفسه زورا.

كنت بنفسي شاهدا على نجاة ذلك الأمير من القتل، وهو مازال جنينا في بطن أمه، فربما تذكرون أن آخر أبناء الملك لجئوا لأنسبائهم، في واحات ساوة هنا في الغرب."

كنت سمعت بمثل هذا الأمر، فلاحي ساوة يتفاخرون دوما على من حولهم بأنهم أنسباء الملك؛ لكنها بدت لي دوما قصة سخيفة، لا يصدقها عقل.

أكمل شيخ شيوخ بني الأسود:

"اعتصم آخر أبناء الملك في ساوة من الذبح، الذي أعمله الثوار في آل الملك. إلى أن اقتحم أعداءهم الواحة، وأبادوهم..

أظنهم كانوا من جنود حاكم قلعة ساوة، التي في الجنوب يا شركسي ؟"

رد الشركسي متبرما:

"لا لم يكونوا من جنود سلفي، بل أتوا من الحاضرة والطريق الأقصر عبر مدينتي."

نظرت مستهزئا لهذا المغرور، فمدينة ساوة ليست سوى مجموعة من القلاع، تقع وسط الطريق بين الواحات والحاضرة، لكنه يصر على تسميتها مدينة!

تنحنح الأسود، قبل أن يبدأ في قص الأمر:

"نجا منهم أمير واحد، أو ابن أحد الأمراء، وتزوج من بنت رجل ثري تسمى سارة، أتت لي مستغيثة- بعد أن قتل زوجها- حبلى بابنه، ترغب في الرحيل شرقا إلى مدينة طرابل، لرجل يسمى الشيخ (سلطان القنبوري) -كما أخبرتني- وأنا متيقن أن ابنها مازال في طرابل، لم يغادرها، ولم يأت لتلك البلاد لكنه قابل أحد دعاة الخوارج، فقص عليه قصته، لينتحل هذا الدعي شخصيته."

كانت هذه أنباء غريبة عن أسماع القوم. صحيح إنه كان هناك دوما همس بوجود أمير ناجٍ، وبعض الرجال تمادوا فزعموا أنهم دعوه لحكم البلاد، وشبهوه بصقر قريش الذي أنقذ الأندلس من فتنة مريرة؛ لكن هؤلاء سرعان ما انكسروا على يد أمراء

المماليك الطامعين في العرش، ولم يعد الناس تردد هذه الخرافة، خاصة بعد أن جاء الوريث الكاذب، ثم انهزم.

واليوم يأتي رجل توزن كلمته بألوف السيوف، ليزعم أنها حقيقة!

تكلم أحد الأمراء بكلمات متثاقلة:

"لنفرض بصحة هذا الأمر. ما خطر الوريث على القائد الأسود؟ أنى له بجمع الرجال والسلاح الكافي لمحاربته؟"

رد بهدوئه المستفز:

"القائد الأسود يدعو لنفسه بالملك، لأن أحدا لا ينازعه عليه. لكنه يدرك أن ليس له في ملك البلاد حق شرعي، أما حق الوريث فلا يختلف عليه اثنان، ولا ينازعه فيه أحد. هو شخص كما طلبتم لا يوجد في كل البلاد من يستطيع أن يقول عندي مثل ما عنده، وأنا أحق بالملك منه."

كأنما هو نفسه لم يطلب الملك! وكأنما المماليك يهتمون بالحق الشرعي! على إن الفكرة نفسها تستحق الاحترام، شرعية لا يستطيع أحد التشكيك فيها أو منازعتها؛ رغم ضعفها، مقابل قوة غاشمة. ومضة يقين وسط طوفان الشك! ربما كان هذا الوريث آخر أمل للبلاد، حتى لو كان أملا كاذبا واهنا، لكنه يظل الأمل الأخير، لذا يستحق أن نحاول اتّباعه.

وأدرك الأسود الكبير أنه لم يقنع أحدا بما قال، لذا حاول تعزيز حجته بقوله:

"تذكروا إن الناس التفت حول الكاذب من قبل، والتفافهم حول الوريث الحقيقي سيكون أشد، وخطاب الخليفة مازال قائما لم يلغه، حينما أعلن تبرؤه من الكاذب، قال إنه نصب آخر أبناء الملك خلفا له، وهذا الكاذب ليس هو المقصود.. لو وضعنا الخطاب في اليد الصحيحة، ووقفنا معا خلفه، فتصوروا كيف أثره!"

جادله أحدهم:

" ليس للخليفة حول أو قوة. ماتت الخلافة قبل موات الملكية عندنا بدهور."

رد عليه:

"الناس دوما تحب أن يبارك الخليفة حاكمها، وحتى لو كان عاجزا، فمازالت كلمته ذات أثر، على الأقل في نفوس الجند والأهالي."

رد آخر:

"لكن تذكر كيف سحق الأسود هذا الدعي الكاذب قبل أن تعرف حقيقته، فلم ينفعه خليفة أو بسطاء. اليوم، أصبح الأسود

أقوى مائة مرة، وتحالفه مع الأهبال والفرنجة أشد، فأنى للوريث بمناطحته؟"

أكمل العجوز مجادلته الهادئة:

"لم يكن خلف الدعي سوى دراويش ومجاذيب، أما الوريث فسيكون معه أمراء الغرب، وقبائل بني الأسود. ولتعلم أن حديثك هذا يقوي حجتي، لأن ما قلته يثبت كم خاف القائد الملعون من الوريث، وإنه يعلم خطره عليه، وإلا ما خرج له من العاصمة وهو لم يشتد عوده بعد!"

تكلم مضيفنا ابن العبدلي:

"تتحدث عن رجل لا نعرف إن كان حيا أم لا، ولا ندري أيرغب في ملك لا يغبط عليه أحد، أم إنه عاقل زاهد فيه!"

قال الأسود:

"لم أستطع مخاطبته وحدي لهذا السبب، فسيخشى القتل حتما، إلا لو أتاه وفد من أمراء الغرب يأمنوه، ويبايعوه مبايعة مكتوبة، وهنا سيعود حتما ليقودنا في حرب مقدسة لتوحيد البلاد. وأنتم ستكونون أمراءه، وكبار رجاله، وحاشيته التي تبسط خيرها على كل شبر من الأقاليم الثمانية، بدلا من أن تكونوا خدما للأسود."

بدت لي أن الحجرة أضيئت بلهيب الطمع، الذي برز من بعض العيون، لولا أن بدد ابن عامر الأمر بسخطه قائلا:

"تبا لهذا اللغو! أتدرك ما تطلبه منا؟ نسير في صحراء قاحلة عامرة بلصوصها، كي نعبر النهر بين يدي القائد الأسود، غريمنا في هذا الأمر! ثم نصل للثغور التي يعتد حكامها بأنفسهم، ويقتلون، ويسلبون من يشاؤون من المسافرين، لنمر وسط حرب ضروس بين أساطيل الصيادية، والسور العلي، لنصل لطرابل باحثين عن أمير لا نعرفه، في أرض لا نعرفها، عند حاكم لن يرحب بمن يعاندون الأهبال، الذين تذكرت الآن إن لهم قلاع على طول الطريق من الساحل إلى طرابل!"

لم يهتز شيخ بني الأسود بالحديث، وإنما قال:

"هذا صحيح، ولذا فستكون أنت على رأس الوفد!"

شحب وجه ابن عامر قليلا، لكنه لم يتكلم. لا أدري، أيخشى أن يبدو خائفا، أم يخشى غضب الشيخ، أم ربما يفكر في أمر ما مكتوم عنا.

لكن الأسود الكبير لم ينتبه لهذا، وأكمل حديثه:

"أنت تعرف الطريق جيدا، وقد عبرته أكثر من مرة لمقابلتي، ولن يكون الطريق خطرا هكذا لو عبرتم من الجنوب، بعيدا عن أراض الأسود إلى أراضي قبائلنا، لأرحب بكم وأكرمكم وأسلمكم لحليفي الأمير الأبيض، أمير الزرقاء، لتنقلكم سفنه على نفقتي

إلى طرابل مباشرة من البحر الشرقي، بعيدا عن الصيادية والسور العلي والأهبال."

صمت ابن عامر فيما بدا موافقة، فقال ابن العبدلي:

"هذا يحسم الأمر في ظني، لو أتى الوريث من طرابل ،فسنسوده علينا، لنسود البلاد وهذه صفقة أطيب من أن تفوَّت لوعودٍ غادرة من القائد الأسود؛ لكنه لو رفض، فلن نملك إلا التسليم معا، أتوافقني على هذا يا ابن عامر؟"

هز ابن عامر رأسه موافقا، فتبعه باقي الأمراء دون معارضة، يبدو أنني - لأول مرة في حياتي - أراهم يحكمون العقل، بل أيضا يحكمونه معا على قلب رجل واحد!

فقال ابن العبدلي:

"ومن سيرافق ابن عامر، سيد الثغر الكبير، في رحلته؟"

قال الأسود الكبير:

"أود مرافقتكم بنفسي، لكن سني الكبيرة لا تسمح، وسفينة الإفرنج، التي ستعيدني لبلدي مع أهلي، لن تسعكم جميعا، خاصة لو رغبنا في كتمان الأمر عن ولدي. سيرافقكم ابن أخي حسام بدلا عني، مفوضا من بني الأسود، لمبايعة الوريث ملكا."

وأشار لهذا الشاب الذي كان يتسند عليه.

وقال الأمير الأبيض بلهجته الإفرنجية المضحكة:

"وسأرافقكم أنا أيضا، لأؤمن الطريق من الزرقاء، وممثلا عن محاربيها كما طلب من حليفي الكبير."

طبعا يقصد القراصنة، لكن الأمر بدا لي مشبوها ألا يسبقنا بسفينة الإفرنج مع الأسود الكبير، وسفينة الفرنجة هي آمن طريق للسفر في بلادنا، لأن أحدا لن يجرؤ على إغضابهم.

ثم انضم هذا الساخط، الذي يذكر في كل جملة (ميت الدم) واثنان آخران، يبدو عليهما أنهما موتوران، والأمير (جركس ابن بارم ديله)، واللازوردي، وشهاب الشركسي، الذي سيرافقهم على الأقل حتى قلاع ساوة في الجنوب، التي تحمي الطريق بين ساوة الواحة والعاصمة، وبينها وبين الإقليم الجنوبي. جمع لطيف حقا، كفيل بإقناع الوريث، وحتما كنت سأوافق عليه، لولا ما فعله ابن العبدلي.

فقد فوجئت به يقول:"إن كنا مرسلين أحدا إلى الخطر فحتما سنرسل غولا أحمر!"

تجمدت مذعورا، لا أصدق أذني، بينما الشيخ الأسود يضيف بارتياح:

"هذا ما أدركته منذ علمت بأمره! تلك حرفتهم وقوتهم!"

وتحلقت الأنظار حولي، وأدركت ألا مفر لو أردت تجنب الموت وافتضاح الأمر. وبصوت متحشرج يعلو قلب خافق قلت:

"أنا معكم!!!!!"

(٧)

عن ذكريات سقوط الزرقاء

أدركت أن الفرار واجب، والنجاة مطلوبة، وأن الليلة يجب ألا تمضي عليّ في هذا القصر الخانق. كان الأمراء قد اتفقوا على التلاقي بعد يوم، على رأس طريق العاصمة، بعد أن يدبر كل منهم أمره، فيجتمعوا عند قلاع ساوة. وبالطبع، لم أرغب في أن أعلق معهم، وأجبر على الذهاب، لو انتظرت للصباح، فتفاديت الحرج بأن غادرت مبكرا جدا، أثناء الليل والناس نيام.

تسللت للحظيرة، لآخذ جملي. وما إن دلفت في الصحراء، حتى تبين لي أنني من المتأخرين، لا المبكرين. فآثار الخيول تملأ كل اتجاه، وخشيت أن أقابل أصحابها، فدرت حول الجبل شرقا، ثم جنوبا. رغم إنني أدرك أن هذا يؤدي بي لطريق العاصمة، لكني فكرت إنه لو قابلني مرتاب ما، فسأخرسه بزعمي أنني أبكر لمكان التجمع.

لم يمض الكثير حتى لاقيت هذا المرتاب! الأمير الأبيض الإفرنجي، الحاكم الاسمي لثغرنا الوحيد على البحر الشرقي، خرج

(ليستنشق الهواء) تحت بضع نخلات، وينظر لي في دهشة، بينما امتدت أيدي حراسه للسلاح فورا.

أشار لهم ليخفضوا سلاحهم، ثم تقدم مني وهو يبتسم ابتسامة ماكرة، وقال:

"إلى أين يا رجل؟"

قلت في تردد:

"أذهب لرأس الطريق، لأكون أول الراحلين، بعد أن أقابل بعض الأصدقاء."

ضحك ضحكة صافية كأنه طفل أهديته لعبة، فقلت بصرامة زائفة:

"لست من يضحك عليه يا أمير الزرقاء! ليس أنا!"

رد مبتسما:

"تعجبني! أنت حقا تعجبني! لم أر في حياتي من في مثل دهائك وخداعك وجسارتك! أنت لص، وأنا أمير قراصنة، لذا أعتبرك نوعا ما من قومي! ولذا فسأهديك نصيحة غالية جدا."

رددت بغضب مصطنع:

"لست لصا، كيف تجرؤ؟"

هز كتفيه وقال:

"حقا؟! إذن فأخبرني ما كان اسمك؟"

بهت، وأخذت أشحذ ذاكرتي لأتذكره، بينما رددت عليه بسرعة:

،"أنا سيد الغيلان الحمر."

ضحك مرة أخرى وقال:

"أحسنت. إجابة مراوغة طيبة! لكنها ليست إجابة سؤالي، يقولون: على الكذوب أن يكون ذكورا، وأنت لم تذكر اسمك أيها القبيل!"

قلت مناضلا الانهيار الذي يجتاحني:

"ماذا تريد مني؟ أنصحك ألا تعبث معي، فمن ورائي غيلان لا ترحم."

هز رأسه وقال:

"هم حقا لا يرحمون، أو كانوا كذلك. لكن الغيلان الحمر انتهوا حقا، وقتلوا تقتيلا، فليس لمثلهم عودة. لكن يعجبني إصرارك، فهكذا يجب أن يكون المحتال!.. دخلت القصر، وجلست على أعلى الموائد، وخدعت الأمراء، بل أصبتهم بالرعب منك، واخترت انتحالا يكرهونه ويهابونه، وأخذت ما تريد من كنوزهم ورحلت! أهنئك. لم أر مثل هذه الجسارة إلا في الحكايات، ولم أكن أظن أن يوجد مثل أولئك الأفاقين في الحياة. لو أردت أن

تعمل معي، فستسعد كثيرا. ويمكنني أن أستعين بمثلك، فأنا دوما أحتاج إلى جواري ذوي الدهاء والجرأة."

صمت متطلعا لي، لكني انتظرت حديثه، فقال:

"في البداية ظننتك جاسوسا للقائد الأسود، لكنك بدوت مندهشا من أنبائه، واعترضت على الاستسلام له. وحين شاهدتك تنهب الطعام نهبا، أدركت حقيقتك التي حيرتني: مجرد صعلوك ماكر، ارتدى درعا سرقه، أو عثر عليه، وانتحل زعامة الغيلان، أرهب فرقة في الأيام الخالية، ونهب ما خف وغلا، وسط صفوة الحكام من تحت أنوفهم!"

أردت مجاراته، وفهم قصده، فقلت:

"والآن، وقد كشفت أمري، ماذا ستفعل؟ تقبض عليّ؟"

ابتسم، وقال:

"بل أعرض عليك أن تنضم لي، وفي المقابل سأنقذ حياتك."

اعتصرت الرمح منتبها، وقلت:

"ومم ستنقذها؟"

رد:

"لأنك تمضي نحو هلاكك! هذا هو الطريق الذي اتفق الزعماء على السفر منه، هل تظن أنهم حقا سيبحثون عن الوريث؟

كل أمير منهم سبقك بإرسال عدد من رجاله، ليكمنوا في الطريق ويقتلوا الآخرين! كلهم يعمل للأسود، ويراسله سرا، ويطمع إن قتل الوريث بيده، فسيكسب عنده حظوة. حتى بني الأسود سيفعلون نفس الأمر! هم يأتمرون علنا بأمر شيخهم، إجلالا له، كما أرسلني القراصنة لهنا، حتى لا نغضبه؛ لكن وقت الأفعال، لا تعلوا كلمة فوق كلمة القائد الأسود."

بهت لهذه الخيانة، فوجدت نفسي أقول:

"وماذا عن ابن عامر، والأمراء الموتورين من الأسود؟"

نظر لي بدهشة، وقال:

"وما يهمك من أمرهم؟ هم يفهمون الحقائق، وسيرجعون غالبا لديارهم لا يفعلون إلا ما يفعلونه دوما: الانتظار."

قلت:

"إذًا فسيقتلون الوريث المسكين، لا يدافع عنه أحد؟"

قال بهدوء:

"دعك من شأن هذا المغبون، وقل لي، ماذا عن العمل معي؟"

رددت:

"ألا يكفيك قراصنتك؟"

قال:

"أنا أعمل عندهم لا العكس! وأكاد أقف وحيدا، أجاهد لإنقاذ الزرقاء من السقوط المحتوم."

رددت بغيظ:

"وهل بعد القراصنة سقوط ؟"

قال:

"أنت إذن من الموتورين الذين هجروها عندما سقطت!"

قلت:

"أو سمعت عن الهول، الذي حدث على أيديكم من أحد مساكينها."

قال بغضب:

"على أيدينا ؟ لست ممن ذبّحوا سكانها. كنت أتاجر مع أهلي في السوق، فحوصرنا بغتة، ولو هروبنا للصحراء - مثلما فعلت أنت - لقتلنا الأعراب، لأننا فرنجة. أنت هربت، بينما بقينا نحن نشهد الموت والدمار، ونهرب من بيت متهدم لآخر محترق، نقفز فوق الجثث والأشلاء، لا نملك أن نلتفت خلفنا لنعين من يسقط منا. تساقط أبي وأمي وأخوتي واحد تلو الآخر أمام عيني، وقتلوا أبشع قتلة، ولما بقينا أنا وأخي، توجونا - فوق جثث أهلنا - أمراء على المدينة. ومن يومها أدركت أن الحياة

تسير، وعليّ أن أسير معها، مقهورا أو راضيا لا فارق، مادمت أعيش. اليوم لي ملك - ولو بالاسم - وبعض الخدم والحشم، وبيت آمن، فلِمَ التمرد عليه؟ بل لأحاول أن أحفظه قدر جهدي."

غلبني فضولي، وقد كانت الزرقاء عليّ دوما عزيزة، فسألته:

"وهل يوجد من يهدد الزرقاء؟ كل المتخاصمين يخطبون ودها."

رد بلهجة من يلقن تلميذه درسا:

"إن انتصر الأسود، فسيغدر بنا، ليملك الميناء، أو يهديه لحلفائه. ولو عاد الوريث، فسيسعى لطردنا - حتما - من بلاده. ولو اكتسح الأهبال كل شيء، فسيدمرون كل شيء كعادتهم. لا أمل لنا في البقاء إلا ببقاء الفوضى، فلا يستطيع أي شخص توحيد البلاد. ولا أملك إلا المكر والخداع وتأليب القوم على بعضهم البعض، وهنا أستطيع أن أستأجر رجلا مثلك أنت وكل عصابتك – لا تزعم إنك تعمل وحدك - وثق إنني ممن يجزلون العطاء."

للحظة فكرت حقا في اتِّباعه، كنت أشعر بحقد وغضب على الأمراء، وأحسست أنهم خذلوني بشدة بعدما عرفته منه. أردت الانتقام منهم، ولو باتِّباع هذا الإفرنجي، الذي عرف كيف

يستميلني بحديثه عن حصار الزرقاء، وأصبح شريكي في أبشع تجربة مررت بها في حياتي.

دهمتني الذكريات؛ وكيف أنساها؟ كيف أنسى صوت والدي الملتاع وهو يأخذني فجأة من الكتّاب، ولا يقول سوى (القراصنة، القراصنة!)، ولا ما رأيته من فزع الناس يجرون في كل اتجاه، وأنا طفل صغير لا يفهم ما الأمر. فالقراصنة في البحر ما شأننا وشأنهم؟

واحتمينا داخل المسجد، لأعرف أن القراصنة في الصباح حاصروا الميناء، وقتلوا من فيه، وأرسلوا للحاكم يأمنوه إن فتح لهم أبواب المدينة لينهبوها ويرحلون، وفعلها الأحمق الخائن، ليدفع هو وأهله والمساكين الثمن الدامي في ساعات قلائل.

أكان يتحدث عن الفرار من بيت لبيت؟ وماذا عنا حين هدموا المسجد فوق رؤوسنا؟ ثم أعلنوا امتلاكهم للمدينة ملاذا آمنا لهم جميعا، بدلا من الجزر الصغيرة التي يتحاربون عليها. أكبر قرصنة في التاريخ كما يقولون: سرقة مدينة كاملة بأهلها وأبنيتها!

آه عليك يا زرقاء! ترى أأرجع لك مع هذا الأمير؟ أذكر كم كنت جميلة مزدهرة وقت لعبي، وكيف أصبحت خربة محترقة، حينما هربنا على جمل عجوز. فترى ما شكلك الآن يا مرعى صباي؟

وهنا أتتني فكرة مجنونة، ورغم أنني حاولت نفضها من رأسي، إلا أنني سألته:

"وكيف علمت بأمر الكمائن المزعومة؟"

لم يقل سوى:

" لي طرقي! وطريقي آمن يذهب بي إلى الزرقاء، فهل ستثبت حسن فطنتك، وترافقني؟"

صمت لأفكر، كان يمكنني أن أتبعه، على الأقل حتى أصل آمنا لطريق القرية. كما إن تلك الفكرة المجنونة تلح عليّ، وقد بدأ الضمير يحبذها، ويثقلني عن الفرار. ولا أفهم كيف وجدت نفسي أسأله:

" وماذا عن الوريث؟"

نظر بتعجب قائلا:

"ما شأننا به؟"

قلت:

"سيقتل هكذا، أليس كذلك؟"

رد باستخفافك

"بالطبع، هذا قدره هو وعائلته الملعونة، أتفكر في أن نستغله مثلا؟ ستكون هذه مخاطرة حمقاء."

ظللت صامتا فترة، أجمع أفكاري، واستجمع شجاعتي. المشكلة إنني الوحيد في هذا العالم، الذي يمتلك من الضمير والمعرفة ما يوجب عليه محاولة تحذير هذا المسكين. لقد تخلى أبي - ذات مرة - عن فعل الواجب، لأن هناك آخرين يقومون به، ولأن لا فائدة ترجى من مناطحة من هم أقوى، فدفع الثمن غاليا غربة، وأكمل الدفع حتى اليوم. لذا، فحين وجدت إن دم هذا الرجل سيعلق في رقبتي، وأن أمري أسوأ من أمر أبي، الذي ترك خلفه مجاهدين آخرين، شعرت بأغلال تجرني جرا نحو تلك الهاوية، التي لا أعلم لها قرار، من المخاطر والعنت، وأصبحت الفكرة المجنونة، الآن، مصيرا أساق له بجبروت الضمير، لا أجد منه مناص. لكن الأمير الأبيض يقدر على مساعدتي.

أخيرا جمعت من العزم ما يكفي، كما تعلمت يوما من شيخي (سر خلف ما ترى قلبك له يميل، أو هواك عنه راغب!) وهواي يطلب النجاة من الموت، والعودة للقرية. فالناس تقتل عبثا، كل يوم، بلا حساب في هذا الزمن. بينما قلبي يطلب النجاة من إثم الدم البريء، وأن أغوص في الظلمات، فالذنب لا يضيع عند الديان الذي لا يموت.

وهكذا وجدت صوتي حازما يقول:

"أيمكنك مساعدتي على إنقاذه."

نظر لي كما لو كان يرى عفريتا! وقال:

"صمت دهرا، ونطقت كفرا!.. أتعرف جزاء من يتحدى الأسود؟ لعلك تمزح؟"

"فقط أحتاج منك لعبور البحر إلى طرابل، وسأدفع لك ما تشاء ما أن أعود من هناك، سواء به أو بدونه."

هتف:

"جننت حتما!"

رددت:

"إنما أرى ذنبا في عنقي إن نكصت عن إنقاذ دمائه، وفي مقدوري، ولو مثقال ذرة من جهد، لتحذيره.

يا أمير الزرقاء أنا لست لصا كما زعمت، وإنما فلاح فقير، خشي أن يكون اجتماع العظماء على وليمة من لحمه هو، فأتى ليتحسس الأمر، لأنذر إخواني من شرهم."

نظر لي باحتقار، وقال:

"فلاح! حسنا أيها الفلاح.. فكر في أمري، فما عندي أشرف وأعز. دعك من سخافاتك وأوهامك، أو على الأقل عد لفلاحتك آمنا."

غاظني إنه يعتبر اللص والصعلوك أشرف وأعز من الفلاح، فرددت باندفاع:

"بل سأذهب، وأعود - بإذن الله - بهذا الوريث، ليواجه الأسود. لا يختلف اثنين على أن أمر الأسود شر، لولا الفوضى القائمة، التي لا تترك له بديلا، أما وها قد ظهر البديل في الوريث، فسأسعى له، حتى لو كنت مجرد فلاح."

ضحك الرجل حتى كاد أن يسقط أرضا، وقال:

"فلاح يتحدى الأسود! أنت لست فلاحا، بل أنت، ببساطة، بالنسبة له لا شيء، مجرد كتلة من فراغ ملوث بتراب الأرض! أنت ضعيف جدا، بل هين الأمر؛ بينما هو جبار، أنت وحيد في وادي جنونك؛ بينما يقود هو الجيوش في عالم العقلاء. لا أمل ولا فائدة. أعجبتني بمكرك، فأترك عرضي لك قائما، وأنصحك ألا تسرح، بغلواء الأوهام، عن طريقك!"

رددت عليه "على الأقل سأحاول، فهل لو وجدت نجاحا ستساعدني؟"

نظر لي بدهشة، وقال:"مصر إذًا؟! لا يفتأ المرء يجد العجائب في البشر!.. ربما لو بقيت حيا حتى تصل للزرقاء، أسمح لك بعبور البحر، تقديرا لشجاعتك الغبية ليس إلا. غير هذا لا تطلب إلا نصيحتي لك بالعودة من حيث أتيت إلى بيتك الدافئ."

(٨)

بداية الرحلة: المسيرة عكس الاتجاه!

لا أدري ما حدث، ولا أدرك كيف بدأ الأمر. فقط ضوء سطع في عقلي، جعلني أوجه جملي نحو الغرب دون كلمة، مطأطأ الرأس. كنت أشعر أنني حدثت الرجل أكثر من اللازم، لذا لم أقل المزيد، ومشيت غربا.

لماذا الغرب؟ قريتي في الشرق، والطريق يمضي جنوبا ثم شرقا إلى طرابل؟

ببساطة، لأن واحة ساوة في الغرب!

لو كنت أبحث عن الوريث حقا، فيجب أن أفعل أمرين: أولا لن أعود لقريتي، وإلا سيقيدونني بسارية المسجد حتى أشفى من الجنون، وأفقد الدرع والدابة والنقود، إذ يستعيدهم الشيخ غلاب. على أي حال أرضي وبيتي رهنا عنده، وجزء من المال يمكن أن أعتبره أجري، وسأحاول أن أرد الباقي إن عدت حيا.

أما الأنباء، فمثلها لن يخفي عليه، وسينبئ بها نائب القاضي كل القرى، ومن ساوة سأرسل له رسولا.

الأمر الثاني: إنني نظرت لما وراء ما أعرف، يبدو أن الأمراء فرحوا بمعرفتهم أن الوريث في طرابل، وسيتسابقون أيهم يصل هناك أولا، ليضيعوا أسابيع بلا جدوى، بحثا عن رجل لا يعرفونه، ولا يعرفون بيته، أو اسمه. سأبدأ متأخرا عنهم راضيا، لأن من الأهم أن أعرف أولا شكل الوريث، واسمه. وقد قال الشيخ الأسود إن أنسباءه في ساوة، لذا فساوة هي مقصدي، وبعدها يجب أن أعرف الطريق من الزرقاء إلى طرابل، وهو ما يعني رحلة أخرى نحو الغرب، تترك لي فيما بعد، طريق الشرق فارغا، لا يتصورون أن هناك متخلف يتبعهم.

كان الطريق لساوة قصيرا يسيرا، ولم أجد أثرا لحافر أمامي، أو وقعا لمطارد خلفي. ومن الواضح إن الطغاة سيقتلون بعضهم تجاه الشرق متسابقين، ولن يدركوا الحقيقة إلا بعد أن يصلوا لهناك. تعلقت عقولهم بالشرق، وأخذتهم حمية السبق، ولم يبق لهم من الفطنة شيء. ولعلها معونة الخالق أغشت أبصارهم، وأضاءت بصيرتي.

(٩)

حكاية تيمور العلاف

يقول عبد الشهيد ابن سمعان: قال لي تيمور ابن زهير عن والده عن جده تيمور العلاف قال:

٩-١(التاجر)

كانت حياتي مزدهرة، وتجارتي رابحة. أشتري الأعلاف والغلال من ساوة وما حولها، وأبيعها في العاصمة. تجارة ورثتها من قريب عن والدي، رضيت بأن تكون نصيبي من إرثه، تاركا الأرض والفلاحة لأخوتي الأكبر سنا.

لم أكن أربح الكثير، حتى ثار الأمراء في الجنوب، وقطعوا الغلال فارتفعت أثمان الأقوات، ثم في نفس العام، أتت أنباء زحف الأهبال، الآتين من أقصى الشرق، فأحرقوا بلاد النهرين، التي حاول الملك استيراد الغلال والأقوات منها، فأصبحت العاصمة على شفا مجاعة، ورأيت بأم عيني من كنت أوقرهم من

التجار قد استئذبوا، واستحلوا الحرام، يبيعون القوت بأضعاف ثمنه، ويكتمونه عندهم في المخازن حتى كاد يفسد، زاعمين خواء صوامعهم.

وما كنت لأسير في هذا الدرب السيئ، فكنت آتي بغلال الغرب، أبيعها بربح حلال يكفيني، يزيد عن الأيام الخالية، لكنه في مقدور الناس، بدلا من أسعار باقي التجار الشاهقة. فكنت لا أكاد أصل للسوق، حتى تكون بضاعتي قد نفدت عن آخرها، واشتعل حولها الشجار والشحناء!

وذات يوم، أرسل لي كبير التجار يقول إنني أؤذيهم، وعليّ أن أرفع الأسعار، فرفضت. وبعدها بأيام، أتى نائب رئيس الشرطة يتهمني بالإخلال بالأمن العام، لأنني أتسبب في شغب الناس حول بضاعتي! وخيرني بين رفع الأسعار كباقي التجار، أو الرحيل عن المدينة أو السجن!

طبعا رددت عليه باللغة التي يفهمها، فأمسكت كيس نقود ممتلئ، وقلت له:

"هذا ربح موسم واحد وهو يكفيني."

نظر للكيس بجشع، فقلت:

"يمكنك أن ترحل بعيدا عني، أو آخذ الكيس، وأزور القاضي لينصفني!"

كنت أقصد إنني سأري القاضي الربح الحقيقي، لكني كنت أعلم أنه سيفهم أنني سأرشو القاضي، ليؤذيه وهو ما يكفي لإبعاده عني.

مضت تجارتي مزدهرة حتى كثر المال، ففكرت في تجارة أخرى تنفعني في غير موسم الحصاد. كان الفرنجة وتجار بلاد الشرق الأقصى، كالهند والسند وما وراءهما، يأتون عبر البحر للزرقاء، هذا الميناء العظيم، ليبيعون ويشترون النفائس والعجائب واللطائف. ومنهم من يذهب في قافلة كبيرة كل عام إلى العاصمة، لبيع بضائعهم للأمراء والأثرياء. فأخذت أشتري منهم ما يعجبني، فإذا عدت إلى ساوة مررت في الطريق، بجمالي المحملة، بالمدن والقرى الصغيرة، أبيع لوجهائها تلك اللطائف، التي لا يعرفونها ولا يتحملون مشقة السفر للوصول إليها في العاصمة. ولهؤلاء كنت أغلي الثمن كما أشاء، لأنها ليست بالقوت أو الضرورة، وإنما من الزينة التي يتمتعون بها.

ولما وجدت عظم الربح في تلك التجارة، وواظبت عليها، وجدت إنني أضطر للبقاء في العاصمة عدة أسابيع، بين نهاية الحصاد، وبداية توافد تجار الزرقاء، عالة على أقاربي. ففكرت أن أشتري دارا، تريحهم من ثقلي، وتؤويني. فمضيت بين دور العاصمة بحثا عن سكن، فوجدت سكنا ومودة.

ما أن رأيتها حتى بهت! كانت جميلة حقا، ليس الجمال الذي يؤذي العين، ويؤجج الغيرة؛ وإنما جمال طيب، ينساب إلى روحك. كانت هادئة خجولة، لا تكاد تسمع لها صوتا، أو تشم لها عطرا. عيناها صافية كسماء ليلة صيف حانية، وصوتها الخافت أجمل، في أذناي، من أوتار القيثارة. روحها طيبة كالملائكة، وعلى فقرها، كانت سخية مع الأفقر منها.

ما أن رأيت زهيرة، حتى اشتريت الدار المقابل لها، رغم إنه كان أبعد الدور التي عاينتها عن السوق.

ولم لا؟ قد بلغت سن الرجولة، وأربح مالا كثيرا، ولي دارا في ساوة، وأخرى في العاصمة! كما تقول شقيقتي دوما، بيوت العرائس تفتح لي أبوابها بيسر!

وهكذا أخذت أعد داري الجديدة بأحسن ما يمكن، مستعينا في هذا بجيراني الطيبين، ملتمسا الأعذار لأسأل بفطنة عن أهل الدار المقابلة، دون أن ألفت الأنظار لأمري، فعرفت اسمها الجميل (زهيرة)، وأنها يتيمة تعيش مع أمها وجدتها العجوز في الدار، تحت كنف خالها شيخ الطريقة الشاذلية في مسجد المدينة الغربي الكبير.

علمت من أبي سكينة، تاجر الأقمشة الذي أراني هذه الدار، أنها تعمل في قصر الملك. ليس دوما، وإنما فقط في الولائم الكبيرة تذهب للقصر منذ الصباح، وتعود محملة بالكثير من

فضول الضيوف، فتوزع بعضه على الفقراء، وبعضه على الجيران، وتبقي البعض تتقوت منه حتى الوليمة التالية.

فأدركت أن (زهيرتي) طباخة، تعمل في قصر الملك حينما يثقل العمل بمجيء الضيوف. فإذًا إن كانت من نصيبي، ستذيقني طعام الملوك!

وعقدت العزم على الخطبة، فتساءلت كيف أفعل؟ أمن خالها؟ ربما كان لها عما غليظا، أو أخا متكبرا، يستكثر طرقي باب الخال بدلا من بابهم؟ ولأنني أتبع النصيحة الشريفة أن استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، وهي النصيحة التي طالما نفعتني في تجارتي، لم أفصح لأحد بسؤال،ي وأرسلت في طلب شقيقتي، فهذه شئون لا قبل لنا بها، نحن معشر الرجال.

لم تقض أختي أقل من الليلة، إلا وأتتني بما شئت، وما لم أشأ من أخبار! عرفت أن أباها مات شهيدا ضد الفرنجة، ولا يعرف لها عم أو عمة، وهي وحيدة تركها أبوها رضيعة، فبقت أمها في حداد عليه لليوم. كذلك أخبرتني بأصلها الطيب - على فقرها - فقد كان جدها لوالدها غنيا، كما يقولون، لكنه كان سفيها، أضاع أمواله، وباع قصره، وأتى لهذه المنطقة عاش فيها ذليلا، حتى مات محسورا.

أما جدها لأمها، فكان قاضي القضاة وشيخ شيوخ الطرق الصوفية في كل القطر، وهذا لنسب يليق بأمير، لولا أن تفرق

على أبناء وعيال كثر، لم يصب كل منهم من المال والمنصب شيئا يذكر.

واليوم هم رقيقو الحال، لم يبق من العز القديم شيئا، ولولا معونة الخال الأكبر، وبقايا موائد القصر الملكي، لماتوا جوعا، كما يزعم القوم.

وأدركت لم تأخر عنها الخطاب حتى اليوم، وحين قالت أختي بقلق:

"يتحدثون عن خطاب كثر أتوا فرحلوا؟"

رددت عليها:

"ومن يذهب لها في ظنك؟ باحث عن فقيرة مثله، يدهمه نبل أصلها، فيخاف، أم باحث عن نسبها يفاجئه فقرها، فيحجم؟ ما لها غيري بإذن الله، ولم يتأخر الخطاب إلا لكي أتقدم أنا!"

ردت شقيقتي وهي تمط شفتيها:

"أكره أن تتزوج من العاصمة! مالنا ومال بناتها المرفهات؟ تعال لساوة انتقي من صويحباتي ما شئت."

قلت لها سائما هذا الجدل المتكرر:

"أشعر أنها نصيبي، ولا أكون تاجرا أريبا إن تجاهلت ما رسمه لي القدر من مغنم."

قالت متبرمة:

"أي مغنم؟ إن تزوجت من خارج ساوة، فستعيش خارج ساوة، لأفقد أنا شقيقي، وتفقد أنت تجارتك!"

تجاهلت تشاؤمها، وما كان العشق ليترك لجدلها منفذا! طمأنتها إنني سآخذ زوجتي لساوة، وأطعم أشقائي من يديها طعام الملوك، فتركتني قائلة:

"أما وقد أحكمت أغلالها على لبّك، فلا فائدة. ماذا ستفعل الآن؟"

إلى حد ما أحسست بالقلق من شقيقتي! مادامت لم تتقبل الأمر، فلن ترتاح حتى تفسده بحيل النساء، وما أدراك ما حيل النساء! ربما أجد داري قد تحول إلى كعبة لعائلات ساوة، تتوالى عليّ ضيوفا، بزعم التهنئة، وحقيقة عرض بناتهن عليّ!

لذا قلت لها:

"خير البر عاجله!"

وتركتها في غيظها، لم أخبرها بالمزيد، وعقدت عزمي على المضي دونها. فتوجهت للمسجد الغربي الكبير.

وطوال الطريق، أخذت أفكر كيف سأقابل الرجل؟ وماذا أقول له؟ في الحقيقة، لقد خارت قواي فجأة، وأصابني الوهن حتى أكلتني الظنون! أتراه يردني ردا غير جميل؟ أيقول لي إنني

ابن الفلاح، لا أليق بحفيدة قاضي القضاة، ولو كانت فقيرة؟ أيتهمني بشراء النسب بالمال؟

ولما اقتربت من المسجد، تفككت أوصال،ي ودعتني قدماي لركوب الريح فرارا، وهي تخاطبني مستنجدة: هل ارتديت حلة تليق بهذا المقام؟ هل ترى نفسك حقا أهلا للزواج؟ هل عطرك مازال نضرا، أم أن عرقك يفوح ليخنق الرجل؟ هل الزواج اليوم أمر مناسب لك ولحالك؟ أترى وجهك مليحا يعجب الفتاة؟ أتظن بنات العاصمة يصلحن لفتيان ساوة؟

وهكذا تقاذفتني أسئلة عن شأني، مع أسئلة عن شكلي، حتى تثاقلت أقدامي، ولما وصلت للمسجد، قررت العودة مغلوبا من قلقي، لأتزين وأتعطر، وأعود في خير حا،ل بعد أن أطمأن على حالي وأحسب أموالي.

ولما عدت مصفر الوجه للبيت، استقبلتني أختي بمصممة الشفاه شامتةً!

قالت لي بلهجة من توقعت الأمر:

"هل استكبر عليك سكان العاصمة، وأعادوك لحظيرتك وأهلك؟"

رددت مرتجفا:

"بل أصابني الفزع، إذ أدركت سوء لبسي، وقبح وجهي، وكراهة رائحتي!"

نظرت لي مندهشة، واقتربت مني، فتراجعت متضايقا إذ لا جهد لي لمواجهة إلحاحها، ففوجئت بها تتشممني، وتقول:

"لا أشم إلا طيبا، ولا أرى إلا طيبا؟ ما بك؟ لا تخفي على أختك. هل خذلوك؟"

رددت عليها:

"بل تفكرت في الأمر، فخشيت أن أقابل الرجل بحالي هذه، فيزدريني."

ضحكت! تلك الحمقاء تضحك عليّ تبا لها! تركتها، ومضيت لحجرتي مكسوفا محسورا، وأنا أشعر بضآلة قدري، وحقارة حال،ي فوجدتها تتبعني مسرعة، وضحكاتها تدق على رأسي دقا.

قالت:

"أهذا أخي الجريء النشيط التاجر الأريب؟ أتسترخص بضاعتك النفيسة؟ ما أظن فيك إلا أنك بخير حال! أستبد بك الفزع يا غلامي، كما يصاب الحافظ إذا امتحنه شيخ الكتّاب، فيتوه منه حفظه! لم أظنك تحبها لهذه الدرجة، إنما ظننتك فتنت بجمال لم أره فيها، ووجدت صويحباتي أحق بك منها! هون عليك اليوم وغدا سأشرف على تزيينك بنفسي! واطمأن

سأذهب الليلة لزيارة جيراننا، حاملة معي بعضا من أرز ساوة، وعطور الزرقاء، لأتعرف عليهم وحينها سآتيك بالخبر اليقين، إن كانت نفوسهم طيبة تستقبلك، أم لئيمة ينفرها الله فيك لتنجو منها!"

فجأة، أتاني الحماس الجارف لا أدري من أين، فقلت لها:

"ولم الليلة؟ أستطيع أن أحضر لك أفخر الأشياء من المخزن و........."

قاطعتني:

"أيها الخائب! لا تحرق أسرارك بهذه السرعة! هي هدية تعارف. لا نرهم بها لهفتك، حتى لا يغلو الثمن أيها التاجر الأريب! اهدأ أنت، واستخر الله حتى الغد، ودع الأمر لي."

كما قلت من قبل، هي شئون للنساء فيها باع، لا قبل لنا نحن الرجال به!

قضت الليلة في قلق ورجاء، ونزلت أختي للمخزن تنتقي من بضائعي شيئا، فألححت عليها أن تأخذ قدر ما تستطيع لتظهر قدرتي وكفايتي. لكنها حاجتني بأنها لو أخذت المزيد، فقد يظهر الأمر كصدقة، لا هدية عادية، وهو أمر لن تتقبله نفوسهم حتما. فاكتفت تحت إلحاحي بجوال من أرز ساوة الشهير، وزجاجة صغيرة من العطر، وقطعة قماش نفيسة، ثم غادرتني مع الخادم قائلة بثقة:

"هون عليك، فمثلها لن تجد مثلك أبدا. أنت بالنسبة لها هدية من السماء!"

جززت على أسنان،ي وودعتها، وجلست ألتهم أصابعي قلقا متربصا.

ترى ماذا دهاني؟ في الصباح كنت واثقا مطمئنا، فإذا بي إذ اقتربت الساعة، أزوغ وأتقهقر قلقا، ما أن ظهر لي احتمال الرفض، حتى وليت مدبرا ككلب خنوع.

لكن الوقت لم يمض طويلا، وأتتني شقيقتي هادئة فسألتها:

"كيف كان الأمر؟ عدتِ مبكرة؟"

ردت:

"لم أشأ أن أتركك في قلقك!"

ثم صمتت هنيهة، وقالت:

"لم يكن الأمر يستحق البقاء طويلا. جارة تزور جارتها بهدية، وتتعرف عليها وتعود، كنت سأبدو سخيفة لو بقيت هناك."

سألتها:

"وماذا دار بينكن؟"

ردت:

"حديث سريع عن هدوء الحي هنا، وأنك أخي الطيب الثري، فضلت هذه الدار لطيب جوها عن الدور القريبة من السوق. ثم ذكرت إن الناس تمدح في جيراننا، فأحببت التعرف إليهن، خاصة وإن الناس تذكر زهيرة بالخير، فرحبن بي، وسألنني عن كيف أرى الحياة هنا، فقلت أرى حياة ساوة أطيب، ثم ودعتهم وعدت."

نظرت لها نظرة خاوية، وقلت:

"فقط هذا! أيتها اللئيمة، ذهبت لتقولي لهن بلدي خير من بلدكن، ثم عدتي!"

ردت مبتسمة:

"لا بالطبع! حينما أخص بالحديث من بين أهلي واحدا، وبالسماع من بينهن واحدة، فالأمر معروف، والتلميح يصل للتصريح، ولن يغيب عن أفاهمهن أيها المتذاكي."

جززت أسناني، متذرعا بالصبر:

"دعيني من ألاعيب الحديث هذه، واخبريني بما رأيت."

قالت:

"تبدو فتاة طيبة، نعم الزوجة. ولو أن أمها حزينة بشأنها، على الأرجح لتأخر زواجها، وقد أحسست منها هي بالذات ترحابا."

٩-٢ (الخطبة)

هنا أحسست كأنما قد زال عن طريقي قاطع طريق متربص! وانشرح صدري، وتهاوت مخاوفي، حتى استحمقت نفسي لما أصابها، وعقدت العزم على الذهاب لخالها غدا دون إبطاء.

وفي الصباح قضيت حاجاتي مبكرا، ونظمت شؤوني، لأعود مبكرا للمنزل، أغتسل وأتعطر، وأختار أفضل ثيابي (أو اختارتها شقيقتي لي بالأصح). وذهبت بخطى واثقة للمسجد، وكلما عاد لذهني وسواس من وساوس الأمس، نبذته مستعيذا بالله من الشيطان.

توجهت للمسجد الغربي الكبير، فسألت عن شيخ الطريقة الشاذلية، فأشاروا لي عليه، فتوجهت رأسا نحوه في حلقة ذكره، فقطعتها عليه، وقلت بصوت حاسم:

"أريدك يا شيخي في أمر من مصلحة العباد، فهلا أذنت لي بانتظارك ؟"

قال بصوت خاشع:

"بل آتي معك، فقد علمنا خير البرية إن قضاء حوائج العباد، مقدم على نفل العبادات، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته."

وأتاني الشيخ الوقور متجهما قلقا، فابتدرته:

"أريدك يا مولاي في حاجة عزيزة، وأمنية شريفة، ولا أرجو منك إلا خيرا. أنا من تجار ساوة، أرضى بالحلال، وأنبذ الحرام، وقد من الله علي بالمال والصحة، فأردت أن أكمل ديني، وأتبع سنة نبيي، وأستظل بنعمة العفاف.

وقد لمحت عيني زهرة صغيرة أينعت، وأدرك قلبي أنها المختارة، وأيقن عقلي أنها اليمن على داري. فإن أتاني رضا وليها، أنارت لي حياتي."

نظر لي متأملا لفترة، ثم قال:

"أو تدري من والد زهيرة، ومن جدها؟"

رددت:

"سمعت إن جدها أضاع ماله، فمالي وماله؟ مات أبوها شهيدا، فهل بعد ذلك نسب؟ يزعمون فيها فقرا، فهل رأوا سخاءها؟ الغني بما يعطي، لا بما يأخذ، ولذا فزهيرة عندي لا تُسأل في نسب أو غنى، وكفاها إن جدها لأمها قاضي القضاة."

مط شفتيه، وقال:

"أو تدري من والد زهيرة، ومن جدها؟"

كان صوته جادا، ووجه عابسا، فلم أعرف أيحذرني من عيب فيهم، أم ينبهني إلى أني دونهم؟.. لكن عزمي كان قاطعا، ونيتي صادقة، فقلت:

"أوتدري يا شيخنا من هي زهيرة؟ مالي ومال جدها؟ كلكم من آدم وآدم من تراب. إن كنت تخشى أن أضن عليها، أو أكون أقل شرفا منها، فقد قلت لك إن الكريم أنعم علي برزق حلال، ولي أهل وعزوة، فكلنا في ساوة أخوة. وإنهم ليعينونني وقت الحاجة، كما أعينهم عند الفاقة. فهل بعد هذا أُسأل عن رهط؟"

صمت الشيخ متفكرا حينا، وقال كأن لم يسمع غيرهاك

"كلكم من آدم وآدم من تراب."

ثم أضاف:

"حسنا يا بني كم تمهرها؟"

أشرقت السعادة في قلبي، فقلت:

"بكل غال ونفيس."

قال:

"فيم تتجر؟"

رددت:

"أتجر في الأعلاف صيفا، والنفائس واللطائف شتاءً."

قال لي متحدثا ببطء:

"أنت قلت إن الغني بما يعطي، لا بما يأخذ؟ مهر زهيرة أن تطعم ألف جائع، وتكسو ألف عار، وتعتق مائة رقبة. وقلت إنكم في ساوة إخوة، فمهرها أن تشتري لها دارا في ساوة لها ولأمها. أتقدر على هذا المهر؟"

تجمدت للحظات أشعر بالعجز، لولا أن عقلي، الذي اعتاد على حساب كل شيء قبل أن أفكر فيه، أخبرني أن الأمر على صعوبته ليس مستحيلا، وأيده قلبي الذي تحدث عن نهر خير يجري على يد زوجة المستقبل، في وقت اشتد فيه الجوع بأهل العاصمة، ومزق الظلم ملابسهم. صحيح إن الألف كثير، ولن تكفيها أموالي، إلا لو قضيتها على أعوام، لكن لم يكن هناك مناص فالرجل يخبرني إنهم ليسوا أهل طمع، وإنما مثلها مهرها مهر الأميرات، ولست أنا بأمير، فلو جادلته سأرد خائبا.

لذا، نهضت دون كلمة، واتجهت للسوق أتدبر الأمر على كل وجه.

قد يكون أمر الإطعام سهلا عن غيره، فإنما هي تجارة موسم واحد ستكفيني، لكن كساء الألف، وعتق المائة لن يبقى له مال حينها.

ولكي أنفق المال، أحتاج للمال! وهنا عقدت العزم على القيام بأفضل ما يستطيعه التاجر الخبير.

أول ما بدأت به، هو تجارة اللطائف الأكثر ربحا. جمعت كل ما عندي من مال، وخرجت للزرقاء أشتري من تجارها، بمجرد نزولهم من المراكب، حيث يرخصون الربح للإسراع بالعودة.

لم تكن هذه هي زيارتي الأولى للزرقاء، فقد زرتها أحيانا مع بعض قوافل ساوة، لكني لم أحمل وقتها تجارة تذكر، وكنت أبيع لا أشتري. وبدت لي المدينة الجميلة المزدهرة فاتنة حقا، لكن تجارها خبراء ماكرون، احتاجوا مني لمناهضة طويلة كي لا أقع في براثنهم!

كنت، لأول مرة، في مدينة تقوم على التجارة، وكل أهلها من التجار إلا قلة من صيادين وبحارة، فالبيع يحتاج لفاصل مع المشتري، والشراء يحتاج لملاججة مع البائع، وهو أمر مرهق أيما إرهاق!

لكني خرجت منها بقافلة طيبة، فمضيت من سوقها الكبير المزدحم إلى أسواقي الخاوية، التي لا يرتادها سواي في المدن والقرى الصغيرة البعيدة في الغرب.

٩-٣ (كسر الحصار)

ورغم كل ما جمعته من مال في هذه الرحلة، إلا إنه لم يكن ليكفيني. وقد اقترب وقت الشتاء العاصف، الذي تتوقف فيه السفن عن زيارة الزرقاء، وتندر بضائعها. إلا إنني في ترددي على الزرقاء ذهابا وإيابا، اختمرت في ذهني فكرة.

حقول الجنوب تتكدس بغلالها، لا يمسها أحد، بعد أن قطع أمراء المماليك المئونة منذ عامين، عقب هزيمة جيش الملك أمامهم. والحصار شديد يشكو منه الناس، ولولا إن ساوة، وما حولها، تسد رمقهم لفتكت المجاعة بالبلاد.

لكن لو كانت الطرق مقطوعة بيننا، وبين أقاليم الجنوب، فلابد إن كنت مصرا على هدفي، أن أخترق هذا الحصار، أو ألتف حوله!

استأجرت من الزرقاء مركبا كبيرا، فسرت به للجنوب حتى شاطئ مقفر، فنزلت مع جمالي، وسرت ببطء في الصحراء، أتحسس الطريق دون أدلاء، معتمدا على قراءة النجوم والرياح، مقتصدا في الماء والطعام، حتى وصلت أخيرا إلى أول القرى، ومنها لمدينة ينبوعة الصغيرة، التي اعتدت زيارتها مع باقي تجار الزرقاء قبل الحصار.

أتيت أشتري بأرخص الأسعار، فأعطوني بأزهد منها. كانت بضائعهم ركدت، حتى افتقروا، وخشوا على حصادهم من الفساد، فبدوت لهم كغوث من السماء يخلصهم من حملهم!

وأتى التجار والزراع يلحون علي في الشراء منهم، فأردهم بأني لا أملك من الجمال ما يحمل غير ما اشتريت، وقد نفدت أموالي.

وهنا جاء عبد الله الطوخاني، شهبندر التجار في الإقليم، كان كبير تجار الغلال، وصاحب أكبر تجارة في أقاليم الجنوب كلها، قبل أن يكاد يفلس بسبب الحصار.

قال لي:

"عندي جمال هي عليّ عزيزة، لولا أنها سمنت من قلة العمل، فكادت أن تمضي للذبح زهيدة. ولدي غلال مكدسة في صوامعي منذ عامين، أصبحت نهبا للفئران، لا أصدها عنها لأنها بلا آكل سواها. لا يضرني أن أقرضك الجمال، تحمل بضائعي وبضائعك لتذهب بها للعاصمة، ولك نصف ربحي جزاءً لمخاطرتك بحياتك في خرق الحصار."

نظرت له مترددا وقلت:

"لا أستطيع أن أقود قافلة بهذا الحجم يا سيدي، كما أن إعادة المال لك ستكون صعبة؟"

رد علي بهدوء:"أثق فيك يا بني، كما أثق أن حق عبد الله الطوخاني عند أي تاجر لن يضيع! أموالي سأدلك على من تعطيها له، وسيوصلها لي سالمة، هي وأموال من يفعل مثلي."

لما سمع الناس بأمر خروجي بقافلة الشهبندر، توافد إليّ الكثيرون يرغبون، إما من عاطلين يرغبون في الخروج معي، ومشاطرتي المغامرة والربح، أو ممن يرافقونني بتجارتهم، أو يريدون ائتماني على بضائعهم بنفس شروط الشهبندر.

وإذا بي أزور مدينة واحدة، لأخرج منها ببضائع إقليم كامل، أغلبها من الغلال، وبها بعض الأشياء الأخرى التي اعتاد الناس تجارتها.

لم أفرح بهذا الأمر، فالحقيقة أن الناس فقدوا حذرهم، ونسوا إن المماليك لن يرضوا بهذا الأمر، ولو وصل الخبر لهم، فسيكون الهلاك مصيرا رحيما بنا! وكلما تضخمت قافلتي، صعب علي أن أزوغ عن أعينهم، كما إن سفينة الزرقاء لن تستطيع حمل كل هذه الأحمال، مما اضطرني لإرسال رسول للبحارة، لكي يعود بعضهم للزرقاء، طالبا سفنا أخرى، وهو ما كشف للناس الطريق الذي أتيت منه، مما يسهل على أمراء المماليك تتبعي، ويضطرني للتأخر مدة أطول في انتظار السفن الجديدة.

ولم أطق صبرا مع تزايد الناس في التراخي والثرثرة، إذ فوجئت وأنا أتجول في سوق المدينة ببعض الناس تثرثر عن رحلتي

وبضائعي بلا اكتراث، وعن المكان الذي نزلت فيه سفني تحديدا! وقد علموا قبلي بوصولها وتكدسها، وإن الكثير من الصيادين المتعطلين عن العمل رافقوهم طمعا في أجر نقلة ما!

أسرعت أنادي بالرحيل، وأجمع القافلة المتضخمة وأنا أرجو الناس الكتمان، فإذا بي أجد المدينة، ومن حولها من قرى، قد خرجوا لي ولرجالهم مودعين، ومعهم النساء تنوح، والأطفال تهلل، فشعرت بفضيحة من يجرسه القاضي أثناء تسلله لبيت يسرقه!

كان الأمراء حتى اليوم غافلين، فلسنا في موسم تجارة أو حصاد، أو حتى صيد. وهم لا ينتبهون للناس، خاصة في القرى والمدن الصغيرة، إلا في مواسم جمع الضرائب، والجبايات الثقيلة. لكن الفوضى العارمة، والصخب الفادح الذي حدث عند مغادرتي، قد أعلما حتى الأموات بأمري!

مضيت في الصحراء المهجورة، أقطع الطريق مسرعا محملا كل شخص وجمل بقرب الماء، وإذا بخيّال يلحق بي منذرا بما توجست منه..

"يا أخا الإسلام أسرع."

رددت عليه:

"من أنت؟"

قال:

"أنا نذير من أهل الينبوعة، علم الأمير ططش الألفي بأمرك فأرسل أغاه بجنوده لاقتناصك!"

تبا لهذا الأمر. والأسوأ أن سبب معرفة الأمير الظالم كان مغيظا لي. أحد الفلاحين حمل بعضا من متاعه، يبيعه للأمير بأي ثمن، فلما تعجب الأمير، أخبره الرجل بمنتهى السذاجة إنه يجمع المال ليرسله مع القافلة لأقاربه في العاصمة!

زدت بالسرعة رغم أحمالي، وقد بدا الأمر سباقا بيني وبين جند الأمير الخفاف المدربين من ناحية، وبين كلينا والأرض القاحلة الجافة من ناحية أخرى. لو استطعت الصبر بما يكفي بعيدا عن الماء، بعد أن ينفد صبرهم، فقد أنجوا منهم، لأقع في براثن الظمأ.

أخذت أحث الرجال على المسير رغم سطوع الشمس القاتلة، والشمس هنا حارقة صيفا وشتاءً، وأحثهم في الوقت نفسه على الاقتصاد في الماء. ونجحت في الأولى، فلم يظهر لي غبار المطاردين إلا عند الغروب. ودق قلبي ذعرا، لكنهم إذ أصابهم الإرهاق والظمأ، ارتدوا خائبين.

وهنا وقعت في الثانية! الشمس القاسية، والتربة الجرداء، والهواء الجاف، يتآمرون معا على مياهنا المتناقصة بسرعة،

خاصة وقد روى الرجال ظمأهم بغير حساب أثناء المطاردة، وبعضهم أهدر قربته على الأرض بسبب ذعره.

هنا أوقفت القافلة لتستريح أخيرا، وجمعت الرجال، فقلت لهم:

"الآن إما أن تسمعوا لي، أو تغادروني. منذ هذه اللحظة فأنا الحاكم المطلق للقافلة، وأميركم الذي يسري أمره على رقابكم! لن ننجو إلا بالتدبر والحزم الشديد. فهل من معترض؟"

نظرت لوجوههم الدهشة المترقبة، ولم يأتني الرد، فأكملت:

" منذ اللحظة ونحن في خطر أشد من سيوف المماليك، ألا وهو الموت ظمئا بلا مغيث. لذا فلن يشرب أي منا في اليوم إلا كوب واحد، وفي الليلة إلا نصف كوب. سنمشي في الليل، ونحتمي من الشمس في النهار، حتى نخفف من وطأة الظمأ. ولا أعدكم إلا بعذاب مؤلم، ومعاناة مضنية، لكنها ستوصلكم للنجاة بإذن الله."

لم أتوقع منهم التزاما بأمري، لهذا أخذت أدور على القرب أتفقدها، لكنهم خيبوا ظن السوء عندي، ووجدتهم واعين للخطر المحدق بنا.

سرنا أياما أخرى، في طريقنا للسفن. كان سيرنا بطيئا بسبب أثقالنا، وتفاوت قوانا. فالقافلة تسير على حمل أضعافها، فبدا لي أن ما ظننته يكفينا من ماء وزاد قبل الرحلة، لن يجدي اليوم حتى مع الاقتصاد نفعا. وأمرت القوم أن يكتفي كل منهم بكوب

ماء واحد في اليوم، وأخذت أسأل ذوي الخبرة بالمكان منهم، هل من آبار قريبة، فيردوا أن هذه أرضا مهجورة، لا يعرف فيها بئر!

وقبل أن نصل للساحل بيومين، نفد الماء عن آخره، وأصابني الفزع والكمد. أنموت من العطش هنا على أعتاب النجاة؟ وقد استبد بنا وبدوابنا التعب، فلم نستطع أن نجد المسير، فأمرت بنصب الخيام للمعسكر، فصرخوا فزعين "سنموت عطشا."

قلت لهم:

"رحمة ربكم واسعة، فنستغيث بها. سآخذ بالأسباب قدر استطاعتي. سأختار منكم أجلدكم على أخف دابة، ليطير مستغيثا بالبحارة، ليأتونا بالماء، بينما نبقى نحن هنا، مدخرين ما بقى في عروقنا من طاقة، مبتعدين عن حر النهار، وزمهرير الليل."

أرسلت رسول النجدة، وحثثته أن يسرع، وانتظرت مع من معي، أدعو الله أن نصبر الأيام الأربع.

باستثناء المشقة والعطش، مر أول يومين على خير؛ لكن الإرهاق شدد وطأته علينا بعدها. وبدا الهلاك يرقبنا بصبر فارغ، فأصيب ثمانية منا دفعة واحدة بالحمى، التي أقلقتنا. وخرجنا نبحث عن عشب أو شيء يداويهم، كما نصحنا أحد الرجال ممن له خبرة بالعطارة.

لكن هذا المكان القاحل لم يكن به إلا حفنة من أشواك، وحطب، وبعض الصبار القليل.

وهنا واتتني فكرة، أتيت بصبارة، فشققتها متحاملا الأشواك، واستخرجت بعض لبها، فمضغته، فلم أجد إلا قليل من رطوبة ومرارة، لكنها أنعشتني. فأخذت ثلاثة من رجال، هم كل من يقوى معي على العمل، نمزق الصبار القليل حولنان وندفع بلبه في أفواه العطشى، علها تتصبر قليلا.

ولو إن بطوننا آلمتنا يومها بشدة، خاصة وأن بعض أنواع الصبار ملينة للبطن، كما أعلمتني التجربة، إلا أننا تجاوزنا اليوم دون مزيد من جراح.

لكن في فجر اليوم التالي، بدا الهلاك وشيكا حقا، فأمرت الرجال بذبح ثلاثة من الجمال المنهكة، وجمع دمائها في إناء كبير. ورغم إننا كنا في مخمصة، إلا أن أيا منا لم يستسغ شرب الدم المسفوح، رغم الضرورة. ولذا جمعت الدم، وأوقدت عليه النار أغليه، وأضع أنا والرجال بعض الأطباق الباردة، أو القدور الفارغة ليتكثف عليها بعض من قطرات الماء المر، فنلعقها بشغف حتى احترق الوعاء بما فيه، دون أن نجد ما يروي الظمأ.

ثم أتى اليوم الرابع، الذي أرجح مجيء النجدة في آخره، فتطاول علينا كأنه بلا نهاية، وقبل أن تغادر الشمس كبد السماء، كانت

الحمى أوقعت الجميع إلا اثنين. وأحسست معهم بالألم واليأس، وبدأ الوهن يفتتني، والألم يحرقني، وأرى الهلاوس حولي في كل مكان، لولا أن تماسكت حتى لا يفقد الرجال بقية جأشهم إذا وجدوا قائدهم قد انفطر.

وبدأ البعض يحتضر فعلا من العطش والإنهاك، لولا مطر خفيف نزل فجأة على غير انتظار، وأشد ترحاب. بدت لي قطرات المطر حينها أثمن من قطرات ذهب وماس، فأخذنا نضع خرق القماش على الأرض لتمتص الماء، فنضعه على أفواهنا، وجباه المحمومين، ولم نملك من الجهد ما نستطيع به مع الماء بغير هذا الطريق، وقد أصاب العطش البعض بالجنون، فهجموا على الإناء المحترق، الذي حوى دم الإبل، يلعقونه بما اجتمع فيه من ماء آسن، دون أن أقوى على ردهم.

ورفعت رأسي للسماء أستغيث، وخفضتها فوجدت النجدة آتية!

ثمانية من الأعراب، حاملون قرب ماء، ينزلون نحونا مسرعين منجدين.

وقفت ذاهلا، متصورا أن الهلاوس والسراب قد تمكنا مني أخيرا، إلى أن وجدت الماء العذب اللذيذ يصب في فمي منعشا.

استغرق الأمر مني بضع دقائق، حتى استعدت رشدي، فجلست أحدث الأعراب.

كان كبيرهم رجلا عجوزا، من بني سليم، يعمل راعيا للغنم، ودليلا للقوافل الآتية من الجنوب، وقد سمع بمجيء تجارة من الشمال إلى ساحل البحر، فخرج لعله يقتنص منها شيئا، وحينها قابل رسولي، وعلم بحالنا فهب لنجدتنا.

وقال لي الشيخ العجوز:"تركت بضاعتي خلفي، وحملت بدلا منها الماء، وجئت لكم بدلا من تجار الزرقاء، لعل الله يكتب لي ثوابا حسنا بنجدتكم."

فهمت ما يقصد فقلت:

"ولن يضيع الله أجر المحسنين. وأجر هذا الماء وحمله لن يضيع. وفي قافلتي متسع لشراء بضائعك."

كنت مدينا للرجل بحياتي أنا ومن معي، لذا فقد أكرمته في الثمن إكراما لا يعوض كرم النجدة، مهما فعلت.

وهنا اقترب مني أحد رجاله. كان شابا حديثا، تبدو على وجهه سمات العزة، وعلى ملابسه سمات الفاقة، فقال لي:

"هل لي أن أطلب منك أمرا يا سيدي الفاضل."

قلت له: "تفضل."

قالك

"أنا من أبناء السبيل، فقد خرج عليّ قطاع الطرق، وسرق ما معي، فبقيت هنا شريدا لا أستطيع العودة لموطني، ولولا كرم

بني سليم معي، لهلكت. لو حملتني معك على سفينتك للزرقاء؟ وسأرد لك نفقة السفر ما أن أعود لأهلي في بني الأسود، وتكون مكرمة لك عليّ لا يمحوها الدهر."

ابتسمت، وقلت:

"لا تخيب ظني في بني الأسود! أترد نفقة مساعدتك؟ ما كان هذا لي، وما كان لكم."

وهكذا زادت قافلتي فردا، وكان نشيطا مخلصا ممتنا. وأكملنا طريقنا بأمان، وأنا أقودهم مهتديا بالنجوم، حتى وصلت للشاطئ. وقد حدت عن المكان قليلا، واضطررت لإرسال الكشافة على الساحل شمالا وجنوبا، حتى اهتديت لمكان لقائي بالسفن.

وهنا أذهلني ما رأيت! السفن القليلة الصغيرة التي اتفقت معها لم تعد وحدها! لقد وجدت ميناءا جديدا! مراكب كثيرة بعضها يتاجر، وبعضها يصطاد، وخيام حولها تشبه أسواق الأعراب، وخلق من كل جنس ولون يبيعون ويشترون! يبدو أن نبأ رحلتي وقافلتي لم يصل لآذان المماليك فقط، بل وصل لكل بلدان العالم! وحملت السفن بضائعي، وبضائع غيري، وعدنا للزرقاء، لم ننقص فردا، وسرت منها إلى العاصمة، فإذا بي أدخلها دخول الفاتحين!

وجدت آلاف الناس في انتظاري، تهتف، وتهلل لقافلتي، وتلوح لنا في ترحيب، والأطفال يتقافزون محاولين النظر بحثا عني، كأني أعجوبة من أعاجيب الدهر، أو ساحر أتى لهم بنفائس الهند والسند!

وعلمت أن الناس تسامعت (بالبطل)، الذي كسر الحصار بعدما فشل في كسره جيش الملك، وراوغ الأمراء وخدعهم، وأتى بالميرة رغما عن أنوفهم للعاصمة الجائعة، وحكوا في هذا قصصا لطيفة، وأساطير غريبة، تشوقت لسماعها، رغم إنني بطلها المزعوم!

واكتملت بهجة الناس إذ أخذت أوزع الطعام على الفقراء هنا وهناك، حتى أتممت الألف، وزدت عليهم. وبيعت القافلة الضخمة بأكملها في يومين فقط، بأسعار غالية ما بين حاجب الملك الراغب في ملء خزائن القصر الفارغة، وطباخي الأمراء، وعمال القادة، وباقي التجار المتنافسين، حتى اجتمع لي ربح مهول، لم أظن في يوم أن أجمعه في عام.

وحمدت ربي على هذا الرزق العظيم، وأدركت أن صبري فيما مضى، ورفضي لرفع الأسعار كباقي التجار، قد كان له عوضا مضاعفا، وما عند الناس ينفد، وما عند الله باق.

وبعد أن رددت أثمان البضائع، وأجرة الجمال، وأنهيت الديون والحسابات والهدايا والصدقات، وأكرمت رفاق الزرقاء الذين

أعانوني، استعددت للجزء الثاني من المهر الغالي، وهو أمر أيسر مشقة، وأغلى ثمنا.

ولشراء ألف ثوب، دلني رجال الزرقاء على ما أريد، وأحضروا البضائع لغاية عندي، وأخذت أوزعها طوال الأسبوع حتى أتممت الألف.

ثم اشتريت مائة من العبيد، وأعتقتهم جميعا لأسدد آخر شرط في المهر، بآخر مالي إلا قليلا.

وجلست منهكا، أحصي أحوال الرحلة الشاقة، وأرباحها، وخسائرها. وبعدها تجهزت بخير ثوبي وعطري، وذهبت للشيخ مسرعا، ومعي الشهود العدول بما فعلت، ولو إنني أظنه سمع بنبئي، كما سمع به كل أهل المدينة.

٩-٤ (الحجيج)

نظر لي الرجل متفكرا ثم قال" أحججت لبيت الله يا بني ؟"

رددت "لم يأذن لي الله بالحج بعد."

مط شفتيه وقال:

"قمت برحلة صعبة خطرة طويلة، وتكاسلت عن الحج ؟ وإني لأعلم أن زهيرة قد حجت من قبل مع والدها قبل استشهاده، وأكره أن أزوجها لمن لم يقدم دينه على دنياه."

قلت مجادلا:

"يا مولانا، إنما أحاول أن أكمل نصف ديني بها أولا، وقد أجاز الكثير من المشايخ تقديم الزواج على الحج. وما كانت رحلتي الطويلة إلا لها."

قال الرجل بجزم مستفز:

"رحلة أشق من الحج، ثم تقول لي تقديم وتأخير ؟ لا أظنك قمت بها لأجل زهيرة، وإنما أنت محب للمخاطرة في المكسب، والكسل في الطاعة، فلا شأن لي بك."

نهضت أجز على أسناني غيظا، لكني تماسكت، وقلت:

"فليأذن الله بما فيه الخير."

وخرجت من المسجد أفكر في الأمر. طريق الحج شاق، والأعراب فيه ينهبون قوافل الحجيج، ويقتلون ويسرقون، بلا خشية، كل من يقرب الحجاز. لكن إن كان قد أذن أذانه، فلن أحج وحدي.

عدت لساوة، أنبئ أخوتي بعزمي على الحج، سائلهم عمن يرافقني. وجادلتني شقيقتي طويلا في الأمر، فقد كانت تخشى عليّ كثيرا، فقالت:

"دعك من التهلكة، واتبع نصيحتي، أزوجك من هي خير منها يا فتى. وأنت لا تدري ما شأن خالها هذا، فلعله يطلب منك أن تحرر بيت المقدس من الفرنجة قبل أن تخطبها!"

لكني أصررت، وقلت:

"هذه فرصة لأداء الفريضة الأشق، ونحن في صحتنا يا فتيان ساوة!"

لست ممن يرجع في أمر كهذا، هناك قول للنبي العدنان (حجوا قبل ألا تحجوا.) وأما وقد عقدت العزم، فلا مفر ولا مرجع.

كان من أقنعها هو زوجها طائع، فقد بدا له الأمر إغراءا نادرا لم يكن ليحلم بمثله. فسرت بقافلتي الصغيرة، نسبق قوافل الحجيج بثلاثة أشهر كاملة إلا قليلا، لعلنا نصل قبل بدء موسم نهب القوافل.

حينما وصلنا لمدينة الثغر الصغير، بدا لنا طريق البر شديد الخطر، ومقطوعا. فالأهبال يزحفون عبر البلاد، لا يبقون على بشر أو حيوان أو بناء إلا أهلكوه. والفرنجة يستشرون بين المدن، يسالمون الملوك حينا فيأمن الناس، أو يقاتلونهم فيستحلوا كل دم تقربهم.

نعم في البحر قراصنة، لكنهم ليسوا بشر من قطاع الطرق من فجرة الأعراب، كما إن سفن الملك وسفن الفرنجة وحتى سفن الأهبال تطاردهم هذه الأيام. ولذا لما علمت بقطع طريق البر، توجهت بأهلي إلى الزرقاء، لنلحق بواحدة من سفن الهند.

كنت قد علمت أن سفن الهند تأتي محملة بالبضائع، وتعود خاوية لبلادها، وأن أثمان البضائع لا تحمل عليها، بل تدفع في الهند من قبل أن تغادرها. لذا فهي في عودتها آمن سفن، لأن القراصنة يزهدون فيها وفي خوائها.

وهكذا ركبنا تلك السفينة، لتحملنا لليمن. ورغم أن أكثر من قرصان مر بنا، لتبلغ القلوب الحناجر، إلا أنهم كانوا يبتعدون عنا مدركين أننا لا نساوي جهدهم. فمضى البحر بسلام، ونزلنا عندما توقفت السفينة في اليمن لتتزود بالماء، وهكذا وصلت للجزيرة عبر طريق أطول، أرجو أن يكون آمن.

كنت أنوي البقاء في اليمن شهرا، أنظر في أسواقها، وأتعلم من تجارها. لكن أخوتي قالوا إنهم لن يصبروا على زيارة المدينة،

لرؤية مسجد الحبيب عليه السلام، فأذعنت لهم، ومضينا نحو الحجاز، مستعينين بأدلاء مهرة، تجاوزوا بنا مناطق الخطر بسهولة، ووصلنا للحرم الشريف العطر، لنقم بخير زيارة أتبعها عمرة، وقضينا صوم الشهر الكريم، ثم بقينا في الرحاب الطاهر متطهرين حتى أتى وقت الحج، فكان من دعائي في اليوم الأعظم فوق عرفة أن ييسر الله حالي وأمر زهيرة.

وبعد طواف الوداع، وزيارة الوداع للمسجد النبوي، تأهبنا للعودة مع قوافل الحجيج، فإذ بي ألحظ إن تجارا كثيرين أتوا لشراء تمر الحجاز واليمن.

سألت، فأخبروني أن الأهبال - عليهم لعنة الله - أحرقوا نخيل دجلة والفرات، وفزع الفلاحون من زحفهم في الشام، فهربوا، لتبور أرضهم، فغلت التمور غلاءً فاحشا.

فتركت أخوتي يعودون مع القافلة، والتحقت بحفنة من التجار ومعي ما اشتريته من تمور، نبغي بيعها في أواخر مدن الشام، قبل أن يدهمها الأهبال.

وهنا دهمنا الفرنجة.

٩-٥ (في الأسر)

دهمتنا جماعة من جند الفرنجة، فنهبوا كل أموالنا، وقتلوا الدليل والحرس، وساقونا عبيدا لبيعنا في السوق، أو ليفتدي منا من يقدر نفسه بالمال. ورغم ما أصابني من فزع، لكن من معي من تجار طمأنوني، بأنهم سيتفاهمون مع أمير الفرنجة بالإتاوة المعهودة، ونخرج بفدية معا، على أن أرد لهم المال فيما بعد. وحثوني على الصبر، وعدم التمرد، لئلا يغضب علينا أولئك الجنود، وأن أطيعهم فيما يطلبون. وقال لي تاجر طرابلي يسمى زيتون:

"افعل ما يأمرونك به كالعبد الذليل، فليس هذا وقت الكرامة بل وقت النجاة."

امتعضت من الأمر، لكني أطعته. فهم أدرى بشئون بلادهم وبلاياها.

لكن ما أقلقني كان أمرا آخر. فالفرنجة ماضون نحو الشرق بإصرار مزعج، فتعجبت.. ألم يسمعوا بخطر الأهبال الزاحفين من هناك؟

واستبدلوا السمع رؤية! أتانا الأهبال كالموت الخاطف لا فكاك منه!.. بعد أقل من يوم، فرقة من طلائعهم أمسكت بنا، وساقتنا جميعا أسرى، ليصبح الفرنجة معنا في أغلال واحدة.

أراد من معي الانقلاب على جند الفرنجة، وضربهم انتقاما من أذاهم، وغيظا لسقوطهم في يد لا ترحم. لكني رددتهم بقولي:

"كلنا في هم واحد اليوم، وعلينا أن نفكر معا في حيلة تنجينا جميعا."

اقتربت، عند الليل بعد نوم زملائي، من حارسنا، وقلت له:

"أريد الحديث مع قائدك."

لم يكن يفهم العربية، فاكتفى بلطمي، فأخذت أحاول أن أفهمه بصوت خفيض، دون جدوى سوى المزيد من اللطم، وصرخ غريب لعله سباب.

ولكنه، على ما يبدو، اندهش أخيرا من حرصي على خفض صوتي، فأخذني لزميل لهم، أفهمني أنه الوحيد الذي يفهم العربية بينهم، ولن يحدثني القائد إلا بعد أن يرى هو أمري.

قلت له:

"أنا تاجر من تجار ميناء الزرقاء الشهير، وكان معي جواهر وأموال، أخذها مني الفرنجة ودفنوها في الصحراء، فلو إنكم

أطلقتم سراحي، أدلكم على المال، ولكم نصفه جزاءً لتخليصي من أولئك المعتدين، على ألا تخبروا أحدا من زملائي بالأمر."

قال لي الرجل:

"ولم تخشى من زملائك؟"

تصنعت التعلثم وقلت:

"هم يظنونني تاجر تمور. لا أريد إثارة حسدهم وحقدهم عليّ، أرجو حقا ألا تخبروهم بأنني أنبأتكم بأمر المال المدفون."

نظر لي الرجل، وابتسم ابتسامة خبيثة، فاطمأن قلبي إنه ابتلع الطعم، وظن أن هذا ليس مالي، وإنما مال أحد زملائي وأنا أرغب في الفوز ببعضه.

مضى بي إلى القائد، الذي صدق القصة، لكنه كان أكثر اهتماما بكوني من الزرقاء، فأخذ يثرثر معي، وعرض علي شرابا "نخب شراكتنا وكنزنا المشترك" كما زعم، فاعتذرت بأني لا أشرب الخمر، فتبسط معي في القول، وأخذ يحدثني عن الحياة في الزرقاء.

وأجزم أنه ماكر حقا، لكن لحسن الحظ تبينت أن ما بدا لي ثرثرة عادية، إنما هو أسئلة مفصلة ذكية، تدفعني دون وعي لوصف بلادي وحصونها. ولما تنبهت لفخه، أخذت أغلف

أحاديثي بالكذب، وأضاعف في قوة الملك وجنوده بفوق الحقيقة، وقد بدا لي اهتمامه ببلادي مرعبا حقا.

مضوا معنا منذ الصباح نحو الجنوب، وأنا أدل الجنود بإشارات متفق عليها على الطريق للكنز المزعوم، كأنما أخفي الأمر عن زملائي!

كان كل ما استطعت التفكير فيه، هو محاولة استدراجهم لطريق القوافل، الذي أخذنا منه الفرنجة، لعل أحدهم يقابلنا، فينقذنا. فكنت أسأل الشيخ زيتون عن الطريق في الليل، لأدل الأهبال عليه في النهار، لتمضي خمسة أيام قاسية، حينما لمحوا أخيرا بعض المسافرين على الطريق.

واستبشر الجميع خيرا، نحن استبشرنا بالنجدة، والأهبال استبشروا بغنيمة جديدة! وذاب استبشارنا في آتون سعادتهم، عندما أسرع المسافرين للفرار من وجوههم، مرعوبين ملقين السلاح والتجارة خلفهم!

واندفع الأهبال في جشع يطاردونهم، لم يتركوا إلا أربعة من الحرس. ولو إنهم فعلوا هذا أول يوم أسرنا فيه، لما جرؤنا على التمرد لما نسمعه من أساطير عن الأهبال؛ لكنني خبرتهم بشرا ليسوا إلا في الأيام الماضية، فحرضت زملائي ما أن غاب عنا الباقون، لننقض على الحرس، فقتلوا منا خمسة، لكننا تمكنا منهم في النهاية، وقتلناهم.

ويبدو أن الباقين أحسوا بثورتنا، أو يأسوا من اللحاق بطريدتهم، فعلا غبار خيولهم عائدا نحون،ا فأراد الجميع الفرار، فقلت لهم :

"بل اثبتوا واتئدوا وأحسنوا التدبير. ليأخذ الفرنجة الخيول ويهربوا بها نحو الشمال فهم مدربين، ولن يستطيع الأهبال لحاقهم، بينما لنتسلل نحن مختفين وسط الكثبان، ولنأخذ السلاح معنا حيطة، فلو ركبنا ما استطعنا الفرار."

أطاعوني جميعا. فلم يرغب الفرنجة إلا في الطيران وحدهم على ظهور الخيل، بينما كرهنا نحن أن نترك الفرنجة مع السلاح جوارنا.

عبر الأهبال جوارنا كالبرق يطلبون الفرنجة، فهرعنا مبتعدين نجري نحو القافلة التي هاجمها الأهبال، فلجأنا لهم ونجونا بفضل الله.

وهنا أدركت أني قد نلت من السفر ما يكفيني، وألا تجارة أو بيع لي في هذه البلاد، واستعوضت الله في خسارتي، وعدت لبلادي خائبا لا مال معي أو تجارة.

٩-٦ (العُرس)

كان طريق العودة شاقا مؤلما، لكن الله سخر لي من أعانني، جزاهم الله خيرا. عدت وحيدا مقهورا مضعضع النفس لداري، لأجد أهلي ينتظرونني هناك في قلق، فجلست مكتئبا أكتم همي، حينما وجدت شقيقتي بعد ثلاثة أيام تسألني:

"ألن تنزل للسوق؟"

قلت لها:

"ليس الآن فمازلت مهموما، ولا أملك الكثير لبيعه، إلى أن يأتي الحصاد الجديد في ساوة."

صمتت قليلا، ثم قالت:

"أولن تكمل عرسك يا فتى ساوة؟ ألن تذهب لخال عروسك تطلبها؟"

أتت أختي على الجرح، ووطئته بقسوة، فقلت لها كاتما دموعي:

"لا شأن لك بالأمر الآن. حينما أستعيد عافيتي، يمكنك أن تعرضي لي من تشائين من صويحباتك في ساوة."

قالت لي:

"ولم؟ ألن تخطب زهيرة؟"

نظرت لها مندهشا، وقلت:

"لا مال عندي الآن، وقد خسرت الكثير، فأنى لي أن أجرؤ اليوم على الذهاب لخالها؟"

قالت:

"لم يطلب خالها مالا. سددت المهر الذي طلب. وتكاليف العرس ستجمعها من هدايا أهل ساوة. فنقوط تيمور العلاف لن يكون قليلا! وهذا ذهبي قد استأذنت زوجي أن أبيعه لأعينك."

لم افهم لم تغيرت فجأة تجاه هذا الزواج، بعد أن كدت أيأس أنا من تمامه، فأوضحت لي:

"ما كان لي أن أحج لولاها. هي فتاة ميمونة، لن أضيع فرصة ضمها لعائلتنا يا تيمور."

وهكذا لملمت نفسي، وخرجت للمسجد الغربي الكبير، واتجهت عقب الصلاة رأسا للشيخ، قبل أن يبدأ حلقته.

نظري لي بدهشة، كأنما غيابي الأشهر الماضية قد أنعش في قلبه أمل يأسي. لكنه ابتلع دهشته، واستقبلني بترحاب، شعرت أنه صادر عن قلب طيب صادق، فزاد من ارتباكي في شأن هذا الرجل، الذي يتفنن في الضن عليّ بتوأم روحي.

سألني عن أحوالي، وما أصابني في غيبتي الطويلة، فأخذت أحكي حكايتي من أولها، وقد أخذ الناس يلتفون حول،ي كأني شيخ الحلقة لا هو، بمجرد أن ذكرت مقابلتي للأهبال. التف حولي الناس يسألون:

"أحقا رأيت الأهبال؟ ما حالهم وما شكلهم؟ أهم بالفعل ضخام الأجساد، وهل عيونهم تطلق لهبا يجفف الدم في العروق؟ أكما يقولون أنيابهم أطول من أصابعنا؟"

أخذت أرد على الناس نافيا تلك الأعاجيب:

"إنما هم بشر كسائر البشر، لولا إن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة."

سألوني:

"أحقا يقاتلون بلا وجل، ويقبلون على الموت كأنما يشتهونه؟ أوحقا إن السيف يجري في أيديهم، كأنما به شيطان، فيمزق من يريد، لا يناله أحد؟"

قلت لهم:

"إنما قتالهم كقتال البشر، غير أني أشهد لهم بالجلد والبراعة والمكر. رأيتم من لعب الأمراء بالسيف في الأعياد من هم خير منهم يا رجال. وقد رأيت الغيلان الحمر أشد جلدا وشجاعة وإقبالا على الموت منهم."

أخذوا يعيدون أسئلتهم، وقد دب القلق من الأهبال في قلوبهم، فأرادوا مداواته بحديثي، لكني جئت لشأني، فخشيت أن يذهب القوم بوقته، وأحببت أن أحكم أمري على الشيخ المراوغ، فقلت للسائلين:

"إن صدقتموني فيما أصابني - وإني لصادق - أتشهدوا لي بالشجاعة؟"

قالوا: "نعم"

قلت:

"وإن أخبرتكم إن الشيخ طلب مني كذا وكذا، فحدث لي كذا وكذا، حتى أتممت طلبه فهل تشهدون أني أوفيت؟"

قالوا: "نشهد طبعا."

نظرت للشيخ نظرة، أفرغت فيها عناء الشهور السابقة، وقلت:

"فإني أشهدكم أني أطلب منه ابنة أخته، بعد أن أوفيت بمهرها المطلوب."

صمت الشيخ، كأنما كان يعد طلبا آخر يؤخرني عن زهيرة؛ لكني ألجمته أمام طلابه، وأحرجته أمام الأشهاد، فقال مستسلما أخيرا:

"وأشهدكم أني قبلت طلبه، فأت لدارها بعد مغرب الجمعة."

ذهبت في الميعاد، سعيدا متعطرا، مرتديا خير الثياب اليمنية المحلاة بالقشيب، وأخذت معي ثلاثمائة دينارا ذهبيا، أقرضهم لي أشقائي لأمرها، وجاءت معي شقيقتي وزوجها، مبتهجين حاملين الحلوى والهدايا المعتادة.

وجدت في انتظاري الشيخ وأم العروس بالداخل، وعجبت لم أتت أمها تقابلني في مجلس الرجال، وفيه الشيخ، تاركة مجلس النساء خاويا منها؟ ويبدو أن الشيخ أدرك تساؤلي، إذ كان أول ما قاله، بعد السلام والتعارف:

"هناك أمر أكرهتني أختي على أن أقسم ألا أذكره لك، حتى لا ترحل بلا عودة، كما رحل من قبلك. هي تخشى على ابنتها فوات الزواج، وأخشى أنا ما هو أشد وأخطر."

أصدرت الأم زمجرة، فقال الشيخ:

"لن أخبرك برا بقسمي، وعلى كل فقد حاولت أن أجعلك تبحث عنه بنفسك، لولا عنادك."

قلت:

"أهو أمر يمس زهيرة وحياتها؟"

قال: "بالطبع."

زمجرت الأم، فتجاهلها وكرر:

"يمس حياتها بالطبع."

قلت:

"لعله متعلق بأبيها وجدها؟"

قال:

"هو حتما عن أبيها وجدها."

كنت قد فكرت في هذا الأمر ألف مرة، صحيح إن البعض يقول أن العرق دساس، ولكن زهيرة قد جمعت المال والحسب والدين، وما كان لي أن أحملها ذنب أبيها أو جدها. لذا قلت بقلب متيقن:

"إذًا لا شأن لي به، ولا تزر وازرة وزر أخرى."

نظرت المرأة بلوم لأخيها، وقالت ممتعضة:

"وزر؟"

تنحنح الرجل، وقال:

"الأمر ليس كما تظن، ولا وزر أو عيب فيه، ولكن الأمانة في عنقي تجعلني أنبهك لـ...."

قاطعته أخته صارخة:

"كفاك يا رجل، وكفانا من أمانتك المزعومة هذه، التي تريد كسر خاطر ابنتي وعريسها بها. هل لنا أن نجد زوجا خيرا منه؟

هو لا يريد أن يعرف، وأنا لا أريدك أن تقول، فهل تغصبنا غصبا؟"

أعترف إن الفضول قد ثار في قلبي حينها، لكني خشيت من غضب المرأة، وخجلت من نفسي، فكتمت فضولي ووأدته وأدا.

نظرت لي بتمعن، وقالت:

"أتريد زهيرة لذاتها أم لأهلها؟"

قلت: "بل لذاتها."

قالت:

"فهي خير النساء، لا عيب فيها، كما يكاد هذا الشيخ الخرف أن يوهم الناس.

فتح أخوها فمه ليتكلم، لكنها أخرسته، وقالت:

"بارك الله لك فيها، ولها فيك. قد قبلناك بإذن الله، وأما موعد الزفاف وغيره، فلتتفق مع أخي، بينما أنظر أنا لضيوفي الذين تركتهم!"

وغادرتنا، بعد أن حسمت الأمر لمجلس النساء، واتفق الشيخ المستسلم معي على أن يكون الزفاف بعد الحصاد التالي، لأكون وقتها قد احترزت شيئا من المال، وتفرغت من موسم التجارة، ولعله تعمد ترك المهلة لي للسؤال عن أهلها.

وبالطبع سألت كل من حولهم، فلم يأتني إلا خيرا، لم يكن سكان الحي يعرفون عن أهل أبيها الكثير، لكنه منذ أتى لهذه الدار والناس تشهد له بحسن الخلق، من يوم مجيئه حتى يوم استشهاده. فكرت أن أسأل بعضا من خطابها السابقين، أو أبحث عن أمر جدها، الذي يزعمون أنه أضاع ماله سفها، ولكن انشغالي بالإعداد للزفاف منعني، وهون الأمر عليّ حبي لها، وفرحتي بانتزاع الموافقة من خالها.

ولعله قضاء ونصيب لي ألا أعلم حقيقة الأمر إلا بعد الزواج.

كان العرس كبيرا بهيجاً في داري بالعاصمة. وأتى أهل ساوة كلهم ليفرحوا بي ومعي، والكثير من تجار السوق، وأهالي العاصمة ممن يذكرون لي فضلا في كسر حصار الغلال وقت الشدة.

وأولمت الولائم، لم أدخر جهدا في إكرام الضيوف، وبالذات الدراويش الذين أتوا من كل البلاد يجاملون شيخهم، وقد كانوا شاكرين لي، وأذكر كلمة أحدهم:

"كرم يليق حقا بالأمراء يا بني. أحسن شيخنا إذ اختارك لذات النسب الشريف، والمكانة النبيلة"

شكرته على المجاملة، لم أفهم ما وراءها؛ ولكن بعد أن ودعت آخر الضيوف، وكان خالها لم يرحل حتى قال لي:

"احرص عليها وعلى نفسك، وخير لكما أن تقيما في ساوة عن العاصمة. كنت قلقا عليكما قبل اليوم، لكن بعد أن رأيت حب

الناس لك اطمأننت. وأظن أن زيجة كان مهرها إطعام ألف جائع وحجة مبرورة، فإنها مباركة محفوظة، لن ينالها طاغية بأذى."

وتركني وخرج، وما أن أغلقت الباب، بعد أن غاب عن نظري؛ حتى دق الباب مرة أخرى.

تكاسلت للحظة، وأنا أنظر لوجه عروسي المضيء، فتكررت الدقات عنيفة و..

"افتح بأمر الملك."

نظرت لي زهيرة بخوف، وقالت:

"لا تفتح."

ابتسمت وأنا اتجه للباب، وأفتحه قائلا لها:

"كانت لي تجارة مع القصر، وقد كان لي فضل كسر الحصار العام الماضي، ولعل الحاجب أرسل لنا تهنئة أو هدية، وهذا شرف لا يرد، سيرفعك بين نساء ساوة."

فتحت الباب، وهي تكرر بقلق:

"لا تفعل."

لكن القدر قد حتم، والباب قد فتح، واختطفني الجند بحالي واضعين القيد في يديّ وقدميّ، واقتادوني كالسجين، لا أدري من أمري إلا أنني حزين.

حاولت سؤالهم، فأجابتني أسواطهم. استغثت، فلما رأى الناس الجند فروا. ومضت زوجتي خلفي، فهتفت بها:

"اذهبي لخالك أو لساوة، فلا أدري أيكرمك أولئك اللئام إن أتيت خلفي"

قالت: "إنما أريد أن أشفع لك."

تشفع لي بم، وكيف، ومن ماذا. هتفت عليها أن تبتعد، لكني لم أسمع ردها، إذ اقتادني الرجال مكبلا فوق جواد مزعج، وجروني مسرعين نحو قصر الملك.

مضيت في هذا الظلام معهم، لا أفهم جريرتي، حتى وصلنا للقصر، فأنزلوني. فتوقعت أن أقابل الحاجب، فأعاتبه، لكنهم مضوا بي أمام حجرته، لم يدخلوها، فتوجست خيفة، وظننت أن الوزير سيقابلني، لكنهم تجاوزوا قاعته (أو ما سمعت من الناس أنها قاعته)، واتجهوا بي لأبعد من ذلك.

ووجدت نفسي في قاعة العرش أمام الملك نفسه!

(١٠)

المحاكمة الظالمة

١٠- ١ (عار الملك!)

لم أكن قد رأيت الملك من قبل. لكني عرفته بسهولة. لم يعرف عنه إنه ارتدى تاج آبائه من قبل، ويزعمون أنه يخشى أن تعرف الناس وجهه، فيقتلونه إذا خرج من قصره!. لكنه كان أمامي، مرتديا تاجا من الذهب الأبيض تلمع عليه جواهر غالية، ويمسك بما هو حتما الصولجان، الذي أسمع عنه في الحكايات، وكان عصا من الفضة المرصعة باللؤلؤ والياقوت الأحمر، الذي كان أقل حمرة من وجهه الملتهب غيظا.

لم أدر ما أقول، فأنا أصلا لا أعلم ما تهمتي، لأبرئ منها نفسي، لذا وقفت أمامه خاشعا منتظرا.

تكلم الملك بصوت كالرعد:

"أهذا هو الذي أهان نبلنا، واعتدى على نسبنا؟"

بهت للتهمة الفظيعة، وأردت أن أقول حاشا لله، لكن صوتي احتبس، فقال قائد الجند، الذي سجنني:

"هو يا مولاي من تزوج بالأميرة زهيرة."

قال الملك:

"كيف تجرؤ أيها الحقير أن تنظر لصف سادتك، وتطلب يد الأميرة زهيرة بنت الأمير كامل ابن ابن عم والدي، سليلة الملوك المنتسبة للخلفاء العباسيين، وابنة بيت أعظم ملوك الأقطار كلها!"

نزل الأمر علي كالصاعقة! إذًا فهذا هو ما كان الشيخ يخشاه. هذا الحاكم المستبد الطاغية، يظن أنني تطاولت عليه، لأنني نكحت من آل بيته.

أكمل الملك ضراوته:

"إنك قد ارتكبت جريمة ستلوكها، فتلوكنا كل الألسن، أهكذا يختلط دم الملوك بدماء الرعاع؟"

لم أحتملن فوجدت نفسي أرد:

"إن هو إلا شرع الله، وأمر الله. ولو كانت زهيرتي، كما تقولون يا مولاي، أميرة، فلم تعيش بين الرعاع، إن لم تنكح من الرعاع؟"

رد بغضب عاصف:

"أيها الحقير! أتجرؤ على جدالي؟كان جدها مسرفا متلفا، أضاع أموالهم، فعاشوا على قدر رزقهم. لكن نسبهم الشريف، ومكانهم النبيل ليس للصعاليك."

رددت بثبات:

"قد نكحتها بإذن وليها، فأنا زوجها."

رد: "أنا وليها."

فقلت ناظرا له:

"وخالها؟ هو من ينفق عليها ويرعاها."

ابتسم الملك ساخرا وقال:

"لا ينكح الأميرة إلا أمير، وإلا ضاعت هيبة العائلة، وما كان لي أن أسمح لك باستغلال قريبتي، لترقى بين النبلاء، وكونك أصبحت زوجها ليس بالحجة التي يصعب ضحدها!

قلت بتحد لم أستطع كتمانه:

"أتظنني أطلقها."

رد بسخط:

"تطليقها ليس حلا وإنما ترمّلها ينهي المسألة من جذورها!

لم أحر جوابا، ولم تصدق اذناي البساطة، التي يتحدث بها عن إهدار الدم الذي حرمه الله!

نظر لي باستخفاف، وأكمل:

"لو أنك نظرت للأمر من نظرتي، فستجد أن تطليقك لها يعني بقاء لوثتك على اسم أسرتي، ويعني أن واحدا من العامة لم يكتف بالزواج منا، وإنما أضاف علينا عار الطلاق! هذا التطاول له علاج سريع فعال، وعقاب رادع هو السيف! سأتركك الليلة لتفكر في أحوالك، وتوصي بأموال،ك وتؤدي ديونك، وغدا سأبارك نهاري بدمائك!"

وأخذوني على قاع مظلمة أسفل القصر، ولم يمض الكثير على وحشتي، حتى وجدت زوجتي تلقى في الزنزانة المقابلة لي، فقد أتت تتشفع لي، وتسترحم ذوي الرحم أن يعفوا عنها وزوجها، وتندب لأقاربها سوء حظها، فلا نبيل يرغب فيها لفقرها، ولا زوج يقبل به ملكها.

لكن قاسي القلب صرخ في وجهها، واتهمها بنكران الجميل، وأبى إلا أن يلقيها في السجن هذه الليلة، لتشهد بعينيها صباحا محو العار الذي أصابته به!

وكتمت عليها ما عناه الملك بمحو العار، فلم أرد أن أثقل عليها بنبأ إعدامي، بل أوصيتها أن تغادر بعيدا عني، ما أن يخرجوها في الصباح.

ويكفيني أني آنس بوجودها قربي، في ليلتي الأخيرة.

وجلسنا طوال الليل ندعو الله أن ينجينا من هذا الظالم الغشوم، ذي الكبر الملعون، والحمق المأفون، المتملك على شؤون العباد، والمتسلط على الأنفس والدماء، فما رحم عبدا، ولا أوفى حقا، ولم يعصم دما حتى لذوي القربى والأنساب.

وأخذونا بعد الفجر من سجننا، مكبلين معا، يتحدثون عن قتل كلينا، فكان الضيق رفيقنا، وأيقنا أنّا الهلاك له ذاهبون، ولمر الحياة وحلوها مغادرون.

أتانا كبير الحجاب يجادل الملك عنا. ويبدو أن الله استجاب لدعائنا، بتدخل الشفعاء. فقد علمنا أن كبير الحجاب أنذر الملك سوء العاقبة، فللدراويش سلطان على قلوب الرعية، وزعم له أن خالها ليس ممن يترك ثأره أبدا، ولو ثار فسيتبعه الدراويش في الثورة، ولو ثار الدراويش، فستثور الناس، لتقوى شوكة الخصوم، وتذهب ريح الحصون.

فعفا الملك عن زهيرة، وقرر أن يقتلني وحدي!

وهنا تدخل ولي العهد في شأني، وقال:

"ولمن تترك زهيرة بعد قتل زوجها؟ أتتركها لتدور بين الناس في الأسواق، تشكو سوء الحظ، وقسوة الولي، فتثير الفتنة؟ كما إن أهل ساوة سيغضبون، وللميرة يقطعون، فلا يأتينا طعام من غرب أو شرق، والأهبال يحرقون حقول جيراننا، والمماليك يحبسون حقول جنوبنا. فالجوع سيمضي، فلا يبقي."

فقال الملك:

"أأطلقها عن بعضها. هذا عار ليس بعده عار."

فقال ولي العهدك

"فلتأت بقاض يفرق بينهما، فليس من هو مثله في مقامها، ولا يكون كفئا لها. ثم نحجر عليها لخبال أصاب عقلها، فتحبس في القصر."

ولم يكن على الملك عسير أن يأت بقاض سكير، يأمره فيأتمر. ولكن حينها سيتدخل بعض القضا،ة ويدور القيل والقال، ويتجادل في شأننا الفقهاء، فتسمع بالفضيحة كل بلاد المسلمين، وتدون في الكتب إلى أن يرث الأرض رب العالمين!

فعاد الملك يقول:

"أقتلها معا ومعهما خالها!"

واستمر الجدال، حتى زعم لي البعض أن الملك أوصل بالمقتولين لبضع وخمسين نفرا!

وجيء بي أشهد ما أسموه محاكمة، وبدت لي حماقته جلية، وحيرته كبيرة، فألهمني الله إجابة، ظننتها تنجيني من الطاغية بسلامة.

تجاهلت الإجابة عن سؤال القاضي، وقلت:

"لو يرى مولاي رأيي فالأمر هين، بدلا من أن ألحق بدرب الملوك والأمراء، وهو ما لا يليق، ولعبد مثلي لا يجوز، فلتلحق الأميرة بدرب الرعاع، وينزع عنها إمارتها، فلا يكون لها، أو لنسلها، نبل أو إمارة."

رد الملك بدهشة:

"أو يمكن هذا؟ الإمارة حق بالمولد."

قلت:

"أنت ملك البلاد، وسيد العباد، وتقضي ما تشاء وتأمر، فمن يخالفك؟ ألست تخلع الولايات؟ فما خلع الإمارة بأسهل من هذا. أولست تخلع أمراء المماليك من إمارتهم؟ كيف يكون حق المولد بعاصم منك؟"

بدا على الملك التفكير، خاصة وإن فكرة خلع أمراء المماليك لتضرب وترا حساسا في قيثارة صدره السوداء، لكن تبين لي إأني أصبت سوءة يخشاها ولي العهد، إذ تدخل فزعا قائلا:

"لأن حق الميلاد هو الذي أعطانا حق الملك، لا ينازعنا فيه إلا مارق."

هنا عاد الملك لسيرته الأولى، فأسرعت أقول:

"لا نعني بالأمر الخلع، وإنما الترك. سأترك أي حق لذريتي في الإمارة، ونترك زهيرة حق إمارتها بلا رجعة، ونكتب هذا في

صك يختمه الملك بختمه، وعفوه، وربما يضفي عليها براءة من كل بيتكم الطيب! نحن أسأنا لكم، فلتتبرءوا منا! وسنرحل فورا لساوة، نكفيكم خيرنا وشرنا.

صمت الملك مفكرا مرة أخرى، فتنحنح القاضي، وقال:

"حق الملك يؤكده خطاب الخليفة، الذي بايعه المؤمنون في سلالتكم الطاهرة، فهو غير حق الإمارة يا مولاي، لا يجوز فيه خلع إلا بأمر الخليفة."

نظرت بامتنان لهذا القاضي، ولو إنني واثق أنه لو طلب الملك رأسينا، لقضى بهذا دون تردد!

على أن الملك أنهى المحاكمة، وأمر بنا فساقونا للزنازين.

١٠- ٢ (كلمة حنق)

مرت بنا أيام كالأعوام، ثم انتزعونا من السجن ذات صباح، وألقونا بين يدي الطاغية.

كان معه لفيف من الوجهاء، لم أعرف منهم إلا ولي العهد، وصغيره الذي يقال له الشهابي. أعلمتني زوجتي فيما بعد، أنهم كبار أمراء الدولة، وأركان الأسرة، وقادة الجيوش.

بدأ الملك خطابا طويلا مزعجا، أنّت منه اللغة، قبل آذاننا، استنزل فيه علينا اللعنات، ثم انتهى بطردنا من زمرة الأمراء، وإننا تخلينا عن حقوق النبالة، ثم دفع لنا بصك مختوم، كان شهادة بأننا طردنا من أسرة الملك، وتخلينا عن أي كرم من نفحاتها.

وكتبنا له ما أراد بنفس راضية، وقبل أن أخرج مودعا العاصمة كلها، جاشت في نفسي العليلة كلمة، أبت إلا أن تخرج للملك، فقلت له:

"ما عاد لنا حق في إمارة أو نبالة؛ لكن حق النسب لا يسقط أبدا!"

نظر لي بغضب، فأكملت مهرولا:" إن احتجتم للمعونة، أو ألم بكم كرب، فاعلموا أن لكم في ساوة أنساب، لا يقطعون الرحم أبدا!"

وخرجت تلاحقني ضحكاته، وامتلأت قاعته بسخرية الساخرين.

لكن لم يمض على استقرارنا في ساوة أكثر من عام، ولعل ابني زهير لم يكن قد ولد بعد، حتى أصبحت كلمتي هذه طوق نجاة يتيم.

هاج الأمراء كلهم على الملك، وتشتت الأجناد، وتفتت البلاد، ودار المماليك في كل الأحياء يتصيدون الملك، وأتباعه، والأمراء، وأقاربهم، وأبنائهم، فأحصوهم عددا، وقتلوهم بددا، واتبعوا خلفهم كل طريق، وبحثوا عنهم في كل مكان، معلوم أو غريب، حتى لم يبق من تلك الأسرة العامرة، والنجوم الساهرة إلا امرأتي زهيرة أصدرت صك البراءة للقتلة، فتركونا ضاحكين، إلا أن زعمائهم أصبحوا منهم غاضبين، فعادوا غادرين.

لكن سيف القدر بتار، والأعمار مقدرة، ورحمة ربي انتخبتها بعيدا عن الأيدي الباطشة، فماتت زوجتي الجميلة، وزهرتي البريئة، بعد ولادتها لابني زهير.

وحين أتى غلاظ الأكباد ينوون بها فعل الأهوال، وجدوها منهم رحمت، وللباري الرحمن ذهبت، بينما الدنيا أظلمت عليّ من

نورها، وبقيت في وحدتين أجتر ذكرياتها، وأتعطر بالترحم على ثراها.

غير أنني لم آيس من رحمة ربي، ورغم مصيبتي، وعذابي السقيم، وحزني الدفين، فقد كانت هناك مواساة.

مواساة أنها لم تقتل، ولم تهن وتعذب قبل الموت، كما فعل بأقاربها.

مواساة أن خيبت ظن زبانية الدنيا، فزفتها ملائكة الجنة.

مواساة في ابنها، الذي غفل عنه -أو تغافل عنه – الجند، ولعلهم أدركوا أن مثله لا خوف منه.

ومواساة بمجيء الشهابي وسارة!

الشهابي المسكين، ابن ولي العهد، فر بعد أن اغتيل أبوه، وجده، وأخوته. فقد كان يزور بيت ابن خالته، وإذ خرج للطريق، بدأ عقبه الحريق. رجع لداره، فوجدها حطاما، فتخبط مرتبكا في العاصمة. لم يكن يعرف أحدا من الناس، بينما الناس تعرفه، وتبغضه، وتطلبه.

لم يكن له مكرمة على أحد فيؤويه، ولا عود يقاتل به فينجيه، إلى أن وجد زمرة من الغيلان الحمر!

لا أذكر من أي فرقة كانوا. كان بعض الغيلان يقاتلون لجوار الملك، لا لشيء إلا لأنهم أقسموا على حمايته، والغيلان لا

تنكث قسمها أبدا، رغم كرههم للملك، وكونهم كانوا (أو أحد فرقتيهم لا أدري)، من أكبر الساعين على تدميره، وإنهاء سلطانه.

كانت تلك الزمرة قد استنقذت، من أول بيت حرق، بنت أحد الأمراء الأغنياء، ذوي القرابة البعيدة عن الملك، ولم يكن له جند يدافعون عنه، بينما شغلت أمواله النهابين عن تتبع أبنائه، فنجت تلك الفتاة سارة، وحملها الغيلان، حتى وجدهم الشهابي، الذي لم يكن يعرفها، فقال لنفسه:

"كم في أسرتي من أناس لم أعرفهم، أنا ورغم ذلك عرفهم القتلة جميعا!"

أدرك ألا بقاء له في العاصمة، وتذكر كلمتي إن حق النسب لا يضيع عندي، وفي غمرة ظلام الفتى، لم يجد إلا هذا الضوء، فمضى في الطريق، قطعه وسط الصحراء متسللا، يخشى القتل ويخشى الناس، ولا يعرف أين ساوة، ولا يأمن أن يسأل عنها أحدا!

لكنه وصل لنا.. أتاني الفتى مستغيثا، بعد رحيل الجنود، ورحلت قبلهم زوجتي، التي ظلمت بيد الملك وأعدائه معا.

فكرت حقا حينها أن ألقيه - من نقمتي - وسط الصحراء، للذئاب الجائعة.

لكني أفقت، وتذكرت أنهما طفلان بريئان طمعا في كلمة قلتها، ولست أنا من يغدر بهما. كلمة الحنق القديمة، تحولت لأمان لمن أردت إغاظتهم بها، وعهدٍ في عنقي أن أحميهم مع أهلي بأرواحنا، وسبحان الله مقلب الأحوال.

عاش الاثنين دهرا عندي، وعلمت أن الغيلان، الذين أنقذوهما، قد رحلوا، إذ أتاهم نبأ الأهوال التي حلت، والحروب التي اندلعت.

وكان ما كان من غزو الأهبال، وخروجهم، وصعود من أسموا أنفسهم بالأمراء، يتنازعون الملك بينهم، وكنا في ساوة عنهم بعيدين، وبجهلهم عنا، وجهلنا عنهم متسترين.

ثم وصل نبأ اللاجئ للجنود، فحميت الفتى بكل جهدي، وأوصيت به وبأهله، أهلي وابني.

(١١)

في واحة ساوة

قال عبد الشهيد ابن سمعان:

بعد أن غادرت الأمير الأبيض - أمير الزرقاء المخادع - توجهت نحو ساوة، بحثا عن أنسباء الملك المزعومين. كنت أعلم الطريق إلى ساوة، فحين أتيت لقريتي أول مرة، لم يرغب أحد في بيعي شيء مما أحتاجه للزراعة، من بذور وتقاوي، فترددت على ساوة أكثر من مرة، لأشتري من تجارها. كان طريقها من الطرق القليلة الآمنة في بلادنا. فحتى قطاع الطرق يدركون أن قطع قوافل الغلال، من ساوة للحاضرة، أمر مريع، يهلك الناس من الجوع، ويثير غضب حكام الحاضرة، وهم اليوم القائد الأسود المخيف نفسه! لم أكن أخشى اللصوص، لكني خشيت أن يتذكرني تاجر ممن اشتريت منهم. لذا، فقد أنزلت اللثام على وجهي، وغيرت صوتي، وتوجهت لأول منزل قابلني خارج الواحة، فسألت عن أنسباء الملك، لا أعرف لهم اسما.

دلوني على دار زهير ابن تيمور، العلاف. وهو فلاح حاذق، قوي البنية، طيب الوجه. نظر لي هو وأهله بتوجس، لكنه، لدهشتي، اطمأن إذ سمع إنني غول أحمر. كنت قد عزمت على الإبقاء على هذا الستار، رغم إن أولئك الغيلان -كما يظهر - لهم أعداء كثر. لكن هيبة تلك القبيلة، أو الفرقة، تفزع الناس، فتحميني سمعتهم من غدر أعدائي، وأعدائهم معا، ولو إلى حين.

واتضح لي أنه من حسن الطالع، كون أنسباء الملك أصدقاء لتلك الجماعة الغامضة. فقد حكى لي كيف إن جماعة منهم، تنتمي لإحدى فرقتيهم، قاتلوا مع والده حتى قتلوا جميعا، أثناء دفاعهم عن الأمير الشهابي، آخر أمراء بيت الملك، مما زاد حيرتي في شأن الغيلان، ومن هم. لكني نفضت غموضهم عن ذهني، وأخذت أسأله عن أمر الوريث.

كان وقتها حديث السن، وقد أمعن في إخفاء نسبه المهلك في الأيام المظلمة، فلم يعرف الناس، خارج الواحة، سوى إنهم أنسباء الملك. أما إن أمه كانت أميرة فقيرة (وهو أمر لا أظنني أصدقه!) فقد أخفوه تماما، لدرجة إنه هجر مهنة والده - التجارة - وبقى في أرض أعمامه، فلاحا يزرع، رغم كون أمه أميرة من البيت الحاكم!

كان أمرا محيرا لي. كيف قبلت أميرة الزواج منهم، لكني كنت لحوحا في أمر الوريث، فحكى لي كيف كانت المعركة، التي هربت منها تلك الفتاة سارة.

حكى لي:

"أذكر ذات يوم، بينما كنت ألهو مع رفاقي، أن جاء حفنة من رجال، يرتدون دروعا حمراء، لعلها كدروعك هذه. وساد الذعر والاضطراب بين الأهالي بعدها، وسمعت إن الجنود أتين لقتل ابن خالي، الأمير الشهابي. كان الشهابي شابا ظريفا، طيبا، مهذبا، يلهو معنا حينا، ويعلمنا القراءة والقرآن في كتاب القرية أحيانا أخرى، فكان محبوبا منا جميعا، وخاصة أنا، الذي يرتبط معه بالقرابة.

أخذتنا أمهاتنا بعيدا، في خيام بين بساتين النخيل، بينما أخذ الرجال والشباب يحملون السلاح، دفاعا عن نسيبها، متحصنين في دار شيخ الواحة الكبيرة، وحفروا حولها خندقا، وأعدوا العدة لقتال صارم، مستعينين بأولئك الغيلان.

وأتى الجنود الهمج. أتوا صارخين، ممزقين، يطيحون بمن يقابلهم. فوقفوا مبهوتين، إذ وجدوا راية الغيلان مرفوعة على الدار المحصنة.

في البداية، حاولوا إشعال النار في الحقل المجاور للدار، ثم الهجوم عليه أثناء الغروب. لكن ثلة الغيلان بسيوفها، وأهل الواحة بسهامهم ردوهم خائبين.

صعدنا، نحن الغلمان، على النخلات العالية، ننظر للقتال، وننبأ أمهاتنا المكلومات في أمر أزواجهن، وأبنائهن. لكننا رأينا الجند يرجعون مقهورين، فهللنا فرحا، وظننا أن النصر أتٍ، وهللنا باسم الملك الشهابي المنصور، داعين له بالنجاة وطول العمر.

لكن الجنود عادوا برجال أكثر عند الفجر، ونصبوا حصارا حول الدار، يكتفون بتبادل الرمي مع المحصورين بين الحين والحين.

دام الحصار اللعين سبعة أيام كاملة. ولم يكن أحد يحسب حساب هذا الأمر. لم يكن الرجال يملكون طعاما أو ماءً يكفيهم كل هذه المدة، فإذا بالغيلان، في اليوم السابع، يخرجون من الدار بحللهم المدرعة الحمراء، هاتفين باسم الشجاعة، معلنين رفض الظلم والمهانة، واندفعوا وسط الجنود كالليوث، في مشهد لم يغادر ذهن أي صبي شاهده حتى اليوم.

حين قتلوا عن آخرهم، هجم الجند على الدار، فأحرقوها، وقتلوا من فيها جميعا."

نزلت الدموع من عين الرجل المسكين، وهو يحكي كيف صلبوا والده، والشهابي فوق نخيل الواحة، ينزفون حتى الموت.

ثم أكمل:

"لكن الشهابي كانت له زوجة. كانت أميرة هي الأخرى؛ لكن أحدا لم يعرف بنجاتها، تدعى سارة بنت عدنان. وكانت حبلى، فخشي زوجها أن تقتل مع وليدها، فأرسلها أبي تيمور العلاف لصديق له من أعراب في الشرق، يسمون بني الأسود، كان لوالدي أثناء تجارته مكرمة ما عليه."

صمت حينا، ثم أكمل:

"يزعم البعض إن هذا الأعرابي، الذي حمل الأميرة خارج البلاد هو شيخ شيوخ بني الأسود اليوم، وأنه والد جبار العاصمة، غليظ القلب؛ وإن كنت لا أصدق هذا."

سألت زهيرًا:

"وأين ذهبت تلك الفتاة بعدها؟ هل نجت من المطاردين؟ أعني، ألم يأت أحدهم لسؤالكم عن مكانها؟"

رد:

"لا، لم يطاردها أحد، رغم تواتر بعض الأقاويل عن إن الشهابي ترك وراءه خلفا. انشغل الأمراء بحروبهم مع بعضهم البعض، وصد غزوات خانات الأهبال، وأمراء الفرنجة في الشمال والشرق، وبتتبعهم للغيلان الحمر لإبادتهم، وهو ما فشلوا فيه كما يظهر!.. اقتحموا الواحة أكثر من مرة، فلم يسألوا عن

الأميرة، وإنما عن الغيلان، يستنطقون حتى الأطفال، إن كانوا يعرفون أحدا منهم. كانوا يخشونهم، ويكرهونهم، ويجمعون إن الملك لن يستقيم لأحد في وجودهم. صحيح أن غيلان الغرب كانوا قليلين جدا، وأغلبهم ممن فروا من مواطنهم الأولى، أظنهم أتوا من الجنوب الأقصى، والبعض يزعم بل من الشمال الأقصى. لعلك أكثر من يعرف هذا الأمر؟"

وابتسم، فلم أفهم الأمر في البداية، قبل أن أعي إنه يقصدني، فقلت محاولا، من ناحية، أن أبتعد عن سؤاله، ومن ناحية أخرى، أن أفهم المزيد عن أولئك القوم، الذين أنتحلهم "ماذا تعرف أنت عن الغيلان؟ أعني من ساعدوكم في الواحة، من كانوا؟"

لم يندهش لسؤالي على سذاجته، كان يبدو لي من النوع الثرثار، الذي يحب الإجابة على أي سؤال، مهما كان، فقال:

"لا أعلم الكثير عنكم، لكن شجاعتكم مهولة. الغول الأحمر لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا. كان هذا هتافكم. أعني هتاف من أتوا للدفاع عن الشهابي.

أعترف إنني كنت معجبا بكم، حتى تمنيت لو أصبحت غولا أحمرا بدوري، لولا إنني ظننت شجاعتكم حماقة، أدت لهلاككم عن آخركم. كنت طفلا صغيرا، أتساءل دوما لم لا يكذبون؟

لماذا إذا سألكم عدو متربص أأنتم من الغيلان الحمر، ظهرتم من مخبأكم وحاربتموه، بدلا من أن تكذبوا، فتنجوا وتهربوا.

حقا لم أنسكم طوال تلك السنين، وتساءلت عنكم، قل لي أحقا كنتم من الرافضة؟ لكن أفعالكم غير أفعالها. أم كنتم جماعة من المماليك المارقة؟ لكني عرفت فيكم أحرارا جوار العبيد؟ لم أفهم الغيلان أبدا، فلعلك تفهمني شأنهم؟"

تنحنحت مرتبكا من السؤال المفاجئ، رغم أنني كان يجب أن أحسب حسابه، فقلت مراوغا:

"لا أدري ما الذي يربكك؟ نحن لسنا رافضة، أو مماليك مارقة. نحن غيلان حمر، وهذا هو الأمر ببساطة!"

وهكذا فسرت له الماء بالماء، فلم يعلق؛ بل أكمل بأسئلة أرذل:

"كان منكم فريقان، أحدهما يحارب الملك، والآخر يحارب معه. وكلا الفريقين اصطاده الأمراء، فأي فرقة أنتم اليوم؟"

رددت:

"نحن الغيلان الحمر وفقط! اليوم نقاتل جوار الحق وفقطّ!"

مط شفتيه فعدت للسؤال:

"ماذا حدث للأميرة الحبلى؟"

قال:

"أثناء الانشغال، والفوضى، والحروب المتتالية، ذهبت الفتاة مع بعض تجارنا لبني الأسود، وهناك أخذها هذا الرجل، الذي كان مدينا لأبي، فاستطاع إخراجها من البلاد بسهولة إلى طرابل. ولما اطمأن رجالنا عليها، وأتتهم رسالة بأنها وصلت لتاجر طرابلي، يسمى زيتون بن عبادة، عادوا لساوة، ثم انقطعت أخبارها تماما. فقد هلك زيتون وأهله وقريته منذ دهور. تشتت الناس في كل البلاد، بعد أن دهمتهم حروب مدينتي الصيادية والسور العليّ، التي لم تخمد من مائة عام."

قلت:

"إذًا، فلا أمل في العثور عليها؟"

هز رأسه بهدوء، وقال مبتسما:

"لا أمل بالطبع، وإلا ما قصصت عليك حكايتها أصلا!"

قلت مجادلا:

"لكن يا شيخ زهير، إننا نريد الوصول للوريث إنقاذًا لحياته. رسل القائد الأسود - جبار العاصمة كما تسميه - غادرت من مدة تجاه طرابل، تبغي رأسه، بعد أن أفشى شيخ بني الأسود بسرها لمن لا يؤتمنوا. أخبرني كيف نصل للوريث، فندافع عنه كما دافعنا عن أبيه، وننصبه ملكا على البلاد، يعيد لها أمنها."

هز رأسه مرة أخرى، وقال:

"هذا كل ما عندي! لا أعلم شيئا عما حدث للأميرة سارة. آخر ما سمعته - وكان قولا لمن لا ترجى شهادته - أإها وضعت وليدها صحيحا معافى، ولكن أين؟ وإلى أين ذهبت؟ من بعد تهدم قرية ابن عبادة هذا، لم أخرج من قريتي، ولم يخرج تجارنا لأبعد من أراضي بني الأسود. لقد زادت الحرب بين الصيادية والسور العلي ضراوة، وقطعت كل الأنباء بيننا وبين طرابل، وما حولها، فهي أرض لم يسمع أحدا عنها من سنين! ولعل هذا الوريث قد مات خلال هذا العمر، ولعله لم يولد أصلا!"

أحسست بالضياع برهة. كان ما اعتمدت عليه هو أن أخدع أهل ساوة، ليطمأنوا لي، فيخبروني بمكانها، لكنهم رغم اطمئنانهم لي - بفضل درعي الأحمر - لكنهم لا يعرفون شيئا ينفعني!

بدا لي الأمل الواهن، هو الوحيد الباقي، لأتشبث به؛ ولكن إقناع زهير بهذا الأمر ليس بيسير.

قلت لزهير:

"أتذكر كيف كان شكل الشهابي؟"

مط شفتيه، وقال:

"حسنا بعض الشيء، كان طويلا، أبيض الوجه، أسود الشعر، بني العين."

كانت صفات معممة حقا، تنطبق على ثلث سكان الواحة، لكني جاريته بقولي:

"هذا عظيم، ولكن لو أشرت لي على أحد أبنائك أنه يشبهه، أعني أنتم آخر أقربائه، فمن هو؟"

رفع الرجل حاجبيه وهو يحك رأسه مفكرا، وقال " أظن أحدهم، حتى تيمور في مثل طوله، ولكن....."

قاطعته قائلا:

"إني ذاهب للبحث عن الوريث. وقد أوصاك والدك -كما تزعم- به وبأمه، فعليك أن تلزم عهد أبيك، وترسل معي أحد ابنيك لطرابل، فربما نرى في قرابة الدم ما يجعلنا نعرفه. لم يبق لدي لمعرفة الوريث سوى الشبه المحتمل كما ترى، ولذا........"

قاطعني بغضب:

"ليس لك أن تطلـ........"

لم يكمل كلمته، إذ أنني استبدلت سريعا الإقناع بالإرهاب، فألقيت رمحي بغضب مصطنع، فمرق إلى جواره، لينغرس في باب داره المتهالكة، فشطرت نصفين، ونظرت له بحدة قائلا:

"تذكر أنك تحدث غولا أحمر!"

فصمت الرجل، وأشار لابنه الأكبر تيمور، لكي يذهب معي."

(١٢)

قال الحكيم وهداه

"بت ليلتي في منزل آل العلاف، لكي أستيقظ على أخبار عجاف! فقد أتت قافلة من تجار ساوة، فإذا بالناس يلتمون حولها في لغط، فذهبت لأرى ما الغلط، فعلمت أنهم وجدوا الأمير الأبيض - أمير الزرقاء - قد قتل، هو ومن معه، وأن القتلة تركوا المال والنفائس، لم يحملوها معهم، فدب الذعر في قلوب الناس، يتحدثون عن قتلة من جن وشياطين، يبغون الروح لا المال!

وتواترت الأنباء سريعا عن سباق بين عدة جماعات من الأمراء، تسرع عبر الشرق، وتقتل بعضها بعضا، وضعت كمائن هنا وهناك، تغتال المسافرين بلا رحمة. وبدا الأمر محيرا، والناس في ساوة لا تفهم ما يحدث، فامتنعوا عن مغادرة البلدة رعبا!

وهنا أدركت أن الطريق الذي أعرفه ليس آمنا أبدا، وأن رحيلي نحو الشرق يعني الهلاك الحتمي، وأيقنت أنه لابد من البحث عن طريق آخر.

ولم يكن هناك غيره لأسأله، الشيخ وهدان الحكيم!

اندهش تيمور بن زهير، إذ وجدني أسير غربا، فسأل:

"ألسنا ذاهبين لطرابل؟"

قلت له:

"نعم، لكني سأصعد الجبل الكبير أولا."

كان الشيخ وهدان حكيما، بلغ من العمر أرذله. هو غير معروف لأهل ساوة، لكنه معروف لقرانا وما حولها، وله شهرة في كل زمام الشيخ عصفور -كما أسمع - لكنه ترك القرية منذ سنوات بعيدة، ليعيش متعبدا متصوفا في صومعة بالجبل، لا يشق عليه هدوءها إلا طالبي المشورة.

وطالبو مشورته كثر، لأن معارفه كثيرة حقا. فهو بحر في أخبار الناس ووقائعهم، وخبير بالطب والدواء، والطرق والدواب. ويحكون عن شبابه، إنه قطع البلاد جيئة وذهابا، مرات كثيرة، بل غادرها في أسفار بعيدة شرقا وغربا، حتى زعموا أنه تردد على قصور ملوك الفرنجة وراء البحر! كما إنه كان جنديا مغوارا، يتندرون بعبقريته في المعارك والحروب، رغم إنه لم يكن سوى جندي صغير، لم يتول قيادة الزمام في أي حرب؛ لكنها عادة أهل الريف في إضفاء الأساطير على كل لامع من أبنائهم.

كان والدي يحكي لي عنه، وعن معارفه، مثلما حكى لي الناس بعد عودتي. ولذا، بدا لي أن الاستعانة بخبرة صديق قديم لوالدي، لمعرفة آمن الطرق لطرابل، مهما كان شاقا أو طويلا. وانتهزتها فرصة، لأفهم منه المزيد عن أولئك الغيلان، بدلا من أن يحرجني شخص، كما فعل الأمير الأبيض بفطنته، أو زهير بسذاجته.

كان القليل الذي عرفته عن أولئك القوم، من حديث تيمور وأبيه زهير، قد جعلني أزداد التصاقا بالغيلان، لأن حتما الوريث سيطمئن لهم عن غيرهم، وسيتبعني فقط لو لم يكشف قناعي!

وصلت لصومعته عند الغروب، ولحسن حظي كان خاوية من الزوار، فأبقيت تيمور خارجا عند الدواب والزاد، ودخلت له وحدي.

سلمت عليه، وجلست بين يديه، وقلت:

"يا سيدي، أنا عبد الشهيد ابن سمعان. والدي هو سمعان الصياد، ابن وردان، وكان من تلاميذك، وأوصاني كثيرا بزيارتك إن عدت لبلدته."

لكن ذاكرة الشيخ كانت حديدية! فرد فورا:

"أذكر سمعان ابن وردان؛ لكنه لم يعرف بالصياد أبدا! ولم يكن تلميذا لي، فلم أره إلا لماما، ولن أنسى أنه أبق للزرقاء، إذ

ادلهمت الخطوب! لا تحاول منافقتي يا غلام، وقل حاجتك، وارحل عن رأسي العجوز!"

ابتلعت ريقي وقلت:

"نعم يا سيدي، هرب والدي للزرقاء، وتزوج هناك وأنجبني، قبل أن نهرب مرة أخرى، بعد أن حطم القراصنة المدينة، ففزعنا للصحراء نقتات من صيد سهامه، فعرف بين الناس بالصياد. مضت علينا سنوات شريدة في البلاد، حتى سمعنا بالوريث، الذي كان دعيا كاذبا، فاتبعناه مع من اتبعه، وحاربنا معه، لم ننهزم مع من هزموا وفروا. اكتفى أبي من الفرار حينها، وظل صامدا أمام الخطوب العظام، لولا معرفتنا بكذبه، فمات أبي كمدا محسورا، وأوصاني بالعودة للبلدة. لا تقس على والدي، فقد جازته الحياة بقسوتها."

صمت الرجل، قبل أن يرتشف رشفة ماء من قدر جواره، وقال:

"أعلم تلك الحكاية، أتاني الشيخ غلاب شيخ البلد يقصها عليّ، ويسألني كيف يسلم لك الأرض، وأنى له بمعرفة حقيقة نسبك، حتى أخبرته بصفات كانت في أبيك، وجدها فيك، فما زالت لي براعة في علم القيافة يا غلام، لعلها نفعتك!"

كانت أول مرة أعرف فيها هذا الأمر، فغلبني الصمت، فقال الحكيم:

"ما هذا الذي ترتديه؟ إنه درع أمانة، تُرك عندي واستعاره الشيخ غلاب منذ أيام ولم يرده؟ بل إنه أرسل لي يقول أنه يخشى فقده، فكيف انتهى إليك؟"

هنا حكيت كل نبأي منذ غادرت القرية، حتى دخلت الصومعة!

نظر الرجل لي بإشفاق، وقال:

"حماسة الشباب، قد ذقت والله سكرتها مرات عديدة! أحقا ترغب في مجالدة ابن الأسود يا غلام؟ أنت لست أهلا له! أنصحك بالظفر بالسلامة، فلا جدوى ولا نصر في معاداة هذا الجبار الظالم، أيها الفسل الصغير، الذي لم ينبت له عود بعد! عد لقريتك، ولتكن شوكتك بين أهلك. لن تستطيع، فارجع سالما خير لك."

قلت له مجادله بحجته:

"السلامة طلبها والدي، فمات شريدا! لن يرتاح ضميري ما لم أؤدي ما قضي عليّ."

قال لي:

"لن تنجح، فلم المحاولة العبثة؟"

قلت مصرا:

"لن يحاسبنا الله على نجاحنا فيما استطعناه يا مولانا، سيحاسبنا على سعينا فيما وجب علينا."

ابتسم الرجل وقال:

"حماسة الشباب، قد ذقت لذتها وبراءتها! عسى الله أن يجعل حظك في البر خيرا مني ومن أبيك! عندي أمر قد ينفعك لم أفهمه وقتها، ولم أخبر به أحدا قبلك. ويا سبحان الله، الذي سخرني أحفظه لك حتى مجيئك بعد السنين! أتاني رسول من شيخ مسجد طرابل الكبير ،منذ دهور بعيدة، بعد وفاة الشيخ عصفور بمدة قصيرة. كان الرجل يسأل عن القاضي، فلما أخبروه بموته، سألهم عن خليفته. ولعل الناس ظنوه يسأل عن خليفته في الدين، وكانت شهرتي في القرى بدأت تعرف، عندما غرتني الحياة، وتصورت أن التصوف هو أن يكون لي حلقة تمجدني باسم الله في كل قرية!

دله الناس على بيتي، فألقى علي السلام، وطلب الخلوة، فأخبرني إنه أتى من صديق للقطب الصوفي الشيخ عصفور، هو الشيخ زعفران إمام مسجد طرابل الكبير، وكان يريده أن يبلغ أهل فتاة في ساوة - بعيدا عن أعين المتربصين - بأنها وصلت سالمة، هي وحملها، وأنها تركت رجلا، يدعى ابن عبادة لأنها لم تثق في بني الأسود. لم أكن أعرف من سارة هذه، ومعرفتي بأهل ساوة ضعيفة، فلن أستطيع معرفة المتربص من

غير المتربص فيهم. لم أكن أدري شيئا، كما إنني أعرف مدى بطش بني الأسود، الذين لا تثق فيهم الفتاة، ففضلت الكتمان على إنه خير من الإخبار.

ويا سبحان الله! تأتيني أنت اليوم، كأنما هو قدر مقدور، لتعرف بالنبأ وحدك!"

قلت مبتهجا:

"هو نبأ عظيم، غفل عنه الباقون، عسى أن أجد هذا الإمام، أو أهل بيته، أول ما أصل لطرابل. ولكن في جعبتي أسئلة مزعجة، أرجو أن تهدئها."

صمت الرجل منتظرا، فقلت:

"أولا من أي طريق أذهب إلى طرابل؟ أعني الطريق الذي يغفل عنه الأعداء. ومن هم الغيلان الحمر الذين انتحل شخصهم؟ وأحقا هذا الدرع لهم؟

كما، هل تعرف في آل الملك علامة أميز بها الوريث عن غيره؟"

قال الرجل الذي أخبرته السنون:

"يا بني، لا أعلم عن آل الملك شيئا، ولكن لعل قريبه الذي أخذته معك يحن دمه له. أما الطريق فلا أستطيع أنا أو غيري إجابتك. حينما كنت أتجول طريدا مثلك، كنت أنا من أرسم

الطريق. سترى الخطر، فتحيد عنه، وترى الضر، فتتنحى له. كل ما أظنه ينفعك هو نصيحتي بألا تعبر النهر من أراضي الأسود.

انتظر لحظة، كنت قد سمعت إن الأحراش في الشمال، والمستنقعات قرب الساحل، أكثر أمنا بكثير، ومهجورة تماما، صحيح إنك ستضطر لعبور فروع النهر، واحدا تلو الآخر، بدلا من عبوره دفعة واحدة، لكنك ستبتعد عن يد هذا الظالم الجبار."

كنت أعلم بعض الأشياء عن أرض الشمال، التي صمدنا فيها مع الوريث الكاذب، فبدت لي نصيحته طيبة. لكني عدت أسأله بلهفة:

"وماذا عن الغيلان الحمر؟ من هم؟"

قال:

"سأحكي لك حكايتهم".

(١٣)

حكاية غزو الأهبال وقتال الغيلان

ظهر الغيلان في شرق البلاد، كان أكثر نفوذهم في الشمال والشرق، لا يمنعهم عن الجنوب سوى بني الأسود، وعن الغرب سوى الحاضرة. زعم أعداؤهم أنهم فرقة من الخوارج أو الروافض. وزعم آخرون أنهم قبيلة متمردة من الأساودة، أو جماعة مماليك آبقة. لكن كل هذا ليس من الباطل ببعيد. فقد رأيت بين جندهم روافض، وخوارج، ونصارى أيضا من الأحرار، وقلة من المماليك!

لا أعلم الكثير عن بدايتهم، ومذاهبهم، لكني كنت شاهد عيان على نهايتهم.

أظنهم بدءوا كعصابة، مثل قطاع الطرق. أنت تعرف أولئك المرتزقة، الذين يسمون أنفسهم أسود الجبل؟ الذين كانوا لصوصا، قبل أن يتحولوا لامتهان القتال؟ أرجح أن الغيلان الحمر مثلهم، لأنهم لم يكونوا يدعون لدين أو ملة، ولا لمذهب أو شيعة، على عكس غيرهم من الفرق!

أولئك المغامرون اشتد نفوذهم، وقويت شوكتهم، فوعيت للدنيا وهم ملء السمع والبصر، تسلطوا على مدن وقلاع كثيرة في الشرق والشمال، حتى بلغ من جبروتهم أن استطاعوا إجلاء بعض قبائل بني الأسود عن أراضيهم، وشتتوهم إلى الجنوب، لم يرجعوا إلا بعد غزو الأهبال.

كان الغيلان الحمر يؤمنون بالشجاعة، فهي أسمى ما عندهم، وهي ما يثمنون به الرجال. خطيئتهم الكبرى هي أن ترى خطرا فتتركه، لتكون غولا أحمر، فعليك مطاردة الأخطار، لا الهروب منها.

قيل إنهم لا يضمون رجلا لهم، إلا إذا اصطاد وحشا بيديه العاريتين، وبالتحديد الغيلان من الأحراش في الشمال، ولهذا سموهم بالغيلان الحمر.

لكني أظن هذا باطلا، لأن الغيلان الحقيقية لا وجود لها أصلا.

قاطعت الشيخ وهدان بقولي:

"سمعت ، من بعض الزنوج في الزرقاء، إنه توجد غابات بعيدة جدا في الجنوب، حيث بلادهم لا ينقطع عنها الحر والمطر - في زعمهم - تنبت أشجارها غيلانا سوداءً ضخمة خرساء. ويقولون إنها قبيحة كالقردة، كثيفة الشعر كما لو كانت لبدة أسد سوداء

تغطي كل جسدها؛ لكنها لا تأكل اللحم. غير إن من يغضبها يعرض نفسه لقوتها المريعة."

قال الحكيم وهدان:

"يا بني، هذه حيوانات من خلق الله في أبعد بلاد الله، لكن حتى تلك الغيلان، لا توجد في بلادنا. أظن أن الغيلان الحمر كانوا يصطادون الذئاب أو ابن آوى. على أي حال هم لم يعرفوا باسم آخر، أيا كان من أسماهم به.

كانوا يكررون دوما قولهم (الغول الأحمر لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا) وسمعتهم يسمون هذا بالقانون الأول. كان لهم كتاب صغير، يسمونه القوانين، يحمله كل فرد منهم، يحوي ما كتبه لهم غولهم الأكبر، الذي يزعمون أنه غول حقيقي عملاق من نسل ملوك الجن، طرده غريم لأبيه، فرباه صعاليك البشر، وقد كتب لهم مائة قانون، تحوي خلاصة حكمة ملوك الجن في هذا الكتاب، الذي يقرؤونه. وقد كان تعلم القراءة والكتابة لزاما عليهم كما أظن. لكني شاهدت هذا الكتاب، حين كان يجمع ويحرق، فوجدته رقعا صغيرة، لا أظنها تستطيع أن تحمل أكثر من خمسين قانونا.

يحكون إن بدايتهم كانت قتال الظالمين والجائرين، لكني لم أشهد أشد منهم جورا وظلما وبطشا بالضعفاء. نشروا الرعب في القاصي والداني، حتى تسامع بهم الملوك خارج بلادنا، وأصبحت

لهم رهبة، فلا يذكر اسمهم إلا بوجل. عاثوا في الأرض فسادا، لا يردهم أحد، واقتلعوا كل لسان يعظهم، وقطعوا كل يد تردهم، وقذفوا بالفزع في قلوب الأمراء، الذين كانوا يخافون ممن لا يخافون الموت.

عرف عنهم اختطاف الأطفال من الأهالي الفقيرة، يدفعونهم لزعيمهم ليربيهم في قلعته، على حبه والإخلاص له، وعلى اعتناق الشجاعة الخالصة، ليكونوا غيلانا حمرا أشداء. لكن هذا كان خطأهم الأكبر، فحين حانت ساعتهم، كان أولئك الأبناء أشد الساعين عليهم.

حينما استشرى نفوذ الغيلان في كل مكان، جعلوا منهم فرقة، تسمى الخفية، كانت أول لمحة من نفاق فيهم. تتخفى بين الناس، وتتسمع الأخبار، وتقاتل لجوار أعدائهم، حتى تعرف كل شيء، فتخبر به غولهم الكبير. وأراد الملك اتقاء شرهم، واستغلال بطشهم، فهادنهم، وعقد معهم حلفا، أن يمنحوه فرقة تحميه. فشكلوا فرقة جديدة، أسموها الملكيين، يقاتلون معه، بشرط ألا يقاتلوا غولا أحمرا آخر أبدا.

لكنهم لم يكثروا من الحلفاء، قدر إكثارهم للكره والبغضاء، فقد كانوا يزعمون الشجاعة، فيأتون بالقساوة، ويقاتلون ببراعة، لكن قلوبهم كالحجارة.

ثم تفسخ ملك الملك، وخرج عليه أمراء المماليك، ليزداد الجوع والفتن، قبل أن يأتي الأهبال.

كان الأهبال قبائل وخلائط تتقاتل فيما بينها، غير أن ظهر لهم زعيم قاسٍ، يقال له (الهول)، فكان هولا على الناس. مضوا كالطوفان، يحرقون ويقتلون. يقال إنه عبر مائة عام، لم تتوقف الحروب بين الصيادية والسور العلي، إلا لدمار المدينتين معا على يد الأهبال. كانوا يدمرون، فلا تعصم منهم الحصون، ويقتلون، فلا تهرب منهم الدروب، وقيل إن أرض بين النهرين بحار الدم عقبهم أربعين خريفا. وأن الآبار فيها كانت تضخ دما بدلا من الماء.

ولما اكتسحوا، بقيادة الهول، ما حولنا من بلدان، أغراهم ضعفنا وما أصابنا من فتن وحروب، فالتفتوا لنا بجيوش لا أول لها ولا آخر.

حطموا جيش الملك، الذي خرج لملاقاتهم، شر تحطيم، فأبادوه عن آخره، لم يبقوا له راكب أو راجل، وحينها سقط ملك الملك فورا، إذ أدرك الناس أنه فقد سنده، فسفكوا دمه، ومزقوا أهله وملكه.

ومضى الأهبال، فحاول بني الأسود الذود عن مراعيهم، فدمروهم. ثم مضوا شمالا، فوصلوا لقلاع الغيلان الحمر، وهي

سبعة قلاع، قيل إن فيها سبعة آلاف غول، هم أكبر عددهم، وأقوى عزمهم، وعليهم رؤساؤهم وحكماؤهم.

لم يكن الغيلان يلقون بالا للأهبال، ولا أظنهم كانوا ينوون حربهم لو تركوهم وشأنهم. لكن جيش الهول العظيم، الذي فاض عن الثلاثمائة ألف مقاتل، هاجم القلاع، يتصور تحطيمها كما فعل بغيرها.

لم يكونوا عالمين بالغيلان، لم يهرب الغيلان كغيرهم، ولم يسالموا الهول، أو يبتعدوا عن هول جيشه، فلم يكونوا بمن يهرب من قتال يطلبهم.

جمعوا كل أعوانهم، وصمدوا في قلاعهم زمنا طويلا، شهورا عدة تفوق أي زمن صمد فيه أحد أمام الهول. كانوا لا يزيدون عن عشرة آلاف غول، أمام ثلاثمائة ألف من الأهبال، فيقاتلونهم بطريقتهم المعهودة، وشجاعتهم المعهودةن وبراعتهم المسمومة. وأذاقوا الهول هولهم الخاص، وألقوا في قلوب رجاله الرعب من مواجهتهم.

قتل الغيلان عن آخرهم، وسويت قلاعهم بالأرض، لكن بعد أن قتلوا من جيش الهول ستين، ويقال ثمانين ألفا من الأهبال الأبطال.

كانوا أول من صمد أمام الأهبال، منذ بدأ زحفهم، ومعهم عرف أولئك القوم الغلاظ طعم الحرب، التي لا حرب بعدها.

قيل إنما كانت هزيمتهم غدرا، إذ أرسل لهم الهول من يأمّنهم، ويطلب عفوهم، على أن يبتعد عن بلادهم آمنا من هجماتهم، فلما قبلوا، غدر بهم وأرسل جيشا يرتدي زيهم، ففتحوا له الأبواب، ليسيطر على باب القلاع، ويهجم عليهم بكل جيشه في مقتلة مريعة، سالت فيها دماء رجاله أنهارا، فلم يلق لها بالا، وأقسم ألا يترك الميدان حتى يقتل آخر غول.

وزعموا أن هناك خونة، قالوا للغول الكبير إن القتال وراء الجدران ليس من شيم الغول الأحمر الحق، فاستمعوا لتلك الحماقة، وخرجوا بكامل عدتهم لملاقاة عدوهم، فهلكوا جميعا.

على أن الغيلان بقت لهم قلاع صغيرة، وجماعات متناثرة في كل البلاد، يناجزون الأهبال ثأرا. فكانت فرق الأهبال تفزع إذا وجدوهم، ولو رأوا علمهم في قرية، حادوا عنها خوفا.

طوال هذه الحرب، التي قاربت على العام، كان الأمراء منشغلين بحرب الملك، وقتل أهله. فلما أبادوهم، قاتلوا بعضهم بعضا، حتى اقترب الأهبال من العاصمة.

هنا برز أحدهم، يدعى الأمير منصور، فجمع الجموع، ووحد الصفوف، وألبس جيشه كله زي الغيلان، ودروعهم الحمراء، وهجم بهم على معسكر الهول، فظن الأهبال أنهم أمام مائة ألف غول أحمر، فاستبد بهم الفزع، الذي أذاقوه من قبل للناس،

وتشتتوا في البلاد، وهزم بقيتهم هزيمة منكرة، وقتل الهول شر قتلة، وابنه الأكبر معه.

ومازالوا يتتبعون الأهبال، يمزقونهم حتى طرابل، حيث دارت موقعة كبيرة - شهدتها - بين الفريقين، قتلنا فيها خاقانهم الأعظم، وقتل أميرنا منصور في تلك الموقعة، فعاد الأهبال لسيرتهم الأولى، من الفرقة والتنازع على ما ملكوه من قلاع في بلاد الشرق، ورجع أمراؤنا لحالهم، من التنازع والتقاتل على العرش المسموم.

وأصبح الأهبال يغيرون على الحدود أحيانا، فيربحون مرة، ويطردهم الأساودة، أو الفرنجة، أو الأمراء مرات. غير أن هيبتهم ظلت في النفوس، وتضاعفت في أيام ضعفنا هذه، رغم إننا كنا من أذاقهم الهزيمة المرة يوما.

ثم تتابعت على بلادنا المسكينة الفتن العظيمة، والبلوى الكبيرة، فانقلب الناس على بعضهم البعض، وقاتل الأمير الأمير، والمملوك المملوك، والغول الأحمر الغول الأحمر.

هاجت البلاد وماجت، فكان أمراء المدن يحاربون أتباع الملك، والمماليك يحاربون أمراء المدن، والعامة تقتل المماليك، والعربان يتخطفون العامة. وانفرد كل والٍ ببلده، وكل أمير بأرضه، وكان ما كان من شراء المرتزقة، وتجمع الأثرياء لنهب

أراضي القرى، واستعباد أصحابها، فدار ما تعرفه من حرب هرب منها أبوك.

أما الغيلان، فقد انقسموا لفرقتين عظيمتين. قسم أسمى نفسه بالمولودين، وكان متمردا، جله ممن خطفوا في طفولتهم، فشبوا على البغضاء، وشهوة الانتقام.

والثاني تسمى بالمبتدأين، وكان من ظل على العهد القديم.

وانشطرت معهم الفرقة الملكية، وتلك الخفية، فأصبحوا يقاتلون هنا وهناك، لجوار هذا وضد ذاك، في فوضى مزرية. إلا أن تواعد الطرفان في واد عميق، قرب الثغر الصغير، يسمى وادي الذهب، فتقاتلوا في مقتلة عظيمة، في حرب لم ير مثلها أبدا.

رأيت في حياتي الكثير من المعارك، وشاركت في الكثير منها، لكني إذ كنت فوق التل، أرقب تلك المعركة مذهولا. صليل السيوف يقرع الآذان، وهدير السهام يرجف القلوب، وصرخات الهجوم كقصف الرعد، وطيران الرماح كضرب البرق.

لا أدري أي الفريقين دارت عليه الدائرة، إذ ما إن تبقى منهم القليل المنهك، حتى أمرنا الأمراء بالانقضاض عليهم، فأبدنا كل من في الميدان، كما تنقض الضباع على الأسد الجريح.

وسارت في البلاد كالحمى أن اقتلوا الغيلان! تتبّعهم الأمراء بأشد ما تتبعوا آل الملك. يخيرونهم بإما القتل، أو ترك مذهب

الغيلان. وقد كان في قوانينهم قولا: "إن الغول الأحمر، لو أنكر حقيقته، بسبب الخوف، فلم يعد منهم". ولذا، سهل على خصومهم كشفهم وإبادتهم. فآمن الأمراء شرهم بعد سنين المطاردة، ولم يعد لهم وجود من عقود. وإن بقيت سمعتهم ورهبتهم في صدور الكبراء والمسنين حتى اليوم.

وهذه يا بني حكاية الغيلان الحمر.

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"استمعت لحكاية الحكيم بإنصات، وتذكرت منها شذرات. حقا كنت قد سمعت بعض ما قال في سنين الطفولة في الزرقاء. لكني علمت بعض ما ينفع، كمسألة كتابهم المسمى بالقوانين، وأن زعيمهم (أي أنا) يسمى بالغول الأعظم. وفهمت ما يقصدون بالفرقتين المتنازعتين، التي تحدث عنهما زهير.

غير إني تذكرت أمرا، فقلت للحكيم:

"هذا الدرع الذي أرتديه يبدو حقا درعا للغيلان. من أين أتاك؟ لو كان من بينهم من ظل حيا، فسأنتفع به حتما."

قال الحكيم:

"أتاني منذ زمن فتى صغير، يرجو النجاة من القتل، فوضع عندي هذا الدرع أمانة، إلى أن يرسل لي من يأخذه. لكنه رحل

ولم يعد، حتى طلبه الشيخ غلاب، إذ رآه عندي ذات يوم،
ليرتديه ابنه يقيه في حرب الأثرياء."

قلت:

"شيخي أشكرك، ولكن من كان هذا الفتى؟ أمازال حيا؟
وهل كان من الملكيين الذين أقسموا على حماية الملك؟"

ابتسم وقال:

"لا أعلم يا بني في أي فريق كان. لكنه كبر في السن، وزاد في
المال ونسيني، وأنا لم أنسه! حاول خداعي في اسمه، لكنك
تعرف اسمه الحقيقي، وقد التقيته."

ردت مندهشا:

"أنا؟ من هو؟ أهو الشيخ غلاب؟"

ضحك الشيخ وقال:

"الشيخ غلاب أيها المفتري! لا! بل هو الثري الذي جمعكم في
داره مع شيخ الأساودة. هو ابن العبدلي"

(١٤)

حكاية حرب الصيادية والسور العلي

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"مضيت أبغي قصر ابن العبدلي، لأستوضح منه الأمر، وأطلب العون. الآن فهمت لم كان يتأملني في دهشة، ولم كان الأكثر فزعا، إذ قلت إنني من الغيلان الحمر. وأخذت معي تيمور الساواتي، الذي ورث، عن أبيه زهير، حب الثرثرة، فأخذ يصدعني بحكايات متتالية عن الطريق، الذي لا أدري أنصل له سالمين أم لا.

قال لي تيمور ابن زهير:

"قال لي حسان ابن همدان الصيداني إن العبور إلى طرابل من البر مستحيل، وأن لا منفذ لها إلا من البحر الشرقي، لا الشمالي."

قلت له: "ولم؟"

قال:

"البر مشتعل بجيوش الصيادية والسور العلي منذ مائة عام، وبحر الشمال يغلي بأساطيلهما."

قلت:

"هو لا يدري أن القراصنة أقسى، وأمرهم أخطر. ولعل الحرب بينهما تتوقف هنيهة، نختلسها للعبور إلى طرابل."

قال تيمور:

"قال لي حسان ابن همدان، عن أبيه همدان، إن الحرب لم تنطفئ لحظة واحدة. فقد كانت الصيادية قرية صغيرة، تعيش على الصيد في البحر، بينما السور العلي مدينة كبيرة، تعيش على التجارة. وذات يوم، خرج بعض من الصيادين، فأنزلوا شباكهم، فاغترفت لهم من البحر كنزا من الذهب، ففرحوا به، وأخذوه لبيعه في السور العلي.

لكن بعض الحرس رأوهم، فضربوهم، واستولوا على كنزهم، وأغلقوا أبواب المدينة دونهم. وغضب أهل الصيادية، فقطعوا عن السور العلي المؤن، وامتنعوا عن بيع أسماكهم في أسواقها. فبنى أهل السور العلي سورا عظيما حول شواطئهم، ليمنع تزود سفن الصيادين بالماء العذب من ينابيعهم.

ثم حدث أن كان لملك السور العلي ولدان، شابان وسيمان جلدان، يقدر الواحد منهما على فلق الحجر بضربة يده، وعلى صيد الشيطان برمية سهمه!

لكن الخلاف دب بين الاثنين، إذ أحبا نفس الفتاة الجميلة ابنة الوزير. غير أن الفتاة مال قلبها للأخ الأصغر، فأوغرت الغيرة قلب أخيه الأكبر حقدا.

ومات الملك، فورثه الأخ الأكبر، فتآمر مع الوزير ليتزوج ابنته رغما عنها، ففكرت في الهرب مع حبيبها. لكن جنود الملك أمسكوا بهما، وانتقم الأخ من أخيه بغل، فقطع إحدى أذنيه، وانتزع أمواله وملابسه، وألقاه عاريا معدما خارج المدينة.

خرج الأمير المقهور، يمضي بين البلاد يائسا، فقابله عراف آواه وأطعمه، وأخبره إن ملكا كبيرا ينتظره في بلد أعدائه، فعلم أنها الصيادية، وذهب إليها.

وهنا وجد القرية تعاني من وحش مريع، يأكل شبابها إذا خرجوا للصحراء، ما لم يتركوا له كمية ضخمة من صيدهم تحت شجرة كبيرة.

ذهب الأمير يراقب الوحش، إذ يأتي لأخذ إتاوته، وتتبعه لعرينه، فوجده حفنة من لصوص ترتدي جلد وحش، يقال له الدب، تفزع به الناس. فأخرج قوسه وسهامه، فأسقط نصفهم قبل أن ينتبهوا، ثم نزل عليهم بسيفه فشطرهم نصفين، كل بضربة واحدة، وعاد بجلد الدب للقرية.

وهلل له الناس، وأثنوا على شجاعته، وكان أميرهم مريضا يحتضر (ويزعم الخبثاء أنه سممه!)، فاتخذه خلفا له، ليعلنوه من

بعده ملكا عليهم. فاستطاع بقوة شكيمته، وشدة عزمه أن يبني الصيادية، لتصبح مدينة كبيرة، ضم لها ما حولها من قرى ومدن صغيرة.

وأراد الملك، ذو الأذن الواحدة، الثأر من أخيه. فأعد جيشا كبيرا، وأسطولا عظيما، أسماهما جيش وأسطول الوحدة، يريد بهما توحيد الصيادية والسور العلي تحت رايته.

وهجم على مدينة آبائه. غير أن أخيه كان قد بنى سورا عاليا يحمي المدينة من الجيش، وحصن سور الساحل ليحميها من الأسطول، فصدهما.

وهنا أحرق الأخ الأصغر سفن تجارة السور العلي، وأصابهم بمجاعة وكساد.

ورد الأخ الأكبر بإلقاء سم في البحر، قتل أسماكه، لتصاب الصيادية بمثل ما أصاب السور العلي.

ومن يومها والحرب بين البلدتين سجال، والحقد مستعر، ونار الثأر لا تعرف لها إطفاء. فما تكاد تخمد حربا بينهما إلا تأججت أخرى، طوال مائة عام من معارك، لا هدنة فيها.

(١٥)

حكاية الغيلان الحمر

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"وصلت لدار هذا الثري الغريب، المدعو بابن العبدلي، فوجدت قصره على حال غير الحال الذي عرفته فيها. فقد أصبح خاويا، وحديقته، التي كانت تفيض بالضيوف والخدم والحشم، لم أر فيها إلا حارس وبستانين علمت منهما أن سيد القصر يبيت في برج، بناه بأعلى تلك الربوة الموجود بها قصره، فلا يستخدم القصر نفسه إلا للضيوف، الذين رحلوا جميعا يبغون رأس الوريث.

أرسلت أطلب لقاءه، فأتاني الخدم يقودونني، فأبقيت معهم الفتى تيمور، وأوصيتهم بإكرامه والاعتناء بدوابنا، وذهبت لهذا البرج، فدخلت على ابن العبدلي.

كان شاحب الوجه، زائغ النظرات، مضطرب السلوك، فانتظرت حتى غادرنا الخدم، وسألته:

"أتعرف من أنا ؟"

رد:

"القبيل زعيم الغيلان الحمر."

قلتك

"هذا حسن، والآن من أنت ؟"

صمت حينان ثم قال:

"حسنا، أنا من الغيلان الحمر. أو كنت كذلك حتى أنكرتهم."

قلت بلهجة القاضي، الذي يصطاد متهما منكسرا:

"عظيم، إذًا مازلت تذكر شيئا مما تعلمته في كتاب القوانين."

هنا التفت لي بحدة، وتأملني قليلا، قبل أن يقول:

"أنت لست من الغيلان!"

ظللت في جلستي هادئا، أنظر له، فأكمل:

"أنت لا تعرف عن الغيلان شيئا، وما أنت إلا مدع."

هززت رأسي موافقا، وقلت بهدوءك

"هذا صحيح. ما أنا إلا مدعٍ، لكنك لست مثلي. ودرعك الذي على بدني يشهد بهذا، كما أخبرني الشيخ وهدان."

رد بعصبية:

"لم تفعل هذا؟ ماذا تريد؟"

قلت محتفظا بهدوئي:

"في البداية، لم أكن أرغب إلا في التلصص عليكم، فقد ظن شيخ بلدتي أنكم تجتمعون لسلبنا أراضينا مرة أخرى."

هدئت نفسه قليلا، وقال:

"أما وقد علمت غير ذلك؟"

قلت:

"أما وقد علمت بالأمر، وعلمت بغدر الأمراء، وأن الوريث مقتول لا محالة، فقد عزمت على الذهاب إليه، والإتيان به للإقليم الغربي، ليتولى ملك أجداده، ويعيد لنا الأمن والعدل."

نظر لي كمن ينظر إلى جواد له رأس ضفدع بأنياب ذئب! وقال:

"أجننت؟ فلاح مثلك يتحدى القائد الأسود ذاته!!!!!!!!! من أنت؟ حقا من أنت؟ أنت لا شيء، هذه هي الحقيقة الوحيدة، التي يجب أن تفهمها، بدلا من أن تورط نفسك، وتورطني معك في العبث القاتل. أنت لا شيء في قوته، ولا شيء في سلطانه أو ذكائه ودهائه. أنت لا شيء في بطشه، ولا شيء في عدد أعوانه، وحلفائه، وجواسيسه. أنى لك بخطيئة مجرد التفكير في تحديه! ألم تر كيف فعل الكبراء والوجهاء، الذين هم ملء

السمع والبصر؟ تجنبوا جلب الوبال على أنفسهم. أما أنا فلا أملك إلا الذعر في انتظار وصوله، لمجرد إنني اقترحت مواجهته. فما بالك أنت يا من هو أعجز من النملة؟ عد لدارك، ولا تجلب عليك وعليّ الوبال".

لا أفهم لماذا يفزعون كل هذا الفزع من كلماتي، كأنما أضع السيف، وأذهب لأطرق به على أبواب الأسود؟ جادلته بقولي:

"هل إن تملَّك الأسود، فلن يأتينا الوبال؟"

قال بتوتر:

"بلى، ولكنه سيأتي بالأمن والوحدة للبلاد بعد طول ضياع. وسيكون للمقام وقتها مقال آخر.

قلت:

"توحيد البلاد، أم توزيعها على الأهبال والفرنجة؟ لو لم يكن له بديل لوافقتك، لكن ما دام الوريث موجود، وهناك من سيتبعه ضد الأسود، فلم لا نجازف؟

اهتز في مقعده قلقا، وقال:

"وماذا يفعل الوريث؟ هذا المزعوم ما الذي يملكه لمجابهة الأسود، غير أنساب كالهباء المنثور؟"

قلت:

"سيقود أمراء الغرب والشرق، ويوحد البلاد."

ضحك ضحكة قصيرة، وقال:

"أتصدق الأمراء الذين عاهدوني، ثم خرجوا يتقاتلون على أيهم أسبق لتدمير العهد؟"

قلت:

"كلا بالطبع؛ لكني آمل في قبس من نور الضمير، وجذوة من نار السأم في أتباعهم. آمل في محاولة، لا أدري أتنجح، أم أهلك دونها. لو هلكت، فلن أعيش لأشاهد ذل الخضوع لجبار العاصمة، ولو عشت فسأحس أننا حاولنا - على الأقل- صده.. أنه لم يأخذها بسهولة."

صمت ولم يرد، وطال الصمت بيننا، حتى قطعته بقولي:
"أتساعدني؟ أنت كنت من الغيلان، وتعلم من هم حلفاءهم، الذين ألتجئ إليهم، ومن لا يهادنونهم فأبتعد عنهم. وربما تعلم كيف أصل لطرابل سالما، ولعلك من الملكيين، فأنت ملزم بقسمك لترافقني هناك.

قال في سأم:

"دعك من أساطير الغيلان عن الملكيين والمخفيين! كل الغيلان هلكوا، لم يبق منهم سواك."

قلت:

"أنت الغول لا أنا."

قال:

"بل أعلنك غولا أحمر، بصفتي الغول الأحمر الأخير، تبعا لاستثناء القانون الأخير من كتاب الشجاعة."

نظرت له نظرة بلهاء، فقال:

"انتظر هنا، وسأفهمك."

خرج قليلا، ثم عاد حاملا كتابا صغيرا من ورق مهترئ، وقال:

"هذا هو كتاب الشجاعة. ليست بالنسخة العادية منه، وإنما هو النسخة الأم، التي كتبت بيد مؤسس الغيلان. به ثمانية وثلاثون قانونا، يلتزم بها الغول الأحمر. هي وصايا في أغلبها، وليست قوانين ملزمة، والكتاب اسمه الشجاعة لا القوانين.

أول قانون فيه: الغول الأحمر لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا.

القانون الثاني: الغول الأحمر يجيب كل متحد، ويندفع عبر كل خطر.

القانون الثالث: الغول الأحمر يطيع قائده، ولا يحارب غولا آخر

وهكذا ثمانية وثلاثون قانونا، مكتوبين في عهدة كل غول أحمر، إلا القانون الأخير، نصفه فقط هو المكتوب في النسخ العادية،

فهو مكتوب فيها: الغول الأحمر يظل دوما غولا أحمر، إلا لو أنكر هذا، خوفا أو طلبا لنجاة.

النصف الثاني من القانون لم يكتب سوى هنا، وهو الذي كنا نحفظه ونسميه الاستثناء: إلا الغول الأحمر الأخير، فإنه يظل دوما غولا أحمر، حتى يجند غولا جديدا.

وأنا كنت هذا الغول الأخير. كنت صبيا صغيرا جدا، وكان خالي من كبار زعماء الغيلان، وجندني رغما عن أنف أبي وأمي، لأنني من سلالة ابن العبدلي، المؤسس الأكبر، أو أول غول كبير، كما يسمونه، هذا الذي كان يزعم للناس أنه وريث ملوك الجن، ربيب الصعاليك، كان جدي، الذي أفتخر في صباي بسيرته!

كان أبي يكرهنا، وأمي تخشى عليّ من الخطر، وقد صدق حدسهما. إذ لم يمض عليّ في قلعة الغيلان أيام قلائل، إلا ودارت علينا الدوائر، وسالت دماؤنا أنهارا، بأيدينا وأيدي الغادرين، ثم اختطفني والدي من القلعة، مغامرا بحياته وحبسني في قبو القصر، معلنا للناس إني هلكت مع الغيلان عندما أحرق المماليك قلعتهم، ليخفيني عن الأعين.

وأخذني والدي للغرب، بعيدا عمن يعرفونا، وظل يحبسني في قاع القصر الجديد زمنا.

وذات يوم مظلم، أتاني خالي ينزف الدماء، لا أعرف كيف عثر عليّ، ولا كيف تسلل لقلب القصر، أو استطاع دخول الحجرة الحصينة، التي حبست فيها. بل كيف أصلا استطاع البقاء حيا تلك السنوات حتى وصلني.

أعلنني الغول الأحمر الأخير، وأعطاني كتاب الشجاعة، ودرعه، وأوصاني بالحفاظ عليهما، وزرا معلقا في رقبتي، حتى أجند غيلانا جددا، يعيدون مجدنا.

كان يعرفني، وأنا صبي صغير، مفتونا بسيرة أجداده، وشجاعة الغيلان الحمقاء، ودروعهم المنقوشة الحمراء، لكنه لم يعرف الفتى الحبيس، الذي ذاق الرعب شهورا تلو الشهور، ينكمش في حبسه الذي فرض عليه كلما تجول الجنود في الدار، خوفا من أن يصلوا له، فيقتلوه، حتى استعذب الحبس، واستلذ الجبن، واستطعم الحياة الآمنة.

قبلت تركة خالي المحتضر، ليموت مطمئنا؛ لكني كنت أدرك أن الغيلان هلكوا بلا عودة أبدا، فأخفيت الكتاب، وألقيت الدرع في ركن مظلمة، قبل أن أعطيه لأحد الدراويش، يخفيه عنده ويمنحه لمن يطلبه، إسكاتا لضميري، بأنني هكذا أكون وفيت بعهدي لخالي، وعشت حياتي بميراث والدي، في رعب ينزع عني أي صفة من تركة خالي الملعونة، حتى أتيت أنت.

ما أن أعلنت أنت إنك غول أحمر، وسط أعدائهمن حتى أصبحت بالفعل واحدا منهم. وبما إنني كنت الغول الأخير، وقد أعلنتكن ومنحتك الكتاب واللقب، فقد زال عني وزر خالي، وخلعت نفسي من تلك الجماعة، فلا عهد لها يهمني، ولا استحقاق عليها يقضى مني.

ورغم ذلك، سأساعدك بما أستطيع، من مال وزاد ودواب، ليس إلا، على ألا تخبر أحدا بما عرفته عني، مهما كان.

سأمدك بالنصائح النافعة، وما أسهل النصح، وما أصعب التطبيق! كل من يقول لك أنا حليف الغيلان، فهو غادر كاذب، إذ لم يبق لهم حليف واحد حينما انقلب الكل عليهم.

ألد أعدائنا هم بني الأسود، فاحذرهم، ولكنهم يخشون لقب الغول كثيرا، فسيحميك منهم، ولكن إياك أن تثق فيهم، مهما كان، فقد كانوا هم من بدأ العداوة مع الغيلان الحمر، بل هم من تسببوا في إيجادهم.

(١٦)

حكاية عبد الرحمن العبدلي وحفيده حسن

كان عبد الرحمن العبدلي رجلا واسع الثراء، ذو تجارة واسعة. يعيش في قرية، أسموها أم الخيرات، لأن الخير يأتيها من البحر القريب صيدا، ومن الأرض الخصبة ثمارا، ومن المدن المحيطة تجارة.

فكان عبد الرحمن يملك من هذا أرضا واسعة، وسفنا كبيرة، وقوافلا تروح وتجيء.

وكانت القرية على حدود مراعي بني الأسود، ورغم إنه لم يكن لهم وقتها ما لهم الآن من شأن وسطوة، إلا أن كلمتهم كانت مسموعة، وكانوا أصدقاءً له، يشترون منه، ويبيعون له، ويؤجرون أراضيه للرعي، ويؤجر رعاتهم لماشيته.

وفوق كل هذا، كان عبد الرحمن العبدلي يفاخر القوم بنسب بعيد له مع الأمراء بني الأحمر، حكام الأندلس، حتى كان يسمي نفسه أحيانا الأمير العبدلي الأحمر، فيرد القوم ساخرين "هو أحمر أم الخيرات" يعنون أنه حمار!

لكن الدنيا لم تجمع كل أطرافها لهذا الرجل. فرغم امتلاكه للمال والنسب، فلم يكن له عقب! فقد عاش مع أزواجه، لا يعيش له أبدا ولد.

ثم سمع نصيحة مشئومة، بأن سمي أبناءك بقبيح الأسماء، ليعيشون، ونسى وصية الرسول بإحسان أسماء أولادكم.

ولما أنجب بعدها، أسمى ابنه شحاتة، فعاش. وفرح به، وأنجب بعده توأما، أسماهما غولا ووحشا. وسعد بهم أن يكونوا السند، الذي يستند له، وهو يمضي مسرعا نحو الشيخوخة.

على إنه بعد سنوات، علم أن عذاب الفقدان أشد مرارة من عذاب الحرمان. ما كان يتصوره ألما كبيرا، عندما يموت ولده عقب الولادة، كان أهون ألف مرة مما أصابه حين مات شحاتة وهو ابن ثلاث سنوات، ثم مرض وحش ولم يكمل سبع سنوات، ولحق بأخيه.

ولم يبق للرجل العجوز سوى غول، الذي شب فاسدا مترفا، أذاق والده الهوان والفضيحة. ربما لأنه كان له نصيبا من اسمه، وربما لأن والده دلله خشية عليه من أدنى ألم، وحرص على رضاه مهما تمادى في البطش والسب والأذى.

وزاد الكرب فوق الكرب، أن قتل غول وهو فتى لم يتم سبعة عشر ربيعا، في شجار تافه، على دراهم قليلة، فعاش الشيخ العجوز وحدة كئيبة، وأحس بضياع الحياة منه هدرا.

وهنا أتى وسط الظلام لمحة أمل. فولده الفاسد نكح واحدة من جواري الدار سرا، بعد أن أغراها بالزواج منه، لتكون سيدة الدار. ثم لما علم أنها تحمل ابنه، حاول إجهاضها ظلما، رغم إنها حليلته، واستأجر لغرضه امرأة من الغجر، لتوقع بها، لولا أن هربت الفتاة من الدار، ولم ترجع إلا بعد مقتل حبيبها.

استقبل عبد الرحمن الحفيد غير المتوقع، كأنه نجدة من السماء، أو كنز ثمين يخشى عليه من العيون. أسماه حسن، لأنه كان بالفعل حسن الوجه، وأسبغ عليه العطف والحنان، وأراد تربيته تربية أصلح من والده. لكن الفتى شب وجده رجل في أرذل العمر، فكان من قام عليه هن نسوة القصر، فاكتسب شيئا من الرخاوة والطراوة والرعونة، التي امتزجت مع ما ورثه عن والده من الجري وراء شهواته.

كان شابا موفور الصحة، وسيما، واسع الثراء، تتبعه الفتيات معجبة مذهولة، أو طامعة محمومة، فأصبح مزواجا، يتزوج ليطلق، ثم يتزوج مرة أخرى، ليكون حريما ضخما، من الزوجات الحاليات، والسابقات، والجواري. كل واحدة تقيم مع أبنائها، قرب قصره، وقد أحاط كل تلك الدور بسور واحد، وسماها الضيعة.

وذات يوم رأى إعرابية حسناء وسط صويحباتها، ترعى الغنم في بعض أراضيه، فأعجب بها، وفتنت الفتاة به، وأدار عقلها بسحره، وأسكرها بحيله، وطلبها للزواج.

كانت من بني الأسود. وهم لا يقبلون تزويج بناتهن من خارج الأساودة، إلا لماما، ولمن يمتلكون شرف نسب لا يقاوم، أو لعقد الأحلاف مع قبائل أخرى. وبالطبع رفض أهلها تزويجه منها، خاصة مع ما عرف عنه من عبث وتطليق.

لكنه أكثر الإلحاح، وفتن الفتاة، فأطار لبها، لتتمرد على أبيها وأخيها. وذهب حسن ابن العبدلي إلى شيخ شيوخ بني الأسود، وكان رجلا طماعا دنيئا، فأعطاه الهدايا والرشا، ليقضي على أبى الفتاة بتزويجها.

على إنه إن كان بني الأسود لا يقبلون بتزويج بناتهن لغيرهم، فإنهم لا يعرفون أصلا طلاقهن! لذا كانت الصفعة أمضى وأفظع، حينما سأم حسن من عروسه، وطمع في غيرها، فطلقها وأعادها مغبونة ذليلة لأبيها، يجللها العار.

واشتعل الأب غيظا وكمدا، حتى مات بحسرته في حينها. وهنا سألت الفتاة من أخيها الثأر. ونداء الثأر له صراخ عالٍ في قلب أي من الأساودة. صرخة الثأر النارية، التي لا يمكن إطفاءها، حكمت بالهلاك على حسن ابن العبدلي، وعروسه الجديدة.

ألحت وألحت الأخت المغدورة، كغراب الشؤم تنعق طلبا للخراب. والأخ مغلول اليد، لأنه لو استنفر القبيلة، فسيرشو حسن شيخ الشيوخ مرة أخرى، ليقعوا بين نارين، إما الرضاء بالعار، أو الخروج على شيخ الشيوخ، وهذا عار على أي أسودي.

لجأ الأخ للكتمان، وعمل بأعمال الخسة، مستعينا برداء الغدر الفعال. ذهب لجماعة من الصعاليك المطرودين في الجبال، من قساة القلوب، قطاع الطرق. ونفحهم المال، ووعدهم بالمزيد مقابل رأس حسن ابن العبدلي. لم يكن يرغب إلا في الثأر لشقيقته، حتى إنه لم يسمع لفحيح أخته، تطلب رأس العروس الجديدة أيضا. لكن الفجار لم يهتموا إلا بالمال. وجدوا ضيعة ثرية، وماداموا سيهاجمونها في كل حال، فلينهبوا ما يشاءون!

قتلوا الجميع. الجميع بلا استثناء ذبحوا. حسن، وأزواجه، وجواريه، وكل أطفاله، وأهله. حتى المطلقات، والمربيات، والعجائز من عماته قتلوا عن آخرهم، ونهبت أموالهم.

(١٧)

حكاية الغول الأحمر

لما أتى أهل القرية، بعد هروب الظلمة الفجرة، روعتهم المذبحة، وغرقوا في الحزن على ما أصاب حسن، ونال معه الكثير من بناتهن. أرسلوا في غضب يطلبون القصاص، ولكن الوالي لم يكن لديه مناص، فقد كانت قبضة الحكام على الشرق ضعيفة، والمارقين يزيدون بغيا، والقتلة هربوا بالغنيمة، وبني الأسود يحمون المحرضين.

كما كان وراء عمدة أم الخيرات همّا آخر.. لقد وجد إن الأراضي الواسعة، والدور الفسيحة خلت من أهلها. وقبل أن يدفن الناس الجثث المكومة، يبكون انتهاء نسل عبد الرحمن العبدلي، كان قد احترز ما بقى من مال، واحتل رجاله الأرض والدور، وانتهب لنفسه الحدائق والبساتين والسفن، ليكمل عمل قطاع الطرق المأفون.

وبينما الناس تتلو دعوات الرحمة، وفي القبر الكبير تنزل الجثة تلو الجثة، إذا بشهقة تعلو، وصرخة ينفطر عنها أحد الأكفان!

إنه الفتى الصغير، حسان ابن عنبة. واحد من صبيان حسن الكثيرين، أنجبه من طليقته عنبة، الفتاة ذات الأصل الفقير والحسن الكبير.

شقوا الكفن، وأخرجوا الصبي. كانت ضربة السيف قد شقت رأسه، وأطارت واحدة من عينيه، وأفقدته رشده، فظنه الناس مات مع من ماتوا. لكنه نجا. الناجي الوحيد، من مذبحة مروعة، صبي هجر الحسن وجهه، بعد أن التهمته ندبة بشعة، تقسم وجهه نصفين، وفقد واحدة من الغاليتين.

اندفع الناس يهللون ويكبرون، لكن ما أن انتهوا من التهليل والتسبيح، حتى أتى العمدة يقول:

"الفتى معجزة من الله. عليه أن يلحق بالدراويش، وننصبه وليا في مولد الشيخ بدار!"

لكن الصبي أدرك غرض العمدة الخبيث، فانتفض من بين الألم والحمى، يرفض ويقول:

"أريد العودة لداري."

فهتف العمدة بين الناس:

"أرأيتم يا أهل أم الخيرات؟ الفتى ينطق بالكفر، ويرفض العبادة، ويرغب عن الإيمان! أرأيتم! إنه ليس حسان ابن العبدلي! هذا شيطان مريد، استولى على جسده ليفتنكم.

حسان مات، فترحموا الله على روحه، وابتعدوا عن هذا الشيطان، بل ارجموه. انظروا لقبيح وجهه، وسواد عينه؟"

وبين الفنية والأخرى، يلوح العمدة بسيفه وذهبه، فتخلى الناس عن اليتيم المغبون، وتركوه ليعيش في القرية ذليلا فقيرا. حتى أهل أمه، اضطروا للتبرؤ منه، فعاش في العراء.

كانت الحياة على حسان ابن العبدلي قاسية جدا في أم الخيرات. أتباع العمدة ينادوه بالشيطان، ابن الجن، الذي استولى على الجسد البريء؛ بينما رعاة الأساودة يغلظون له كلما رأوه، ويتفننون في إيذائه، وينادوه بابن العاهر.

أما أطفال القرية، فقد كانوا يسخرون منه، لغرابة شكله وفقره، ولقبوه باللقب الذي التصق عليه، وأسبغه هو فيما بعد على نفسه. كانوا ينادونه بالغول الأحمر. غول لقبح وجهه، ولاسم جده، غول ابن عبد الرحمن. وأحمر لما كان يزعمه من نسب لبني الأحمر في الأندلس، ولحمرة وجهه الذي زالت عنه بشرته.

عاش الغول الأحمر في تلك القساوة حينا، ثم لم يجد بدا من الرحيل عن أم الخيرات، يمضي وحيدا في الصحراء، فظن الناس أنه هلك، واستطاب لهم العيش في بيوته المنهوبة، والأكل من صيد سفنه المسروقة.

لكن الغلام التحق بركب من الصعاليك، يخدمهم، ويتعلم منهم الضرب والطعان، وفنون الشجاعة والإقدام. أصبح لا يبارى في

الركوب، والرمي، والمبارزة، وهو مازال صغيرا لم يتم الثالثة عشر فيما يزعمون. وعندها عاد للقرية، أو لقربها على الأصح. عاش في الصحراء حولها، يتجول بين الكثبان، ويسقى من ماء الآبار المتناثرة، ويعمل حمالا للقوافل، التي تحمل بعضها ما كان يجب أن يكون ميراثه، فلا يأبه، أو يبدي للناس أنه لا يأبه.

في الحقيقة، كان هناك هاجس يسيطر عليه. صورة تملكته عند الطفولة، حينما هرب أخوه الأصغر من بين براثن القتلة، فأمسكوه، ليندفع حسان محاولا إنقاذه، فتصيبه ضربة السيف. هو هجم فنجا، وأخوه أدبر فقتل. الشجاعة أنقذته، والشجاعة كفيلة بإنقاذ المغلوبين!

تعرف حسان، حينما كان يغشى القرية، على ستة صبية، بينهم أخوان يسميان ماجد ومجد، تصادقوا، وتعاهدوا على الإخلاص بينهم، وأسموا أنفسهم عصبة الغيلان الحمر في لهوهم.

وعندما بلغ حسان ابن العبدلي أشده، كان يتبعه سبعمائة من الغيلان، جمعهم من الصعاليك والحرافيش والمستضعفين، الذين لفظتهم أم الخيرات وغيرها من القرى. أغلبهم فقراء، لا يجدون قوتهم، وأكثر من نصفهم لم يبلغ الحلم إلا قريبا.

كان أول بلد بدأ بها هي أم الخيرات. أحرقها بأهلها، وقتل العمدة شر قتلة، وبنى مكان الضيعة القديمة أولى قلاع الغيلان، وكتب كتاب الشجاعة بقوانينه الثمانية والثلاثين، ودعا الناس

لإتباع الشجاعة، واتخاذ الجسارة مذهبا. معلنا القانون الثامن: "قد يعجز الحق عن النصرة أمام القوي، والقوة تخذل أمام الأقوى؛ لكن الشجاعة هي المطلق، لا يؤذيها ما عند غيرك. فالشجاعة تسمو فوق الجميع."

مضى الأمر معه على خير ما يرام. حوله مدن كثيرة لفظت يتامى ومقهورين، أتوا للغول الكبير - سلسل ملوك الجن، وربيب الصعاليك، كما أشاع عن نفسه – يستنصروه، فنصرهم، وآواهم ودربهم، ليصبحوا ألوفا من الغيلان الحمر المخلصين.

ولما ازداد ضعف الملك، ولم يقدر على حكم الأقاليم البعيدة، تمدد نفوذ ابن العبدلي، حتى أصبح الولاة والأمراء، في الشمال والشرق، يأتمرون بأمره.

(١٨)

دولة الغيلان الحمر

لكن الصدام كان حتميا مع قبائل بني الأسود القوية. ليس فقط لأن له معهم ثأر قديم؛ وإنما أيضا لأنهم كانوا يبسطون نفوذهم على الشرق، خاصة جزئه الجنوبي، فلما ازدادت قوة الغيلان في الشمال الشرقي، حاولوا التصدي له.

ودارت حرب عنيفة، لم يذق الأساودة لها مثيل من قبل. ولأول مرة يدب الرعب في قلوبهم أمام كتائب الغيلان المنظمة، التي تتقدم حاملة السيوف والرماح، ولا تتراجع أنملة حتى تظفر بعدوها. وسمع القاصي والداني بأمر الغيلان الحمر، عندما اضطر الأساودة للهجرة للجنوب على أيديهم. كان حدث جلل، سلط كل العيون الخاشعة على تلك القوة الجبارة النامية.

وتضخم أمر الغيلان المنتصرين في وقت قصير، وبعد أن مات حسان ابن العبدلين تولى الشقيقان ماجد ومجد زعامة الغيلان من بعده. فأما ماجد، فقد بقى في القلعة الرئيسية يزيد نفوذ وقوة الغيلان في المنطقة، حتى وصلت جنوبا لقرب الزرقاء، وشمالا إلى ساحل البحر. وأما مجد، فذهب للحاضرة، يبث

العيون والأعوان هنا وهناك، وهو من أنشأ الفرقة الخفية، التي تتلصص وتغتال، وترتكب أبشع ما ارتكبه الغيلان الحمر.

كان مجد هذا هو جد من أجداد أمي، زوّج ابنته لتاجر ثري، ليستولي على أمواله. فكانت عائلة أمي مقسمة، بين جماعة تكره الغيلان أيما كره، وجماعة مفتونة بقوتهم وبنسبهم، تتبعهم أينما ذهبوا.

بعد وفاة ماجد، واغتيال مجد، مضى عهد الغول الكبير، تاركا وراءه الإرث المريع، الذي تولاه دوما سبعة زعماء، يحكمون معا، لا يفوق أحدهم الآخر، إلا واحد منهم، لا يقضي أمرا إلا بمشورتهم.

كانوا دوما سبعة. كما بدءوا سبعة زعماء، يقودون سبعة رجال، أو سبعة جيوش، المهم أن يكونوا سبعة! كما بدءوا يظلون حتى جعلوه القانون السابع: "الغيلان الحمر دوما سبعة!

أصبح الزعماء السبعة يأمرون، فيطاعون، ويملكون، فلا ينازعون. لا يجرؤ الأمراء على معاندتهم، ولا يفكر الملوك في مواجهتهم. دبوا الرهبة في كل القلوب، حتى ملوك المدن البعيدة.

ذات يوم، هاجمهم ملك من ملوك اليمن، وقتل بعض الغيلان الحمر، الذين كانوا ماضين للحج، واستولى على أموال كانوا يحرسونها. أرسل الغيلان سبعة رجال متخفين، بقوا في اليمن ساكنين، مخلصين لملكها، حينما يدعو الناس لنصرته. وانتظروا

حتى اطمأن لهم، ثم ارتدوا الدروع الحمراء، وقتلوه في عقر قصره، في فاجعة أبهتت ملوك الشرق والغرب!

إلى أن أتى آخر الملوك، بضعفه وهوانه، نازعه أخوه على الملك بمرتزقة من السور العلي والفرنجة، فاشترى الملك آلاف المماليك بكل نقود الدولة، ووقعت معركة رهيبة بين الفريقين عند الثغر الصغير، انهزم فيها الفرنجة هزيمة ساحقة على يد المماليك، وتشتت جند الصيادية على يد جنود جيش الملك.

لكن نفقة المماليك ورواتبهم تضخمت خلال سنين الحرب، فأعجزوا الملك أكثر من مرة، خاصة مع زيادة أعدادهم، وزيادة تمردهم. فثار أمراؤهم عليه، ولم يجد الملك من ينقذه من شرهم سوى الغيلان الحمر. فعقد معهم عهدا مذلا، يدفع لهم به جزية، ويترك لهم نفوذا وسلطة، على أن يمنحوه واحدة من فرق الغيلان، تنصره على المماليك، وهي التي تسمت بالملكيين.

كان زعماء الغيلان قد طمعوا وقتها في إنشاء دولة لهم، يحكمونها. وأصاب (ماسخ) - الغول الأكبر وقتها - هوس بجمع الأتباع، وزيادة القوة، فطغى وتجبر، وانفرد بحكم الجزء الشمالي من الإقليم الشرقي، لا يدخله عليه حتى محتسب، أو جالب ضرائب صغير.

وتوسع في خطف الأطفال والصبية، لتربيتهم غيلانا، وهي البدعة التي بدأها ماجد في السنين الخالية. وتدخل ماسخ في كل

شئون الدولة والسياسة، مفرقا بين الملك وحلفائه، ومضعضعا أركان الدولة المتهاوية أصلا. وزاد على هذا، أن فرض إتاوات، ونهب أموال التجار، ليجلب المال الذي يكفيه.

وزاد جبروته وعنفه، فتململ منه عدد من الغيلان الحمر، جلهم من الصغار والصبية، الذين كرهوا الحياة القاسية، التي فرضت عليهم، بينما يرون الغول الكبير يتمتع بالملذات. لكنه رد عليهم بالقمع والقوة، وهذا خطأ كبير، أن تحاول إرهاب من دربتهم، منذ نعومة أظافرهم، على الشجاعة! فنادوا بصيحة التمرد، وأعلنوا أنفسهم غيلانا جديدة، ولدت من رحم العدالة، فسموهم بالمستولدين. وكان أول انشقاق على الغول الكبير، وإنذار بتصدع دولتهم الباذخة.

ثم زحف الأهبال نحو البلاد الشرقية، فدمروا السور العلي، وهزموا الفرنجة، لينزاح عن الملك خطر أخيه. حاول الملك طردهم من البلاد، وقطع رواتبهم. فثاروا ثورة عنيفة عليه، تزامنت مع غزو الأهبال، وما جرى فيه من وقائع، لعلها كانت الحسنة اليتيمة للغيلان الحمر، أن ساهموا في دفع طوفانهم عن البلاد، وللمماليك من بعدهم أن هزموهم، بينما الملك جالس في قصره، متخاذل عن القتال.

ثم تتابعت الأحداث التي تعرفها، من قتل الملك وأهله، ثم نشوب الفتنة الكبرى، حينما أصبح أخوك شرا من عدوك،

وصديقك أغدر بك من الغريب، وأخذ الغيلان بالقتل والتعذيب، ثأرا من فسادهم، الذي كان له يد عظيمة فيما أصاب البلد من نكبات، ومداهنة لخصومهم من المماليك، وقبائل بني الأسود.

ودارت على دولة الغيلان الدوائر، فزالت سطوتهم، وباد جندهم، وثار عليهم عبيدهم وصنائعهم. وانضم للمولودين جمع كثير، بينما تجمع بقايا أتباع الزعماء السبعة، وسموا أنفسهم بالمبتدأين، لتدور بين الفريقين حروب ووقائع، انتهت بنهايتهم.

(١٩)

الرحلة إلى الوريث.. نحو الشرق

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"أنهى ابن العبدلي حكايته، وأفهمني أخيرا من هم الغيلان، وكيف كانوا، ولم تسموا بهذا الاسم. ثم منحني كتاب الشجاعة، وسيف خاله، وحفنة من مال، معتذرا إنه لا يستطيع مساعدتي بفوق هذا. وقال لي إنه يتمنى ظفري بقلبه؛ ولكنه يدرك الحقيقة بعقله. ولو إنني عدت يوما حيا، سواء ظافرا أو مخزيا، فسيحسن استقبالي، وسيسعى لحمايتي ونجاتي.

وزاد في كرمه واعتذاره أن أخبرني إنه سيرسل رسوله نوري إلى الشيخ غلاب، ينبئه ببعض من أمري، ويرد له ماله، ويستأمنه على أرضي.

وخرجت من عنده مشغول الفكر، أقلب في رأسي الأفكار، وأدرس الطريق، وكيف يكون.

فإذا بي أجد مشهدا مزعجا مضحكا! تيمور غارق في ملذات الطعام، ينتهب منها نهبا! حتى إنني خفت عليه من الموت تخمة. وأحزنته بنبأ استعدادنا للرحيل، وأنه ليس لنا هنا اليوم مبيت! ولكن حزنه انجلى سريعا، إذ رأى دوابنا حملت بالملذات، لتكون لنا الزاد، وهو ما لم يسعدني كثيرا، لإثقاله على دوابنا الثلاثة، وإبطائها في الصحراء، فيطول علينا المرور في الأراضي الخطرة، لنتعرض للقتلة، وغيرها من الشرور الجمة.

لكن من ناحية أخرى، كنت أدرك أنه ليس من اليسير لي الحصول على الطعام والزاد في رحلتي الطويلة، خاصة وإني لا آمن لنفسي في قرية، أو مدينة. فقبلت الهدية على مضض، وتجاهلت ملاحظة تيمور عن إن بعض هذا الزاد ليس مما يحتمل البقاء مدة طويلة، وأنه حتما سيفسد.

يا له من متفائل! أيتصور أننا سنحافظ على طعامنا، وراحلتنا طوال الطريق! إما أن ينهبه لصوص، أو يسرقه وحوش، وإن حدثت المعجزة ونجحنا في الحفاظ عليه، فربما نتصدق به على جائع، نسأله أن يدلنا على الطريق.

كنت قد عقدت العزم على اتخاذ طريق الشمال بين المستنقعات والأحراش المهجورة، قاطعا فروع النهر، محاذيا لشاطئ البحر، لأنني عشت في تلك المنطقة فترة لا بأس

بطولها، مرافقا مع والدي للوريث المزيف، وأظنني أخبرها أكثر من الآخرين، الذين أخشاهم.

ورغم إن هذا حدث منذ سنين عدة، كما إنني وقتها مررت بأخطار مختلفة، والبلاد تموج بشرار قاتلة، تغير الأحوال كل شهور قليلة، ولست واثقا من بقاء حال هذا الطريق على المأمون من مكائده، التي خبرتها، أم أن خطره زاد وتفاقم؟ لكنه في النهاية أكثر أمنا لي من غيره.

أنزلت عباءتي فوق دروعي الحمراء، وأخفيت تحتها سيفي الجديد، وأذنت بالرحيل. فبدأنا الرحلة فورا، وقد بدا الضيق على وجه تيمور، فتجاهلته، حتى انفجر بالسؤال الذي أعرفه جيدا..

"لماذا نرحل في الليل وأخطاره؟ النهار له عيون كما يقولون! كما إنني أخشى الوحوش والذئاب."

قلت:

"لنتفادى ذئاب البشر."

باغتني بسؤاله:

"ألست غولا أحمر لا يخشى شيئا ولا يهاب أحدا؟"

ارتبكت للحظة، قبل أن أستعيد رباطة جأشي، وأقول:

"الشجاعة لا تعني الحماقة. الحكمة مطلوبة، ولنا هدف خطير علينا أن ننجزه. لو خسرنا الهدف السامي لسبب كان يمكن تجنبه، فهذه ليست شجاعة حتما."

بدا عليه الشك، فأسرعت أضيف:

"نحن الغيلان الحمر قد جددنا عهودنا، لم نعد نقول أن الشجاعة هي مواجهة الأخطار، بل أصبح قانوننا الثامن الجديد، إن الشجاعة هي الصبر على الحق مهما كان مرا!"

صمت ولم يرد، فأعجبتني الكذبة! واتخذت لنفسي أمام لجاجة هذا المنهج، إنه كلما أزعجني بسؤال، أسندته لقانون جديد في كتاب الشجاعة!

وهكذا سرنا ليالٍ متتابعة، حتى أتت اللحظة المحتومة، وسمعنا أخيرا العواء الذي خشيه تيمور.

تجمدنا في مكاننا، فسألني تيمور:

"أنرجع؟"

قلت:

"كلا، يجب أن نعبر الصحراء، حتى نصل للثغر الكبير، وغدا ستنتظرنا الذئاب مثل اليوم."

قال:

"ماذا سنفعل إذًا؟ أنبقى هنا حتى ترحل."

يا له من مزعج! أيتصور أنني صافي الذهن، لأرد على أسئلته التي يدور أمثالها في ذهني؟ على أي حال، لم يكن هناك إلا حل واحد

"سنسرع بأقصى ما نستطيع، علنا نتجاوزهم."

وحثثنا الجمال أن تسرع، وقد أقلقها العواء، فخفت مهرولة لكن هذا لم ينفعنا كثيرا، إذ سرعان ما تكاثرت الذئاب حولنا مطاردة.

أمسكت رمحي، ومددت السيف لتيمور. ولما قفز علينا أول الذئاب، شججت رأسه بمؤخرة الرمح، وتركته يتكور وهو يعوي من الألم، وأسرعت ألتفت للجهة الأخرى، لأصد الثاني بطعنة خفيفة، فقد خشيت أن ينغرس الرمح في أحدهم، ولا أستطيع إخراجه من جسده، فأفقده. وبدا لي حرج موقفنا يتزايد، فقلت لتيمور:

"ألق ما عندك من لحم وغيره علنا نشغلهم."

فأمسك بحقائب اللحم والفاكهة، التي أخذناها من ابن العبدلي، وألقاها خلفنا، بينما ألقيت أنا باقي المؤن، لأخفف عن الجمال الحمل، إلا قربة الماء. لكن أغلب الذئاب مضت تطاردنا بإصرار.

بدا لي الحل قاسيا، لكنه الممكن كان الجمل الثالث، الذي أصبح بلا حمل، يكاد يجري ويسبقنا، فطعنته طعنة قاسية برمحي في فخذه، وأسرعت بسحب الرمح بسرعة البرق، وأنا أدعو الله ألا ينتبه جملي لهذا الأمر، لأن الجمال ذكية، ولا تغفر الغدر أبدا.

وأتت حيلتي شيء من الإثمار. فقد تخلف الجمل الجريح، فهجمت عليه جماعة من الذئاب تنتهشه، لكن بعضها ظل يطاردنا بعناد سخيف.

هتفت لتيمور:

"ألق بكل ما على جملك، وأسرع بقدر ما تستطيع فوق الأرض الصخرية، حتى لا تبطئنا الرمال."

أخذ يلقي بكل ما معه، يقذف به رؤوس الذئاب في غل، حتى إنه، بحماقته، ألقى بقربة مائه فيما ألقى! وأخذت برمحي، وتيمور بالسيف نذب عنا من يهجم منهم.

مرت الساعات البطيئة الخطرة، قبل أن تحين الساعة، فيسقط جمل تيمور منهكا، مما أصابه من خدوش ونهشات. ولولا أن تعلق بيدي في اللحظة المناسبة، وتشبث بجانب جملي، لانتهت حياته. لكنه، بمعجزة ما، تسلق جملي رغم سرعته، وجلس خلفين وأسرعنا وسط الفزع والرعب نكمل الفرار.

لكن الذئاب انشغلت بفريستها الثانية، أو اكتفت بها، فلم تكمل مطاردتنا. ولعل بني الذئب في هذا أشرف من بني الإنسان، فإنها إن وجدت ما يشبعها، لم تلتفت للطريدة، حتى لو كانت سهلة؛ بينما بني الإنسان لا يملأ عيونهم إلا التراب.

لكننا سرعان ما توقفنا مكرهين. فقد نالنا من التعب والجروح ما نالنا، وزادت عينا ناقتنا التي انهارت من أسفلنا دفعة واحدة. وسقطنا أرضا، لنجد تلك الطيبة قد نزفت الكثير لكنها ظلت تجري حتى أبعدتنا عن الأنياب التي نهشت لحمها.

وأسرع تيمور يمسك سيفي، فذبح الناقة من فوره، يزكيها قبيل أن تنفق. ورغم حزني على تلك التي أنقذتنا؛ لكني كنت أدرك أنها الضرورة، لأننا فقدنا كل طعامنا.

جمعنا بعضا من اللحم، وسرنا مبتعدين عن أرض الخطر. ولما طلعت علينا الشمس، أخذ تيمور يبسط اللحم تحتها، ليقدده لنمتلك مئونة تكفينا يوما أو اثنين.

لكن الرحلة أطول من هذا بكثير. قد يكفينا ما استنقذته من ماء ببعض الصبر، لكن المشكلة في الطعام. أصبح الصيد الآن حتما علينا، لكنني لست بالبارع فيه.

وبدأنا المسير عند الغروب، مقتصدين في المأكل والمشرب، متلمسين الطريق بقراءة النجوم، فمضت أحوالنا بيسر دون أخطار، حتى قضينا اليوم الثالث.

ففي ذلك اليوم، عثرنا على واحة صغيرة، وبدت ليا هدية من السماء، وأسرعت نحوها أبغي جمع ما يمكننا من التمور.

لكننا فوجئنا بعشرة من الأعراب، يهجمون علينا. كانت ملامحهم غليظة، ويحملون خناجر غير مسنونة، وينظرون لنا نظرة أبشع من نظرة الذئاب!

ألقيت السلام، محاولا إنهاء الموقف بأمان، وقلت:

"السلام عليكم يا إخوة الإسلام. نحن مسافرون، فقدنا دابتنا، ولو بعتمونا دابة وبعض التمر، فسنجذل لكم العطاء، ونربحكم الثمن."

ضحك أحدهم، وكان طويلا بين رجاله، يكاد يصل لقامتي. وكشر عن أسنان سوداء نخرة، وقال:

"أتانا صيد طيب أفنتركه؟ بم ستشتري منا الدابة، بينما أموالك قد أصبحت لنا غنيمة!"

وضحك على دعابته السمجة، فضحك رجاله مجاملين!

قلت بصرامة:

"لا أبغي قتالا، لكنه لن يكون في صالحكم. إنما أبغي مصلحة شريفة بيني وبينكم."

تقدم هذا الطويل أسود الأسنان مني خطوات، وهو يكرر كلامي بطريقة سمجة:

"لا أبغي قتالا! أبغي مصلحة شريفة! يا لك من شجاع! لو إنك ترى في نفسك القوة، لتحفظ أموالك، فافعل! لكني أنصحك بأن تسلمنا ما معك، فربما نتركك حيا، ولن تنفعك تلك العصا التي تتسلح بها يا أخا............"

لم يكمل كلامه. في الحقيقة كان أمكر مما يبدو عليه، إذ أراد إشغالي بحديثه السمج، بينما يتسلل من خلفي واحد آخر من رجاله. فوجئت بضربة على ظهري، ورنين صدمة الخنجر على درعي المختبئ، الذي لم يتوقعه الغادر، الآتٍ من خلفي. والتفت بسرعة، فهويت على المهاجم المندهش بضربة ساحقة من رمحي، أفقدته رشده. وسمعت صيحة تيمور أن احترس، فعدت أنظر لتلك الطغمة، لأجد هذا الزعيم قد أمسك سيفا صدئا، هوى به عليّ لولا أن صده تيمور بالسيف الذي كنت قد أعطيته له.

سحب زعيم اللصوص سيفه، وهوى به عليّ مرة أخرى؛ لكن رمحي كان أسبق، فطعنته في ذراعه، ليسقط منه هذا السيف الصدئ، فانحنى تيمور بسرعة والتقطه. بدا أن الصراع بيننا سيكون متكافئا، فنحن نملك أسلحة أمضى، وألبس أنا دروعا قوية، بينما هم لا يملكون إلا حفنة من خناجر وسكاكين غير مسنونة؛ لكن عددهم أحد عشر شقيا.

سحب الأشقياء زعيمهم المصاب، ورفيقهم المغشي عليه، وهم يسبون ويلعنون، وقد بدا واضحا أنهم لن يجرؤوا على مهاجمتنا مرة أخرى.

تقدمت منهم وأنا أقول بصرامة:

"كل ما أبغيه هو التجارة معكم.............."

قاطعوني بمزيد من سباب، وقال أحدهمك

"لن نعطيك شيئا، فافعل ما شئت. ولن تذوق قطرة ماء من بئر الواحة، وسنكتفي بالصبر حتى يهلكك الظمأ، فنغنم مالك يا أحمق."

أدركت أنه لا فائدة، ولذا أشرت لتيمور أن نخرج من الواحة خائبين، فسرنا بحذر متقهقرين.

كان معي من الماء ما يكفينا، فلم أقلق من تهديدهم، لكن مشكلة الطعام بقيت كما هي، فقلت لتيمور:

"لن نبتعد عن الواحة، فحتما حيوانات الصحراء وسباعها تأتيها لشرب الماء، وربما نصيد منها شيئا ينفعنا."

هز رأسه موافقا، فقلت:

"بالمناسبة، أشكرك. صحيح إن هذا السيف الصدئ كان على الأرجح سيتهشم على درعي، ولكنك حاولت إنقاذ حياتي."

ابتسم وقال:

"وأنت أنقذتني من الذئاب! لا شكر هنا يا رفيق."

تركته، وخرجت بحثا عن صيد. ولم يخب ظني، إذ عدت بظبي كبير.

المشكلة إنني لا أجيد الصيد، وبراعتي في رمي النبال فقيرة! لذا فصيد حيوان صغير، أو طائر في السماء لهو عليّ أمر عسير. لذا، كان علي أن أتحمل سؤال تيمور المستنكر، حينما وضعت أمامه هذا الظبي الثقيل.

"كل هذا! " ونظر لما جمعه من حطب، وكان لا يكفي حتما، ثم نظر بإشفاق لحجم الظبي، الذي سيضطر لسلخه وتجهيزه، وقال:

"ما كل هذا؟ لن نستطيع إنهاءه في يوم ولا أسبوع، وسيفسد منا دون حاجة!"

قلت:

"ألا تستطيع تقديد بقية لحمه؟"

قال:

"أسنبقى هنا حتى يقدد! وهناك رجال متربصون لنا، لا نحب أن نبقى الليلة قربهم؟ لما لم تصد أرنبا أو طيرا، فإني رأيت بعض الأرانب تجري هنا وهناك؟"

إن كان صيد الحيوان الصغير عليّ ثقيلا، فإن صيد الأرانب لعنة! رغم إنني أحب لحم الأرنب، ورغم إن الكثير من الأرانب التي هجرها أصحابها في الواحات، عندما رحلوا لجفاف، أو بعد تعرضهم للغزو والنهب، فإن صيد الأرنب، الذي يقفز سريعا هنا وهناك أمر لا أطيقه! لعلي لا أحب لحمها إلا لأنه عزيز المنال!

قلت بضيق:

"لا أصيد الأرانب."

ثم أدركت أنها فلتة لسان، حينما نظر لي نظرة غريبة، وسأل بصوت خافت يقطر شكا:

"أتحرمها؟"

قلت لأخرسه:

"نعم."

ثم فزعت إذ أدركت متأخرا ما وراء السؤال! فإن بعض الرافضة كما يزعمون، يحرمون لحم الأرنب! فأسرعت أقول:

"أحرم نفسي من صيدها، لا لحمها."

نظر لي بدهشة، وسأل السؤال المتوقع:

"ولماذا؟"

أخذت أقدح ذهني مرتبكا، أفكر في حجة، فوجدتني أقول مراوغا:

"عاهدت نفسي ألا أقتلها."

كرر بإصرار:

"ولماذا؟"

ليتني قلت له إنني لا أجيد الصيد، بدلا من الخجل، الذي أرسلني لكذبات مهلكة! لكن لا مفر من الخوض في المزيد من الكذب الأحمق!

قلت:

"نحن الغيلان نتخذ من الوحوش أخا، وأخي هو الأرنب!"

نظر لي بفم مفتوح، وقال:

"أخوك الوحش هو الأرنب!"

عضضت لساني الأحمق، وأحسست بغباء كلماتي؛ ولكن لم يكن هناك مفر غير المضي قدما، فقط أرجو أن أذكر كل هذه الأكاذيب، بدلا من أن أخطئ فيها أمامه!

فقلت محاولا استعادة صفاء ذهني، والعودة لمنهجي القديم في خداعه:

"كل غول يبحث عن أخلاق الحيوان... أعني أخلاق الإنسان في الحيوان..... آآآ الكتاب .... أعني كتاب الشجاعة في القانون الـ .... الثامن (ثم تذكرت أنني أخبرته بالقانون الثامن من قبل) القانون الثامن عشر.... يقول "علينا أن نبحث عن الصفات المطلقة، والأخلاق النقية.

بدأ ينظر لي بفضول، فأسرعت أحكم خدعتي بقولي:

"الشجاعة، والوفاء، والإخلاص، وغيرها هي أمور على الغول أن يسعى للوصول لها، قبل أن يصبح غولا أحمر. لكن الإنسان يلوثها بالغدر، والجبن، والنفاق. لهذا نبحث عنها في صورتها الأول،ى في مكانها النقي لدى الحيوان. فيكون على من يريد أن يصبح غولا، أن يلازم حيوانا لمدة طويلة. عام هجري مثلا! يراقبه، ويحاول التعلم منه. كان حيواني هو الأرنب، وعادة ما نعاهد أنفسنا ألا نقتل هذا الحيوان، وفاءا له، حتى لو أكلناه على الموائد. بل إنني لا أخجل من أن أقول إنني أحب الأرانب المقلية بالذات!"

نظر لي بغير فهم وهو يقول:

"أفكاركم عجيبة يا غيلان! ولكن ماذا تعلمت من الأرنب؟ هو حيوان ضعيف جبان شره! كنت أظن أن زعيم الغيلان الحمر سينتقي الأسد مثلا؟"

فكرت في أن هذا الرجل أحمق حتما! أيريد مني أن أعيش مع أسد عام كامل!!!!!

رددت عليه مراوغا:

"لا يقاس الأمر عندنا ببطش الحيوان. والزعيم كان يوما تلميذا، وأخي من بني الحيوان لا يعيرني!"

ألح، كعادته حينما يسأل أسئلة سمجة:

"وماذا تعلمت من الأرنب!"

قلت متحاملا على نفسي أن تصمد:

"ما أتعلمه هو لي، لا أستطيع أن آخذه من أحد، أو أمنحه لأحد."

فتح فمه ليكمل لجاجته، وكنت قد وصلت لنهاية صبري، وأصابني الصداع من كثرة التفكير، فلجأت للحل الأسهل لإخراسه! وصرخت فيه:

"ألن تنظر لما بين يديك، وتطهو لنا من لحم الظبي؟"

بدأ في العمل، فنجوت من أسئلته وخرجت رابحا! إذ تولى هو الصيد في الأيام التالية!

(٢٠)

في الثغر الكبير نحو الشمال

وصلنا إلى واحات البوادي، وهي مجموعة من الواحات الصغيرة، القريبة من النهر، ولا تبعد كثيرا عن جنوب العاصمة. فاشترينا منها بعض الدواب، وتكتمنا أمرنا، حتى زعمنا أننا ذاهبون لساوة، فقد كان الخوف علينا عظيما، لأنها من الأراضي الخاضعة لسلطان القائد الأسود. ومنها سرنا شمالا، في طريق القوافل، نحو الثغر الكبير.

كانت مدينة الثغر الكبير أكبر ميناء في بلادنا، وأعظمها ازدهارا. يزعم البعض أنها كانت ذات يوم عاصمة لكل البلاد، في عهد الرومان، الذين كانوا يفضلون دوما أن تكون عواصم البلاد موان كبيرة، تستقبل أساطيلهم الحانقة، لقمع أي ثورة أو تمرد.

ورغم بناء حاضرة البلاد وزهرتها، التي يجثم عليها الآن الأسود، فقد ظلت الثغر الكبير عظيمة مزدهرة، لها ثقلها، ولحاكمها مكانة. ولأنها أكبر مدن الغرب، فبعد انهيار المملكة، أصبحت عاصمة

للإقليم الغربي، يدار منها شئونه وأحواله، سواء ما بين قراه ومدنه، أو ما يأتي من مملكة بارق وقبائل الطارق في غربنا.

لكن داء حب السلطان أتى بأوجاع الاقتتال، وعفن الفوضى، فلم يترك شبرا في بلادنا إلا وحطمه. فضمرت الميناء، وحل عليها الكساد، بسبب اقتتال أمراء الغرب. ويقال إنها كانت بها أيام ملعونة، تمزقت فيها أحياؤها بين الأمراء، كما حدث مع العاصمة. لكنهم اجتمعوا معا، واتفقوا على ألا يقتتلوا، ولا ينازع أحدهم الآخر في سلطانه، وبفضل هذه الحكمة، وقيادة كبيرهم ابن عامر العاقلة، عم الهدوء الغرب كله، باستثناء مناوشات، وحملات سلب ونهب، وصراعات بين الفلاحين والأثرياء؛ لكنها كلها لا تساوي ربع ما حدث في الوسط والجنوب من مذابح وتمزق، أو ثُمن ما أصاب الشمال، الذي هجره أهله، حتى تحول لمستنقعات، وبارت أراضيه.

لم أكن أعلم علم اليقين ما شأن ابن عامر، وهل سيحالف ابن الأساودة، ويسعى لقتل الوريث، أم يبقى على حاله من الحياد، وتأييد ما تكون فيه المصلحة، بعد أن يحسم الأمر.

لهذا تكتمت أخباري، ولم أسع له طلبا للمعونة. واستغللت بقائي في الثغر الكبير، لكي أتشمم الأخبار، وأعرف أحوال باقي الأمراء.

كانت أخبار مقتل أمير الزرقاء الإفرنجي قد أتتهم هنا، ومعها نبأ مقتل جركس ابن بارم ديله، وذبح أمير ثالث يدعى طاووس، أرجح أنه كان هذا الساخط الموتور، الذي قتل الأسود أهله.

وهكذا أمعنت في الاختفاء، حتى إنني أحكمت العباءة مغلقة فوق درعي الأحمر ونقش الغيلان الذي عليه.

كان لتيمور هنا أصدقاء كثيرون من التجار، الذين يترددون على ساوة، يشترون البذور، أو يبيعون حصاد الأراضي، التي تزرع على الساحل بماء الأمطار. فبتنا ليلتنا عند بعضهم، واتفقوا لنا مع بعض الصيادين، ليحملونا بالبحر إلى فم النهر الأول.

سألني تيمور:

"ولم لا نبحث عن مركب تأخذنا مباشرة إلى طرابل؟"

كانت هذه فكرة طيبة، لكنها مستحيلة. فمن يقومون برحلة طويلة في البحر، يطلبون مالا كثيرا لا أملكه، كما أنني لا أعرف الطريق جيدا، وبالتالي قد يخدعونا بسهولة، ويلقوا بنا على أي شاطئ. والأخطر، هو أساطيل الفرنجة، والصيادية، والسور العلي، التي تتحارب بينها. وفوق هذا كله، فنبأ سفر البعض من الثغر الكبير إلى طرابل، ستنقله الآذان الخبيثة، حتما، للقائد الأسود، ليستقبلنا الهلاك ما أن تطأ أقدامنا الأرض!

اقتنع تيمور بحديثي، وجلس متبرما ملولا على أرض المركب، التي تفوح برائحة السمك الخانقة. لكن هذا هو أطيب سفر لنا في الشمال، وما بعده سيكون أدهى وأمر.

أنزلنا الصياد الطيب عند مصب أول فروع النهر (أو آخرها للقادمين من الشرق)، حيث تأتي دوما مراكب الصيد، وقت الفيضان، تجمع السردين.

نزلنا على الشاطئ، وتركت تيمور يوما يرتاح في إحدى الخرائب، لما كان ذات يوم قرية مزدهرة. فحتما علينا أن نرتاح، قبل بدأ المسيرة الطينية السخيفة في المستنقعات."

(٢١)

حكاية مجاذيب الفولي!

"وبدأت رحلتنا في الشمال، في أحراشه ومستنقعاته، الأرض التي يغرقها النهر بمائه، ويفسدها البحر بملحه، فتصبح طينا عفنا ثقيلا ميتا. لكنها على الأقل مهجورة، نستطيع السير فيها نهارا، بعد أن أضنانا سفر الليل.

في الماضي، كانت أرضا عامرة حية، تنبت الزرع حينما كان الفلاحون يرعونها، ويهتمون بها، حتى ليستصلحون الأرض الملاصقة لساحل البحر! لكن يزعم الزاعمين أنه لما أصاب الجفاف البلاد، ثم أثقل الملك الضرائب، هجر الناس تلك الأراضي إلى الداخل. على أي حال، كنت شاهد على الهجرة الثانية، حينما هجرت باقي الأراضي بسبب الحروب والنهب.

كانت المنطقة الموازية للساحل - رغم وحلها - مناسبة جدا لسيري، لأنها مهجورة، لا سلطان فيها إلا للهوام والأفاعي، ولا يسكنها إلا حفنة مشتتة من المطرودين، الذين بقوا من أثر تمرد الوريث الكاذب، أو الدراويش الباحثون عن الخلوة.

أراد تيمور أن نبحث عن طريق أكثر جفافا، بعد أن تبرم من الجرذان والحشرات اللاسعة، لكني أصررت على البقاء في أقصى الشمال، نمشي موازين للبحر إلى فم النهر الأخير، عند الثغر الصغير. وكان عبور هذا الجزء من النهر هو الأخطر، في ظني، لأن عبور النهر، دون إذن حاكم المدينة، شديد الصعوبة وهو -كما سمعت من أهالي الثغر الكبير - حاكم ظالم، يخطف الناس، ويبيعهم عبيدا. ويزعم البعض إنه حليف للفرنجة. وآخرون أنه من أتباع القائد الأسود.

ولكن لم أشغل نفسي الآن بهذا الهم؟ طريقي آمن الآن نعم، لكنه شاق وطويل. علينا الحذر من الأفاعي، التي تحت كل حجر. صحيح إن أغلبها ليس من ذوي السم الذي يقتل -كما تعلمت من عشرات اللدغات، التي رافقتني في الأيام الخالية - ولكن بم يفيدني هذا، وأنا لا أثق أي منها التي أيقظتني من نومي على لسعتها؟

والفئران هي الخصم الثاني لنا في الطريق! لا تترك زادا ولا لباسا إلا ودمرته، ولها في هذا أفانين عجيبة، وطرق لا تخطر على بال البشر! رأيت بعض الأذكياء يربطون زادهم في حبل، ويعلقونه على أغصان الأشجار، فما رأوا في اليوم التالي غير فتات على الأرض، بعد أن التهمت الفئران الزاد، والكيس بحباله!

لذا كان علينا كل ليلة أن ننتقي أرضا جافة جرداء للمبيت، ولا ينام أحدنا، إلا والثاني مستيقظ يحرس الزاد والطعام.

سرنا بضعة أيام على وتيرة واحدة، فبدأ ذهني يفكر في عبور الثغر الصغير، وفيما وراءه. وما وراءه هذا كان ما يقلقني بشدة، لأنني لا أعرفه أصلا! لا أعلم أي طريق أتخذ، فلم أتجاوز في أسفاري مع والدي الثغر الصغير أبدا، منذ رحلت طفلا عن الزرقاء نحو العاصمة.

وعلمت أن الفراغ هو عدو العزيمة الأول! فلأنني لا أجد ما أفعله في هذه المسيرة الهادئة المزعجة اللزجة، تناوبتني الأفكار وهي مرتاحة، تجد لكل منها الوقت الكافي لتثبيط عزيمتي.
صحيح إنني كنت أطردها من ذهني سريعا، لكن عقلي كان يعود لها، ويجادلني بعد كل هذا الشوط الطويل. فمثلا أقول لنفسي "ما لي وما لهذا الأمر؟ لم وضعت نفسي في هذا الشأن أصلا؟ منذ متى كان لعوام الناس دور في تدبير الحكم إلا أوقات الفتن والثورات؟ لأعد لقريتي، ولألزم داري، وأعيش في سلام دون متاعب. حتى من لاموا أبي على فراره قديما، لاموني على ذهابي اليوم!

لا بأس، سأتحمل القليل من السخرية، وسأقضي بضعة أعوام أسدد للشيخ غلاب ما أنفقته، وما ضاع من ماله، فهذا أهون حتما من السيوف الباترة، والوحوش الكاسرة!

أنهي نفسي عن هذا التخاذل وأقول "أبعد كل هذا تتراجع؟ أبعد أن يسر الله لك ما مضى من صعاب تخنع في الجزء الأيسر؟ أبعد مكابرتك ومجادلتك مع كل من عرفوا بأمرك؟"

فترجع النفس الأمارة بالسوء لتقول "البلاد ستسقط حتما، فماذا في يد فرد عادي مثلك ليفعله؟

فأعود لنفض الأمر عن ذهني جاهدا، فيبتعد، لكنه لم ينف لبعيد، وإنما اكتفى بالتواري في مكان مظلم كامنا لي!

كنا الآن نخوض في أعماق الأحراش، فتأهبنا للمبيت، وأخذت على عاتقي نوبة الحراسة الأولى والثانية، لأنني أفضل تأخير نومي، لآخذه دفعة واحدة سهلة. وعلى أي حال، فأمر الحراسة هنا ليس بخطير؛ إن هي إلا حفنة من فئران وثعابين.

وكأنما أحس تيمور باطمئناني، فأبى إلا أن يفسده! فأخذ يسلي نفسه إلى أن يأتيه النوم بأن يقص علي مخاطر الفئران، ونبأ من أصابهم الجنون والحمى بعد أن عقرتهم!

لكنه أسدى لي خدمة لا بأس بها، لأن قلقي من الفئران التي مسها الجن، وستذيب عقلي -كما يزعم – بالحمى، قد أزاح من ذهني وساوس العودة والتراجع، وإن لم يزحزح قلقي بشأن تجاوز الثغر الصغير وما وراءه.

ثم أدركت متأخرا أنني إنما كنت أحسب ثمن السمك من قبل صيده! فالمتاعب أتت مبكرا جدا عن الثغر الصغير!

استيقظت في الصباح، لأجد حولنا رجالا شعثا غبرا، يرتدون أسمالا بالية، ويمسكون بأغصان ميتة، يتخذونها عصيا، وقد أطلقوا لشعورهم العنان، ولحاهم الزمام، عيونهم محمرة، وأسنانهم مصفرة، يلفون على أعناقهم عقودا طويلة من ودع وخرز وحصى.

ظننت لوهلة أنهم من أهل الجان، الذين سكنوا الديار بعد خرابها من أهلها. ثم أفقت من غفلتي، ونهضت مستندا على سيفي، وهتفت بهم:

"من أنتم وما شأنكم؟"

رد أحدهم:

"بل من أنتم وما شأنكم؟"

قلت:

"نحن مسافران إلى الشرق."

رد الرجل:

"سافروا من طريق آخر!"

قلت مصرا:

"لا يوجد طريق آمن آخر، ونحن لا ننوي لكم أذى."

رد بغضب:

"نحن تحت حماية الشيخ، فلن ينالنا أذاكم! هذه أرض سيدنا الفولي، وليس لأحد أن يطأها!"

لم أسمع من قبل بسيدنا الفولي هذا، لكني كتمت دهشتي، وقلت مهاودا:

"نريد مقابلة سيدنا الفولي."

قال:

"لن يدخل أحدا أرضه إلا بإذنه!"

قلت:

"نريد أن نأخذ إذنه."

هز رأسه المغبرة وهو يقول:

"مات مولانا منذ سنوات أيها الجاحد! لكن إن ظهرت له كرامة لكم، سمحنا لكم بالعبور!"

نظرت نحوه بغباء، لا أكاد أفهم، ثم قلت:

"إذا فما حدود أرض سيدنا الفولي لندور حولها؟"

قال الخبيث:

"هي كل ما حول الضريح من الأرض، بين البحر، ومدينة دلها."

تبا له! إنهم لا يتركون لنا خيارا، فدلها وما دونها خاضعة لأمر الأسود، وبها حامية قلقة، تسيء للمسافرين، خشية أن يندس بينهم غادر. والساحل في هذه المنطقة خطير موحل، لا يصلح للسير فيه.

لم أكن أريد، ناهيك عن الاستطاعة، أن أشق طريقي قتالا بين كل هؤلاء. فلم أملك سوى الانتظار حتى يظهر لي أمر جديد، أو أعود من حيث أتيت. وعسكرنا قرب أولئك الدراويش أسبوعا، لا تتزحزح فيه قيد أنملة، ولا يهتز عنادهم بمثقال خردلة!

كانت أعدادهم كبيرة، ربما بضع مئات من المجاذيب. ورغم غلاظة مظهرهم، وقذارة ملبسهم، إلا أنهم كانوا طيبين ودودين معنا في الحديث، وأمدونا بالماء العذب والطعام دون مقابل، لأننا (ضيوف الشيخ)، دون أن يسمحوا لنا بزيارة هذا المضيف! وعلمت منهم أنهم جماعة من الدراويش، الذين تبعوا الوريث الكذاب مع بعض من كانوا يعيشون في الخلاء، تجمعوا حول صومعة لمتصوف اسمه الفولي، وأصبحوا مجاذيبه حتى مات. وبعدها أتى ثلاثة رجال، زعموا أنهم خلفائه. منهم رجل يسمى أبا برق، وقد عرفت رجلا بهذا الاسم بين أتباع الوريث، كان منافقا مكروها، وكان والدي يرى أنه جشع، أتانا بحثا عن المال، رغم إنه أضعف من الارتزاق، فلا نفع منه في حرب، ولا خجل منه في طلب المال!

ويبدو أن أبا برق عثر على اثنين من الأفاقين، ساعداه على تولي أمر أولئك المجاذيب بالأكاذيب! فبنوا ضريحا، وغرروا بالمساكين، ليبسطوا لأنفسهم سلطانا على بقعة من الأرض، حتى لو كانت خرائب!

لكن الثلاثة (الخلفاء) ماتوا بعد وقت قصير، وكما يزعم القوم: بعد أن عقرهم فأر، فأصيبوا بالحمى! يبدو أن هناك الكثيرون ممن يسمعون لمثل أحاديث تيمور المفزعة! لن آمن لفأر بعد اليوم!

ولكن الأثر الخبيث للأفاقين مازال باقيا، وهل هي الأرض علينا محرمة إتباعا لبدعتهم! وعليّ أن أعثر على كرامة ما، ليسمح لي مجاذيب الفولي بالعبور.

ظللنا في معسكرنا هذا لا نغادره إلا للسمر مع حرس الدراويش، لنأخذ منهم المؤن، ونجادلهم دون جدوى، ونتبادل الحكايات والأخبار، فأقص عليهم ما حدث في أمر البلاد، التي هجروها منذ زمن بعيد، ويخبرونني بأمر هذه الأرض الخربة، والمواضع التي أحذرها، لكثرة السباع أو التماسيح فيها. وقد اصطدت معهم، بمعونة تيمور، تمساحا كبيرا، كان يلتهم الدجاج الذي يربيه الدراويش، وجلسنا معهم نشق لحمه القاسي، لنسلخه، ثم تركوا لي الجلد كاملا، زاهدين في ثمنه، أو أجرتهم!

فهو في نظرهم زينة لا تليق بهم. وتركته بدوري لتيمور، فهو التاجر الآتي من ساوة، وسيعرف كيف يبيعه في مكان ما!

وأخذت أسنان التمساح، فعالجتها، وثقبتها، وهذبتها لأصنع منها مسبحة، ألطف شكلا من تلك الغليظة، التي يضعها المجاذيب على صدورهم من الحطب والحجر والودع، وأهديتها لأحدهم، علها تذيب شيئا من سد الطريق، وأخذت أجادلهم وأحذرهم من خطر القائد الأسود، وحلفائه الفرنجة والأهبال، الذين يطمعون في امتلاك الثغور، مقابل مساعدته، ولا يقف أمامهم سوى الوريث، ولا يقف بيني وبين الوريث سواهم!

لكن المجاذيب مغيبون في عالم آخر، لا يرون مما يحدث حولهم شيئا، ولا يفهمون إلا أن الفولي وليّ صالح سينقذهم! وما أظن الفولي هجر العمران إلى الأحراش إلا هربا من أمثال تلك العقول المغلقة!

كانوا لا يسأمون من جدالي معهم، لأنهم لا يعيرون حججي التفاتا، ولا تحرك كلماتي عقولهم، إلا كما يحرك الريح الجبل! حتى بدأ السأم يصيبني أنا، وأدركت أن الاستسلام والعودة للسلامة هو الخيار الوحيد للعاقلين.

لكن أثناء الجدال، أفزعني سؤال. هل أنا خير من مجاذيب الفولي؟ هم يدفنون عقولهم، ويهربون من عالمنا القاسي إلى روحانيات أضرحة الأولياء، بينما أنا أراود نفسي في العودة سالما

لداري.. ءأفلست مثلهم؟ أغيب عقلي، وأسخر روحي، لإرضاء هم بطني، وأمن جسدي؟ على الأقل هم يسعون لروح باقية، ولو أخطئوا طريقها، وأنا لا أسعى إلا لسلامة جسد فان، وإن أصبت الطريق.

هنا كانت لحظة حاسمة، قطعت دابر أفكاري الخانعة، وأعادت لعزيمتي إخلاصها، وأوقدت نار الحرب ضد الأسود في قلبي.

استيقظ في قلبي الآن جزء صغير أماته موت أبي. الجزء الوحيد الذي كان يفهم لم ذهب أبي لقتال مع الوريث، ولماذا قتله الكمد حينما علم بكذبه، رغم إدراكه أن الهزيمة قد حلت علينا من قبلها. ورغم أن باقي أجزاء صدري كانت لا تفهم غير تأييده في الفرار من القرية ومن الزرقاء وقت الخطر!

هكذا أخيرا خلصت نيتي في رحلتي، وحينما تخلص النية، تأتي النجدة!

لا أدري كيف أتاني الإلهام لتزوير كرامة للفولي! كنا نتجول حول مجرى صغير، يبدو أنه كان ذات يوم قناة للري، فإذا بي أجد على جانبه بعض البيض الكبير المدفون في الطين، ففرحت به وأسرعت نحوه مستبشرا، لكن تيمور أوقفني بقوله:

"دعك من هذا، فهو ليس بيض طيور، بل بيض تماسيح!"

"ماذا؟"

"بيض تماسيح!"

نظرت له مستنكرا، وقلت:

"بيض تماسيح! لم أسمع بمثل هذه الأعجوبة من قبل! وما أدراك أنت ؟"

قال:"رأيته من قبل، ففي أوقات الجفاف، نذهب نحن أهل ساوة في قوافل كبيرة، نشتري الغلال والتقاوي من الجنوب وأقصى الجنوب. وهناك تكثر التماسيح على ضفاف النهر، وقد رأيت بيضها، وأخبرني عنه أهل البلاد. التماسيح هناك كبيرة جدا، وشرسة، وأعدادها أكثر من هنا بكثير. ففي الجنوب موطنها، ومن ضفافه منبعها. وإن كانت هنا أكثر بكثير من العاصمة وما وراءها، لا أدري كيف."

قلت مخمنا:

"ربما لكثرة الوحل، وقلة البشر."

ثم قفزت لذهني تلك الكرامة الفريدة! فقصدت المجاذيب بعد صلاة الفجر، وقلت لإمامهم بصوت يسمعه الجميع

"قد جاءني الشيخ الفولي في المنام، وأخبرني إنه غاضب عليكم، وأنكم يجب أن تتركوني أعبر."

نظر لي مستنكرا، وقال:

"إن كنت قد رأيته حقا، فصفه لنا!"

لم يفاجئني سؤاله، إذ كنت أعددت له العدة، فقلت:

"قد كان في وجهه نور ساطع، ويرتدي الثياب الخضر الإستبرق! وبين حاجبيه نور، وفي عينيه صفاء، وفي وجهه نعيم الجنة!"

قال أحد المجاذيب:

"الله أكبر!"

نظر لي الإمام بغيظ، بينما التف حولي البقية مصدقين، رغم إنني لم أذكر لهم صفة واحدة تعرف!

بادرت بالكلام:

"قد أخبرني إن الصدأ علا قلوبكم، وأنكم لن تصدقوني، لذا فسيمسخ الله طعامكم، ثم شرابكم، ثم يمسخكم أنفسكم، إن لم تخلوا بيني وبين درب الجهاد، لإصلاح سبيل المسلمين!"

نظر لي الإمام بغضب جامح، وصرخ:

"أعلى قلوبنا نحن الصدأ أيها الفاسق؟ وماذا تعني بمسخ طعامنا؟"

بدا لي أن أول بذرة لحيلتي قد نمت، فالغضب في سؤاله الأول لم يخف القلق في سؤاله الثاني!

هززت كتفي حائرا، وقلت:

"لا أدري! هذا هو ما قاله لي، وقد جئت أخبرك به، لأريح ضميري، وأنفذ وصيته."

نظر لي متأملا، كأنما يحاول رؤية ما بصدري، ثم يأس، فقال:

"إذًا، فاذهب الآن، وسننظر في أمرك."

تركته، وأخذت تيمور معي، فسألني مبتهجا:

"أحقا جاءك سيدنا الفولي، وسيمسخ المجاذيب؟"

قلت له:

"لا تكن أحمقا يا غلام! الأولياء لا يضرون ولا ينفعون بعد مماتهم، وليس لهم إلا الدعوة الصالحة في حياتهم. ربك وحده هو الضار النافع."

هز كتفيه وقال:

"إنما نتبرك بهم."

قلت بغضب:

"الخطوة الأولى على سبيل قوم نوح. أما قرأت في كتاب الله تعالى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)؟"

قال تيمور:

"إذًا فلم قلت هذا للرجل؟"

أشرت له ليسرع خلفي، وقلت:

"اتبعني في صمت."

وفي الصباح التالي، كان الدراويش قلقون، يتهامسون إذا رأوني، ولاحظت أن البيض قد اختفى من طعامهم، الذي يضيفوننا عليه.

ولثلاثة أيام متتالية، ظل الدراويش يصدمون، كلما أرادوا جمع البيض من حظائرهم. وسرعان ما علمت أنهم يجدونه مليئا بالدم يحوي أشكالا كريهة، فيلقونه فزعين.

لكنهم لم يتزحزحوا عن عنادهم، وظننت أن الفشل آت لخطتي، ما لم أجد الطريقة لمسخ شرابهم.

لكن في النهار الرابع، سمعت صراخا واستنجادا، فنهضت مفزوعا ومعي تيمور، لأجد أحدهم قد أمسكت به التماسيح عند حظيرة الدجاج.

كان تمساحا مهولا، لم أر في حياتي مثيله، يقبض بأسنان من حديد على ذراع أحد الدراويش، ويجرره جرا، بينما المجاذيب يصرخون، ويهوون بعصيهم على الوحش دون جدوى.

هويت برمحي على عنق التمساح، فأفلت ذراع المسكين، والتفت نحوي بعينين صفراوتين تحنان للدم. كان جلده القوي قد أمّنه من الضربة الأول،ى فدفعت بالثانية في فمه الفاغر، لينبثق منه الدم الغزير، فقبض على الرمح بأسنانه، لم أستطع نزعه منها، وهوى بذيله نحوي، فتفاديته، وأخرجت سيفي وجلا،

أتحاشى هذا الوحش المريع، وهتفت بتيمور أن يخرج الجريح بعيدا عن هنا.

نظرت متحفزا للتمساح، فوجدت خلفه تماسيح أخرى، تملأ حظيرة الدجاج، وإن كانت لحسن الحظ أصغر حجما. فتراجعت ببطء، والوحش يتبعني، وقد أثقله الرمح المغروس في فكه، ثم قفزت عليه مرة واحدة، وهويت بالسيف بأقصى قوتي على رأسه، لكن الضربة بدت دون أثر يذكر. ورد علي بلطمة من ذيله، أوقعتني، وأسالت الدم من رأسي، وأحسست بعينه تنظر لي في شهوة المنتصر، فأصابني الفزع، ودفعت بسيفي دفع اليائس، فأصاب عنقه.

ويبدو أن الضربة كانت في موضع ضربة أخرى شجت جلده، فغرس السيف في جسده، ودفعته بإصرار في اللحم القاسي حتى المقبض، ثم أخرجته ملطخا بالدماء، مبتعدا عن انتفاضة الجريح، الذي سرعان ما همد إلى الأبد.

نهضت مسرعا بسيفي، فشطرت تمساحا صغيرا إلى نصفين، وسرعان ما أتى تيمور وباقي الدراويش، يحملون الفئوس، ويمزقون أسراب التماسيح حتى كلت أيدينا، وسالت الدماء، فصبغت البركة التي يشربون منها باللون الأحمر.

وعدت لجثة التمساح العملاق، فنزعت رمحي منه بصعوبة، ورفعته نحو السماء، أرقب ما أصابه من ضرر في ضوء الشمس.

والتفت، فوجدت الدراويش ينظرون لي بإجلال ورهبة، ثم اندفعوا نحوي معتذرين عما سلف، ويشكرونني على إنقاذ زميلهم. شكر لم أشعر أنني أستحقه، فأنا السبب فيما أصاب الرجل. وغمرني الندم، لو فقد هذا الدرويش ذراعه، فإنما حدث هذا لأنني كنت أختلس بيض التماسيح، وأبدل به بيض الدجاج أثناء الليل، وأتت أم الوحوش تبحث عن أبنائها الذين سرقتهم.

لكني حينما ذهبت للجريح اطمأننت. وتوليت بنفسي غسل الجرح، وتنظيفه، ومعالجته. لم أفقد بعد ما تعلمته وأنا صغير على يد طبيب حاذق، كان معنا مع الهاربين من الزرقاء، وقد اتخذني مساعدا، لأنني أصغر الموجودين وأخفهم يدا. رحم الله الطبيب ابن جلجمة، فقد تعلمت منه علاج الجروح، فعالجت جرح ذنبي، وأدركت أن الرجل لن يفقد ذراعه بإذن الله، وأنه مازال يستطيع تحريكها على خير.

وبقيت طوال الأسبوع التالي أرعى الرجل الجريح، واسمه مغبون ابن مظلوم. لا أدري أله نصيب من اسمه، أم هم لقبوه بهذا بسبب حظه! وبعد أن زال الخطر، ولم تدهمه الحمى، وبدأ يشفى بأمر الله الشافي، سمح لي المجاذيب بعبور أرضهم، على أن أزور ضريح سيدنا الفولي واستعطفه، ألا يمسخوا كما مسخ الطعام والماء!

وزرت الضريح، وقرأت له الفاتحة. أحسست هناك أنني بالفعل في مكان مبروك، جوار رجل صالح بريء مما حوله من بدع منكرة. فدعوت الله أن يوفقني في أمري، ويوفق المجاذيب للهدى.

ومشيت في أمان، عابرا أرض مجاذيب الفولي، ومعنا منهم واحد يكلم بقية جماعاتهم، ليتركونا نمر، وهو يخبرهم بكرامة الشيخ الجديدة.

وقبل أن أغادر آخر أرضهم، قلت لدليلي:

"الشيخ الفولي غاضب حقا عليكم. هو يرى، وأظنه الحق، أنكم قدسمتوه أكثر من اللازم، والله وحده هو القدوس. وإن هذا ليزلقكم إلى الشرك، وقد كان هذا ما يخشاه منكم في حياته، فقد أوقعتموه بعد مماته، فاتقوا طريق قوم نوح."

تركني الرجل دامع العينين، مصدقا لمقولتي، ورآها كرامة أخرى! إذ كيف علمت أن الشيخ الفولي كان يخشاهم وينهرهم في حياته؟

وتركت أولئك القوم الطيبين المساكين، ومضيت في طريقي نحو الثغر الصغير، لا أدري ما يصيبني فيه، وهو كأرض الفولي لا مهرب منه، بل أشد، لأن لا عبور لفرع النهر الأخير، إلا بجسرهم الذي يقف عليه حرس حاكمهم الظالم.

(٢٢)

في الثغر الصغير

لا أدري، لعلها بركات الشيخ الفولي قد حلت علينا فعلا! فقد كان أمرنا سهلا. عبرنا من أرضه، وما وراءها بيسر، وعبرنا فروع النهر دون مشقة، حتى أتينا للفرع الشرقي الأخير، أكثرهم غزارة وعمقا، وأصعبهم في العبور إلا بجسر كبير، بناه أهل الثغر الصغير، لأجل تجارتهم مع أهل الشمال. ولأنه يؤدي لقلب مدينتهم مباشرة، فقد كان الحرس المشدد عليه لا ينام.

لكن لعلها كما قلت، بركات سيدنا الفولي. فقد وجدت الجسر خاليا، لا حارس عليه، ولا عابر فوقه!

كان يبدو، هو وغرفة الحرس، مهملين، يعلوهم التراب والعفن. ربما بعدما هجرت الأراضي غرب المدينة، ترك الناس الجسر، بعد أن أصبح بلا نفع!

ودخلنا للمدينة بسهولة ويسر، واشترينا راحلة من سوقها، دون إزعاج، وأتينا بالزاد والزواد، وتوجهنا لبوابة المدينة الجنوبية، نبغي الخروج مطمئنين.

وهنا انتهت آخر أيام السلامة في رحلتنا، وبدأت متاعبنا الأكثر خشونة.

قبض علينا حراس الوالي، ونحن على البوابة، واقتادونا بغلظة له.

كان الوالي رجلا سمينا جدا، يبلغ من عمره الأربعين تقريبا، ويخفي نصف وجهه أسفل عمامة ضخمة من الحرير، مزينة بريش كبير، لا أدهش إن كان ريش النعام! ويتدلى منها عقود لؤلؤ، في جمهرة للبذخ والتفاخر، تؤذي العين وللذوق السليم. وأما نصف وجهه الثاني، فقد اختبأ خلف شارب عظيم، لم أر في حياتي له مثيلا، وهو لا ينفك يبرمه ويمسحه، بعد كل كلمة يقولها.

كان يجلس فوق عرش عالٍ جدا، حتى لو أن أحدهم دفعه من أعلاه، لسقط ميتا. فكان علينا، وقد ألصقونا بأسفل العرش راكعين، أن نرفع رقبتينا عالية، لننظر له، حتى أصاب الألم عنقينا. ولا أدري لم كل هذا الكبر في نفسه!

تكلم بلسان معوج، نصف أعجمي، متعثر في حبات التين، التي يلقيها في فمه الكبيرن كما نلقي نحن حبات الزبيب في أفواهنا، فلم أفهم منه كلمة واحدة! لكن رجاله ردوا عليه بقولهم:

"قبضنا عليهم عند الباب الجنوبي، يريدون الخروج، وقد اعترفوا أنهم غرباء عن المدينة، ولم نجد معهم أوراق دخولها، فعلمنا أنهم متسللون."

سأل الوالي سؤالا آخر، لم أفهمه، فأجاب رجله:

"كان معهما راحلة، وطعاما يكفي لمسافة بعيدة، فشككنا في أمرهما، لعلهما جاسوسين."

تكلم الوالي مرة أخرى، بطريقته المتغطرسة المتعثرة المقيتة ،واحتاج الأمر مني جهدا، لكي أفهم أنه يحدثنا نحن، وأنه على الأرجح يسألنا من نحن، وإلى أين نذهب.

وقبل أن أفك طلاسم الفم الغليظ، تدخل فم مخيف آخر! فم ثرثار خفيف العقل! فيبدو أن الحرس أدركوا أننا لن نفهم مقالة الوالي، ولأن تيمور كان متأخرا خلفي، فقد همس الحرس له بتفسير سؤال الوالي، فأسرع يجيب بحماقة قبلي.

قال تيمور:

"أنا تيمور الساواتي. من آل العلاف في ساوة، ونحن أنسباء الملك."

أردت الالتفات له، لأخرسه؛ لكن أحد الحرس لطمني، لأعود لرفع رأسي نحو الوالي، وأكمل الأحمق:

"وهذا هو القبيل، زعيم الغيلان الحمر، ونحن ذاهبان إلى طرابل لـــ..........."

لم يكمل لأن يدي هوت على ركبته لأخرسه. ولكن بعد أن وقعت الواقعة!

بالطبع صادروا أموالنا، وأسلحتنا، واقتادونا للسجن. فالوالي ممن يراءون القائد الأسود، وقد أتته كما أفهمنا حرسه أنباء الوفود الذاهبة للوريث، فأدرك بفضل حماقة تيمور، الذي قال إنه من أنسباء الملك، أننا وفد مثلهم، لكن معادٍ للأسود!

كان السجن في أسفل القصر مظلما كئيبا واسعا، لكنهم ألقوا فيه بكل السجناء معا، فضاق بهم. وما أن دخلناه، حتى التف حولنا ثلاثة رجال ضخام الجثة!

قال هذا الذي على يميني:

"من أنتم ؟"

أما الذي على يسار تيمور فقال:

"ما الذي ألقى بكم هنا ؟"

وأتبعه الثالث من أمامنا:

"يبدو أنهم خرس بكم!"

وهنا باغتنا الرابع من خلفنا بصوت أجش:

"هم خدم جديد لملك السجن، وسيبدءون بدفع التقدمة الآن!"

(٢٣)

حكاية الشاطر عدنان

هوى أحد الرجال الأربعة على كتف تيمور، كأنما يصافحه، لكن يده هوت، وهوت بتيمور ذاته معها! وبدت ابتسامة خبيثة على وجوه الرجال الأربعة، وامتلأ عقلي برعب الفهم! سيفتتحون ليلتنا بضربنا، وتحطيم ضلوعنا كتقدمة لزعيم الزنزانة. وفي هذه اللحظة، ضاع مني أي أثر للغيلان، والحمر، والأسود، والقتال! لا أحب أن أضرب؛ وإن وجدت نفسي دون سلاح، محاطا بأربعة عماليق، فسأفعل كل ما يطلبونه مني دون تردد!

لكن النجدة أتت من حيث لا نحتسب، فأحد الحرس بالخارج هتف:

"يا كلثوم دعهم، فهذا من الغيلان الحمر."

تجمدت الزنزانة كلها، قبل أن ينهض كل من فيها، وينظر نحونا، كأنما يرون أعجوبة من أعاجيب الدهر. أكاد أزعم أن قوم ثمود ما نظروا بأعجب من هذا إلى ناقة صالح!

نحن هنا في الشرق وفي شماله تحديدا، حيث للغيلان ذكرى قوية. فهنا نشئوا وتسلطنوا، وكانت تلك المدينة أول المدن الكبيرة خضوعا لهم، وأول من ذاقت طعم خطف الأبناء على يد الغيلان. لذا فقد كان للقبي رهبة في النفوس، لم أجدها في أي إقليم آخر. حتى في الجنوب الشرقي المجاور لهم، نزع الأساودة الكثير من ذكرى الغيلان الحمر.

وتلك الذكرى المرهبة هي ما أنقذتنا تلك الليلة، كما أخبرني الشاطر عدنان.

كان هذا الكلثوم هو العملاق، الذي أتى من خلفنا. كان ضخما جدا، حتى إن حجمه يماثل الثلاثة الآخرين مجتمعين! ويظهر على وجهه لمحات ذكاء، على الأقل تفوق رجاله.

أجلسنا كلثوم معه، وأفرد لنا مكانا مريحا، تفوح منه رائحة نتنة وسألني:

"أنت من الغيلان الحمر حقا؟ ظننتهم بادوا؟"

أجبته بمثل جوابي لشيخ بني الأسود:

"لقد عدنا."

نظر نحوي بفضول وقال:

"قد قتل جدي على يد الغيلان حينما اختطفوا أخي الأكبر، وقد قتل هو الآخر في حروبهم، التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل."

ابتلعت ريقي بصعوبة محاولا التماسك. لو كان كارها للغيلان، فأن يخشانا أفضل من أن يأمن لنا.

قلت محولا الحديث ناحيته:

"ظننتك أصغر سنا من هذا؟"

قال بفخر:

"أنا من أسرة معمرة، كما إنني ولدت بعد هذا الأمر بعقود، أقول لك الحق، إنني أكره الغيلان الحمر، وأقولها صراحة بلا خشية. لكن هؤلاء رجالي، أكره أن أدخلهم عداءً لا داع له."

تذكرت قولا قرأته في كتاب الشجاعة، الذي كان تسليتي الوحيدة أثناء انتظارنا على بوابة الفولي:

"الغول الأحمر الحق، ليس الذي يتبع الغيلان، وإنما الذي لا يهاب حتى الغيلان."

قال متبرما:

"ما هذا الهراء؟"

قلت:

"قانوننا السابع والثلاثين."

فتح عينيه بدهشة، وقال:

"إذاً فأنت غول أحمر حقا! سأرى ما يقوله الشاطر في أمرك. ما كنت لأقطع في هذا الشأن دونه."

لم أفهم، ولم أسأل، فاليوم ظهرت لي حكومة أخرى، تسيطر على قاع المدينة وسجنها، بقبضة أقوى من قبضة الوالي الظالم على بقيتها. وظهر أن هؤلاء الصعاليك والحرافيش، يأتمرون بأمر واحد، وفوجئت مفاجأة لم تسرني، إن هذا الكلثوم الغليظ ليس سوى بلطجي أقوى من غيره، يبسط نفوذه على السجن وإنما هو تابع لزعيم آخر، هذا الذي يلقبه بالشاطر، ولا أدري، إن كان هذا هو التابع، فأنى لي بلقاء المتبوع؟

عند الفجر أيقظنا كلثوم، وأخذنا لباب الزنزانة، فسألته:

"ماذا تريد يا كلثوم؟ ثأر جدك؟"

ضحك كاشفا أسنانه المسودة، وقال:

"كلا! إنما سأخرجكما من هنا."

قلت بلهفة:

"ماذا؟ كيف؟ دلنا على الطريق."

قال:

"أخبرني أولا ماذا تريد الغيلان من هذه البلد؟"

فتح تيمور فمه، ليلقي بكارثة أخرى على الأرجح، لولا أن سبقته بقولي:

"لا شيء. فقط كنا ذاهبين إلى طرابل، لزيارة أقارب هذا الشاب."

نظر لي بسخرية، وقال:

"أهو من الغيلان؟ طبعا لا! إذًا لم تصحبه؟"

قلت بصرامة:

"هذا شأن من شئون الغيلان."

لانت ملامحه فجأة، وقال مهاودا:

"حسنا، حسنا! أخبرني الشاطر إنكما ذاهبان لاستدعاء الملك لحرب كبيرة مع بني الأسود! والأمر يقلق الوالي كثيرا، ولعله يفكر في قتلكما. لكن الشاطر يريدكما هو الآخر، لأنه ينقم عليكما إضاعتكما لوسيلة! ولما كان الأمر كذلك، فقد أخبرني قائد الحرس أن نريحه منكما، ونريحكما منه، فهو يكره أن يكون له ثأر مع الغيلان إن قتلتمتا هنا، ولا يأمن بقاءكما معنا، لذا فحين نذهب لاستعادة وسيلة، فسيغفل عنكما الحرس."

لم أفهم شيئا مما قال! كان يتكلم ببساطة عن أشياء لا أعرفها، وأحداث لا يقبلها العقل! من هي وسيلة؟ وكيف أضعناها؟

وكيف يحادثه قائد الحرس بهذه البساطة عن هروبنا؟ ومن هو الشاطر أصلا، وكيف عرف بمقصدنا؟

لكن لم يكن هناك الكثير مما أحتاج لفهمه، فقد أتتني ضربة على رأسي، وألقوا كيسا على وجهي، وسحبوني وتيمور للخارج كالجوالين!

ظنوا أني فقدت الرشد، وساعدتهم على ذلك، لأنه لا حاجة لي لضربة مؤلمة أخرى! وانتبهت لسماع ما يحدث حولي، فوجدت أصواتا زاعقة، وصليل سيوف، وهتاف إن الغول خطف سيفا، وهاجم الحرس بينما الغول في الحقيقة ملقى على عربة كريهة الرائحة، ظننتها في البداية تحمل القمامة، ثم عرفت فيها الطعام الذي يقدم للمساجين! وبسرعة البرق، كنا جميعا خارج القصر!

أنهضوني، وافاقوني بجهد (فقد أجدت التمثيل، عليهم لدرجة أن ألقوا علي بوعائين من ماء قذر!) ففتحت عيني أخيرا، أرقب ما حولي، فوجدت رجلا مألوف المظهر، لا أذكر أين رأيته من قبل.

ثم نظرت حولي، لأجد تيمور مثلي، وجواره كلثوم يفيقه، ونظرت لعربة الطعام، فرأيت الدابة التي تجرها، فعرفتها وتذكرت من هذا الواقف أمامي!

ابتسم لي، وسألني بلهجة ودودة:

"كيف حالك أيها الغول الهمام؟ كما ترى فقد أصلحنا ذنبك، واستعدنا وسيلة!"

نظرت له محاولا الفهم، وقلت:

"وسيلة؟ أهي الدابة التي اشتريتها منك بالأمس؟"

عقد حاجبيه وقال:

"لا تقل على وسيلة دابة! إنما هي أفضل دابة في العالم، أبيعها في الصباح لساذج مثلك، فتعود لي في المساء محملة بمتاعه وأمواله! لذا فهي ثمينة جدا عندي، ولا أقوى على فراقها!"

نظرت إليه متعجبا، فلم أسمع في حياتي بمثل هذه الحيلة، على كثرة ما سمعت من طرائف المحتالين والشطار.

سألته:

"أنت هو الشاطر أليس كذلك؟"

قال:

"محسوبك الشهبندر عدنان، كبير تجار سوق الدواب بالثغر صباحا، والشاطر عدنان الملك المسائي للمدينة!"

قلت:

"على كل أشكرك لإنقاذنا."

قال:

"حسنا ما أن أخبرني كلثوم – آه! – تذكرت! يا كلثوم، يجب عليك أن تعود للسجن قبل طعام الغذاء! ماذا كنت أقول؟ حسنا! ما أن أخبرني كلثوم بوجود غول أحمر في زنزانته، حتى ابتهجت! ليس لأن أجدادي كانوا منهم كما ظن، فأنا رجل عمليّ يترك الأموات في قبورها، ولا ينازعها في أمجادها! وإنما لأنه ستلصق بك تهمة اقتحام القصر، وسرقته، بدلا من رجالي حينما، نذهب لاستعادة وسيلة! ولولا هذا، لقام الوالي بمصادرة كل نياق السوق ثأرا!"

قلت بغضب:

"هذا الوالي الظالم. حتما سأراه هالكا، حينما تنتهي الحروب من البلاد."

قال الشاطر عدنان:

"تنتهي الحروب! ألها نهاية! على أي حال لا أظن أن هذا سيحدث، لأنه سينحني للحاكم الجديد، بنفس الحماسة والإخلاص، اللتان ينحني بهما لفرق الفرنجة المختلفة، وسادات الأهبال! ويداهنه كما يداهن ملوك الصيادية، والسور العلي، وقبائل الأسود! كل حاكم قوي يحتاج لبعض من ينحنون له، والوالي يجيد هذا بشدة!"

قلت:

"رائع! تضيف له تهمتي النفاق والخيانة!"

هز رأسه نفيا، وقال:

"عزيزي، أنا مدين لهذا الحاكم بثلاثة خصال. الأولى، إن في عهده السعيد، أصبحت أنا اللص الحقير، زعيما مطاعا في المدينة، وبفضل المال يتلقى قائد الحرس أوامري، قبل أوامره أحيانا! والثانية، إنه بإنحناءه لكل من حولنا من طغاة، أنقذ المدينة من الدمار والخراب، ولو أتى حاكم آخر يملك ذرة من كرامة لهذه المدينة، لتسبب في هدمها على رؤوسنا! تماما كما حدث لغيرنا من المدن. والثالثة، إنه لا يحب القتل، ولعلك أنت نفسك مدين له بهذه! وكم من مرة أمسك فيها بكلثوم، فلم يؤذه إذا ما اتفقنا إن السجن الملكي، الذي يعيش فيه، أفضل بكثير من الجحر الذي ولد فيه!"

كنت أسمع له بنصف أذن، لأن عقلي مشغول بمصيري مع هذا الشاطر. كنت أرجح أنه لن يقتلنا، ولكني أشك في أنه سيتركنا نرحل بهدوء، وربما كان خير ما أفعله هو أن أتشبث بزي الغيلان الحمر، لعل الحنين لأسلافه ينفعني.

ومضت علينا أيام عدة في (ضيافة) الشاطر عدنان، حتى أدركت أنه ينتظر منا ثمن إنهاء هذه الضيافة، وهو أمر صعب ،بعدما فقدت المال والسلاح، ولم يبق لي إلا هذا الدرع السخيف الذي أوقعني في كل هذه المصائب! وخشيت أن

ينتظر الثمن من خصومنا، وصارحت تيمور بهذا الأمر، فأظهر لي الفتى أول لمحة ذكاء منذ رافقني في الرحلة!

ذهب إلى الشاطر، وأخبره أنه يريد الذهاب للسوق، للبحث عن بعض أهل ساوة، يقترض منهم مالا يكافئه به على حسن ضيافته. ودوما في السوق تجد رجلا من أهل ساوة، أو ممن يترددون عليهم، فتجارتهم قد تتسع أحيانا حتى تصل لبلاد الحجاز شرقا، والسواد جنوبا، وقد أجادوا معاملة الحكام في المدن، فلم يعد أحد يتعرض لهم، خاصة إنهم يحملون أثمن سلعة، ذات أرخص ثمن، ألا وهي الطعام! فلا يوجد اللص الذي يطمع فيهم، ولا الأمير الراغب عنهم!

على أي حال، تمت الصفقة. فقد أتى الشاطر عدنان بأحد تجار ساوة، يدعى أدهم، كان آتيا له لشراء راحلة منه، فقابله تيمور وعرفه، واقترض منه مالا، أعطاه للشاطر مقابل حريتنا، والزاد، والراحلة، التي اطمأننت أنها ليست وسيلة!

ونصحنا الشاطر عدنان ألا نرحل سويا، حتى لا يتذكرنا الحرس، ويقبض علينا مرة أخرى، فرحل تيمور مع التاجر أدهم، على أن ألحق بهما في الطريق.

وما أن ابتعد تيمور وأدهم عن أنظارنا، حتى باغتني رجال عدنان وقيدوني!

نظرت له نظرة استنكار، تخفي رعبي، فابتسم وقال:

"هذا ابن ساوة قد افتداه ابن ساوة، فمن يفتديك أيها الغول؟ أخبرك أنا! لقد أخبرني الوالي أثناء غدائي معه، حينما كان يطلب مني قرضا، أن القائد الأسود يريد زعيم الغيلان الحمر بشدة، ولا تخف! أظنه لن يقتلك، وسيجزل لي العطاء إن أتيته بك حيا! أظنه يريد منكم أيها الغيلان أن تساندوه، أو على الأقل تكفوه حربكم."

وهكذا ألبسوني كرها درع الغيلان، ووضعوا سيفهم ورمحي في لفافة، ربطوها خلف ظهري، قبل أن يقيدونني، وتناول الشاطر عدنان كتاب الشجاعة، فنظر له بسخرية، وألقاه في وجهي، فوضعه أحد الرجال في جراب، علقه بحزامي.

وقال الشاطر عدنان:

"كما ترون يا رجال، فحتى الغيلان الحمر المفزعين لا يملكون من شأنهم شيئا أمام سطوة المال. المال، الذي أتى بهم يتذللون لي، أنا الشاطر عدنان، ملك ليل المدينة، والمال الذي جعل الوالي يبيعني بضائعهم، وجعل القائد الأسود يتخلص من عدو مرير له."

ثم ألصق وجهه بعيني، وضحك بسخرية، وأكمل:

"عزيزي زعيم الغيلان! لا تنقم علي، وعلى أي حال، لا تهمني نقمتكم! فأنا لست مثل الوالي. لن تستطيع غيلانك أن تذهب لقصري لتؤذيني، أو لقلعتي لتقتلني، لأنني بلا قصر وبلا قلعة.

الأمر الوحيد الذي يمنعني من إرسالك للأسود جثة هامدة، هي إنني أخشى ألا تكون من الغيلان، حقا فأثير غيظه. صحيح إنه لن ينالني هو الآخر بسوء، لكنه لن يجزل لي العطاء حينها. لا تحزن يا رجل، إنها محض تجارة! وعلى أي حال، كما قلت لك لا أخشاك أنت أو الأسود، لأن بطش الأسد لا ينفع، أمام اختلاس البرغوث للدم، مادام البرغوث لا يبقى في مكانه. أما سمعت بحكاية الأسد والبرغوث؟"

(٢٤)

حكاية الأسد والبرغوث

يحكى أن أسدا قويا باطشا فرض سلطانه، وبسط حكمه على كل حيوانات الغابة، وقد زاد في البطش قامعا كل الوحوش، فلا تسمع إلا رأيه، ولا تهتف إلا بتأييده.

وحكم على كل حيوان في الغابة أن يقدم له شيئا من طعامه ضريبة. وكان يكدس ما يأكل وما لا يأكل من الطعام، حتى لو فسد، يمنعه عن الجائعين من رعيته.

ثم أتى ذات يوم كلب أجرب، أمسك بقطعة لحم، وقعت من أحد الجزارين، وطارده الجزار فهرب من القرية للغابة. وهناك أمسك به حرس الأسد، وقالوا:

"ما هذا الذي بين أسنانك؟"

قال لهم:

"أنا كلب جائع فقير، اختلست شيئا من الجزار أسد به رمقي. لا تفشو سري، واحموني من الجزار، أكون لكم شاكرا."

ضحك النسناس، وقال:

"نحميك من الجزار يا أبله! قد أوقعت نفسك في عداوة من الجزار، ولم تفز باللحم. لن يتركك الحرس، حتى تقدم للملك شيئا من طعامك، وأنت لا تملك إلا قطعة اللحم."

وسار الكلب الأجرب مقهورا لعرين السد، فحياه وقال:

"مولاي الملك العظيم، أشكو لك مظلمتي. قد جوعني أهل القرية ونبذوني، وإذ اختلست من اللحم النزر اليسير، لأنجو من الموت جوعا، ولجأت لمملكتك، أراد اللئام الإيقاع بينك وبين رعيتك، فزعموا كاذبين أنك راغب في طعامي، وإني لأراك ملك عظيم، في غنى ورفاهة، فأنصفني من اللئام، وأجرني من الجزار."

قال الأسد:

"قد أنصفتك وأجرتك."

قال الكلب:

"أشكرك يا مولاي."

فقال الأسد:

"ولكن الإنصاف والإجارة لهما أجر! وأرى أنك لا تملك إلا قطعة اللحم هذه، فاتركها أجرا لي على حمايتك!"

قال الكلب مندهشا:

"لكن يا مولاي إنما أحتمي، لأنجو بها!"

فلم يرد الأسد عليه إلا بزئير مرعب، وقال:

"لا تملك سواها، وعليك أن تدفع!"

فقال الكلب بحقد:

"لا أملك سواها إلا شيء صغير، وسأمنحك كل ما أملك يا مولاي."

وترك الكلب الأجرب اللحم أمام الأسد، ثم رفع قدمه الخلفية، ونفض جلده، فألقى برغوثا فوق اللحم، وانصرف مقهورا.

أما الأسد، فقال لأصحابه:

"انظروا لأعظم حيوان في الغابة! هذا الذي قهر الإنسان، وخطف منه اللحم، أتاني ذليلا، يسلمني ما سرقه!"

وانقض على قطعة اللحم، فالتقمها لقمة واحدة، وقفز منها البرغوث، فاختبأ في لبدة الأسد الكثيفة. وأخذ يلدغ الأسد لدغا شديدا، ناهبا دماءه. وكلما هوى الأسد بيده الباطشة على موضع اللدغة، وجد إن البرغوث قد انتقل لمكان جديد، فلا ينال الأسد إلا من شعر لبدته، ولا يصيب إلا نفسه بالجروح، حتى سقط تعبا مقهورا.

وعلمت الحيوانات بأمر تعب الأسد، ففرحت، وبدأت تخالفه، وبدأ سلطانه يضعف، لا يستطيع ردعهم، لأنه متعب مرهق لا ينام، وجسده امتلأ بالجروح، التي أحدثها في نفسه. ونظر الأسد، مستنجدا بالنسناس، أخلص أعوانه، فأشار النسناس للأسد بالصبر، وقال:

"هاهو الأسد العظيم قد قهر."

نظر الأسد له بغضب، فأشار له النسناس خلسة إنه يدبر أمرا.

وأتت الحيوانات على صيحة النسناس فرحة، فأخذ النسناس يشمت في الأسد، ويعبث بشعره ساخرا، والأسد المرهق راقد مقهور هامد، ثم أخذ النسناس يهتف:

"يعيش البرغوث العظيم قاهر السد."

فهتفت الحيوانات:

"يعيش البرغوث سيد الغابة الجديد."

فقال النسناس:

"لنشرب جميعا نخب سيد الغابة الجديد."

وهنا وقف البرغوث فرحا فخورا، يتأمل الجسد العظيم، الذي أسقطه، وأمسك ببعض دم الأسد المستكين، فشرب نخب

الانتصار. لكنه حينها قد بقى في مكان واحد أكثر من اللازم، فلم يدر إلا بقبضة الأسد تهوي عليه وتسحقه!"

(٢٥)

حكاية أهل الغاربة مع الشاطر عدنان

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان الحمر:

"أرسلني الشاطر عدنان، مع حفنة من رجاله، نحو العاصمة. ومضت القافلة تحث الخطو للجنوب على ضفة النهر، حتى وصلنا للمكان الذي تجتمع فيه فروع النهر معا، عند قرية أم العيون، على مقربة من شمال العاصمة. كانوا ستة من الرجال المسلحين، أحدهم واحد من عمالقة كلثوم، الذين قابلتهم في سجن الوالي. كانوا يتبادلون على ثلاثة جمال، ويجرونني خلفهم أمشي مثقلا بالدرع والسلاح، وهم يصارحونني إنهم يرغبون في إنهاكي، حتى لا أجرؤ على قتالهم، ولا أدري كيف أفعلها وأنا مقيد بكل هذه القيود!

من الغريب، إن الوحيد فيهم الذي كان به شيء من الود واللطف تجاهي، هو أغلظهم مظهرا، ألا وهو هذا العملاق شرس الوجه ظاهر الغباء! بعد أيام من رحلتنا، بدا لي أشبه بالعبد، الذي لا يملك إلا أن يؤمر، فيطيع ذليلا. ولم يكن ينام

ليلا أبدا. الحقيقة إنني لم أره ينام أبدا. فكان يسلي نفسه، بينما الآخرون نيام، بالحديث والثرثرة في أذني، حتى يغلبني النوم. كان يثرثر ويثرثر ويثرثر، حتى وددت لو تطوى بنا الأرض، فأصل لزبانية السود في غمضة عين، لأتخلص من ثرثرته!

لم أكن أعي أغلب ما يقول، لأنني في شغل عنه بما أصابني من نصب، بفضل السير والحر والعطش، لكننا حينما وصلنا لأم العيون حيث تتفرع الفروع السبعة للنهر، وأدرك أننا لم يبق لنا إلا أقل من اليوم لنصل للعاصمة، أتاني في غفلة من زملائه، وسألني:

"أحقا أنت من الغيلان الحمر؟"

قلت له منهكا:

"ولم تسأل؟"

قال:

"ربما أكون غبيا؛ لكنني أعرف أن الغيلان هلكوا عن آخرهم، وإن ظهروا اليوم، وسط هذا العداء، فلن يرسلوا رجلا وحيدا، وإنما سيسيرون في جماعة كبيرة، تظهر بطشهم. على الأقل لن يرسلوا زعيمهم كما تزعم."

قلت محاولا إيقاظ عقلي للمجادلة:

"أنسيت أن الشجاعة فرض على الغول؟"

ابتسم وقال:

"لكنك لست شجاعا! رأيت هذا في عينيك أكثر من مرة، ورأيته في أفعالك أيضا. لقد سمعت الكثير عن الغيلان الحمر، وأرى أنك لست منهم. حتى الشاطر عنان يشك في أمرك."

قلت بسأم:

"وبم يفيدك السؤال والجواب؟ قد انتهى الأمر، وخلصت البلاد لأسود الاسم والقلب والفعل."

نظر نحوي باهتمام وقال:

"أتفعل هذا حقا لكي تحارب الأسود، وتمنعه من سلب باقي البلاد؟"

قلت:

"ولم أفعله إذن؟"

قال:

"طلبا للملك لنفسك!"

لم أستطع كتم الضحكة البائسة. الملك لنفسي! ومن أنا حتى أطلب الملك؟ إن أنا إلا عبد فقير، لا يكاد يحفظ ملك أرض ورثها عن أجداده، أفأطلب ملك البلاد كلها!

غلبني اليأس والحزن والتعب، واستوت عندي كل الأمور، ولم أجد ما يمنع أن أفشي كل أمري لهذا الرجل، الذي لا أعرف حتى اسمه. أخبرته بنبأي منذ ذاك المساء في دار الشيخ غلاب، وحتى أتيت للثغر الصغير.

ولما انتهيت من حكايتي قال:

"يااااااااااااااااااااااااه! لو سمعت منك الأمر مائة مرة ما صدقتك! لكني أراه بعيني. إن ما فعلته يفوق أي أمر آخر رأيته في حياتي بين الشطار والصعاليك! أنت أشد جرأة حتى من عدنان حينما خدع أهل الغاربة."

حينما كان عدنان شابا، أراد أن يثبت زعامته على رجال أبيه، لكنهم استخفوا به، وتحداه أكبرهم، وهو كلثوم، الذي طمع في زعامة العصابة لنفسه، وقال:

"ما أنت يا عدنان إلا شاب غرير، لا يستطيع السلب والنهب، إلا بسواعد الرجال الأقوياء. ولا يحق لك أن تطلب منا الزعامة، ومشاركتنا في غنيمتنا التي نبذل فيها الجهد."

فقال عدنان:

"لكن بعقلي وتخطيطي، سأقود العصابة لأكبر الغنائم."

فقال كلثوم:

"لا أرى أن عقلك أشد مكرا من عقلي. وأنا أحق بالأمر منك."

واختلف الرجلان، وأيد كل منهما بعض الرجال، ثم تحداه كلثوم تحد صعب ليعجزه، فقال:

"إن استطعت سرقة أبناء الغاربة بالحيلة فقط، سودناك علينا لا ينازعك أحدنا."

وقبل عدنان التحدي، ورحل من الثغر للغاربة. وأهل الغاربة قوم خشنون، منغلقون على أنفسهم، وما كانت مدينتهم إلا حفنة من قلاع وحصون، بنيت حول واحة صغيرة على طريق التجارة بين الشرق والغرب لتؤمنه. وكان أهلها أخلاط، من كل البلاد أتت، واستقرت، وامتزج فيهم التجار والعبيد، الآبقين، وحثالة الأقوام، وبعض الصناع، ليخرج من أصلابهم قوم غرباء الأطوار، سريعي الغضب، بارعي التجارة، شديدي البخل والمهارة. وقد أغلقوا عليهم الأسوار العالية، والحصون القوية، عندما نشبت الحروب في البلاد، ورفضوا أي سلطان عليهم، حتى لبني الأسود، أو للقائد الأسود في العاصمة. ولخطر موقفهم، وكثرة أعدائهم، وبخلهم ذهب بهم الحذر لأبعد الحدود، فهم لا يقبلون بدخول أي غريب لديارهم، حتى ضرب بهم المثل في الفطنة، وفي صعوبة النيل منهم.

وذهب عدنان للغاربة، مرتديا زي الأعراب، وساق أمامهم بعض الغنم، وأقام أمام أبوابهم شهرا كاملا، حتى اطمأنوا له، ثم ارتاد أسواقهم يبيع اللبن، ويشتري بعض الحاجات.

ثم ذهب ذات يوم لأحد التجار، وعرض بيع كل غنمه له، مقابل حصان واحد سريع، واشترط أن يختبر سرعته أولا، وإلا أعاده.

قبل التاجر بالصفقة فورا، فالأغنام قيمتها معا أكبر من ثمن أي من خيوله، ولو عاد الحصان له، فسيكون قد انتفع باللبن والصوف، أكثر من أجرة الحصان.

ولكن عدنان أعاد له الحصان بعد يوم، واستعاد غنمه، وذهب بهم لتاجر آخر، يطلب أسرع خيوله.

ونظر التاجر الأول لحصانه، ليطمئن عليه، ففوجئ بأثر تراب الذهب على حوافرهن فتربص لليوم التالي، وذهب ليجد أن عدنان قد أعاد له حصانه، وأيضا في حوافره بعض التبر!

وكرر عدنان هذا الأمر مع أغلب التجار، حتى أثار جنونهم! وأرادوا اكتشاف مصدر هذا الذهب، الذي يعلق بحوافر خيولهم. وبعد أن بلغت بهم اللهفة أقصاها، جلس الشاطر مع بعض الندماء في جلسة خمر، حتى سكروا جميعا، فتصنع أنه مخمور مثلهم، وأخذ يحدثهم بفخر عن واد قريب، موجود خارج المدينة، وقال أنه حين يجري بحصان سريع في هذا الوادي، وهو

يقول كلمات علمها له سيميائي عجوز، يتحول بعض ترابه لذهب، فيجمع منه ما يشاء.

ثم أخذ أحد الندماء معه إذ لم يصدقه، وأردفه خلفه، وجرى بحصانه، وأشهده على ما وجده في الأرض من بريق الذهب.

وفي الصباح، التف الناس حول الشاطر، يلحون، ويهددون، ويغرون، يريدونه أن يكشف لهم عن الكلمات السحرية!

وأخيرا دفعوا له مبلغا ضخما جدا، ظنوا أنهم سيستعيدونه في شهر واحد، فأخبرهم إن عليهم البدء فجر يوم الجمعة، لأنه يوم مبارك، وأن الذهب لن يظهر إلا لو جرت الخيول بأقصى سرعة من الفجر، وحتى تعلو الشمس كبد السماء.

وترك القوم يعدون العدة للذهب الموعود، وذهب هو لكلثوم، الذي كان قد نسى أمره، فألقى بالمال بين يديه، وقال:

"هذا ذهب الغاربيين. وإن أتيتم معي الآن، سقنا خيولهم وبضائعهم، فأربحكم أكثر مما تفعلون في عام كامل."

وتبعوه مندهشين. وعندما علت الشمس لكبد السماء من يوم الجمعة، وأصبح رجال الغاربة منهكين، وقد أضناهم الجري، والصراخ، وحر الشمس، انقض عليهم عدنان برجاله، فقيدوهم بسهولة، واستولوا على خيولهم، وملابسهم، وارتدتها العصابة. وقادهم عدنان للمدينة، واضعا على رأس القافلة صناديق، أحدها مفتوح، ملأه بالتراب، وغطى سطحه بمزيج من النحاس

الأصفر، يلمع كالذهب في شمس الظهيرة. ولما كان أهل المدينة إما مقيدين في الوادي المهجور، أو منشغلين في صلاة الجمعة، فلم ينتبه أحد لوجوه العائدين، ولم ينظر الحرس إلا لبريق الذهب المزيف، ففتحوا البوابات للعصابة فورا، فدخلوا للمدينة بسهولة، وقيدوا الحراس المبهوتين، واندفعوا للسوق الخاوي، فنهبوه عن آخره، وخرجوا بأمان، غانمين، قبل انتهاء صلاة الجمعة!

ومن يومها، أصبح الشاطر عدنان زعيم اللصوص، وسيد الصعاليك، وملك الشطار! لا يبز في الثغر الصغير، ولا يُعلا عليه فيما حوله، فهو الرجل الذي نهب مدينة الغاربة بأكملها!

(٢٦)

حكاية غول الحو

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"فرغ الرجل من حكايته العجيبة، التي لو سمعتها من قبل ما وثقت لحظة في هذا الشاطر، ولكن الآن قد حم القضاء! ونظر لي الرجل العملاق وقال:

"لم تفعل هذا؟ لا تبغي المال مثل الشاطر عدنان ومثلنا. والقائد الأسود بطشه لا يقدر عليه أحد، ولست بند له، والأمراء خونة غدارون، لا يوثق بكلمتهم، ولا نفع من معونتهم. إنك لهالك لا محالة، لو كنت غولا لفهمت أنك تبغي إثبات الشجاعة، لكنك رجل عادي من أهل البلد، ممن يطلبون الستر والسلامة."

رددت:

"رجل من أهل البلد، أبغي لها كلها الستر والسلامة، على حساب سلامتي. صدقني لو إنه لم يكن هناك وريث يرجى

صموده معنا، لسلمت للأسود، وساندته. فرغم مساوئه، سيوحد كلمة البلاد بعد التمزق، أو على الأقل ما يبقى منها، بعد اقتطاع الفرنجة والأهبال لما يريدونه. لكن الوريث موجود، لذا، فلم لا نحاول؟ الكارثة هي أن لا أحدا يحاول إنقاذ البلد الذي نعيش فيه. كان أبي، وهو يتبع الوريث الكاذب، يقول لي "هذا بلد غارق في الظلمات، والكل يجأر من هذا، والكل يتعذب. لذا حينما يأتي رجل، يقول إنه سيعيد الأمان، فعلينا أن نتبعه، وإلا كانت شكوانا بلا معنى، وسنشارك في إثم من ضيعوا البلاد قبلنا. هذا ما رسخ في ذهني من أبي، وهو ما أحاول اليوم إعادة بعثه."

مط الرجل شفتيه وقال:

"أكره الأسود والفرنجة، وكل هؤلاء الطغاة. أكره حياة السرقة، فلا أعرف طريقا آخر للعيش، مع معرفتي في نفسي الحماقة! أنعم الله علي بجسد ضخم، لكني لا أملك إلا قلب صغير، ينكمش بالخوف دوما. خائف من أن يقتلنين أو يسرقني أحد، فانضم للقتلة والسارقين. خائف من الفقر والجوع، فأهجم بضراوة على المال. دوما خائف من الحياة، ومن الموت، ومن كل شيء."

قلت له بحماس:

"إذًا، فاتبعني! لم يظهر الغيلان الحمر إلا من بين الخائفين، الذين كرهوا خوفهم، وأرادوا أن يستعبدوه بدلا من أن يستعبدهم. انضم لي، وطلق حياة الخوف."

قال بحيرة:

"لكنك لست غولا؟"

قلت:

"ولا أريد أن أكون غولا. لكن أعداءنا يحتاجون لزي غيلان يردهم. اتبعني على مثل نهج الغيلان الحمر. على نهج الغيلان الحمر الجدد، لنقف أمام هؤلاء، ونخبرهم أن ساعة القصاص قد حانت، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا."

قال بتردد:

"ولكن......"

عاجلته:

"باب التوبة مفتوح يا رجل، فانتهز الفرصة، وتب عما سبق من آثامك، واكسب لنفسك مقعدا بين المجاهدين. اهزم خوفك، وتخلص من مقتك لنفسك."

كانت حيرته شديدة، وقال وهو يبدو كأنما يجادل نفسهن أكثر من مجادلتي:

"وأين نذهب إذًا ؟ أرض الأسود تمتد حولنا في كل اتجاه."

قلت:

"لنذهب للغاربة، التي أخبرتني عنها. لنلجأ لها حينا، حتى تكل عنا العيون، ثم نرحل منها للزرقاء، ونركب البحر لطرابل."

أكمل جداله لنفسه:

"لكن الغاربة في قلب الصحراء وأهلها لا يدخلون عليهم غريبا ؟"

قلت:

"استمع لصوت قلبك الذي يئن ألما، واهجر أوزارك. لو أخلصت لقلبك، فسيخلص الطريق لك. لو أخلصت له، فسيصدقك لسانك، وحينما يصدقك لسانك، سيصدقك الناس، ويفتحون لك الأبواب."

بدت عليه الحيرة القاسية، وصمت كأنما يصارع نفسه صراعا مريرا، فاحترمت صمته. لم أحاول أن أتدخل أكثر من هذا، حتى لو كان مصيري معلق بقراره. لو فعلت، فسأكون حكمت عليه بشقاء وعنت، مازالت نفسي تراودني لتركه. لو لم يتخذ هو قراره بنفسه، فلن أملك له من الأمر شيئا، ولو حثثته أكثر من هذا، فتبعني بغير قناعة، لهلك وأهلكني معه.

ولكن الصمت انتهى بصوت آذان الفجر يعلو، آتيا عبر الليل الصافي من أم العيون. لم يكن الغلاظ حراسي يصلون، ولكن صوت الآذان، الذي فاجئنا نزل رطبا على قلبه، وشرح صدره، فقال:

"أتبعك على بركة الله، وحتى النهاية بإذن الله."

فقلت له مبتسما:

"إذًا،فأعلنك غولا أحمرا جديدا، ما اسمك؟"

قال:

"سأنبذ حياتي القديمة باسم جديد. لا تناديني بغيره: غول الحق. فلن ألزم إلا جانب الحق."

قلت:

"حسنا يا غول الحق كما تشاء. لكن أرجو ألا أثقل عليك بفك قيدي، قبل أن يستيقظ الزبانية!"

(٢٧)

الرحلة للمغاربة

مضينا شمالا، بحذاء النهر مسافة قصيرة، ثم توغلنا في الشرق، واختفينا وسط بعض الأجمة، فصلينا الصبح، وبقينا ننتظر.

وأطاعني في هذا رفيقي الجديد، دون جدال، رغم إن الحيرة كانت في عينيه. ولكن الحيرة انطفأت، عندما وجد الخمسة المطاردين لنا يتتبعون آثارنا، ويحثون الخطى للشمال، يظنون أنهم يطاردوننا إلى الثغر. كنت أرجح أنهم سيظنون أني سأعود للبحث عن تيمور، أو العودة للغرب عبر الجسر، ولكني كمنت في مكاني، حتى اطمأننت أنهم سبقونا بمسافة كبيرة، وأكملت طريقي آمنا، لأن المسافة بيننا تزيد كل يوم، حيث نمشي ببطء وهم يهرعون مسرعين في مطاردة مقلوبة!

سرنا ثلاثة أيام بحذاء النهر، نقتات من سمكه، أو بعض ما نعثر عليه من ثمار، ثم توجهنا للشرق بين القرى الصغيرة، ننام في مساجدها، ونأكل من كرم فلاحيها، ونساعد البعض في أعماله، مقابل الطعام والمأوى.

وصلنا أخيرا لآخر قرية من قرى الوادي، وأصبح علينا أن نتجه للغاربة من طريق غير مطروق، بعيد عن جنود الأسود، وهو ما يحتاج لزاد وراحلة، وهما ما يحتاجان للمال.

وهنا، كان حتما علينا أن نبقى لمدة طويلة في القريةن نجد ونعمل لكسب المال. وقد طالت بنا المدة إلى شهر بأكمله، شهر تعلمت فيه بعض أصول الزراعة، التي ستنفعني لو عدت لأرضي. ولكن كلما مضى الوقت، ازداد قلقي من ألاّ أصل لطرابل، إلا بعد فوات الأوان.

على إن الأنباء تتناثر، والأخبار الغالية العزيزة تصبح سائغة في كل الأفواه بمرور الوقت. فقد علمت، من مجالس السمر، أن هناك وفود أمراء عدة ذهبت إلى طرابل، وتقابلت في الطريق، فدار بينهم قتال شديد، ثم اشتبكوا مع لصوص، وبعض بني الأسود والفرنجة، وبعد هذه الأهوال، لم يستطيعوا الوصول للوريث، ولم يخبرهم أهل طرابل عنه شيئا.

وعلمت أيضا أن هناك غولا أحمرا نجا من الثغر الصغير، ويسعى لإعادة الوريث، وهو ما أثار غضب القائد الأسود، المنشغل في حروب ضارية في الجنوب، فأرسل مجموعة من رجاله، أمرهم ألا يغادروا طرابل، إلا ومعهم رأس الوريث. وأن تلك الفرقة ستخرج من العاصمة بعد أيام، وعلى رأسها شقيق

الأسود الأصغر، وهو فارس مشهور ببراعته وقوته، يسمى ميسون، ويلقبه الناس بالداهم.

وهنا أدركت أن البقاء أكثر من هذا لا يجدي، فجمعت ما معنا من قروش قليلة، ولم أستطع أن أشتري بها إلا حمار عجوز ليس حتما ما يعتمد عليه في عبور الصحراء؛ لكنه على الأقل سيحمل الثقيل من المتاع والماء.

ومضينا فورا نحو الغاربة، في طريق شاقن لكننا كنا مطمئنين، لأن خصومنا قد يئسوا حتما من مطاردتنا، ولعلهم يظنون أننا وصلنا لطرابل الآن.

مضينا في الطريقن وقد أنهكنا، لكن في غير الظمأ والحر لم يقابلنا ما يستحق الذكر. مضينا تحت الشمس القاتلة، واضعين متاعنا وطعامنا القليل على ظهر الحمار العليل، متتبعين نجما يسميه أهل المنطقة بالغارب، من يمضي على هداه وقت الغروب، يصل للغاربة، ومنه جاء اسمها.

لم أهتم كثيرا بالتعب، فقد عرفت أياما أسوأ، لكن ما شعرت به من أمان؛ رغم إنني في قلب أراضي الأسود، كما إنني أعتبر غول الحق إلى جواري علامة من العلامات، التي ترشدني بها السماء إلى التشبث بطريقي، وأن أعلم أن الله معي.

كنت في قمة التفاؤل، والمصاعب التي تبدو مستحيلة هانت في ناظريّ، وقلت لنفسي "ستفرج كما فرجت غيرها من الأبواب المغلقة! لله در الشاعر:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ~ فرجت وكنت أظنها لا تفرج

حتما النصر لي مقدر."

ووصلنا أخيرا للغاربة.

كانت تشبه قلعة كبيرة. تذكرني بمدينة ساوة، التي بنيت جنوب الواحات، لحماية تجارتها. لكن أسوارها الحصينة أضخم بكثير، وحولها بضع خيام متناثرة، وجدنا بها التجار، والمسافرين، وأبناء السبيل، يتعاملون مع أهل المدينة، لا يسمحون لهم بدخولها.

وعلمت أنهم زادوا الحيطة والحراسة، بعد أن أعلنوا رفضهم الانضواء تحت لواء القائد الأسود، فهم يخشون أن يهاجمهم بجيوشه، ولكن هذه العداوة، التي تغلق في وجهي الأبواب، هي ما أعتمد عليه، لكي يعينونني بالقوت، والدليل، والراحلة للزرقاء. عليّ اليوم أن أكون شحاذا ناجحا، لأنتزع منهم المعونة!

توجهنا للحرس وناديت:

"السلام عليكم يا أهل الغاربة."

رد علينا أحدهم:

"وعليكم السلام. ماذا تبغيان؟"

قلت:

"نحن رسولان من سادة الغيلان الحمر السبعة، نريد مقابلة زعيم المدينة."

بدا الاضطراب والصدمة على وجوه الحرس، وساد بينهم هرج ومرج، ولم يفعلوا شيئا سوى دخول البوابة، وإغلاقها خلفهم!

بقيت منتظرا قليلا، ثم عدنا على أعقابنا، وفي النهار التالي ذهبت لهم ثانية، وهنا خرج لي أحد أبناء حاكم المدينة.

كان شابا هادئا صارما، بادرني بالسؤال:

"من أنتما؟"

قلت:

"نحن من الغيلان الحمر."

قال:

"الغيلان هلكوا."

قلت:

"لقد عادوا."

قال:

"بل أنتما كاذبان!"

تذكرت كلمة قالها شيخ بني الأسودن عندما شكك في أمري أحد الأمراء، فكررتها له:

"أي أحمق سيزعم أنه من الغيلان، إلا إن كان من الغيلان؟"

بهت للحظة، لكنه أثبت سرعة بديهة، ورد:

"عدو للغيلان يخدع أهل الغاربة!"

قلت:

"لا نبغي بكم شرا. ونحن من الغيلان حقا وأخبار عودتنا سمع بها كل أهل البلاد."

قال الفتى بصوت خافت:

"أن تسمع ليس كما ت..... لكن ماذا يريد من الغيلان؟"

قلت:

"لا نريد بكم خيرا أو شرا! إن هو إلا أمر بيننا وبين القائد الأسود."

قال:

"أحالفتموه؟"

قلت:

"كلا كلا! بل نعاديه، لأنه عادانا وحاول قتل زعيمنا. إنما نريد الذهاب إلى طرابل، لاستعادة الوريث كي يقود الحرب ضده."

قال مندهشا:

"أي وريث؟"

وهكذا دار بيننا حوار طويل، ذكرت له فيه ما أعرفه عن الوريث الحقيقي، ومساندة شيخ شيوخ بني الأسود لعودته، واجتماع أمراء الغرب على تأييده، ثم ساد بيننا صمت طويل، لم يكسره الفتى، فودعته، على أن أعود غدا، وعدت لإحدى الخيام المبسوطة صدقة لعابري السبيل حيث نبيت.

ولكن الأمر طال لبضعة أيام، أتردد على بواباتهم، فلا يدخلونني وإنما يكتفي هذا الشاب بمحادثتي. وبدأ الخوف يدب في قلبي، أن يصل نبأي لابن الأسودن أو الشاطر عدنان، فيبعث من يغتالنا. ولكن غول الحق كان يطمئنني، بأنه ليس للشاطر هنا عيون، لأن أهل الغاربة شديدي الحذر، لا حياة للص بينهم، وهو لن يطلب قتلنا، لأن ما يهمه ليس إلا المال.

لكني لم أطمئن، وأخذت أغير مكان المبيت كل ليلة، وخلعت درع الغيلان، وأبقيت السلاح في يدي دوما.

وصدق حدسي. إذ كنا سائرين نحو البوابة – كعادتنا - طالبين المعونة من أهل المدينة، فإذا برجل يقترب منا وهو ينظر نحوي مبتسما، فنظرت له رادا الابتسامة، أحاول أن أفهم مغزاها، خشية أن يكون قد علق في ثيابي أو وجهي شيء مضحك!

وبينما أنا مرتبك، إذا برفيقي غول الحق، يخرج سيفه بغتةن ويهوي به على رجل خلفنا، فأطاح رأسه!

والتفت فزعا، فوجدت الرجل المبتسم يمد يده لأسفل عباءته، فعالجته بطعنة من رمحي، وإذا بنار محرقة تشتعل في ذراعي الأيسر، كأنما أنا المطعون، وليس هو! ولم يطل عجبي، إذ وجدت سهم ثان يسقط بين قدميّ، ونظرت، فوجدت ملثما مختبئا في الرمال، يعد سهما ثالث.

لكني لم أستطع الاتجاه نحوه لمقاتلته، إذ خرج لنا ثلاثة رجال شاهرين السيوف، بعد أن أيقنوا فشل تسلل زميليهم، فأسقط غول الحق أحدهم فورا، لكن الرامي أصابه بسهمه في ظهره، فقفزت مبتعدا عن الرجلين قدر استطاعتي، وصوبت رمحي وقذفت الرامي، بأسرع ما أستطيع، وأظنني أصبته. ثم أخرجت سيفي، الذي لا أجيد استخدامه، موقنا بالهلاك، خاصة مع جرح ذراعي. لكن على الأقل لأمت مرفوع الرأس، مثل غول الحق، الذي نهض والدم يغمره، متحاملا على نفسه يبغي القتال.

لكن سهم نزل علينا، تلاه ثان. هذه المرة في صدور خصومنا، فأسقطهم مجندلين. ونظرت باحثا عن المنقذ، فوجدته هذا الشاب، ابن حاكم المدينة، يعتلي السور بقوسه وسهامه.

نظرت لغول الحق، لأرى جرحه، لكنه قال:

"أسرع وطارد رامي السهام، قبل أن يأتينا بالمزيد من الأعوان."

نظرت نحو الرامي، فوجدت إن رمحي لم يصبه، لكنه انغرس، لحسن الحظ، في كنانة أسهمه فأبعدها عن يده، فجريت بأقصى ما أستطيع، أطارده. حتى رأيته أمامي، قد أبطأ العدو، فشهرت رمحي، وأطلقته بإتقان هذه المرة، ليصيب قدمه، ويسقطه. وذهبت نحوه أريد تهديده لمعرفة من وراءه.

لكني وجدت نفسي في مواجهة من هم أمامه! ثلاثة آخرين، خرجوا مسرعين من خيمة صغيرة، يحملون سيوفا وفئوسا، وأدركت أن الرمح لن ينفعني بيد مصابة، والسيف لن ينجيني ببراعة مفقودة، فخلعت قناع الغول الشجاع، ووليت الأدبار أبغي الفرار.

لكني لم أبتعد كثيرا، إذ أتى بعض حراس الغاربة، فهرب الرجال حاملين جريحهم، بعد أن قذفوا إليّ رمحي.

نظرت للحرس، وقد أضناني التعب والألم، وملأني الهم، وظننت أن أمري انكشف، بفراري الذي لا يصح من الغيلان الحمر.

لكن الحرس وهم يرافقونني، أخذوا يتحدثون عن شجاعتي العظيمة، وكيف إننا كنا اثنين هزمنا خمسة، وكنت واحدا

وواجهت أربعة! لم ينتبهوا لأنني كنت أولي الأدبار، وانقلب الأمر لصالحي، فلم يعد أحد يشكك في كوني غولا!

وأتاني هذا الشاب، ابن حاكم المدينة، فرحب بي، وأخبرني أن اسمه جابر، وأخذني لواحدة من الخيام، في مكان منعزل، وأشرف بنفسه على علاج جروحي، أنا وغول الحق.

وأصبح بعدها ودودا معي، يحدثني دون تكلف، أخبرني إنهم يؤيدونني في هدفي، ولكنهم يكرهون إدخالي المدينة، وإعلان التأييد لي في حرب الأسود، لأنهم بالطبع لا يتعجلون حربه! فهم إن كانوا لا يقبلون بسلطانه، إلا إنهم يفضلون البقاء في الحياد، بعيدا عن الموت والدمار.

طلبت منه معونة، وطعام، ودليل يقودنا للزرقاء، فأجابني لكل هذا من حر ماله، على أن أقسم ألا أخبر أحدا بمن منحني هذه المساعدة، ولا أعلن لأحد أن الغاربة معي ضد الأسود، فأقسمت له.

وأخبرني إنه عرفني منذ رآني أول مرة، لأن رجلا من ساوة أخبرهم إنه متجه للزرقاء، وأنه كان رفيقا لزعيم الغيلان الحمر!

لقد مر تيمور من هنا، ومازال مصرا على إكمال الطريق وحده، يبدو أن هذا الفتى يخفي من الشجاعة والصلابة، ما لم أتصوره."

(٢٨)

نبأ ما أصاب تيمور بعد خروجه من الثغر الصغير

قال تيمور الساواتي:

"خرجت من ساوة مكرها، في رحلة ظهر شؤمها من بدايتها! لو كان الأمر بيدي، لعدت لداري منذ وقت طويل، ولكنه الواجب والعهد المعلق في رقبتي، أنا وآل العلاف، يغل يدي.

أول الأمر، كان إكراه على خروجي، رغما عن أنف أبي، الذي أرهبه القبيل زعيم الغيلان الحمر، الذي أتانا بنفسه يطلب معونتنا، للوصول إلى الوريث. وبعد أن أثبت هذا القبيل جبروته وعناده، أثبت حماقته، وسار بنا في الليل البهيم وسط الصحراء، رغم إلحاحي عليه. وثبت أني على حق، فهاجمتنا الذئاب، وأضاعت أغلب متاعنا، ولولا فطنتي، وحسن تدبيري أن قذفت لها بعض اللحم، الذي كنا نحمله معنا لأهلكتنا. ثم واصل في مكابرة طريقه وسط الظلام بعد هذا!

وبعدها تشاجر مع الأعراب بحماقة، فطردونا من واحتهم، التي رغبنا في شراء طعام منها، وأنقذت حياته بأعجوبة، ثم أصبح عليّ وحدي عناء الصيد لإطعامه!

وكأن الشؤم لا يفارقنا، وأنى له أن يفارقنا والحماقة ترافقنا! أهناك عاقل يشق طريقه وسط أحراش مقفرة، ومستنقعات مظلمة، بدلا من الطريق المطروق الآمن الأقصر والأسرع، زعما بأن هذا خوفا من رجال الأسود؟ أنى لرجال الأسود أن يعرفوا بخبرنا؟ لنتلثم، ونندس بين الناس، فلن يزعجنا أحد! لكنه أصر على طريقه، وسط الفئران التي تبخ السم في عقرها، والبعوض المسموم، الذي يلدغ بالحمى، والثعابين التي كانت تحت كل خطوة نخطوها!

ووجد إن الأمور ليست طيبة بما يكفي، فأراد زيادة الطين بلة. وحين أتينا لأرض أحد الأولياء الصالحين، لجأ لحيل خبيثة، وخدع الدراويش، ليتركونا نعبر، بعد أن أوهمهم أن الفولي غاضب عليهم.

ولكن العقوبة ِأتت، فألقونا في سجن الثغر الصغير، عاجزين. ولولا أن قيض الله لنا هذا الرجل الكريم، المدعو الشاطر عدنان، لما نجونا من الموت.

وظننت أخيرا أن الطريق تيسر، بعد تركنا للأراضي المهجورة، وسيرنا في الدروب المطروقة، ولكن القبيل زاد في استخفافه

بي، فبعد أن حاولت إخراجنا من المدينة بقرض من أحد معارفي، طلب من الغول الأحمر مضاعفة القرض، لمكافأة عدنان، وشراء تجهيزات السفر، كأن الاستدانة أمر بسيط، وكأنني أملك في ساوة كنوزا، تسدد ما علي بسهولة! وفوق هذا، إنه سألني أن أسبقه، وسيلحق بنا في الطريق، فبقيت مع صاحبي أدهم الساواتي ننتظره مدة طويلة، لكنه غدر بنا، ورحل وحده. وزاد من نقمتي عليه، أن نوقنا هربت بحملها، بعد أن سأمت من انتظار الغيلان! ولعله غضب سيدنا الفولي، الذي دنس هذا الغول مقامه، قد أصابني فاستيقظنا ذات صباح، لنجد إننا بلا راحلة، أو زاد، أو ماء!

بدا الهلاك وشيكا، ولكن من رحمة الله بنا أن أدهم كان يحتفظ بجواره دوما بقربة ماء، لأنه كثير العطش. فأنقذتنا، حتى حملتنا قافلة ذاهبة لمدينة تدعى الغاربة، فاشترى منهم أدهم طعاما لنا، وزادا، وأكمل أياديه البيضاء عليّ بشراء بغل قوي، وحملني معه حتى الطريق إلى الزرقاء، وتركني أرافق إحدى القوافل الذاهبة لهناك.

كنت وقتها قد استوثقت من أن البقاء مع الغول الأحمر لن يصيبني إلا بالشؤم، والعنت، وكثرة الأعداء. لذا، قررت أن أفي بعهد العائلة وحدي، وأحاول أن أجد مركبا في الزرقاء، تحملني إلى طرابل، أو الفيحاء، أو أي ميناء قريب منها.

لم أذهب للزرقاء من قبل. كثير من أهل ساوة يتحدثون عن أيام مجدها، وزهوتها قبل السقوط في يد القراصنة. كانت أحاديثهم تشوقني، وتجعلني أتمنى الوصول لها، لرؤية تلك العجيبة، التي حوت بهاء البحار، وشموخ الجبال، وهيبة الصحراء. أعظم ميناء على البحر الشرقي، بين أحضان جبال شامخة، تحفها الصحراء بسياج واق، جعلها حصينة منيعة، لا يستطيع أحد اقتحامها عنوة، إلا لو أتاها من البحر بأسطول عظيم. لكنني اليوم، إذ قطعت المكان، ووصلتها، علمت أنه من المحال قطع الزمان لرؤيتها! فزرقاء الماضي لا أثر لها في تلك الأسوار المهدمة قبيحة المنظر، والدماء التي لطخت كل أبوابها من أثر القتال، الذي لا ينقطع في طرقاتها. هنا في زرقاء القراصنة، لا يتفاهم الناس، ولا يتشاجرون إلا بالسلاح، ولا يربحون إلا بقتل الخصوم! وتترك الجثث لا تدفن، إلا لو طغت رائحتها على النفوس، فتدفن بعد أن تتعفن أمام العيون.

تجولت بين البيوت، التي سودتها آثار المحارق، والقصور المنيفة التي أصبحت خرائب. ومضيت عابرا الأحياء، التي انفردت كل عصبة من القراصنة بالسيطرة عليها، تتقاتل فيما بينها، كشأن أغلب المدن الكبيرة في بلادنا، لا فرق بين قراصنة صعاليك، وبين أمراء مماليك!

لكن ما يميزهم هنا عن غيرهم من حكام المدن هو السوق! سوق واحدة تجمع الكل، لأن المال هنا يتحدث! الكلمة في

السوق واحدة، والحكم في شجارات السوق واحد، للأمير الأبيض الثاني، حاكمهم الإفرنجي، الذي قتل أخوه أمام ساوة منذ شهور قليلة.

كان القراصنة يدركون خطر السوق على حياتهم. فلو خرب تماما، فلن يستطيعوا بيع غنائمهم بسهولة، بل سيضطرون إلى تسريبها في المدن بأبخس الأسعار، ويا سبحان الله! هم في حرصهم، على مصلحة التجار، وأمان التجارة، قد فاقوا الحمقى من الأمراء، فوجدت في زرقاء القراصنة المحترقة حياة أفضل، وأكثر ازدهارا من بعض المدن، التي كانت يوما عظيمة حتى أفقرها حكامها!

لكنها لغة المال، التي لا يفهم القراصنة سواها، فيجيدون الحفاظ عليها!

لا تدخل القوافل الزرقاء مباشرة. فللصوصها لصوص آخرون متربصون! حول المدينة -كما أخبروني - جماعات من المطرودين والموتورين، الذين يحقدون على من بقوا داخلها، ولذا تتوقف القافلة على مسيرة يوم من الزرقاء، وتتشتت، ليدخل كل مسافر وحده لقلب المدينة. أما يوم خروج القافلة، فهو يوم عظيم، تجتمع فيه جيوش، وتدور حروب، ترافقها حتى تخرج من قبضة جبال الزرقاء القاسية.

وأخبروني إن جبال الزرقاء غادرة جدا. لها أساطير وحكايات تشيب الولدان! ولذا خشيت، إن تسللت وسطها، من وحوشها. ودلفت بشجاعة السائس البائس، الذي لا يملك ما يسرق منه، للمدينة من أبوابها، وسبحان من نجاني من قطاع الطريق!

الآن أنا في قلب المدينة المخيفة، التي لا يأمن أحد على نفسه فيها. اضطررت لأن أبيت أول ليلة في السوق، لأنهم يزعمون أنه أكثر الأماكن أمنا في المدينة، لكني لا أستطيع المبيت فيه كل يوم، وإلا قبض علي جنود الأمير الأبيض. لا أملك إلا ثلاثة دنانير فحسب، لا تكفي للوصول لطرابل، ولا لعودتي لساوة، ولا تنفعني في البقاء وشراء قُوتي من تلك المدينة الخبيثة.

لكني من أهل ساوة، وحتما، كباقي أهلها، أعرف طريق السوق! أخذت أبيع جهدي في الأحمال، وأدلل على البضائع، وأساوم هذا وذاك، وأفاوض هنا وهناك. وبعد أسبوع واحد، التقطني أحد تجار الفرنجة، يسمى جبرائيل، لأعمل على بضائعه فترة مكوثه في المدينة. وقدم لي المأوى، والمأكل، والأجرة لأسابيع تالية.

وأخذت، في أوقات فراغين أتسلل للميناء، أتنسم منه الأخبار. كان أخبث مكان على ظهر الأرض هو ميناء الزرقاء! أخلاط من أغلظ القراصنة، وأحقر اللصوص يؤمّونه من كل العالم!

ولكني شققت طريقي فيه بالحذر والفطنة، وسمعت أخبار الأمراء، الذين رحلوا لطرابلس، وأنباء حروب الأسود، وتكاسل الأهبال عن نصرته، وأدركت أن وقت الرحيل قد أزف.

أخذت أدبر أمري كيف أرحل؟ وأثناء مكوثي، عند إحدى المقاهي، أتاني الجواب.

وجدت رجلا يتفاوض همسا مع قرصان، ليحمله معه للفيحاء، على أن يخدم على ظهر السفينة بأجرة النقل. فأسرعت أنضم لهما، وأقدم نفس العرض، ودفعت ما معي من مال عربونا. وفزت بصفقة الرحيل عن البلاد.

وأخذت أجهز نفسي سرا. فكما الحديث الشريف (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) كتمت أمري حتى عن التاجر الإفرنجي. ولكني تركت له قرطاس، وضحت فيه بإخلاص ما كان من تجارته، وأمر ذهابي ومغادرته.

وهذا الصباح، كان أول يوم في حياتي أركب فيه البحر.

لم تكن معرفتي بالبحر جميلة. أذكر حكاية أمي لي عن صبية البحر المليحة. تلك التي تفتن الرجال، الذين يكون هذا أول سفر لهم في بحرها، ثم تغدر بهم، وتغرقهم، لكي يقتات بلحمهم آباؤها من الأسماك آكلة اللحم. كما كان أبي يحكي لي عما يواجهه الحجاج من أهوال في البحر، مثل العواصف، التي يرتفع الموج

فيها كالجبال، أو الثعابين العملاقة، التي تلتهم السفن، أو الأسماك المفترسة، التي تقفز لتخطف فريستها من فوق سطح السفن.

لذا كان للأمر رهبة وتهيب؛ لكن بقائي في المدينة الخبيثة، حيث النهب غنيمة، والقتل شريعة، أمر لا أطيقه.

ذهبت للميناء منذ الصباح الباكر، ولم أركب السفينة إلا مع آخر ضوء غارب، لأعلو البحر الغدار، وأذوق بنفسي المرار!

ما أن غابت الزرقاء عن العيون، حتى أمسك بنا البحارة، وقيدونا، وأعلنوا إننا وقعنا في شر أعمالنا، وسيتم بيعنا عبيدا في أسواق الفرنجة.

وجلست في الذل مكروبا، لا أملك إلا الدعاء والاستغاثة بالله. كان الغلاظ يوقظوننا من الفجر، ننظف قذاراتهم، تحت سلطان السياط، ونحبس بعدها في قعر السفينة، دون طعام يذكر، وهم يقولون بسخرية:

"ستصلون قريبا للفيحاء، وحينها تعلمون أننا رحماء بكم، بعد أن تتذوقوا أفاعيل نخاسي الفرنجة!"

ولكن القدر تدخل، فهاجمتنا سفينة قرصان جبار، أسقط السفينة وبضائعها في يده، ونهب كل من عليها. ثم أتى بالبحارة، فقطع رقابهم، وبالسفينة فأحرقها. ونظر للبضائع، فأبقى ما يشتهيه، وألقى بالبقية في الماء. وأخيرا التفت للعبيد.

وقف ينظر إلينا، وهو يفكر بصوت مسموع:

"ترى أيستحقون مشقة نقلهم للسوق لبيعهم أم أقتلهم وأستريح؟"

طبعا لم يجرؤ أحدنا على القول بأنه حر مخطوف، لئلا يلحق بالخاطف ذي العنق المقصوف.

كان كبير القراصنة رجلا قصيرا جدا، تزين سحنته الندوب، وله شفة مشقوقة، يرتدي سروالا فضفاضا، أكبر منه بكثير، يزعمون أنه يخفي أسفله أكوام من الخناجر والسيوف. وكانت براعته في استخدام السلاح مذهلة، بارز بحارة السفينة بسيفه، فأوقعهم، ولكن خناجره كانت أوقع بهم. أثناء المعركة، رأيته يقذف خناجره، واحدا تلو الآخر، ليسقط بها الصناديد كألواح من حديد!

وجلسنا تحت رحمة أبي شفة (وهذا لقبه) مرتجفين. كان سريع الغضب، لا يطيق مراجعته في أي أمر، وعجرفته عظيمة، والحقد في قلبه لا يحاول دفنه. فقد جمعنا فجأة في اليوم التالي، لأنه استيقظ ومزاجه غير رائق، فانتقى منا كل طويل ووسيم، فذبحه بيده! ثم أبقى بقيتنا، ليبيعهم في الزرقاء!

ووجدت إنني أعود لحيث بدأت، حتى إنني فكرت في العودة إلى ساوة، وكفاني ما أصابني من حسرة وندامة. ولكن أين المفر من الأسر؟

وبعد يومين في البحر الغادر، عدنا للمدينة الملعونة، وقادونا كالبهائم للسوق.

وهنا وجدني التاجر الإفرنجي، جبرائيل، الذي كنت أعمل عنده!

أسرع نحوي ينظر، وبشأني يفكر، ثم صرخ في الجموع أن أغيثوه، فهذه بضائع مسروقة، ومنه منهوبة، وهذا القرصان قد خالف العهد، ونقض الذمة، وسرق تاجرا حاملا لصك الأمان.

دهشت حينا، حتى فهمت أن بعض تجار الفرنجة يحصلون على ما يسمى بصك الأمان من الأمير الأبيض، مقابل أموال، وبعد وساطات. لكن من يحمل هذا الصك، لا يقترب منه أي من قراصنة الزرقاء، سواء في المدينة، أو في البحر. ومن يخالف هذا الصك، ينبذ من المدينة، ولا يسمح له أن يبيع فيها الغنيمة.

وجادله القرصان بغضب، لأن السفينة التي نهبها ليست لأحد التجار، وإنما لصياد ينقل تجارة دون إذن، أو دفع إتاوة. لكنه بعد أن أحرق السفينة، وقتل البحارة، لم يبق في يده دليل يدحض بينة التاجر.

وبينة التاجر قوية! مال يرشي به من شاء من الشهود، وأحلاف مع أمراء الفرنجة، وغيرهم من القراصنة، ينصرونه ليضيقوا الخناق على خصمه!

وبالفعل تجمع عدد من الرجال، يميلون على جبرائيل، يفاوضونه همسا في ثمن نصرته. ودارت العيون حولنا، لنرى عشرات البلطجية يتجمعون، طمعا في أن ينشب القتال، ليحصلوا على أجر عن كل رأس يقطعونه.

وهنا ذابت عجرفة أبي شفة القصير، وطلب الحكم والتقدير من أمير المدينة، لأن هذا خلاف سوق، وخلافات السوق لا تحل بالقتال، وإنما عند الأمير.

وهنا أتوا بنا وبالبضائع للأمير. وهمس التاجر قليلا في أذنه، فحكم بالبضائع لأبي شفة، والعبيد لجبرائيل، على أن يدفع لأبي شفة مقدار الإتاوة المفروضة على سفن البضائع، فرضى الاثنان بالحكم، الذي بدا للقرصان سخيا معه، فلم يجادل!

وتدافعنا على جبرائيل نشكره، ويفتدي من يستطيع نفسه بالمال، لا نرغب إلا في الفرار من تلك المدينة الملعونة.

أطلقهم التاجر بالفدية إلا أنا. أبقاني جانبا، ثم أخذني للأمير.

تكلم الأمير:

"هذا التاجر يزعم إنك رسول من رسل القائد الأسود؟"

صمت ولم أجب، فتكلم جبرائيل نيابة عني:

"خدمني بضعة أسابيع يا مولاي، زاعما إنه آت من ساوة في الغرب، من حيث أتى أولئك الأمراء. وما سأل عن شيء، إلا

عن أنباء الأمراء، هو جاسوس للقائد الأسود، يتسمع الأخبار حتما."

نظر له الأمير الأبيض ببرود، ثم أخرج كيس دنانير، فنفحه له، وأشار له أن يتركنا منفردين.

ما أن خرج جبرائيل، حتى قال الأمير:

"أتعلم أن بيني وبين سيدك ثأرا؟"

أسرعت أقول:

"مولاي الأمير الأبيض. لست بخادم للحقير، ولا جاسوس للطاغية. إني ذاهب إلى طرابل، لإنقاذ قريبي من شره، فأنا من أهل ساوة، وللوريث علينا ذمة وأمانة، ووجبت علينا حمايته من القتل غدرا وغيلة."

نظر لي بدهشة، وقال:

"أنت رفيق الغول الأحمر، الذي يتحدثون عنه إذًا؟ ما شأن ذلك الرجل؟"

رددت:

" مالي وماله؟ هو رجل أحمق مغرور، لكنه واسع الحيلة، شديد الجرأة والبطش. على إنني انفصلت عنه عند الثغر الصغير، وأكملت طريقي وحدي."
تكلم الأمير بصوت هامس:

"يقال أنه حاول إنقاذ أخي من قتلة الأسود؟"

رددت بما علمت:

"أخبرني إنه التقى بشقيقك، وكان بينهما شيء من وفاق، ولكن شقيقك أصر على السير في طريقه وحده، معتزما مهادنة الأسود، لولا أن الأخير غدر به، كما سيغدر بكل حلفاءه."

تغير وجه الأمير في سرعة مذهلة، وقال بصرامة:

"حسنا يا ابن ساوة. القائد الأسود شر لابد منه، ولا أستطيع منابذته، وإرسالك إلى طرابل. ولكن قلبي لا يقوى على إرسالك له، فمازلت ناقما لأخي. على أي حال، أنا أبعد نظرا من هذا الغول، الذي بعث حيا بعد طول موات، وسأختار إبقاءك في سجني، حتى نرى من أمر الأمور، واحتدام الخطوب، وكيف تسير بنا المقادير في هذا الهم الخطير."

واقتادوني إلى قعر مظلمة، ألقيت فيها، وسط خليط من أرجاس ومظاليم، لا أدري من شأني شيئا، ولا أعلم لنهاية الليل فجرا."

(٢٩)

الزرقـــاء

يقول الغول الأحمر، عبد الشهيد ابن سمعان:

"بقينا على أطراف الغاربة، يطببنا جابر، متكتما أمرنا، وأشاع بين الناس نبأ رحيلنا. كان فتى مخلصا، متحمسا، تعم نفسه بالثورة، ويخنقه الضيق والحزن على أحوال تلك المملكة، التي كانت يوما عظيمة. ذكرني بشقيقي الأكبر، الذي قتله والي الزرقاء، ليتخلص من تحريضه للمظلومين على الظالمين.

أحببت جابر هذا كثيرا، وأظنني لاقيت هوى في نفسه. كان يأتينا كل ليلة، يتسمع مني ما أعرفه من أخبار البلاد، وحال ما أصاب الشمال والغرب من بلاء. لكنه أثار ضيقي، بإلحاحه في السؤال عن أمر الغيلان الحمر ،فكان إذا ما بدأ الحديث عنهم لم ينتهِ، ولو حاولت بتره، ويبقى راسخا لا يمضي، ولو حاولت صرفه!

زعمت له إننا غيلان حمر جدد، لسنا من المولودين، أو غيرهم من فرق الغيلان القديمة. وإنما نحن بعث جديد. نبذنا الماضي

بذنوبه، وتسمينا بالجدد. وقد غيرنا من بعض القوانين الظالمة في كتاب الشجاعة، الذي كان الفتى مفتونا به، حتى إنه نسخه بالكامل في ليلة واحدة.

وكان نسخه لعنة عليّ! فقد كان يناقشني في الكثير من القوانين، التي لا أعيها، فأريح رأسي، وأقول إننا استبدلناها بكذا وكذا.

فمثلا أتاني يقول:

"أترى حقا كما القانون الثامن أن الشجاعة تسمو فوق كل شيء؟"

فأقول له:

"القانون الجديد نلزم جانب الحق مهما كان."

والحادي والعشرين الجديد:

"لا ضعيف بين الغيلان."

والثالث عشر:

"سيفنا لا يُخفَض حتى يَخفِض الظالم"

وغيرها من التغييرات، التي لم أحتفظ بها في ذاكرتي، لكنه سارع بنقشها في أوراقه! ثم أتاني ذات يوم بسؤال مزعج:

"كيف يصبح المرء غولا أحمر؟"

أخذت أشحذ ذهني، وأجيب ببعض الأكاذيب، التي خدعت بها تيمور ابن زهير الساواتي، مضيفا القانون الطريف بأمر البحث عن الأخلاق النقية عند الحيوانات، حتى أزيح همه عني، فلا يفاجئني بطلب الانضمام لهم!

وقد تحمس جابر لتلك الخزعبلات، لا ألقي في ناره بالجديد منها، إلا زاد في إزعاجي طلبا للمزيد. ولذ،ا فما أن اشتد ساعدي، عزمت بكل ارتياح على الرحيل، وتوجهت مع غول الحق إلى الزرقاء.

سرنا مع دليل، أوصلنا لبداية الطريق، ثم أكملنا وحدنا، مهتدين بالنجوم تحت ستر الليل الآمن، ومضينا حتى وصلنا للزرقاء.

الزرقاء، تلك المدينة العتيدة، التي شهدت طفولتي، ومراعي الصبا. واه يا زرقاء! كم اشتقت إليك. وكم أهابك يا من خضبتك الدماء.

مدينة غادرة، متقلبة كالبحر الذي نبتٌّ منه، لا أمان لحاكم فيكِ، ولا مستقر لساكن منكِ. كم ابتلعت قبورك من أبرياء، وكم لفظ بحرك من ضحايا، وكم جذبت أسواقك من مفتونين، وكم آوت جبالك من أشقياء!

هلكت جيوش تطمع في غزوك، وأخرى تدافع عنك، وبين هذين، سالت دماء أبنائك أنهارا بريئة، لا تصب إلا في بحرك المالح.

لكني لا أنسى كرمك الفائض، وخيراتك المنعمة حينما تحنين، كما حنوت على أبي اللاجئ، وآويته، وأمّنتهِ من غدر الأهل، وجور الحكام. لكنك أخذت الثمن بقطف ثمرة قلبه البكر دون إنذار، قبل أن تغرقي كلك في بحور الفجار.

آه يا زرقاء. ها أنا أعود لك، على غير انتظار، كما خرجت منك بغير توقع. وشتان بين اليوم والأمس، خرجت فارا، تطاردني الأهوال، وأجاهد لكي ألحق بخطى والدي المسرعة، في ثاني هروب له، ولم يكن الأخير، لقد هربنا حتى سأمنا الهرب.

ورغم فزعه، أذكر أنه لم يقاوم الالتفات خلفنا، والنظر إليك نظرة، ظننتها الأخيرة، وأنت تتوهجين بنار، وقودها القصور والأبرياء.

لهنا أتى والدي فلاحا، فأصبح صياد سمك. وهنا عرف أمي، وتزوجها، وذاق حلاوة الأبناء والسعادة. ومن هنا خرجنا فزعين، لا نجد أمانا إلا في الجبال المخيفة، التي تربينا على حكاياتها المفزعة عن جن وشياطين، وعشنا على صيد البر نقتات ونبيع، حتى هجرنا المكان كله، وابتعدت عنا المدينة الحبيبة، وهي تحتضر في قبضة حكامها الجدد.

شتان بين الأمس واليوم. خرجت بالأمس من أسوار بيضاء جميل،ة مزينة برسوم زهور وأسماك، واليوم أعود لها شابا فتيا، يزعم إنه زعيم مهاب، يطارد الأخطار عبر حطام مهدم أسود.

دخلت مع غول الحق للمدينة، وتجولت في طرق أحفظها رغم يد الدمار التي بدلتها. هذا كان قصر شهبندر تجار الأقمشة، وهو اليوم خرابة تمتلئ بالنتن والمخلفات. وتلك كانت حديقة ألعب فيها مع أطفال المدينة، ونمرح حول نافوراتها في قيظ الصيف، تحولت لمقبرة مكدسة بآلاف القتلى.

وذاك كان المسجد العامر، منارة العلم والفقه والإيمان، أصبح مهجورا منبوذا، يأوي البوم نهارا، والمشردين ليلا.

وبه كان مبيتنا.

بت باقي الليل مع غول الحق، أجاهد دموعي على ما آلت له أحوال المدينة. ولما استيقظنا - إن كان بعد الأرق يقظة - أردت معرفة ما أصاب أهلها، فتجولنا.

كان أهل الزرقاء، الودودون البشوشون المهذبون، قد انقرضوا، لم يبق من وجوههم الجميلة شيء، وحل محلها تلك السحن البغيضة القاسية. لم أجد ممن عرفتهم من السكان أحدا. لم يعد للمدينة التي عرفتها أثرا.

آه يا زرقاء، كم تبدلت يا مدينة التجار والبحارة!

على إنني في النهار التالي، أدركت أن بعض سنن المدينة القديمة مازالت حية. لكي تعرف ما تريد من أخبار، فستجدها بسهولة في الميناء؛ ولكن في المقابل، سيعرف كل من هب ودب بأمرك!.. لكن لو تركت الميناء، واكتفيت بالإنصات في الحمامات والأسواق الصغيرة المزدحمة، أو لو ثرثرت مع عمال السفن الرحالة، في أمر بعيد تماما عما تريد، ستجد أنباء الدنيا كلها، تنصب بيسر في أذنك، تنتقي منها ما تشاء.

واختلطت بالعمال، الذين يتجمعون قرب الأسواق، ينتظرون أن يكتريهم أي شخص في البر أو البحر، كما اعتدت على رؤيتهم في صباي. فقط زاد عليهم أن انضم لهم البلطجية، لمن يرغب في تأجير سفاك دماء!

علمت، مما جمعته من أخبار، أن الكثير من الأمراء والرسل رحلوا من الزرقاء لطرابل، ولكن أكثر من نصفهم لم يصل (لفرحتي وشماتتي) لها سالما!

وسمعت نبأ غريب، عن جاسوس للأسود، اعتقله قرصان، فافتداه تاجر ليحبسه الأمير! وأصابني الشك في هذا النبأ، وما أكد شكوكي، هو إن أمير الزرقاء الجديد، إما أن يهادن السود، فيطلق سراح جاسوسه، أو يقتله ثأرا لأخيه.

وراودتني نفسي أنه ربما يكون تيمور، فهو أحمق بما يكفي لكي يعلم كل أهل المدينة أنه يطلب طرابل، سعيا خلف الوريث،

وفي الوقت نفسه تلقى درسا مؤلما في الثغر الصغير، ليكتم أمر نسبه وتأييده للوريث.

ولأقطع الشك باليقين، ذهبت للتاجر الإفرنجي جبرائيل، زاعما البحث عن عمل، وبالفعل كنت، وغول الحق، بحاجة للعمل، لنتكسب معيشتنا، دون أن نلفت انتباه الناس لما معنا من نفقة قليلة، منحنا إياها جابر الغاربي.

لكن التاجر الماكر لم يأمن لنا في البداية. فجسدانا الطويلان القويان يصلحان لحمل الأثقال، كما يصلحان للقتل والاغتيال! أخذت أحاول إزالة الريبة من قلبه، وأخبرته إنني ولدت في هذه المدينة، وهي حقيقة، يسهل أن أثبتها بذكر أسماء الأسر القديمة. وقلت له إنني عدت مع أبي لبلدته القديمة، هربا من مذابح القراصنة، ولكن أهله طردوني، لما مات، واستولوا على أرضي، فقلت إن الأمر سواسية، ولأعد لدار طفولتي، مع صاحبي نسترزق من التجار. كانت حكاية منمقة تماثلها آلاف الحكايا التي سمعها الرجل، ولكن ما يميزها إنني أعرف خبايا المدينة، والأهم خبايا جبالها، التي لجئت لها عدة شهور.

وجبال الزرقاء وعرة، مخيفة أساطيرها، ولكنها الملجأ وقت الاحتياج، إن ثار عليك غضب القراصنة، وممراتها تتحكم بطرق القوافل البرية، الآتية بالكثير من الرزق والمكسب، وثناياها

تخفي لصوص القوافل، الذين ترغب في الهروب منهم
ببضاعتك، والاتفاق على شراء بخس لما نهبوه من بضائع غيرك!

ولذا كانت معرفتي بها هدية ثمينة لجبرائيل. وأحمد الله إن غول
الحق لم يسمع بحكايات كالوعر ابن محباس، والأميرة سليلة،
وشقيق المجذوب، وغيرها من الأساطير المرعبة، وإلا ما سار
معي خطوة واحدة نحوها!

(٣٠)

حكاية الوعر ابن محباس

فأما الوعر ابن محباس، فكان، فيما يزعمون، قاطع طريق شهير. أسقطه أحد الأمراء، وقتله. ولكن الناس تزعم أنه نجا، وهرب إلى أعلى الجبل، حيث لا يعيش بشر. كانت قمة الجبل أرضا خالية، خالصة لسكانها من الجن، فلما اقتحم الوعر بن محباس خلوتهم، وأثار الضجيج، وأزعج راحتهم، لعنه ملك الجن، فمسخه وحشا بين الإنسان والثعبان، فهو يمضي متجولا هنا وهناك، بلين ثنايا الجبل. فمن وجده هناك من البشر، باغته فبخ السم القاتل في وجهه، ومن حاربه، قصمه بالسيف. ويحكون أن له ذيل طويل جدا، يصل إلى مائة ذراع، فلو واجه عدو صلب، شاغله من أمامه بالسيف، بينما يمد ذيله يلتف بين الصخور، متسللا من خلف عدوه، حتى يلتف حوله بغتة، ويعتصر رقبته اعتصارا، فيلتهم الرؤوس، ويترك باقي الجسد، فريسة لإخوته من الحيات. ولهم عنه وعن معاركه المفزعة أقاصيص كثيرة غريبة.

(٣١)

حكاية الأميرة سليلة

وأما الأميرة سليلة، فهي قصة مخيفة تثير فزعي حتى اليوم. يحكى أن الأميرة سليلة كانت فتاة جميلة، هي أبهى بنات والي الزرقاء. ولكنها أصيبت بالسل اللعين، فاختنق صدرها، وضاق نفسها، ولم تعد تطيق هواء البحر.

وجمع لها والدها الحكماء من كل البلاد، فأجمعوا أنه لا علاج لها إلا أن تستشفى في هواء جاف، في منطقة جبلية ما. وحذروه إنه لا حياة لها جوار البحر.

ولأن والدها كان يعشقها، ولا يطيق فراقها، فقد رأى ألا يبعدها عنه إلى مدبنة أخرى. فأرسلها لتعيش فوق أعلى جبال الزرقاء، وبنى لها قصرا جميلا، ملأه بالخدم والحرس. وكان يزورها كل حين، ويأتي لها معه بأغلى العطور والألبسة.

لكن قصرها الجميل كان مطمعا للكثيرين. فمنهم من أتاها خاطبا، ومنهم من هاجمه مغيرا. فأما الخطاب، فقد ردهم أبوها، لأنه

يخشى على جسدها العليل من أثقال الزواج. وأما المغيرين، فردهم حرسها القوي، والسور المنيع.

عاشت سليلة في قصرها المنعزل حياة هادئة طيبة. ولم تجد ما تشغل نفسها فيه إلا حديقتها. زرعت حديقة صغيرة في فناء القصر، وقضت أغلب وقتها في رعايتها، رغم أن قسوة التربة، وندرة الماء تحكم على أي حديقة بالهلاك.

لكن حديقة سليلة ازدهرت، رغما عن أنف الساخرين. وأمام عيون وصيفاتها الذاهلة، تفتحت الزهور، وأينعت الرياحين، واجتمع لها من النباتات النادرة، ذات الروائح والألوان المبهرة ما لا يوجد حتى في حدائق الملوك والخلفاء.

وذات يوم، صعد الجبل إعرابي صعلوك من المغامرين، يسمى الأجهم. كان الأجهم قد قتل أحد الفلاحين، وطارده أهله طلبا للثأر، فلم يجد مفرا إلا صعود الجبل المهجور. وكاد أن يهلك جوعا وعطشا، عندما التقطت أنفه رائحة الرياحين، فقال لنفسه:

"لعله وهم يصيبني في الاحتضار. فأنا لست بالمرء الصالح، الذي يجد ريح الجنة عند موته! يا لخيبتي التي أضاعتني، وأضاعت حياتي هدرا، وجعلت آخرتي ضرا!"

لكنه مضى يتتبع الرائحة الزكية، ففتح عينيه مبهورا إذ رأى القصر في هذا المكان المهجور، حتى تصور أنه قصر من قصور ملوك الجان.

طرق باب القصر مستغيثا، لا يطلب إلا حفنة من طعام، وشربة ماء تنقذه من الموت. فرق قلب الأميرة له، وأمرت الحرس أن يفتحوا له الباب، ويكرموا الضيف.

وأكرمته أيما إكرام. فبسطت له موائد الطعام والشراب، وأفردت له حجرة في القصر للمبيت. ثم تركته وذهبت كعادتها، للعناية بحديقتها.

ولما ذهب عناء الجوع، ووعكة السفر، زحفت غشاوة الجشع، فوق فضائل الوفاء. وتحرك قلب الصعلوك النهم إلى ما رآه من كنوز ومجوهرات عند الأميرة سليلة. لكنه كان أكثر مكرا وشرا وطمعا من أن يختلس القليل ويهرب. فذهب لقائد الحرس، وأخذ يحدثه ويمازحه، ووجد عنده زجاجة خمر، يخفيها عن الأميرة التي تكرهها، فقال له:

"وما لذة الشرب دون نديم؟"

فجلس قائد الحرس والأجهم معا يعاقران الخمر، حتى خف لسان القائد، وتودد له الصعلوك، وبدأ يغريه، فقال:

"تلك الأميرة المسكينة مريضة حقا. وإن موتها لقريب."

قال قائد الحرس:

"حقا ستموت قريبا، لنعود لديارنا أخيرا."

قال الأجهم:

"وأظن أن أهلها لينتظرون موتها."

ضحك قائد الحرس، وقال:

"ليس مثلي. أنا أنتظره بصبر فارغ، لأعود لداري، وهم ينتظرونه بحزن وتوجس كاره."

قال الأجهم:

"تعني أنهم لا يطمعون في ميراثها، وتوزيع كنوزها؟"
قال القائد:

"وما كنوزها وسط أموال أبيها؟ إنه والي الزرقاء، يغرف في الأموال كيف يشاء من التجار والبحارة."

قال الأجهم:

"خسارة حقا أن تحرس كل هذا المال، وأن تبذل حياتك لحمايته، من أجل فتاة ميتة، ثم في النهاية لا تنال شيئا، وتعود خائبا."

قال القائد:

"لا تذكرني، وتزيد همي."

فقال الأجهم:

"لو كان لك شريك مفكر، لربما استطعت أن تفوز بقليل من الغنيمة، مكافأة تستحقها على جهدك."

قال القائد:

"وكيف هذا؟"

قال الأجهم:

"لو كنت مكانك لبحثت عن شخص يعينني. فما أن تموت الأميرة، حتى يدفن في قبرها بعض الجواهر والذهب. وبعد أن ينفض الناس، ويغادروا القصر، ويفتشوا كل الحرس، ويطمئنوا أن شيئا لم يخرج معهم، تعود فتأخذ الجواهر المدفونة، وتقتسمها معه."

قال قائد الحرس متعجبا:

"وماذا عن جسد الأميرة؟"

قال الأجهم:

"هذا دور الشريك الماكر، فعليه أن يحمل جثتها، ويخفيها بعيدا."

قال قائد الحرس باهتمام:

"ولكن عند موت الأميرة سيحوطها الحكماء والوصيفات؟"

تحول الأجهم للصراحة، فقال:

"أكفيك أنا شر الأميرة. آخذها وأضعها في كهف رأيته، أحبسها حتى تموت. بينما تعلن أنت موتها، وتدفن الذهب في كفنها. لن يكذبك أحد يا قائد الحرس، فكل شيء هنا تحت إمرتك ورحمتك. وتبقى الأميرة عندي، حتى تعود لي بالذهب، وتقتسمه معي. فيأمن كلانا غدر صاحبه. أنت معك المال، فلا أستطيع تركك، وأنا معي الأميرة، لو تركتها هلكت أنت."

فكر الغادران معا في الخطة الماكرة، وقلباها على كل وجه، ثم أمسكا بالأميرة، فوضعها الصعلوك في كيس ضيق، وجمع القائد ذهبها، ولفه في خرقة من كتان أبيض، كالكفن ووضعها في تابوت، وخرج على القوم مولولا، معلنا أن الأميرة سقطت ميتة بغتة.

حمل الحرس تابوت الذهب، فدفنوه في الحديقة التي أحبتها الأميرة، بينما انتهز الأجهم انشغال القوم، وتسلل بالكيس، المربوطة فيه الأميرة سليلة، نحو الجبل.

وجاء الوالي حزينا، يشهد دفن ابنته، ويصلي عليها، ثم رحل مع الخدم والوصيفات، تاركا أغواته يحترزون المال، والحلى، والأثاث، قبل أن يغلق القائد أبواب القصر، ويعود معهم نظيفا خالي الوفاض للمدينة، لا يرى أحد معه درهم من ذهب الوالي.

ثم في الليل، عاد قائد الحرس. ليس خاوي الوفاض، كما غادر؛ بل كان يحمل معه ثلاثة أشياء: مفاتيح القصر، ومجرفا للحفر، وسيفا مسموما لقتل الأعرابي والأميرة!

أخذ يحفر القبر الوهمي، وفتح التابوت متلهفا، لرؤية أكداس الذهب، فإذا به يجد بدلا منها جسد الأميرة!

ففي غيبة الحرس، كان من السهل على مغامر متمرس مثل الأجهم، أن يتسلق سور القصر، ويأخذ الثروة لنفسه، ووضع مكانها سليلة المسكينة، وأغلق عليها القبر وهي حية.

وثارت دماء القائد الغادر المغدور، فحمل سيفه المسموم، وترك جثة سليلة مكشوفة للضباع والذئاب، وخرج من القصر يتتبع آثار أقدام الأجهم في غضب حقود.

وعثر عليه سريعا.

أو على الأصح عثر على ما بقى منه. كانت عيناه مقلوعتين، وجلده مسلوخ بالكامل، وقد علق ومازال فيه النفس فوق شجرة هزيلة، وأسفله الوحوش تلعق دمه، وتنهش قدمه.

لكن بريق الذهب الأصفر كان غلابا للدم الأحمر، فغض نظره عن شريكه المتعذب، وانحنى على أكوام النقود الملقاة خلف الشجرة، يريد جمع ما يستطيع منها والهرب.

وإذا به يجد قدما تقف فوق المال. رفع عينه، فوجد الأميرة واقفة أمامه!

كانت ميتة حتما. عفن الموت يفوح من جسدها، الذي كان غضا، ورغم ذلك خرجت من قبرها، ومشت تجاهه!

تمالك جأشه كعسكري محنك، وأخرج السيف، فبتر رأسها بضربة واحدة.

لكن باقي جسدها، ظل يقترب منه، فلم يملك إلا التراجع بخطى مذعورة.

طعنها مرة أخرى بالسيف، ولم ينتزعه من جسدها، بل تركه وهرب. لكن الذهب ثقيل، والأحجار وعرة، فتعثر المرة تلو المرة، ولم يلبث أن ألقى بالمال أرضا، وأسرع يهرب منها خفيفا.

وهنا احتبسه فجأة وحش عملاق.

يزعمون أنه كان في صورة ابن آوى، أو ذئب، أو ضبع، لكن ضخامة جسده، وجهامة وجهه لم تكن مثل أي من تلك الوحوش. وكانت العينان مشتعلتين بنار، تبدو آتية من الجحيم، والأنياب طولها ذراع كامل، ومخالبه من حديد، اخترق درع القائد بسهولة.

تكلم الوحش ثائرا، وقال إنه ملك جن هذا الجبل. عاش فيه زاهدا منعزلا منبوذا، حتى جاورته الأميرة، وأثلجت صدره

بكلماتها الرقيقة، التي صبرته على عقوق أهله. فوقع في حبها، وزرع لها حديقة بلا مثيل، ثم أتت شياطين الإنس، فاقتلعت الحديقة، ودفنت بين جذورها غدرا سليلة.

وارتجف قائد الحرس رعبا، وقال:

"لست قاتلها. لم يكن أنا."

قال ملك الجن:

"أيها الخائن الحقير. أعلم ما فعله صاحبك، فنال مني أقل مما يستحقه. لكن جرمك أشنع وأفظع، ولن أتركك تموت مرتاحا، بل ألقي بجريمتك في وجهك."

وانقض عليه، فنهش وجهه، واقتلع عينيه، وسلخ ذراعه اليمنى التي حملت المجرفة وانتهكت قبر سليلة. وقال له إن روح الأميرة ستظل هائمة في الجبل تنذره بكل من يقلق مضجعها، وحينها سيأتي، ويثأر منه بأبشع قتلة. وأمره أن يرحل بعاره، وتشوهه، وأن يخبر الناس بألا يقربوا قصر محبوبته، وإلا سيلحق بهم غضبها وثأرها.

(٣٢)

حكاية شقيق المجذوب

ويحكي أهل الزرقاء، أيضا عن جبالها، حكاية المجذوب وشقيقه. كان المجذوب فتى لعوبا وسيما. عشقته ابنة كبير التجار، لكنه سرعان ما سئمها، ورغب عنها، لأنه كان كارها للبقاء في المدينة، يطمح أن يسافر، ويشاهد العالم، فنبذ كل شيء إلا البحر وأخبار البحر.

وقال الناس إن حورية من حور البحر فتنته، فدبرت له عاشقته السابقة بنت كبير التجار انتقاما شنيعا. فصنعت له عملا مسحورا، جعله مجذوبا شاردا، لا يدري من أمره شيئا، يجلس مسكينا أمام شاطئ البحر ذاهلا.

ثم ازدادت حالته خطورة، فحاول أن يلقي بنفسه في أعماق البحر غير مرة، لولا أن أنقذه الصيادون، وأخذ الناس يتحسرون على الشاب الوسيم، ويتحدثون في الأسواق بأمره هو وابنة كبير التجار.

وخشي كبير التجار على ابنته من ألسنة الناس، إن مات الفتى في الزرقاء، فأمر والد الفتى بالخروج من المدينة هو وأسرته.

لكن الأب رفض، وتمسك ببيته الذي ورثه عن أجداده، فغضب كبير التجار، وسلط رجاله على الأسرة المسكينة، فدهموا داره في قلب الليل، واختطفوا المجذوب ووالديه، وألقوا بهم في الصحراء، خارج المدينة، واستبقوا عندهم الابن الأصغر، وهددوهم بقتله لو عادوا للزرقاء.

وهكذا، خشية على المخطوف، أخرج المقهور أبنه المجذوب من الزرقاء.

وبقى شقيق المجذوب صبيا صغيرا أسيرا، لم يهتم به أحد. ولم يلق التاجر له بالا، بل ضاق بنفقة إطعامه فأمر رجاله بإلقائه بعيدا عنه. فأمسكوا به، وقيدوه، وألقوه في الصحراء، لكن الفتى هرب منهم، وصعد للجبل، وأصبح الحقد يتملكه على كل أهل الزرقاء، فإن رأى إنسيا يصعد الجبل تسلل وراءه، ودفعه ليهوي قتيلا من حالق.

وغير هذه من الحكايات الكثير، عن مخلوقات ثائرة، تبغي الدماء، تسكن أعالي الجبال المحيطة بالزرقاء، فتنفر أهلها من الاقتراب منها.

(٣٣)

جبرائيل الإفرنجي

كان جبرائيل عاشقا متيما. وحبه الكبير يملأ عليه حياته، فكل ما يفعله ينبع من هذا الحب، ولهذا الحب! ولكن حبه لم يكن لفتاة، أو أهل، أو بلد، كان حبه كله للمال وحده! له قلب يسع أي شخص، مهما كان حقيرا، أو فاسدا، أو مبغضا له، مادام سيزهر حياته بمعشوقاته من الدنانير الذهبية!

هكذا عرفته، بعد وقت قصير من العمل معه. القراصنة لا تتسامح أبدا مع أي شخص يهرب من دفع إتاواتها، أو يشتري بضائع لم تدفع عليها الإتاوات الباهظة؛ ولكنه يقبل المخاطرة، بقلب جسور، للفوز بالمزيد من المال. وقد ذهب في هذا لأبعد الحدود فوق تصوري، ربحت ثقته بسرعة أذهلتني، بل أصابتني بالريبة! وسرعان ما استخدمني أنا وغول الحق، لنقل البضائع الثمينة من مكان لآخر، عبر المدينة، أو لخارجها بعيدا عن العيون. وجعلنا نهرب منها العطور والتوابل، وإليها العاج والجواهر، عبر الجبال، بعيدا عن مداخل المدينة المطروقة.

كانت المهمة شاقة جدا عليّ في بدايتها، لأن حال الجبال تغير كثيرا خلال السنوات الماضية، وعمرت بعض أجزاءها بأخلاط من قطاع الطرق والمهربين، الذين جذبتهم، أو لفظتهم المدينة الهائجة. وأضف لهذا إنني إنما كنت صبي صغير في دروب الجبال لا يعي كل ما حوله. لكن بقليل من الحظ والمخاطرة، مزجته بالحذر والفطنة، شققت طريقي آمنا، وعرفت من الدروب الفريدة، ما غفل عنه غيري ممن سكنوها منذ سنين!

وسرعان ما اطمئن التاجر لنا، بعد أن استوثق من براعتنا وأمانتنا. وكنت في أمر الأمانة هذه حذرا، لأنه سيرتاب حتما فيمن يعمل في هذه المهمة الخطرة، دون أن تراوده نفسه لبعض المغانم، فاتخذت حلا وسطا، بأن أعود له بعد كل مهمة، محتفظا بشيء من البضائع لنفسي، لأقول له بغلظة:

"كان الأمر اليوم شاقا فزدت من أجري وأخذت كذا!"

ولأن هذا الـ (كذا) يكون أقل مما يختلسه غيري في غفلة منه، فقد رضى بهذا الحال، بل قال لي:

"إني لآنس بك يا عندليب (وهو الاسم الذي انتحلته لنفسي) فإنك مثلي محب للمال، ومخلص له، وتفهم كيف تربحه دون أن تثير غضب غيرك. وهي صفة عظيمة، تجعلني أطمئن لولائك لي، مادام رزقك معي!"

وجاريته في ثرثرته، وسمعت منه حكايته. كان تاجر عطور وعطارة صغير في البندقية، ولما هبت الحملات الإفرنجية، تتوالى كقطع الليل المظلم على بلادنا العربية، خرج جده مع المقاتلين الآثمين، فأصبح له إمارة وجند، قبل أن يموت، ويخلفه أكبر أبنائه.

وتولى الحاكم الجديد الإمارة الصغيرة، وفرح بما غنمه، وتطلع لأن يجمع كل أهله من حوله، يساندونه ويعزونه. فأرسل لإخوته وأبناء إخوته وعمومته أن يأتوه، ومنهم جبرائيل، وأكرمهم، ونصبهم فرسانا.

وكان جبرائيل في شبابه (كما يزعم ولست واثقا من قوله) وسيما مليحا، يعجب الفتيات، فأحبته ابنة عمه الأمير، وتطلعت له زوجا. كما إنه كان عليما، بفضل تجارته، بالعربية والهندية،، ولغات عدة جعلته يجيد العمل مع الأمراء، والخانات، وغيرهم ممن يترددون على قلعة عمه، طلبا للحلف أو الحرب.

ولهذا وذاك، قربه عمه له أكثر من غيره، واتخذه أحد وزرائه، ومهد لأمر زواجه من ابنته، لولا أن قتل بغتة في غارة على إحدى المدن العربية.

وهنا أضمر له أبناء عمه، وإخوة خطيبته، الشر. كان الملك الصليبي لبيت المقدس يحب بث الفرقة بين الأمراء الصغار، لكي

تظل قلاعهم الصغيرة ضعيفة أمامه، تطيع أمره. فحذر أبناء عم جبرائيل، وقال لهم:

"هذا رجل يعرف من اللغات والألسنة ما لا تعرفون، فما أدراكم أن يتآمر مع سفراء خصومكم أمامكم، وأنتم لا تدرون؟ ويعرف من فنون العطارة الكثير، فما أدراكم أن يدس في طعامكم أو عطوركم سما يخلصه منكم، بعد زواجه من أختكم؟ شخص كهذا لو كان في بلاطي لقطعت رأسه!"

لكن جبرائيل لم يكن هاويا لسلطة أو زعامة، المال هو عشقه الوحيد! لم يصعب عليه أن يهجر الأميرة ابنة عمه، وأقاربه، والفرسان الذين يلهجون باسمه. تخلى بسهولة عن كل هذا الزخرف، رغم إنه -كما يزعم -كان محبوبا من الجنود والساسة، ولو أراد، لخلع خصومه، وتولى مكانهم! ببساطة رحل عن قلعة عمه مختارا، وعاد إلى التجارة حيث كان جمع المال من أراضي الشرق المنهوبة أمرا سهلا. هناك كنوز وأموال نهبت، تجري في أيدي جنود لا يعرفون قيمتها، أو جواهر مسروقة يبيعها السارق بربع الثمن، حينما يغلي، لكي يرتحل ويسرق غيرها!

وجد الكثير من مناجم الذهب، التي تفيض لأي جشع، وسرعان ما أصبح ثريا جدا، ووجد في الزرقاء ملاذا ومستقرا آمنا. أدرك بفطنته أن القراصنة - بعدما أحرقوا المدينة - لن يمانعوا في مجيء التجار لهم، لبيع غنائمهم، فكان أول تاجر يتجرأ

على الاقتراب من المدينة بعد سقوطها! وقد أغنمه هذا أرباح مخيفة، مازال يتذكرها بحنان وشوق! وأكسبه نفوذا كبيرا وسطهم.

الفرنجة عموما لا يتورعون عن التعامل مع القراصنة، فالتجارة شطارة بالنسبة لهم، لا يهم أن تكون البضائع مسروقة. فنجد العلاقة بين الفريقين طيبة، رغم إن كل منهما يتصيد الآخر في البحر! لا أفهم حقا كيف أصف الأمر بين الفريقين، فهو أعجوبة من عجائب الدهر! على إنني أذكر مقولة كان يقولها أحد المتفلسفين في الزرقاء، إن القرصان يخرج في سفينة لغزو سفينة، والإفرنجي يخرج في أسطول لنهب مدينة! فكلاهما أخوة!

على أي حال، أجدت دور المستمع المداهن، والمساعد المشاغب لجبرائيل الإفرنجي، وسرعان ما اعتاد أن يقص عليّ أمجاده ومآثره! أي شخص تعيره أذن مستمعة، وتزعم إنك معجب به، سيفيض بالحديث معك مفاخرا بسهولة، وسيصعب عليه أن يكتم عنك أسراره! استمعت في صبر لحكايته المزعومة مع أولاد العمومة، وأبديت إعجابي به، فانتقل مفاخرا لمكره وصفقاته، وكيف خدع هذا وذاك، مدليا بأسرار كثيرة، لكنها قديمة، فزعمت أنه لي مثل أعلى، أتعلم منه لأكون يوما مثله! وسرعان ما انتقل من حديث التاريخ لحديث الحاضر، وبعد صبر لأيام أدلى أخيرا بما أرغبه، وتحدث عن مكانته لدى حكام المدينة، وكيف خدمهم بحماس، وأوهمهم بالإخلاص، فأصبح موضع ثقتهم، ونفوذه عندهم مزدهر!

وبالطبع كان حديثه عن جاسوس الأسود، الذي عمل عنده هو ما أهمني! علمت منه صفاته، وازداد يقيني إنه تيمور، وعزمت على استغلال نفوذ التاجر الواسع، لمساعدتي في إخراج تيمور من سجنه، والسفر إلى طرابل.

وأتاني غول الحق ذات يوم بخبر سعيد، بينما كنت أحسب وأخطط لدخول السجن، فعلها هو ببساطة! ذهب ليلا للسجن، وغافل الحراس هنا وهناك، حتى وصل لقلبه، وشاهد تيمور وعرف مكانه، ثم انسل عائدا! كان يتحدث ببساطة شديدة، كأنما هذا فعل يسير، اعتاده في سجون الثغر الصغير، الأشد من سجن الزرقاء كما يقول.

واتفق معي على أن يتولى إخراج تيمور من السجن، على أن أعد العدة للخروج من الزرقاء بعدها فورا، وإلا فسرعان ما يكتشفون أمرنا، ويمسكون بنا جميعا.

هنا انتقلت من مرحلة الاستماع للتاجر، إلى مرحلة الحديث والتطبيق، أخبرته إنني أريد الخوض في مغامرات المال مثله ومعه، وإنني أحتاج للخروج إلى تجارته في المدن الأخرى، لأشاهد وأتعلم. طبعا لم يستجب لي في البداية، لاحتياجه لي هنا. لكني ألححت، وزدت الإلحاح، والأغراء بمكاسب من البلاد الشرقية، أزعم إنني أستطيع جلبها له. كنت أحتاج بشدة للسفر على سفنه الآمنة من القراصنة، وأحتاج للسفر بِأسرع

وقت ممكن. لقد تأخرت شهورا طويلة عن الأمراء القتلة ووفودهم. والأسود يزداد قوة، والأنباء عن قرب تفاهمه مع الفرنجة والأهبال، لمساعدته في غزو البلاد تتزايد. كان الخطر يزيد بمرور الوقت، وتأخري أكثر من هذا ليس في صالحي.

لكن تأخري هذا كانت له مزية ما لم أتوقعها! الوريث! حكايات متتالية بين الناس عن الوريث، حكايات يملؤها الأمل يرددها البسطاء. كانوا يتكلمون عن عظمة الوريث، وعبقريته في الاختفاء عن الأمراء، ويذكرون بمنتهى الشماتة ما أصاب بعضهم، عندما سقطوا أسارى في يد الأهبال، فعذبوهم حتى الموت!

كان الأمل هذا ينفخ في صدري حماسا، ويزيد لهفتي على السفر. ولذا لم أرتح، حتى أعددت كل شيء على ما أريد. استعددت للرحيل فجر الجمعة، مع أول سفينة مغادرة للتاجر جبرائيل، وأعد غول الحق نفسه لاستخراج تيمور من سجنه. لم أسأله كيف سيفعلها، فمثله من عاشر الشاطر عدنان، يعلم من الحيل ما يعجز العقول!

وعند فجر الجمعة، أتاني الغول وتيمور سالمين. كان تيمور مرهقا جدا، ومنهكا، وقد لاقى أهوال في سجن حراسه من اللصوص. لم يرغب حتى في الحديث عما أصابه، وكان يلهج بحمد الله أن خرج من هذا الجحيم الضيق. لكنني بشرته إنه سيعود لبعض

الضيق، حيث سنحشره في صندوق صغير، لنضمه للبضائع إلى أن تخرج السفينة للميناء.

وصعدنا للسفينة، وجلسنا في أماكننا، حتى غفل عنا البحارة، فأخرجنا تيمور من مخبئه، وفردت الأشرعة، وتحركت ابنة اليم بعد أن ملأتها ريح الحرية.

لقد خرجنا أخيرا من الزرقاء.

لقد غادرنا المملكة أخيرا، وأصبحت طرابل أقرب إلينا من حبل الوريد.

أخيـــــــــــــــــرا !!!!!

(٣٤)

الأمير الثاني

أقبلنا على نسيم الحرية نستنشقه. كان تيمور متفائلا جدا، يزعم إن ركوب البحر للمرة الثانية أسهل بكثير من المرة الأولى، التي يحفها بعد المخاطر والشؤم. وبعد أن هدأت نفسه، جلسنا نتبادل الأحاديث. لم يعرف غول الحق؛ لكني زعمت له إنه من الغيلان الحمر، كنا قد دسسناه منذ زمن في الثغر الصغير، فأتى وأنقذني من الشاطر عدنان. لم يصدق في البداية غدر عدنان، وبدا مصدوما من الأمر. ثم حكى لنا كيف وصل للزرقاء، وسقط في أيدي الأمير الأبيض، فسجنه.

بعد أن صلينا الظهر والعصر جماعة، وقد كنت أرجو أن تكون صلاة الجمعة، غير إنه لم يكن هناك سوانا نحن الثلاثة، نظرت للبحر، فأصابني القلق، مازلنا قريبين من الشاطئ، لم ندخل حتى الآن في عرض البحر، لكن غول الحق طمأنني، وقال:

"حتما جبرائيل قد اتفق مع تجار خارج المدينة، لكي يلتقط منهم بضائعا أخرى بعيدا عن إتاوات القراصنة."

واقتنعت بحديثه، فقد فعلناها لسفن جبرائيل عشرات المرات، وقد ظهر إنه كان محقا، لكن البضائع كانت تنزل من السفينة إلى الشاطئ، وليس العكس.

فقد كنا نحن هذه البضائع!

حاصرنا البحارة فجأة، واندفع بعضهم نحو متاعنا، فأخرجوه وانتزعوا منه درع الغيلان، ثم قيدونا وحملونا، في مركب صغير نزل بنا للشاطئ.

وهناك وجدنا جبرائيل، وجواره شخص لم أره من قبل، لكني عرفته، الأمير الأبيض الثاني، أمير الزرقاء الجديد!

كانت الشماتة تقطر من جبرائيل، لا أعرف السبب، فلم ير منا هذا الرجل إلا الربح والمال، لكنها طباع الفرنجة اللئيمة حتما!

سلمنا التاجر مقيدين، كالنعاج المهيئة للذبح، لحرس الأمير، قبل أن يركب سفينته، ويغادرنا مع بحارته. ووقف الأمير يرقبهم، حتى غابوا عن ناظريه، ثم أمسك بدرع الغيلان يتأمله، قبل أن يقول:

"من منكم سيد الغيلان الحمر؟"

رددت عليه:

"أنا من تطلب."

نظر لي بدهشة، وقال:

"أنت؟ لكنك تبدو لي بالرجل ذو الحيل، لم أسمع إن الغيلان تلجأ للتحايل أبدا؟"

قلت بغيظ:

"الحيلة خير من الحماقة."

التقط نفسا عميقا، حبسه دهرا، حتى ظننت أنه سيسقط بين أيدينا مختنقا، ثم قال بصوت مبحوح:

"يزعمون إنك آخر من حدث أخي، قبل مقتله؟"

نظرت له لا أدري ماذا أقول، وأنا واقع تحت رحمته، فاكتفيت بهز رأسي علامة الإيجاب.

فأشار لي أن أزيد، فقلت:"أخبرني عما أصاب أهلكما في الزرقاء وقت سقوطها، وعن إنه لا يثق في الأسود، ولا يتمنى انتصاره، لكنه يكره عداوته."

نظر لي بتمعن، وقال:

"أأنت واثق من أنك زعيم الغيلان؟ يبدو لي أن شقيقي ثرثر معك بالكثير، رغم إنه لا يعرفك. قل لي، لماذا تناجز الأسود؟

حتما سيسعده التحالف مع الغيلان الحمر، لكن الغيلان لا أمل لها في محاربته، فكل الناس تعاديها؟"

قلتن وأنا أشعر بالسأم من تكرار هذا السؤال:

"كل ما أرجوه هو عودة الأمن لبلادنا، وتنصيب الوريث حكما عدلا لكل أرجاءها. الأسود سينشر دماءً وفوضى أكثر مما هو موجود اليوم."

قال بامتعاض:

"لا نفع في حرب هذا الجبار العتي. له حلفاء عظام، تهتز لهم العروش الراسخة، فما بالك بأنقاض عرش الوريث! أنى لنا بحرب الأهبال، والفرنجة، والسور العليّ مجتمعين؟ الأسود يفاوض كل هؤلاء لنصرته، ودعني أقول إنه اقترب كثيرا من إرضائهم. ثم ماذا عن ضبة بني الأسود؟ اليوم هم يهاندون زعيمهم، ويناصبون ابنه العداء، لكنهم حتما سينقلبون للجانب الآخر! كل هذا ومعه جيوش رجاله المخلصين، وعقله العسكري الجبار، الذي أدار به الدوائر على كل من عاداه. كيف تطلب منا حرب الأسود؟ الحيلة خير من الحماقة كما تزعم؟ لماذا تستخدم الحيلة لنصرة أكبر حماقة إذن؟"

قلت:

"لنصرة الحق."

قال:

"أي نصرة! بل الهزيمة الساحقة! أنت نفسك لم تأمن لرجالك أن يقوموا عنك بهذه السفارة، فأتيت بنفسك، خشية من أن يبايعوا الأسود عليك. أتحارب من لا تقدر عليه الجيوش؟ ولأي سبب غير الدمار والانتحار؟ أتبحث عن ثأر ما؟ لا أملك لك حتى في النيل من أظافره! أنت تقاتل بلا هدف يا عزيزي، بلا هدف."

بدا لي كأنما يجادل نفسه أكثر مما يجادلني، لم يحدث أصلا أن طلبت نصرة منه، أو من الزرقاء. كان شقيقه هو رفيقه الوحيد، في حياة أليمة عجيبة، صعدت به أميرا على قتلة والديه! أمير يؤمر ولا يأمر، له نفس تواقة للثأر من الأسود، وعقل خواف من جنوده. أردت النفخ في نار غضبه، لعلها تذيب قيد يدي.

تكلمت بحماس:

"وماذا يهم النجاح والفشل؟ لماذا لا أحاول؟ لو لم أفعل لقضيت حياتي نادما متألما محترقا. لو هلكت، فلن تضايقني ذكرى الأقارب الذين أهلكهم الأسود! الله يحاسبنا على أعمالنا، وليس على نجاحها أو فشلها. لن يقلقني ضميري بالفشل إن فعلت ما بوسعي، ولن يهمد لنجاح أتى من هروب! السكون ينجيني، لكنه لن يطفئ نار الثكلى، المقاومة عاجزة، لكنها تبرد قلوب الموتورين."

ضحك ضحكة مجلجة قبيحة، وقال:

"أنت ماكر أحمق! أتخاطب ثأري عسى أن أساعدك؟ أقول لك اسع لنفعك، ودعك من هذا الشأن، فتقول لي أن أرافقك في رحلة الهلاك؟ ولماذا؟ لأجل هذه البلد؟"

قلت بصرامة:

"ليست بلدك، فلا ألومك، لكنني من أهلها، ولو سعينا لنفعنا على حساب نفعها، فسنخسر جميعا. «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً » هكذا علمنا نبينا، لو لم يجد الأسود وزبانيته من يضرب على أيديهم، فسيخرقون السفينة ويغرقوننا."

رد بسخط:

"تدخلون الدين في كل أمركم يا أهل المشرق، وتجعلون أمر الله في خلافاتكم، وتقلبون كل حروبكم جهادا!"

قلت ببرود:

"أوليس الدين كان زعمكم في زحفكم على بلادنا يا فرنجة؟"

رد بجفاء:

"أنت أعلم مني بهذا! أتينا فاتحين، مثلما يفعل ملوككم ببعض، وكما يفعل الأسود بما حوله من أقاليم."

مرة أخرى يثبت الطغاة إنهم على ملة واحدة، ولو توزعوا على فرنجة وقراصنة وأساودة! نفس العقل والجدل، ويتخذون بعضهم لبعض حججا! إما إنهم يسيرون على خطى فلان، أو هم يتجبرون لحمايتنا من جبروت علان! ملة واحدة، قبلتها هي الأراضي المنهوبة، وصلاتها اعتصار الفلاحين الغلابة.

كنت قد أدركت عقم محاورتي، وأنني بالفعل أحمق، من استغنى من قبل عن ثأر أبيه، فبما يهمه ثأر أخيه؟ ولذا صمت، وكففت عن الجدل العقيم.

أخذ الأمير ينظر لنا متحيرا، قبل أن يعود لنفس نهجه، الذي اتبعه مع تيمور، فأمر حراسه بسجننا. لكن هذه المرة ليس في سجن قصره، وإنما في أحد بيوت الزرقاء بعيدا عن العيون والآذان، وقال:

"ستظلون ضيوفا عندي، حتى يهلك الوريث، أو يطلبكم الأسود، ولكم أن تتمنوا الأولى بشدة!"

وهكذا رددنا للزرقاء خائبين، وعدنا لتلك المدينة المجنونة، التي لا تطيق بقاءنا فيها، ولا خروجنا منها!

(٣٥)

نبأ ما أصابهم في سجن الأمير الأبيض

قيدنا الحراس بغلظة، وأحكموا ربط أيدينا بالليف الخشن، وأقدامنا بالسلاسل الحديدية الثقيلة، وحبسونا مع عدتنا ومتاعنا، في بيت صغير، هو الوحيد السليم، وما حوله بيوت مهدمة، فيما كان يوما شمال الزرقاء.

كان مكاننا هو حجرة ضيقة على سطح المنزل، وقد تفنن الحرس الإفرنجي في مضايقتنا، والتضييق علينا. وكانوا يتناوبون علينا كل يوم. فيطلقون سراح واحد فقط للاغتسال والأكل، ويبقون القيود الغليظة في الاثنين الآخرين.

كان عددهم ثمانية، أغلبهم لا يجيد العربية، وقد تسلحوا بالدروع والسيوف حتى الأسنان، وقد بدا عليهم الفزع من هروبنا. لكن مع مرور الأيام، تراخت أعصابهم، وككل حارس، لا يجد لنفسه مهمة غير مراقبة سجناء عاجزين، يغلبه السأم، ويفتر حماسه، وينشغل عن وديعته بكل أمر تافه!

وهكذا سنحت لي في لحظة غفلة، أن أخرج من الحجرة المغلقة! فقد أخذت أفكك الخشب المهترئ للباب حول مفصلته، حتى فككته بالكامل، وخرجت منه. وتدليت من السطح إلى نافذة في الدور الأول، ومنها إلى حجرة الحرس الغافل، فأغلقت الباب عليهم، ووضعت خلفه منضدة ثقيلة، ثم هرعت إلى متاعنا، فاستعدت السلاح، سواء سيوفنا، أو رمحي، وبلطة غول الحق. وأسرعت للأعلى، وصخب الحراس خلفي، فمزقت قيود زميليّ، وألقيت إليهم بالسلاح، وخرجنا لنجد الحراس الثمانية ينتظروننا مبهوتين.

بادرهم تيمور، فأمسك ببلطة غول الحق، وقذفها، فبترت يد أحدهم، وأخرجته من القتال، وهنا جرى الرمح في يدي كنار تنين هائج، فأطاحت باثنين منهما، قبل أن يفيقوا من ذهولهم. واندفع غول الحق، فصد عني سيوفهم. وهنا تبادلوا بلغتهم بضع كلمات، ثم ألقى كبيرهم سيفه أرضا، وهتف:

"كفى قتالا!"

تراجعنا للخلف خطوة متحفزين، فأكمل بتوتر:

"لا نرغب في قتال الغيلان الحمر. حربكم مع الأسود، لا ناقة لنا فيها ولا جمل! اذهبوا عنا، ونذهب عنكم، وسنقول لأميرنا أن الغيلان دهمونا وأخرجوكم."

لا أثق كثيرا في كلمات الفرنجة، ولكنهم بدوا مخلصين في رغبتهم عن قتال لا مغنم فيه. لذا حزمنا متاعنا، وأخذنا ما بالبيت من طعام وأموال، وركبنا البرق مسرعين، هاربين من الزرقاء الملعونة!

ضربنا طريقنا فيما حولها من صحراء، لا ندري ماذا نفعل، ولأي طريق نذهب.

كان اليأس يحوطني من كل اتجاه. لو كنت في طريق مسدود، يحوطني فيه أعداء جبارين، يبغون سفك دمائي، لقاتلتهم، حتى الموت لا أبالي. لكننا الآن في طريق بلا نهاية! أغلقت أمامنا بوابة الزرقاء، ونجونا منها، ولا نملك إلا السير قرب الساحل نحو الجنوب، على أمل وهمي واهٍ، أن يأتي بحار يقلنا. فأخذت أقود رفيقيّ بلا جدوى، في تيه الصحراء القاحلة، والأراضي الخاوية، لا يظللنا إلا شمس قاتلة.

الآن أصبح وفاضي خاويا، وحيلي خائبة، وأيقنت إننا لا نسير إلا للهلاك. فأمرت رفيقيّ بالعودة لآخر بئر مررنا عليه، وأنهيت المسير هناك. فلا يوجد طريق أصلا لكي نسير فيه.

اليأس مخلوق لا يقهر، لو أحكم مصيدته عليك. وأظن أن مصيدة الصحراء قد أحكمت من حولنا!

أبعد كل هذا تكون النهاية؟ لو كنت في سجن، لبحثت عن المهرب. ولو كنت في حرب، لطلبت الشهادة. لكننا الآن وسط الفراغ!

هو ضياع وسط رمال لا تنتهي.

لا ملجأ ولا مفر ولا مخرج.

إلا بالدعاء لله أن يهدينا سواء السبيل.

وهكذا ارتفعت الأكف تطلب الغوث.

أظنني مخلصا في دعوتي، لا أبغي من أمري إلا مصلحة البلاد والعباد، وسط أمواج الطغاة والأعداء المتكالبة عليها.

فاللهم غوثك.

اللهم غوثك

اللهم غوثك.

وقبل أن تزل الأكف، أتى الغوث، في هيئة الشيخ عمران.

(٣٦)

حكاية البلد الميت

يقول الشيخ أبو الوفاء عمران ابن العربي السليمي:

"كنت أمضي بقافلتي الصغيرة، أبغي مضارب الزرقاء.
ومضارب الزرقاء هي اجتماع، بغير اتفاق، للرعاة والتجار من هنا وهناك، حول بعض المراعي أو الآبار، قرب الزرقاء، يبيعون ويشترون فيها لبضعة أيام، إلى أن يصل خبرهم لحكام المدينة، فيطردونهم منها. ولما كان قد تجمع عندي ما يزيد عن حاجتي من الصوف والتمر، فقد جمعت بعضا من عشيرتي، لنبحث عن المضارب، لبيع بضاعتنا، وشراء السلاح المهند الجيد، الذي سنحتاج له بعدما تواتر من أنباء، عن موقعة عظيمة، بين إخواننا من بني سليم في العاصمة، والقائد الأسود. وأن أمير جيشه قد طردهم من مساكنهم، وقهر بني زادة ومن معهم من الثوار المغاربة، فأيقنا جميعا إنه بعدما تخلص من آخر حلفائه السابقين في العاصمة، سيزحف نحو الجنوب ليخضعه، وحتما

ستشتد حاجة عشيرتي للسلاح في تلك الأيام المظلمة، فبني سليم لن يسلموا أنفسهم بسهولة لدهماء جنده.

وبينما كنت أجول بين الآبار والمراعي وراء الزرقاء، عثرت عند البئر الثامنة في خيمة يتيمة، فعزمت على أن أمكث جوارها، ليجتمع مضرب جديد حولنا، وأكسب ربح البكور في البيع، وبخس العجلة في الشراء. ودخلت على الخيمة، فألقيت على من فيها تحية الإسلام:

"السلام عليكم يا إخوة العرب."

كان بالخيمة ثلاثة رجال أشداء. اثنان منهما ضخمان طويلان، حتى خشيت على نفسي من بطشهما، لكن من يبدو ككبيرهم رد علي بوجه بشوش:

"وعليكم السلام يا أخا الإسلام، من أي بطون العرب أنتم؟"

أجبته:

"أنا الشيخ عمران، شيخ عشيرة العربي، من بني سليم أو بطنها، الموجود قرب مدينة جبة في الجنوب."

سألني كبيرهم:

"أوليس لك أبناء عم من حلفاء ابن الأسود، في مضارب لهم قرب الحاضرة؟"

قلت بحذر:

"كان لهم يا سيدي، كان لهم، ألم تسمع بأمر طردهم من هناك؟ انقلب عليهم الأسود اللعين، وسرعان ما يزحف جنوبا، ليطردنا خلفهم."

بدوا لي مهتمين بشدة بأمر الحاضرة، وطاغيتها. وسرعان ما عرفتهم، فقد كان لي من الفطنة ما يكفي لأن أدرك أن هذا هو القبيل، زعيم الغيلان الحمر، الذي يناجز الأسود لإعادة الوريث ملكا. فأنباؤه تناثرت، حتى سمع بها كل رجل وطفل، وتغنى بها كل راجز وراع، وأسعدني أن ألقى الله في طريقي بعض ثأر أبناء عمي، فعرضت عليهم خدمتي، ومالي، وساعدي.

طلبوا مني أن أدلهم على طريق يركبون به البحر إلى البلاد الشرقية، فسرت بهم لأبعد مما كنت أظنني لأسير يوما! قدتهم عبر درب البلد الميت، لنذهب إلى طرابل برا!

كان هذا دربا مشهورا للقوافل قديما، تمر به من الشرق للغرب، ومن الغرب للشرق، تأتي عبره الغلال والأقمشة، وتخرج منه التمور والحجيج.

ولما تداعى الملك في بلادنا، أهمل الملك تأمين طريق القوافل البري، واندفع للزرقاء يغرف من ضرائب مينائها المزدحم. أما الدرب المهمل، فقد أقبل عليه قطاع الطرق ينتهبون، بعدما اطمأنوا من العقاب. فهجرت القوافل الدرب، وحينها انفض سكان البلاد والقرى القائمة حوله عنه، واتجهوا لحيث مضت

التجارة في الزرقاء وتخومها. ولما حدث هذا، أهملت آباره وردمت، ومات الطريق وما حوله من بلدان، حتى قطاع الطرق هجروه، ومضوا لغيره، فلم يعد يذكره إلا قلة من الأدلة والشيوخ.

وهكذا قدتهم عبر الدرب، من بلد ميت لآخر، ونحفر باحثين عن بئر مردوم هنا أو هناك، لنقطع الطريق المهجور بأمان رغم المشقة، وخرجنا من المملكة الممزقة، لنسير في الطريق البري أقودهم إلى طرابل، عبر تخوم تغلي بالحروب، بين قلاع خانات الأهبال، ومدن الفرنجة، ومعارك السور العليّ والصيادية، التي لا تنتهي. لكني رغم هذا وصلت بهم في مسيرة أيام قلائل من طرابل، وهو ما لم يقدروا على فعله دوني."

(٣٧)

نبأ ما أصابهم في الطريق إلى طرابلس

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"خرجت من داري وحيدا مأمورا، واليوم أخرج من كل المملكة أميرا على ستة أفراد! بعد أن عجزت حيلي، واهتز أملي أتاني واحد من البدو، من رعاة بني سلام، يقود عددا من عشيرته بحثا عن بعض التجار. كان اسمه الشيخ عمران، وكان رجلا طيبا بشوشا كريما. يعمل في تجارة قليلة، ورعي بعض الأغنام، وأحيانا دليل للقوافل والحجاج، فدلنا الله به للخروج من تيه الفجاج.

كان قد أدركنا من القنوط، فمد لنا يد الجود، وأغاثنا بكرمه، وحملنا على فضل ظهره، فلم يكتف بأن يكون دليلا لنا على طريق القوافل القديم، بل رافقنا إلى طرابل، وأعارنا من بعيره ظهورا نركبها، ومن نياقه لبنا نشربه، ومن نقوده نفقة تكفينا، وزاد على هذا أن سخر نفسه وأولاده الثلاثة في إمرتنا، ولغايتنا.

وهكذا، رغم طول الطريق ومشقته في أرض مهجورة، فبفضل هذا الشيخ السليمي، كان هذا أيسر آمن جزء في رحلتنا، فلم تظهر لنا متاعب إلا بعد أن دخلنا في تخوم السور العلي، حيث تجري الحرب بينها وبين الصيادية.

وهناك اعتقلنا جنود من كلا الفريقين أكثر من مرة، فكنا نخرج منهم بالرجاء، أو بالرشوة تارة، وبالقتال، أو الفرار تارات أخرى.

ثم قطعت جماعة من عسكر الفرنجة الطريق، فأجارنا واحد من الأهالي يدعى قسطنطين، ورغم إنه نصراني، إلا إنه كان رجلا دمث الأخلاق، يكره الفرنجة لكثرة فسادهم. وأخفانا في قريته وسط أهله بضعة أيام.

ثم مضى بنا الطريق بحلوه ومره، نتسلل في الظلام حينا، ونقتحم الظهيرة حينا، ومستعينين بالحيلة أحيانا.

فإذا تعرضنا لجند من الأهبال، فنحن تجار من العراق، نزور أهلنا في البادية، ولو هاجمنا رجال الصيادية، فنحن حجاج مغاربة، أما الفرنجة، فالرشوة تنفع، والفرار أنجع!

لكن أهم ما أصابنا أمران، أحدهما مع الفرنجة، والثاني مع الأهبال. فأما الأول، فقد كان عقب مغادرتنا لبيت قسطنطين بمسيرة يوم، طلعت علينا زمرة من قطاع الطرق، فناوشناهم. وأثناء القتال، صادفتنا تجريدة من عسكر الفرنجة، كانت تطلب

أولئك اللصوص فاعتقلونا معهم، وساقونا إلى أميرهم، الذي صادر كل ما معنا، وألقى بنا خارج حصنه.

وما كان لي أن أكمل الطريق دون مال أو زاد، والأدهى دون درع الغيلان، الذي قد يجلب لقلب الوريث الأمان، ليتبعني دونا عن باقي الأمراء السفاكين.

لذا تربصنا طول الليل، حتى خرج الجند في تجريدة أخرى عند الفجر، فتسللت مع غول الحق إلى ذخائر الأمير، فأخذنا ما أخذ منا، وفوقه بعض المال غنيمة. وإذا بالجند يدركوننا، قبل أن نخرج من الحصن، فأشعلت النار فيما حولي من قماش وحرير، والتهبت في لحظات كل نفائس الأمير، فأمر جنوده بهلع أن يرتدوا عنا لإطفاء الحريق، فخرجنا سالمين والحصن خلفنا جمرة من نار جهنم.

ولكن الخروج الظافر له ثمن، فقد طلبنا الفرنجة في كل مكان، مذهولين من أولئك الذين تجرءوا على حصونهم، وأشاع الناس أن غيلانا حمرا هاجمت الفرنجة، وانتشر الخبر بأسرع من البرق، فما نزلنا في بيت إلا وكان أهله يتسامعون بمجيء الغيلان الحمر إلى هذه النواحي!

ثم أتينا لطريق بين الجبال، أغلقه في وجوه الناس فئة من الروافض، فحاولنا شق طريقنا بينهم بالقوة، لكن القتال طال، وأتوا بالمزيد من جنودهم، فارتددت بمن معي، وأمرت أحد أبناء

الشيخ عمران أن يشيع بين الناس بوجود الغيلان الحمر في هذا المكان. فإذا بالفرنجة يسرعون في أقل من اليوم إلى المكان، ودار قتال عنيف بينهم وبين الروافض، وخرجنا من بين الفريقين إلى طريقنا سالمين."

(٣٨)

عند خانات الأهبال

"وهنا دخلنا لأراضي خانات الأهبال. لم نمض كثيرا إلا وقبضوا علينا، وساقونا إلى أقرب قلاعهم مسرعين. وما أن أتينا لباب القلعة، طلب أمير الجند الذي اعتقلنا بالدخول لسيده الخان قولاي خان، فلما سئل عمن معه، أسرعت بالمقاطعة قائلا:

"اسرع بفتح الباب أيها الجندي، فسيدك ينتظرنا، ولولا أمير الجند الأحمق هذا لما تأخرنا عنه كل هذا الوقت!"

فتح أمير الجند فمه ليتكلم، لكني أسرعت بالقول:

"أخبروا الخان العظيم إن رسل القائد الأسود أتت تطلب المثول بين يديه."

بهت الحرس، وأسرعوا للداخل، بينما وقف أمير الجند مندهشا، لا يدري ما يقول. أما أنا – الأسير - فقد أخذت أتكلم، وأرسل الأوامر، وأتحدث بثقة ونفاد صبر، فلم يجرؤ أحدهم على مراجعتي!!!

ونجحت حيلتي المجنونة!

كنت قد عزمت على أن أزعم كوننا رسل للأسود، مثلما ظن الناس بتيمور في الزرقاء. ومن حسن حظي، إن الأهبال كانوا ينتظرون بالفعل رسولا من الأسود! فأدخلوني والشيخ عمران إلى الخان في قاعته، فبدأت بالانحناء له والتحية.

"تحياتي أيها الخان العظيم من القائد الأسود."

رد علي متجهما:

"لقد أرسلنا إلى قائدك هذا، بلا رد."

الأهبال قوم عمليون، لا يضيعون وقتا في التحيات، والسخافات، ولا يتأثرون بألقاب التفخيم، التي يسبغها على نفسه كل فسل من أمرائنا! ونظرة واحدة للقاعة حولنا، تكفي لندرك هذا. مجرد أثاث بسيط، لا يزيد عما تجده في أي بيت ميسور الحال، يخلو من الزخارف والنفائس المعتادة في قاعات ملوكنا وأمراءنا.

على أي حال كان ردي على قولاي خان عمليا هو الآخر. أشرت لأحد الخدم، فأدخل تيمور حاملا درع الغول الأحمر، وانحنيت مرة أخرى، وقلت:

"تأخرنا قليلا، لأنني كنت أطارد زعيم الغيلان الحمر، وهذا درعه، أمرني سيدي بحمله لكم، وللخانات العظام، دليل قوته

وبطشه، وإنه لا يجرؤ على الوقوف ضده أحد، إلا من حاقت به المهالك."

قاطعني الخان:

"إلى آخره إلى آخره! ما يهمني هو إن هناك بالفعل غيلانا حمرا أعلنت التحدي."

سألته بحذر:

"لا أظن أن حدثا كهذا يهز الحلف المجيد بينكم وبين سيدي؟"

رد بسخط:

"نحن لا نخشى الغيلان، ولكن تكتم سيدك الأمر عنا يغضبنا! لقد عرفنا من أفواه العامة هنا بوجودهم، قبل مجيئك بزمان! رغم إنكار سيدك."

أحسست أنهم بالفعل قلقون من الغيلان الحمر، فأردت أن أطلق سهمي عله يصيب، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.

قلت:

"مولاي يعدكم بسحق الغيلان سحقا، وهم لم يعودوا بذي الشأن، ويؤكد لكم إنكم إن نصرتموه، فسيزيد لكم من مكافأته."

ونظرت لعينه، فقرأت في وجهه إنه فهم ما وراء الكلمات، وأنه يظن الآن أن الأسود يخشى حقا الغيلان، ويريدهم أن ينصروه عليهم. ربما يخوف هذا الأهبال، ويعوقهم في زحفهم قليلا.

قال لي الخان:

"لن أتخلى عن نصرة سيدك أبدا، لو أنه جعل لي نصيبا أكبر بعض الشيء. قل له أن قولاي خان يريد الثغر الصغير خالصا له، لا يشاركه أدشاي خان فيه. عليه أن يرسل أدشاي خان لأي بلد آخر، بعيدا عني."

لم أتصور أن تكون خيانة القائد الأسود مفجعة لهذه الدرجة، لم أتصور أنه وعد الأهبال بمدن وأقاليم كاملة، ألا فتبا له.

على أي حال، غادرت القلعة تحت حراسة جند قولاي خان، لأصل بأمان لقلعة حليفه، جواد خان، فذكرت له مثل ما ذكرت من قبل، مظهرا درع الغيلان، وغادرت قلعته منحرفا عن طريق طرابل، أبغي قلعة أدشاي خان.

وبينما كنت أحدث أدشاي خان بمثل ما حدثت به غيره، أظهر تيمور فطنة لا بأس بها. فقد تجاوب مع حديث الخدم، الذين يستنطقونه. وهذا فن من التجسس، برع فيه الأهبال كثيرا، حيث يصادقون الخدم بالخدم، ليعرفوا أسرار السادة، ولما كان تيمور في زي الخادم أمامهم، فقد سرب لهم كأنما بغير قصد قول قولاي خان، وطلبه الانفراد بالثغر الصغير.

كان أحد خدم جواد خان قد أخبره، حينما سأله عما يدور بين الأهبال من حروب، إنها لن تعيقهم عن نصرة القائد الأسود، حينما يزحف معهم لتدمير قلاع الغرب الحصينة، لأنه وعدهم بأراض تفوق بكثير تلك الأشبار، التي يتصارعون عليها هنا.

وظن أبشاي أن غنيمته الكبيرة ستضيع، وأدرك أن قولاي يضمر له شرا، فأحدثت حيلة تيمور حربا ضروسا بين خانات الأهبال، امتدت لقلاعهم جميعا!

(٣٩)

حكاية السدين العظيمين

"كان علينا، في طريقنا إلى طرابل، أن نبتعد عن معارك الأهبال، وجماعات الفرنجة، التي ترتزق من الحروب بينهم، لذا قادنا الشيخ عمران إلى طريق بأعلى الجبال، يقود للمدينة مباشرة. وكان علينا أن نصعد جبلين، يسميان بالسدين العظيمين. الأول يدعى بجبل الهالكين، والثاني هو جبل الضائعين. ولم تبد لي الأسماء مبهجة ومريحة لمن يرغب في صعودهما؛ لكنه هون الأمر علي، وحكى لي عن سبب التسمية."

٣٩- ١ (حكاية جبل الهالكين)

أما جبل الهالكين، فيزعمون أنه كان يعيش عليه غول عظيم. وحش ضخم يهبط من الجبل كل ليلة، ليصطاد البشر ويأكلهم. وكان له أعوان، وأتباع، وقصر كبير فوق الجبل، جعله مستقرا ومقاما لكل أعمال الشر.

وكان قد سخر في خدمته ساحر حقود، منغمس في الكفر، يتعبد ويسجد لشيطان مريد، ملك من ملوك الجن الأشرار، عليم بالسحر والكفار، يمده بالألاعيب واللعنات.

وذات يوم، قرر ملك طرابل تخليص بلاده من شر هذا الغول بنفسه، فسار بجيش ضخم نحو الجبل، وحاصره.

وأرسل الغول إلى خادمه، فطلب منه سلاحا عظيما، يسحق هذا الجيش الكبير.

وبحث الساحر الملعون في فنون الشر، وكتب القدماء، حتى عجز، فطلب معونة من معبوده الشيطان.

فمنحه الشيطان حجرا صغيرا، في حجم قبضة اليد، ذا لون أحمر، يعلوه بريق ذهبي عجيب، وقال له:

"هذا هو حجر الهلاك. ما أن ينظر له بشر، حتى تتعلق عيناه ببريقه الذهبي، فيملأه الجشع، وإذا ملأه الجشع، سعى للفتك بكل من حول،ه وبعدها يموت، ويتحول قلبه لحجر يشبهه.

أخذ الساحر الحجر فرحا لسيده الغول، لكنه احتقره واستهان به، وألقاه بعيدا وسط أحجار الجبل، وطلب من ساحره إعداد سلاح حقيقي جبار، يدمر العشرات.

وهنا التقطه واحد من الخدم، فنظر له. فإذا بالحجر يسلب ناظريه، ويحرك فيه الجشع. فذهب المفتون لسيفه، فاغتال

الغول والساحر، والتف حوله الأعوان فقتلوه. وانفطر عنه قلبه، الذي تحول لحجر جديد، أمسكه أحد الأعوان، فنظر له، فأصابه بمثل ما أصاب سابقه، وسرعان ما أخذ جند الغول يقتلون بعضهم بعضا، حتى هلكوا، لم يبق إلا آخرهم رجل واحد.

وحينما هجم جند الملك على القصر، لم يجدوا إلا هذا الرجل، فاستنطقوه ليعرفوا ما حدث، فحكى لهم عن حجر الشؤم هذا.

وعندها أصاب الملك الحيرة، لم يدر ماذا يفعل ليرفع بلاء الشيطان هذا عن مدينته، وبينما كان في حيرته أتته زوجته فسألته عما يهمه فقال لها:

"هذا الحجر القاتل، لو تركته في الجبل، فقد يأتي شخص ويناله، لينزل بالبلاء لمدينتي. ولو أرسلت جندا لجمعه، فسيهلكهم."

فردت الزوجة الحصيفة:

"دع عنك الهم يا مولاي، فالأمر بسيط. أرسل لجمعه أناس لا يستهويهم الذهب، ولا يحرق قلوبهم الجشع، ولا يقوون على الفتك."

فقال لها متحيرا:

"وهل يوجد مثل هذا بين البشر؟"

ردت:

"نعم! أرسل صبية صغارا لم يبلغوا الحلم بعد. فهؤلاء أصعب على الشيطان من الجند المجندة. ولو أصاب أحدهم مثل هذا الجنون، فلن يؤذي أحدا بضعفه وقدرة جنودك عليه."

فأرسل الملك كل صبية طرابل، يبحثون عن قلوب الرجال المتحجرة، فجمعها جميعا، وأحرقها في النار، وألقى رمادها في البحر ليتخلص منها.

ولكن قيل أن حجرا واحدا بقى ونجا. الحجر الأول، الذي أتى به الشيطان للساحر. فقد بقى في مكانه الأول بين أحجار الجبل.

ومن يومها، خرج عشرات الملوك يبحثون عن حجر الهلاك هذا، يرسلون العبيد والأطفال بحثا عنه، يبغون به تدمير أعدائهم، ومع مرور الزمن، أدرك الناس أنه لو خرج ملك لهذا الجبل، فإنما هو ينوي الحرب قريبا. لدرجة إن الأعداء والخصوم إذا عرفوا بزيارة غريمهم للجبل، يترصدون له، فيقتلوه وأصبح الذاهبون للجبل يهلكون دوما، فسمي بجبل الهالكين.

وقد قيل غير ذلك، وإنما كان بالجبل معبد قديم، من أيام الكفر، يحج له ملوك طرابل قبل الحرب، يستعينون بقوى الشياطين التي تخدمه، ولكن تلك القصة منبوذة عادة بين الأهالي.

٢-٣٩ (حكاية جبل الضائعين)

كان جبل الهالكين سهلا في تسلقه، والنزول منه، رغم إنني لم أعتد هذه الجبال العالية، ذات القمم المثلجة. لكنه كان أيسر بكثير من جبل الضائعين، الذي كانت أحجاره خشنة، وتربته مفككة، تنزلق من فوقها بسهولة.

وحكى لنا الشيخ عمر حكاية هذا الجبل. فقد قيل إنه كان يعيش فيه راعية للغنم، فتاة هادئة، على قدر من الحسن، تعول أسرتها، بعدما قتل أخوها في تهمة سرقة، اتهم بها أحد النبلاء أهل قريتها.

وذات يوم، شاهدها ابن أحد الأمراء، وهي ترعى الغنم وحيدة في الجبل، فظنها فريسة سهلة، واشتهاها.

لكن الفتاة قاومته بشراسة، وهوت عليه بعصاها، حتى أجبرته على تركها. ثم أسرعت للمدينة، تستغيث برئيس الشرطة.

ولأن المجرم ابن أمير، فقد طردها شر طردة. فذهب عن ابن الأمير القلق، وزاده هذا البطش جرأة، فأعاد عليها الكرة، ليجد خنجرها في انتظاره، قد زاده الظلم حدة.

دفنت الفتى، وهربت عندما أتى أهله يطلبونها للثأر. فصعدت لأعلى الجبل، وهم وراءها متعطشون للدم. لكنهم حينما وصلوا لقمة الجبل لم يجدوها.

كان هناك نبع ماء لم يره أحد في المكان من قبل، وعندما حاول أحدهم أن يدس رأسه في الماء، ينظر بحثا عن الفتاة أتكون غرقت فيه، انحسر الماء بعيدا عنه، وارتجف، وعلا فوق الرؤوس منذرا. فتراجعوا حائرين، ونزلوا من الجبل متحيرين.

وأرسل الأمير رجالا آخرين، يبحثون عن قاتلة ولده، فما وجدوها، ولا وجدوا الينبوع المزعوم.

وهنا أتى أحد الأولياء، فقالت إن الفتاة زارته في المنام، وأنها لكونها بريئة، فقد فتح لها في الينبوع بابا للجنة، مرت عبره.

وزعم أحد العرافين للقوم إن هذا الجبل - فيما يقول الأقدمون - ينبوع الشباب الدائم، وأنه حتما هو ما رآه الناس الباحثين عن الفتاة.

ومن يومها، يخرج للجبل المئات، إما مظلوم هارب مصدق للوليّ يبحث عن باب الجنة، أو طماع عجوز مصدق للدرويش يبحث عن الينبوع!

(٤٠)

الوصول إلى طرابلس

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان:

"كنت منهكا، أشعر كأنما مائة رجل اجتمعوا عليّ، بمقارع من حديد، يدقونني. ليس من السهل صعود جبل الضائعين، ولا من اليسير النزول منه.

لكننا فعلناها، حقا فعلناها، وأصبحنا على مشارف طرابلس. لبثت - رغم لهفتي - ثلاثة أيام بعد النزول من الجبل، استجمع قوتي، زاعما لأصحابي إنني انتظر قليلا حتى تخفت أنباء وصول رسل الأسود للأهبال، حتى لا يخشانا الناس يظنوننا هم.

ثم ذهبنا لقرية قريبة من طرابلس، نتحسس الأنباء فيها أولا، وأهل القرى عادة أقل حذرا وحرصا في الحديث من أهل المدن، الذين اعتادوا الحروب، والحصار، والجواسيس. فعلمنا أن أعدادا من الأمراء، والمماليك، والقتلة المأجورين توافدوا طوال الشهور الماضية على كل القرى حول طرابلس، يتحسسون الأنباء، ويسألون عن الوريث. ورغم أن حاكم المدينة أغلق أبوابها

في وجوههم، لكن بعضهم تسلل لداخلها، وقبض عليهم الحرس، فألقوهم خارجها بعد تجريسهم.

وكما توقعت، نال المتآمرين خيبة أمل عظمى، عندما سبقوا في الوصول، ثم وجدوا أنفسهم متحيرين، لا يدرون عم يسألون! لو كان بالي رائقا، لقضيت وقتا في الشماتة. لكني اليوم أتعرض لمثل اختبارهم، لا أدري أأستطيع الوصول للوريث، أم أرتد خائبا مثلهم.

انتقلنا من القرية تجاه المدينة، وحذرنا بعض التجار من وجود الكثير من الرجال الخطرين حولها، فيبدو أن الأمراء عندما ارتدوا على أعقابهم خائبين، خلفوا وراءهم عددا من المرتزقة الشرسين، الذين أخذوا يحومون حول المدينة بحثا عن أي أثر للوريث طمعا في مكافآت مرصودة.

كما علمنا أن سفارة من القائد الأسود، رفض الحاكم إدخالها للمدينة، بقيت كامنة في الجبال، متربصة، تراقب الطرق من جهة الجنوب المؤدية إلى البحر.. لحسن الحظ إننا أتينا من الشمال برا، وإلا لعلم الأسود بوصولنا.

وأخيرا طالعتنا أسوار المدينة العتيدة، التي راوغتني كثيرا!

أخيرا نحن داخل طرابل! يـــــــــــاه! كم كانت تبدو لي بعيدة، كما لو كانت في آخر الدنيا! لقد ظننت أنني لن أصلها

أبدا، وأن طريقها لا ينتهي! لكنني الآن في قلبها أخيرا، ولله الحمد.

بحثنا عن بيت ننزل فيه، فاستأجرنا حجرة قريبة من مسجد المدينة الكبير، لدى تاجر يهودي. ولبثنا أياما نتردد على السوق، مثل كل التجار، ونواظب على الصلاة في المسجد، حتى ألفنا رواده. ولما أحسست أن الناس قد ارتاحت لنا، وزال التربص من عيونهم، ذهبت للإمام عقب صلاة الجمعة، أسأل عن الشيخ زعفران، الذي أخبرني الحكيم وهدان إنه من آوى الأميرة سارة.

دلني على منزل أكبر أبناءه، وكان اسمه سلمان. ويعمل كاتبا في قصر الحاكم. واطمأننت لأمري، إذ لم يشك أحد في، وعلمت أن صيادي الأسود بعيدون عن سلمان هذا، لم تصله ريبتهم.

وهكذا سرت في الشوارع الضيقة للمدينة نحو هذا البيت، مرتديا درع الغيلان، وقد دثرته بعباءة أثقلها الحر على أكتافي، حاملا رمحي الجديد، ومجمعا أشتاتي، وأحاول التفكير فيما سأقوله.

كيف أقنعهم بتسليمي الوريث؟ طوال رحلتي الطويلة أقنعت الكثيرون بكذبات متقنات. اليوم عليّ مهمة أشق وأصعب، وهي إقناعهم بصدقي!

وصلت للسوق المزدحم، ومنه إلى الزقاق المجاور لقصر كبير، وفي نهايته لاح لي الباب.

وقفت أمام باب دار سلمان، لا أدري ماذا سيحدث.

لحظات انتظار ليست كأي لحظات.

ترى كيف هو الوريث؟ هل هو حي أصلا؟ هل سيصدقونني ويأتمنون لإخلاص نواياي؟

فتح الباب لنا.

الآن، في هذه اللحظة، انتهت رحلة الذهاب الطويلة.

والله وحده يعلم كيف سيكون الإياب.

(٤١)

في بيت سلمان

"فتحت لنا جارية حمقاء الباب. وما أن رأتنا، حتى أسرعت إلى الداخل تصرخ في فزع!

بدا القلق على تيمور، فأشرت له أن يثبت مكانه. وانتظرنا حيث نحن أمام الباب المفتوح هادئين. ثم أتانا شاب صغير، فبادرته:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أخا الإسلام."

نظر لي بجمود، قبل أن يرد السلام ببطء، ويقول:

"هل تريدون أمرا ما؟"

رددت مبتسما، بأقصى ود أستطيعه:

"نبحث عن سلمان ابن الشيخ زعفران."

لم يرد في البداية، ولمحت يده تتحرك من خلف ظهره، وظهر جزء من مقبض سيف، يحاول إخفاءه عنا.

فأكملت بهدوء:

"أرجو أن يكون بخير."

لاذ بالصمت مرة أخرى، لكن فزع أهل الدار طمأنني بأنني أصبت المراد أخيرا.

حتما هناك وريث، وهم يحمونه. بل لعل هذا الشاب هو ابن الوريث الأمير البطل، الذي سيقاتل الأسود إلى جوارنا.

وانتزعني الشيخ عمران من أحلامي، فقال بنفاد صبر:

"يا فتى أتينا من رحلة طويلة. على الأقل هناك حق الضيافة لنا عليك. أين والدك لنحدثه؟"

بدا الحرج على الشاب، ثم لم يلبث أن قادنا لحجرة الضيوف، فأجلسنا فيها، وخرج مغلقا خلفنا الباب بإحكام، وانتظرنا ونحن نسمع صليل السيوف، كلما مر أحد قرب بابها.

وأخيرا أتانا سلمان هذا.

ألقيت عباءتي من فوق،ي وقدمت نفسي له:

"أنا القبيل زعيم الغيلان الحمر، وهذا دليلي الشيخ عمران من بني سليم، وهذا ساعدي الأيمن غول الحق."

ثم أشرت لتيمور وقلت:

"وهذا شخص من ساوة."

نظر له سلمان باهتمام، نزل على قلبي بردا وسلاما، وقال:

"سمعنا بنبأ عن الغيلان الحمر، وحربهم مع الأسود؛ ولكن لا أدري ما شأن هذا بشخصي الضعيف؟"

قلت:

"هذا هو تيمور ابن زهير ابن تيمور العلاف."

وصمت للحظة أرقب وقع الاسم عليه، ثم أكملت:

"أتينا بحثا عن وديعة، كانت عند الشيخ زعفران. وديعة لها حق القربى عند أهل ساوة، وحق النصر عند الغيلان الحمر."

قال بقلق:

"وما أدراني بصدقكم؟"

قلت:

"لو كنا من الغربان الصيادة، لما أتينا نطلب الضيافة، ونلوذ بالصبر في انتظارك، بينما يتسلح كل أهل البيت! ولانتهزنا فرصة الباب الذي ترك لنا مفتوحا، واقتحمناه عليكم. ومن غير الغول الأحمر سيزعم إنه كذلك؟"

بدا عليه التردد، فأكملت:

"لعلك سمعت بما وقع بيننا وبين الفرنجة، وبأن الأهبال يطلبون رأسي. أي مجنون ينتحل شخصا محكوما عليه بالقتل؟ ومن غير أهل ساوة، سيعلم بنبأ الشيخ زعفران؟"

التقط نفسا عميقا قبل أن يقول:

"أتقسم على ما تقول؟"

قلت متحيرا:

"وما يغني القسم إن كنت ممن يستمرءون الكذب؟" ثم أقسمت له ثلاثا إنني لا أبغي بالوريث إلا الخير، وكذا فعل من معي.

قال لنا:

" أتعلمون أنني أعمل كاتبا في ديوان القاضي؟ أعلم جيدا، من طول ملازمتي للمتخاصمين، كيف أفرق بين من يقسم كذبا وهو متردد، وبين من يقسمها بلا وجل لاعتياده على اليمين الغموس، وبينهما وبين من يقسم صادقا مخلصا.

منذ يومي الأول في هذا العمل، تعرضت للمقسمين الثلاثة، وطالما رأيتهم يتكررون أمام عيني، حتى خبرتهم، وعلمت أن حلفهم لا ينفعهم ولا يداريهم."

(٤٢)

حكاية المقسمين الثلاثة

يقول سلمان الكاتب ابن زعفران:

"كان هناك تاجر من السور العلي، اشترى بضائع من أحد تجار طرابل بالأجل، وتخلف عن دفع باقي ثمنها، فأتاه يختصمه عند القاضي. ولأن البينة على من ادعى، ولم يكن هناك شهود فقد ألقى القاضي باليمين على المنكر، وهو تاجر السور العليّ.

أقسم إنه قد سدد الثمن كاذبا، لكنها كانت كذبته الكبرى الأولى وقال لي القاضي:

"انظر كيف يتعثر لسانه في عراقيل ضميره؟ لكنها شهوة المال يا سلمان! وما كان لنا أن نقضي بغير البينة."

عاد التاجر لبلاده فرحا بالغنيمة، فإذا بالأهبال يعترضونه، فسلبوه الغنيمة وروح حاملها!

وأما الثاني فكان حمالا في السوق، احترف الكذب، واعتاده ليسرق الناس. أتى يقسم بغير وجل، وقلب ثابت، فمال علي القاضي يقول:

"أترى يا سلمان؟ روحه ماتت من كذبه، فتجد قسمه باردا ميتا مثلها."

وما كان قسمه لينفعه، لشهرة كذبه، وسوء أخلاقه. فقبل القاضي فيه شهادة الشهود، وقطعت يده حدا.

وأما الثالث فاتهموه بسرقة ناقة خصيم له، كان بينهما ثأر، أكاد أقسم إنه كان ينوي الاعتراف بالجرم تباهيا، ونكاية في عائلة خصمه، لكن القسم أهابه، فأقسم إنه لم يفعل ورغم شهادة الشهود الزور، إلا إنني أحسست بصدقه، فأوصيت القاضي بالصبر والتثبت. وأرسلنا الجنود يتحرون، فعثروا على الناقة في سوق الجمال، لدى تاجر آخر!

(٤٣)

وديعة الوريث

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"أخذ سلمان قسمنا وصدقه. ثم سألنا عن أخبارنا، وأحوال بلادنا، فعددت هذا علامة طيبة، وأنه سينقل قولنا للوريث. ثم سألنا:

"وماذا ستفعلون إن وصلتم لما تبغون؟"

قلت بحماس:

"ندافع عن الوريث قدر استطاعتنا، ونحميه بأرواحنا، حتى يصل لبلاده، ويأخذ ميراثه وحقه، على أن يعاهدنا أن يكون حاكما عدلا، يقف ضد الفرنجة والأهبال."

مط شفتيه، وبدا عليه التفكير الشديد، ثم قال:

"لا أستطيع نفعكم اليوم. والأمر يحتاج لتبيان، واستيثاق، ومشورة. ائتوني غدا بعد صلاة الظهر، في مجلس القاضي بقصر الحاكم."

رحلنا مستبشرين، تحفنا السعادة، والإحساس بالنصر! أقول لكم إنني قضت ليلتها في احتفال هادئ مكتوم، لكنه مبهج، مع تيمور وعمران وغول الحق. ومضت عليّ اللحظات ثقيلة، ولم نطق صبرا، حتى أتى الميعاد، فسارعنا لقصر الحاكم متلهفين. وأدخلنا الحرس، بعد تفتيش وتمعن، وسألنا عن سلمان، فقادونا لمجلس القاضي، الذي ما أن رآنا، حتى أمر بصرف الناس، وإخلاء القاعة.

نظر لنا القاضي بعين ثاقبة وقال:

"ما شأنكم؟"

قلت بقوة:

"أتينا نبغي عودة آخر أمراء بيت ملكنا إلى بلادنا، ليحكمها."

قال:

"أليس بينكم من يحكم غيره؟"

قلت:

"لم ينل الميراث غيره، ولم ينل الولاية من الخليفة غيره، وما بقي غير القائد الأسود، يعيث في الأرض الفساد، ويسلم الثغور

للفرنجة والأهبال. لكن الكثير من الأمراء، والشيوخ، وحتى العوام، اتفقوا على أن يبايعوا ابن الملوك، وسليل الخلفاء."

قال ساخرا:

"الأمراء والشيوخ والعوام، الذين تتحدث عنهم، هم من خرجوا يطلبون رأس كل أمير في بلدك، حتى لم يبقوا إلا على سارة المسكينة."

قلت:

"كان هذا عهد رعب ودمار، وأيام جاهلية، ولأقلها صراحة، فلم يكونوا ملوكا عادلين. لم آت لمبايعة الوريث ملكا، وإنما أتيته لأبايعه، بشرط الحكم بالعدل، وشريعة الله."

صمت القاضي، وأشار لأحد الحجاب، ففتح بابا صغيرا خلف مقعد القاضي، ليدخل منه شخص جليل، يرتدي ثيابا غالية، ويبدو عليه النعيم والهم معا.

كان هذا هو حاكم طرابلس بنفسه!

وكان يحمل صندوقا من الصدف، فتحه ليخرج لنا منه لفافة، وضعها في يدي، وقال:

"قلت لسلمان إنك أتيت تسأل عن الوديعة؟ هذه هي الوديعة التي كتبتها الأميرة سارة، تخشى أن تموت، فلا يعرف وليدها أباه، وحكايتها معه. لك أن تقرأها."

فضضت اللفافة، لا أدري ما أهميتها، وما نفعها بشأني، وبدأت أتلو ما بها بصوت عال، ليسمعني رفاقي."

(٤٤)

حكاية الأميرة سارة

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"قرأت ما كتبت الأميرة سارة، فإذا بها تقول:

"كنت ضائعة في قصري. مفقودة لا يبحث عني أحد، لا أعلم شيئا مما فيه، ولا يدري بي أحد ممن فيه.

كنت فتاة ولدت في قصر أمير. يا للتعاسة، فهي لا تملك من الجمال شيئا، تميل به قلوب الرجال. فكنت لوالدي، الأمير الثري عدنان، تجارة راكدة. لا أنا بالولد، الذي يعينه، أو بالجميلة، التي يزوجها لحليف ينصره.

بين نساء القصر، كنت ابنة الجارية. وكانت تلك الجارية، ببصيرتها النافذة، تحس بمصيبتي، قبل أن أدركها. لذا، فعندما كنت أشكو لها عسري في القراءة، تقسو عليّ، وتقول:

"يا بنية. ليس لك سواه. يجب أن تكتبي، وتقرئي، وتتعلمي."

أرد والدموع مرة في فمي:

"لم يا أماه؟ أنت لا تقرأين، وحتى مولاتي، الأميرة فاطمة، لا تقرأ."

كان علينا أن نخاطب زوجة أبي بمولاتي دوما، سواء كنا عبيده أو أبناءه من غيرها.

ترد أمي بحزم:

"يا ابنتي اعلمي قدرك. بين الأميرات، أنت بنت الجارية، وبين النساء قبيحة، ولن تنالي من مال أبيك شيئا، طالما كانت فاطمة وأبناؤها أحياء. لا أملك ما أحفظك به من الضياع إلا هذا. هم أهملوا العلم، فعليك بغنيمته."

كانت أمي ترجو أن تراني خيرا من أقراني. لا أدري هل أملك من الذكاء نصيبا أم لا؛ لكنني حتما لا أطاول عقل فاطمة الجبار، ومهما فعلت، فسأظل في القصر مجرد فتاة. فتاة أدنى من إخوتها نسبا وجمالا.

تلك كانت قيودي، وهذه كانت أمي تحاول أن ترفعها عني. كانت العبودية تحرقها، فترغب في جعلي حرة. حرة من الجهل، ومن ضعف الأنوثة، ومن الحاجة للئام لن ينصروني. فتنظر حولها بقلة حيلتها، فلم تر إلا مؤدب الأمراء، الذي لهت عنه أخواتي، وعصاه، التي توصيه باستعمالها كلما أخطئت!

وهكذا، طوال ما كان من حياتها القصيرة، مضت طفولتي في قصر أبي. وقبل أن أغادر أطلال الطفولة، أتى الهول يحرقها.

يزعمون أنه لولا الأهبال، وزعيمهم المسمى بالهول، وسيفه الذي كان يفتك بعشرة فرسان بضربة واحدة، لمضى ملك أبائي دهورا أخرى.

لكن هذا في علم الغيب. إذ أذكر من شظايا الطفولة، تلك الكلمات عن إن الملك قد أصبح وحيدا، لا يقيم ملكه إلا على حفنة الغيلان الحمر، التي تجاهره بعدم الإخلاص، وتعلن على رؤوس الأشهاد، إنه يوم يأتي زعيمهم ليتبوأ العرش، فلن يجد من يقف دونه، لأن حتى الملك، لا يملك إلا جماعة الغيلان الحمر.

عهد عجيب هذا الذي بين الملك وتلك الجماعة. يساعدوه على الحفاظ على ملكه، على أن يأخذوه لأنفسهم حينما يريدون. لم أفهم في حمق الطفولة المغزى، فقد كان الملك لنا مخلوقا مخيفا جبارا. كان قوة مهولة ترهب آباءنا. الأميرة فاطمة تفزعني، لكنها تفزع من الملك!

أذكر حينما كنا نجتمع لوليمة، كنا الأطفال نحتشد للهو، لا فرق بين أمير وخادم، أو بنت ملكة وبنت الجارية، إلا الشهابي.

عندما ننظر له، ونقترب منه لندعوه معنا، ينهرنا آباؤنا ويقولون: "إلا الشهابي. هذا ابن ولي العهد، وسيرث الملك يوما".

لكن حينما تتابعت الخطوب، ظهر إن هذا الملك العظيم، ليس إلا رجلا عاجزا أحمقا، استعان بأعدائه على إخوته، علهم يؤخرون ساعته، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

كنت ألهو كعادتي في برج القصر، أكسر في بعض من أطباق المطبخ! وأرمق زهور الحديقة البديعة، أرنو للهو فيها، إن سمحت لي مولاتي فاطمة.

متى كان الوقت؟ أظنه ساعة احتضار الشمس، حيث كانت السماء تبكي. وأظنها تبكي على النهار الصريع، بينما البكاء العظيم يتأهب لغزوي.

سمعت صخبا وجلبة، فنظرت من النافذة، لأشاهد مشهدا بدا لي مخيفا.

أعداد كبيرة، وحشود غاضبة تصيح بالمقت والبغض، وهي تحاصر البيت.

لا أدري ماذا فعل أبي ليغضبهم. لم أفهم لم بدا لهم الكره فضيلة، فلم يكن عقلي ليستوعب مثل هذا الحقد، الذي ولد من الظلم ليلد الظلمات.

وجدت هرجا ومرجا، وسمعت ولولة وصراخا، بينما العبيد والجواري يجرون في رعب لا أول له ولا آخر.

كان الناس قد نصحوا أبي بالهرب بنا، لكن نفائسه لم تهن عليه، وجواهره أثقلت قدمه. فأمر بالصمود، وأرسل يطلب عون فرقة من الغيلان الحمر.

قالوا له: "لن يصلوا اليوم أبدا، وليس عندنا من طعام يكفي حصارا، ولو لليلة".

فأمر بإطلاق كل الجواري والعبيد.

هكذا ببساطة، طرد حيوات كثيرة لذئاب الموت الجائعة. دوما ما كانوا يتجاهلونني، لكنني لم أتصور أن ينتزعوا مني أمي، ويلقونها خارجا.

ترى هل ظنهم الثوار جنودا يطلبونهم، أم أن الحقد أعمى القلوب والأبصار، فهاجت الفئوس والسيوف، لا تطلب إلا اللحم الممزق.

وأمام عينيّ الذاهلتين، رأيت طوائف الجواري، اللاتي عشت بينهن، تؤكل صفا تلو الصف، وأمي تصرخ بقلب بي معلق، وعين على أخوتها دامعة، ويد لنجدتها عاجزة.

لا أدري ما حدث. آخر ما أذكره مشهد أمي ترفع يديها، فلا أدري ألتستعطف الظالمين، أم لتتقي السيوف، أم لتدعو رب المستضعفين.

وأفقت على نفسي أعدو خارج القصر، بل مبتعدة عنه. يغمرني العرق، وتتقطع أنفاسي تعبا وفزعا.

أهربت، أم حملتني الملائكة فوق الجموع؟ لعلها دعوة أمي الأخيرة أن أنجو، وليس بين الله ودعوة المظلوم حجاب.

وجدتني في ساحة لا أعرفها، فنظرت خلفي، لأرى برج القصر الذي كان مثوى لعبي ومرعى طفولتي يحترق، فقلت مذهولة:

"بيتي. بيتي يحترق. وابيتاه!"

فعرفني أحد المماليك، فهتف بمن معه:

"تلك عدنانية، فافتكوا بها."

تصلبت في مكاني، لا أدري مهربا، وربما لا أريده. لكنهم لم ينالوني أبدا.

كانوا جماعة من الغيلان الحمر استنقذوني من بينهم، وأعملوا فيهم السيوف والرماح، كأنما هي نار تحرق جنودا من أوراق.

قبلها كنت أكره الغيلان كثيرا. أصحاب الوجوه العابسة، والأصوات الصاخبة، الذين يخطفون الأطفال من أهلهم، لا أدري لعلهم يأكلونهم!

لكن تلك الزمرة كان بقلوبهم شيء من السماحة، وبأحدهم من الشفقة ما يكفي لنجدتي، قائلا لأصحابه:

"أرأيتم تلك الفتاة التعسة. قالت وابيتاه، وليس واقصراه.
حزنت على السقف الذي ظللها، بدلا من القصر الذي أمتعها."

رد آخر:

"دعك منها ولنمض."

فرد عليه:

"وبأي ذنب تقتل تلك البريئة، التي لم تبلغ من العمر ما تحبس به الذنوب؟"

رد عليه زميله:

"ما ذنبها! إنها أميرة."

قال الأول:

"أميرة؟ هي مجرد فتاة صغيرة، لن ترث من الملك الذي ضاع شيئا يا إخوتي."

كان الغيلان ينادون بعضهم بعضا دوما بالإخوة، لا أدري لم. حينما كنت أصغر سنا، كنت أتساءل عن هذا الأب، الذي أنجب وربى كل هؤلاء!

لكن أخوتهم الغامضة تلك قد احتضنتني، بخير مما فعل أبناء أبي رحمهم الله.

مضوا بي متحيرين، وأحدهم يقول، وهو ينظر للقصور المنهوبة حولنا:

"ها قد ضاعت البلاد. واأسفاه! لو علم الغول الأعظم بنبأ تلك الفوضى! كم يكره التفلت، فإذا به قد فاض على كل ما عداه."

رد عليه زميله:

"أتظن ذلك؟ قد كان من أكبر الساعين لهذه الفوضى. ألم يضعف شوكة الملك، ثم أعانه على خصومه. اليوم إذ يغزونا الأهبال، لم يجدوا من يردهم، فضاع كل شيء، ومعهم الغول الأعظم نفسه، هو والقادة السبعة."

قال الأول:

"أتصدق تلك الأنباء؟ أحقا قتله الأهبال؟ يزعمون أن كل إخواننا سيخرجون للثأر من الهول وجنوده."

تدخل شخص آخر في الحديث، وهو يسأل بصوت يقطر سخرية:

"أي إخوان؟ الذين اسموا أنفسهم بالمولودين؟ قد اشتد عودهم وخروجهم، حتى لأزعم أنه لم يعد في الغيلان غيرهم، هم ومن وقع في حبائل مكرهم. إن هو إلا وقت يسير، حتى يخرجوا عن نهج القادة السبعة، ويمزقوا كتاب الشجاعة."

رد عليه بصرامة، هذا الرجل ذو الشفقة، الذي رأف لحالي:

"الغيلان واحد، وإن هم شقوا، فلا تشق أنت عنهم. لو بقينا هنا فلن يهمنا من هذا الأمر شيئا، لأن الهلاك حولنا. لنعقد أمرنا أولا، ونعرف ماذا نحن فاعلون."

رد عليه هذا الساخر:

"وهل بأيدينا غير أن نخرج الفتاة من الحاضرة، وندفعها إلى عجوز فقير تنتفع بما عليها من جوهر وحرير، وتنفعها بالمأكل والمأمن؟"

وهكذا مضينا نخرج من المدينة، التي يحرق سوادها بعضه بعضا. وكل حين وآخر، يبرز لنا جمعا من سفاكين، أو نهابين، أو من المماليك المتعطشين للدم، لكنهم يفرون سريعا ما أن تظهر لهم دروع الغيلان الحمراء.

وعندما توغلنا في الليل، انتحوا معي جانبا من أطلال قصر متهدم، لم يبق فيه ما يسلب، لكي ننال الراحة. لكني ما نلت منها شيئا، إذ انكمشت على نفسي في ركن حقير، انتظر أمل الفجر بصبر نافد.

وأتت شعلة الفجر أخيرا. وعقب الصلاة مباشرة ارتحلنا، فإذا بي أراه أمامنا.

كان مرتجفا باردا مترددا، يقدم رجلا ويؤخر أخرى. ينظر برجاء للغيلان، وبخوف لأسلحتهم. عرفته ولم يعرفني، فهتفت عليه:

"يا شهابي. إلى هنا. هلم فسيحموننا."

نظر لي الغيلان مبهوتين، وقال أحدهم:

"الشهابي؟ أتعنين ابن ولي العهد الأمير الشهابي؟ أنجا وسط كل ها؟ يا للعجب!"

التفوا حولنا، يتداولون مصيرنا، فقد كان أحدهم شديد الغضب وهو يقول:

"أخذ الشهابي معنا هو دعوة لقتلنا. إنه الموت لكل من يرافقه!"

رد ثانٍ:

"بل علينا إنقاذه."

-"تالله قد أصابك الخبال. إن رؤيته مع الغيلان أشد خطرا عليه وعلينا من رؤيته وحيداً. قد أنقذه الله حتى الآن، فليس لنا من الأمر شيء."

- "بل ساقه الله إلينا لنحميه. لا نكون غيلانا حمراً. بل لا نكون رجالا، إن تركنا الصبي يقتل. أنت غول لا تخشى شيئا ولا تهاب أحدا."

- "تبا لك ولشفقتك. ألم تسمع بأن لنا إخواننا، قتلوا غلماناً لأن آباءهم ثاروا علينا؟ ليس من واجبات الغول أن يحمي طفل الهلاك هذا."

- "ليس من شأننا أن نتبع هؤلاء في جريرتهم. قد أقسمنا على حماية الملك وأهله، لذا فقد أتانا يرجونا بقسمنا، فما لنا أن نحنث فيه."

حسم هذا الأمر، وإن لم ينهِ بكاء الشهابي، الذي سمعهم وهم يتناولون موته وحياته. لكن قلوبهم رقت له، كما رقت لي. فإذا بهذا الغاضب يقول:

"غلام وفتاة. لعله تدبير من القدر."

وأخذوا يتداولون عن الجهة التي يذهبون بنا إليها، فتكلم الصبي فورا:

"إلى ساوة."

نظروا له مستنكرين وقالوا:

"ساوة؟ المدينة وحصنها سقطت من زمن. أما الواحة فما شأنك بأهلها، فهم لن يحموك."

قال:

"واحات ساوة لنا بها نسيب، وعدنا بالمعونة ما أصابنا خطب."

ردوا:

"أمك رومية فأي نسيب هذا؟ ما سمعنا بأنسباء للملك في غير الحاضرة. وما بالك إن كان من الفلاحين."

قال باكيا:

"لا أعلم أحداً غيره. فلنذهب إلى ساوة. هو تاجر يدعى تيمور العلاف، وقد تزوج أميرة، فنزع عنها جدي الإمارة، فقال له إن حق النسب مكفول لا يضيع."

قالوا محذرين، وشبه مستهزئين:

"الطريق يا فتانا طويل، والخطر متربص، وسنمكث كل حين في مخابئنا أياما دون طعام أو شراب، لا نتحرك وسط الصحراء، حتى نصل آمنين. وبعدها سيتتبعونكما حتى هناك."

قال:

"ليس لي غيرها. لا أعلم أمراً آخر."

قالوا:

"هو غلام لا يعلم أمراً آخر. إن كان يسعى لهلاكه، فهذا شأنه. هي ساوة إذًا."

وهكذا مضوا متململين متذمرين، وقد بدت دروعهم الحمراء الثقيلة أثقل من الجبال في صهد الصحراء. ولم يكن الطريق باليسير، لكنهم أحسنوا تفادي خطره، فلم نلق حرباً أو قتالاً،

وإن كثر منا الفرار والتخفي. تنقلنا كثيرا بين القرى والواحات الصغيرة، وحدنا عن الطريق أكثره، حتى أتت إلينا ساوة.

وسبقتنا إليها أنباء مظلمة متتالية، عما أصاب البلاد من فتن وحروب وخراب.

ووصلنا إلى ساوة، لنجد حالها لا يختلف كثيرا، فقد فجع تيمور العلاف في زوجته زهيرة، لكنه رحب بنا، وآوانا بين أهله، لأعرف في حياتي السعادة الحقة.

وجدت ساوة واحة خضراء جميلة، ذات حجم مهول، بها آلاف النخل، الذي يسقى من عشرات الآبار والعيون، وفي شمالها أراض فسيحة، تزرع شتاءا على المطر، لتتحول إلى بساط أخضر بديع.

وهنا في ساوة عرفت معنى اللطف والكرم، الذي جملته بين أغنياء القصور. لا يعيرني أحد بأمي الجارية، أو يقيدني أحدهم بأبي الأمير. وكان لي بين النساء شأن كبير. إذ كنت أجيد القراءة والكتابة، وهو أمر نادر بين الرجال، وفريد بين النساء. فإن رغبت امرأة فيمن يكتب لها، أو يقرأ، وما كان لها أن تدخل غريباً عليها، فقد كانت ترسل لي، وتنفحني تمرات شهيات، أو قطع حلوى لا مثيل للذتها.

قبل أن يحنون علي قائلات:

"أميرة يتيمة مظلومة، من نسل الخلفاء، هاربة فقيرة. عجبا لشأنك."

فتعود لي ذكرى أمي، فلا أمسك عينيّ عن دمع ذكراها.

وكبرت بينهن، لا أسمع إلا قولهن:

"سارة للشهابي، وليس للشهابي غير سارة."

وهكذا أصبحنا. لم يكن لأحدنا غير رفيقه. هل أزعم إنني عشقته؟ لا أدري لكن ما كان بيننا أسمى من الحب، وأقوى من الشهوة. كان بيننا الإخلاص لا يفتر، والارتباط لا يفصم.

كنا كل شيء للآخر في هذه الحياة، لأن كل شيء آخر قد فقدناه.

فكان زواجنا حتما مقضيا.

ورغم إننا قضينا هذا (الزواج) في لهو طفولة طالما حرم منه الشهابي. فإن تأخر حملي، لم يشغل بال أحد. فقد كنت العروس الوحيدة التي لا تنشغل الألسنة بنهشها لهذا الأمر. فسارة للشهابي، وليس للشهابي غير سارة!

عشنا معا في رحلة واحدة، ومكانتنا بين أهل الواحة تعلو. أصبح الشهابي محفظاً للقرآن لرجال الواحة، فقد أجبره رجالها على هذا، بعد أن أجبرتهم نساؤهم على إجباره على هذا، لكي يحفظني، وأصبح أنا قارئتهن، محفظتهن أيضا!

إنها البذرة، التي زرعتها أمي بين القصور، قد أورقت، لتظللني بين بيوت الواحة الطينية. فها أنا وزوجي، حاملا لواء القرآن لألقى تبجيلا لم أر عبيدا يقدمونه للملوك.

لذا، فحينما أتت الخطوب، لم أتعجب إذ افتدونا بدمائهم.

كان حملي بالكاد ظهر، حينما أتت قطع الليل المظلم، بنذرها من الغيلان الحمر.

أولئك الغيلان الذين تركونا في ساوة، عادوا فجأة بعد سنوات طوال، متوجسين يطلبون لقائي والشهابي.

قال لي كبيرهم:

"أمسكوا بأحدنا. عذبوه عذابا رهيبا، ليخبرهم عن كل إخوانه، فلم يحتمل، وأخبرهم بكل شيء يمكن أن يجعلهم يتركوه. أخبرهم عن أين يجدوا الشهابي الوريث الهارب!"

قلت فزعة:

"أخبرهم بنبئنا؟ أليس غولا أحمر. أما استطاع الصمت."

قال لي الشهابي:

"أوليس بشرا يا سارة."

صمتّ، فأكمل الغول:

"أتانا إذ تركوه فرحين بالغنيمة. كان يحتضر من العذاب، فقال لنا:

"رأيت حياتي كلها إفك، وشأننا نحن الغيلان غثاءً وزبداً يذهب جفاءً، فما وجدت، إذ أتاني ظلام الموت، ضوءً غير طفلين استغاثا بي، فأغثتهما. هلا أنجدتموهما؟ يا إخواني هلا أنقذتم لمحة الضوء الوحيدة في حياتي."

بكى الغول حينها، فتعجبت لبكائه، فقال الشهابي:

"أوليس بشرا يا سارة؟"

نظر لي الغول بعينه الصارمة الباكية، وقال:

"هم آتون يطلبونكما. لو أمسكوكما، فسينالكم القتل حتماً."

قال تيمور:

"سنفديهما بأرواحنا."

رد الغول:

"لو حشدت كل أهل الواحة، وكل من بقى من الغيلان الحمر، ما نفعكم هذا إلا بردهم مرة أو اثنتين، ليرجعوا بحشود أكبر لا تبقي ولا تذر. ما لهما غير الفرار."

قال تيمور:

"إذن نسرع بإخراجهما إلى أي بلد."

رد الغول:

"الشهابي طلبة كبرى. لو فر الشهابي، فسيحرثون الأرض بحثا عن وريث الملك. أرى أن سارة حبلى. فلتهرب هي بوليدها، ويبقى الشهابي يشاغلهم عنها، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا."

لم أقبل. أنا لا أعرف غيره أحدا. عالمي بأكمله لا يستند إلا على ركنين، الشهابي وأنا، يستندان على تلكم الأرض الطيبة. وهذا الغريب يطلب مني هدمه بزعم النجاة.

أي نجاة تلك أيها الغول.

كلا يا رجال. لن يكون مصيري مضغة في أفواهكم، فقد تجاوزت هذا العمر. هذه حياتي ومصيري أنا. لن أترككم تدمرونها.

لجئت لكل ما أعرفه من اعتراض، وصراخ، وغرقت في بكاء دموعه كنار تحرقني. إن كان عالمي يتصدع، فلأذهب معه. ما قيمة هذه الحياة إذًا؟ ما يبقيني فيها بعد ضياع كل ما أعرفه من حلوها؟ إما أن أخرج مع الشهابي، أو أموت معه هنا.

ردوا علي بالحجة، فرددت بالصراخ. حدثوني بالتعقل، فقاطعتهم بالبكاء الحازم. وحين ألحوا، لطمت وجهي حتى صمتوا.

وإذا بالشهابي يخرسني.

هي كلمة واحدة أعادت الإنصات لمعجمي،

"أحبك يا سارة."

جلست منهارة وقلت:

"وأنا لا أرى ...."

قاطعني مكملا "أحبك فأموت في سبيلك. إن مت معي لم أعلم سببا غير الظلم الغاشم لتلك المقتلة. أما إن نجوت، فقد علمت أنني افتديتك بدمي. لا تحرميني هذا الأمر."

بهت. واسودت الحياة بعد أن انطفأت نار الغضب، وتبخر الإصرار، ولم يبق إلا طاعة زوجي في آخر أمر له في هذه الحياة. ما عاد لعيشي سبب غير أن أنجو بوليدي، وعسى الله أن يجمعنا في جنة رحمته، بعد أن فرقنا جحيم ظلم الإنسان.

خرجت في قافلة صغيرة، تهرول خشية ذئاب تبغينا، وتبطئ خشية حمل يثقلني.

أعطاني تيمور العلاف ورقة وأنا راحلة. وأمرني ألا يقرأها أحد غيري، وأحرقها في عقبي بعيداً عن ساوة. ففضتتها عند الغروب، وأنا أرى بين حمرة السماء، حمرة نار في مكان ما، بتلك الواحة التي ابتعدت، تحاصر زوجي وتعتصر قلبي.

بين الدموع، وجدت كلمات العلاف الذائبة، تعزيني في مصابي، الذي لا يعزى، وتدعو لي بالتصبر بأخبار آلام الأنبياء موسى

ونوح وأيوب وعيسى عليهم السلام. كلهم لاقوا ظلما أشد، وعلى يد أقاربهم وأقوامهم. ثم أتاهم نصر الله في النهاية.

أخبرني أن أذهب لرجل من بني الأسود، في شرق البلاد، كان له يد بيضاء عليه يوما، وقد سمع إن عم هذا الرجل قد أصبح شيخ شيوخ تلك القبائل القوية، وهو داهية لا مثيل له، لذا فهو مطمئن إنه سيحميني، وييسر لي الرحيل خارج المملكة، إلى طرابل، حيث يصل بي إلى رجل يعرفه هناك.

أكرمني هذا الرجل من بني الأسود، وأشفق عليّ إذ سمع نبئي. لم أخبره بأصلي، واكتفيت بذكر أمر زوجي وهلاكه. أشفق على وليدي أن يلحق بأبيه، قبل أن يتنفس هواء الحياة، فقال لي:

"حسناً يا أم اليتيم. سأضعك على سفينة راحلة إلى ميناء الزاهرة، فلا تعلمي أحداً بأمرك أو مقصدك. وغيري من مسكنك بعد الأيام الأولى. وسأخذل عنك ما استطعت."

لكن أيام المطاردة انتهت بعدها. استقررت عند شيخ عجوز في قرية قريبة من تخوم طرابل، إلا أن الحرب المتأججة بين مدينتي الصيادية والسور العلي طالتها بغارات مرتزقتها الفرنجة. فرحلت -إذ كثرت الهجمات - مع غيري من نسائها، خشية السبي. ما كان لي أن أعيد سيرة أمي، ليصبح وليدي القادم ابن جارية.

ذهبت لطرابل في آخر هروب، فلجئت لشيخ مسجدها الكبير، الذي أكرمني، وآواني، واستوصى بي خيرا.

وهناك في قلب بيته أتاني المخاض وأنجبت.

وهنا صمت عبد الشهيد ابن سمعان، ولم يكمل ما كتبته الأميرة سارة بنت عدنان."

(٤٥)

حكاية الوريث الأخير

قال الراوي:

"صمت عبد الشهيد ابن سمعان، ولم يكمل القراءة، نظر للورقة في جمود، مذهولا، وقد بدا له أنه حظي بأعنف صفعة في حياته. جف حلقه وذهب صوته، ولم يستطع إلا أن يخرج صوتا واحدا..

"أ..................؟!"

قال سلمان:

"نعم! هو كذلك!"

أجبر عبد الشهيد نفسه على الحديث، وقال بصوت متحشرج:

"الوريث الأخير؟ ماذا عن....؟ أحقا! أنجبت سارة فتاة!"

قال سلمان:

"الأميرة الشهابية، زوجة حاكم طرابل السابق."

قال عبد الشهيد:

"من؟"

تكلم حاكم المدينة:

"لم تنجب سارة وريثا للعرش، لقد أنجبت طفلة ورثت جمال أبيها، وعزيمة أمها هي الأميرة الشهابية، ثم ماتت سارة، بعد سنوات قليلة، وشبت الشهابية يتيمة في بيت الشيخ زعفران، وعملت في قصر الحاكم، ضمن من تعملن فيه من بنات طرابل. ورآها ابن الحاكم، وكان شابا عابثا، مولعا بالنساء، فراودها عن نفسها، فصدته صد غير جميل، واشتكت لأمه، التي ما أن عرفت بالنسب الشريف، حتى زوجتها لابنها. وكانت خير نساء طرابل، إذ جمعت من القوة والحكمة ما دبرت به شئون زوجها ومدينته حتى مات. ولها عندنا مكانة عظيمة، فالناس تحبها لعدلها، وعطفها على الفقراء والمحتاجين. لن تجد من يسرب عنها كلمة واحدة لأعدائها في كل طرابل. وهي اليوم تعيش مع ابنها، وهو زوج أختي في قصر بشمال المدينة، بينما تزوجت أنا من ابنتها، وتيم معنا في هذا القصر، لتبقى الشهابية دعامة خير تقوي ملك طرابل."

هوى الغول مبهوتا على مقعد جوار القاضي، وهو يئن بقوله:

"أبعد كل هذا؟ بعد الطريق الطويل والمشقات والمخاطر، أبعد كل تلك الأمور، وبعد أن لاح الأمل عقب الضياع، أنجبت سارة بنتا. خلف الشهابي فتاة فقط!"

قال القاضي:

"هذا أمر الله يا بني، لم يعد لملوككم وريث. عد لبلادك، واترك الشهابية هنا في سلام."

فتح عبد الشهيد فمه محتجا وقال:

"ولكن القائد الأسود......"

وصمت ولم يكمل، فقد غلبه الهم. وغادر قصر الحاكم مخزيا مع رفاقه. وتشاور الأمر معهم، فلم يجدوا بدا من العودة للبلاد خاويي الوفاض، لكن تيمور طلب البقاء أياما، حتى يزور نسيبته، وينقل لها تحيات أهله وأهل ساوة. وقد أكرمته الشهابية أيما إكرام، وأعطته هدايا ونفائس لأهالي البلد، الذي آوى والديها، وافتداهما بأرواحه.

ثم بعد أن أنهوا الزيارة، وأوصلوا الرحم، جمع الرفاق المنكسرين متاعهم، وعزموا على العودة.

وبدءوا رحلة إياب خاويي الوفاض.

لكن الطريق لم يتخل عن معاندته لهم، فلم يبتعدوا كثيرا عن طرابل، حتى بدأت المتاعب، من قبل أن يتجاوزوا حصون الأهبال.

كانوا في طريق مظلم، قد ظلله اليأس، حين قطعه عليهم عشرة من الرجال، فتوقفت القافلة الصغيرة، وأخرجوا سلاحهم. فإذا

بعشرة أخرى تطلع من مكامن خلفهم، وثالثة تبرز شاهرة السيوف عن يسارهم، وتمام الأربعين خرجوا متربصين من اليمين.

هتف المحصورون:

"ما شأنكم؟"

خرج من جماعة القطّاع شاب، يبدو عليه سمات اعتداد النفس والثقة في النصر. كان وجهه مألوفا لعبد الشهيد، لكنه لم يستطع أن يتذكر أين رآه من قبل.

تكلم الشاب:

"مرحبا بالقبيل زعيم الغيلان الحمر! الرجل، الذي أصابنا بالكرب، وآذانا بمكره."

رد عبد الشهيد:

"لا مرحبا ولا سلاما! ماذا تريدون؟"

تكلم الرجل:

"لعلك لا تذكرني يا سيد الغيلان؟ كنت واحدا من رجال شيخ بني الأسود، الذين التقوك في دار ابن العبدلي، اسمي حسام."

قال عبد الشهيد بصرامة تخفي قلقه:

"وماذا تريد منا أيها الحسام الأعوج؟"

ابتسم حسام وقال:

"وماذا سأريد؟ الوريث طبعا."

قال عبد الشهيد:

"لا يوجد وريث، ألم تبحث فلم تجد؟"

قال حسام:

"بحثنا غير بحث الغيلان؟ ألستم تعودون ظافرين، بينما نحن هنا باقين خائبين؟"

قال عبد الشهيد:

"دع عنك هذا! قد أنجب الشهابي فتاة! لا يوجد وريث للملك أصلا. اذهب عني الآن، قبل أن أذيقك حسامي أيها الحسام الأعوج."

صمت حسام مبهوتا هو ومن معه، فلم يستطع عبد الشهيد كبت ضحكة مريرة، وقال:

"مثلي تماما! كلنا فكرنا في أي أمر، في أن يكون الوريث عاش، أو قتل، أو اختبأ. لكنكم مثلي، لم تفكروا في أمر أن يكون فتاة! عقول مجنونة، أضاعت نفسها في رحلة عقيمة!"

كانت المرارة في قلب عبد الشهيد كبيرة، وقد أخذ يسأل نفسه كل لحظة لم افترض الجميع أن وليد سارة ذكرا! لكن مرارته كانت بهجة في قلوب غريمه، إذ هتف الجمع المعتدي متهللا، يصيح صيحات الفرح.

وقال حسام:

"حسنا، تلك أنباء رائعة، إذًا، فقد خلصت البلاد أخيرا لفخر بني الأسود."

أراد عبد الشهيد إغاظته بقوله:

"مازال والده يعترضه، ولا يرضى به حكما، وحتما سيجد شيخ بني الأسود أنصارا في حربه ضد ابنه."

ضحك حسام بقوة وقال:

"ألم تأتك الأنباء يا سيد الغيلان؟ كانوا يزعمون أن الغيلان يأتون بالأنباء من قبل أن تحدث! لقد مات الشيخ العجوز يا رجل! مات بغتة وهو نائم، لا أدري أعمره المتثاقل قد انهد فجأة، أم إن صبر ابنه لم يسع ذنبه الأخير؟ على أي حال بايعت كل القبائل ابن العم مهاب شيخا، وبايعنا جميعا القائد المغوار ملكا على البلاد."

صمت عبد الشهيد، فلم يجد جوابا، وانتصب الرمح والسيف في يده، فقال حسام:

"أراد مليكي أن يحالفكم أيها الغيلان، لا نبغي بكم شرا! الآن قد ارتدت الأخطار عن عرشه، فاقسم له الولاء والإخلاص وسيجزل لكم العطاء."

فكر عبد الشهيد قليلا، لم يعد له هدف الآن إلا العودة سالما، ليعيش فلاحا في أرضه، حتى يموت ويدفن فيها. لم يعد للكفاح والقتال الآن قيمة، فقد خلصت البلاد للأسود، كما قال هذا الحسام.

رد ببطء:

"أما وقد ثبت لنا أن الملك الشرعي للبلاد قد انتهى نسله، فلم يعد هناك بد من مبايعة ملك جديد، ألا ولا يوجد خير من المغوار، أو القائد الأسود ليوحد البلاد، ويجمع كلمتها."

نظر له حسام بثبات، وقال:

"لم أسمع قسما ولا مبايعة."

ابتلع عبد الشهيد ريقه، وأكمل المراوغة قليلا، عسى أن يخرج هو ورفاقه أحياء. فمن ناحية كان يكره أن يقسم على الإخلاص للأسود، ومن ناحية أخرى يخشى أن يأخذه حسام لمقابلة المغوار، فيفتضح أمره، ويقتل هو ومن معه، لذا فقد قال:

"أعاهدك إنني ما أن أرجع إلى المملكة، حتى أجمع الغيلان الحمر لمبايعة الملك الجديد."

ابتسم حسام وقال:

"يبدو لي أنك مازلت محتفظا ببعض من عقلك، أكثر مما ظننت. هلا صافحتني على هذا العهد؟"

وترجل حسام، وألقى بسيفه علامة الأمان. فتقدم له عبد الشهيد، ملقيا برمحه وسيفه، ومد يده ليصافحه.

مد حسام يمناه، وقبض بها على ذراع عبد الشهيد، وبسرعة البرق كانت ذراعه تستل خنجرا من تحت عباءته، وهوى به ليمزق جانب الغول الأحمر بطعنة نجلاء، وجدت طريقها بين الدروع.

وانتزع الخنجر ليهوي على الجسد الصريع، بطعنة تلو الأخرى. واستبد الفزع بغول الحق، فصاح في ارتياع، وحمل سيفه، لكن أحد رجال الأسود رماه بحربة أسقطته، وهجم الفرسان عليه يمزقونه بسيوفهم.

وسقط غول الحق مضرجا بدمائه، ويا للعجب، علت على شفتيه ابتسامة غريبة، كأنما لاقى صديقا قديما طال اشتياقه له.

وسقط عبد الشهيد مضرجا في دمائه. كان كل ما في ذهنه والسواد يبتلعه، إنه كرر سيرة أبيه بالموت غريبا شريدا. وأنه أهلك رفاقا طيبين بلا ذنب.

وقبل أن تدركه الظلمة، كانت آخر لمحة ضوء ذاقها هي ابتسامة غول الحق، وأضاء ذلك القبس الخاطف قلبه بسكينة عجيبة، فلم يبق في صدره غير الارتياح، الذي طرد حتى آلام الطعنات.

وهوى عبد الشهيد، آخر الغيلان، مصروعا.

وأتى حسام، فوقف على رأس الغولين الصريعين، وأشار لرجاله، فحملوا الجثتين، وصلبوهما على الطريق فوق ساريتين، حملتا علم الأسود وعلم الأهبال.

ثم أتاه رجاله يسألونه، ماذا يفعلون بالبقية؟ عمران وتيمور؟

نظر لهما ببرود وقال:

"أرأيتما الأحمقين؟"

وبصق على جسد عبد الشهيد، فأفلتت صيحة غيظ من تيمور، فالتفت له حسام وأكمل:

"مولاي المغوار، القائد الأسود ملك البلاد، يمد يده مرة واحدة فقط، ولا يمدها إلا لتلقي بيعة صريحة. من يراوغ يده العليا، أو يردها، فستمتد اليد مرة ثانية بالهلاك. تعال أيها الإعرابي."

وكبل رجلين من رجاله الشيخ عمران، فأجلسوه راكعا على الأرض أمام حسام، الذي أخرج خنجره وهو مازال مضرجا بدم عبد الشهيد، ورفعه أمام عين العجوز المذعور.

قال حسام بقسوة:

"هل ترى أيها الإعرابي جزاء من يتحدى الأساودة؟"

قال عمران مرتجفا:

"ما أنا إلا دليل للطريق."

مط حسام شفتيه باستهزاء وقال:

"سأتركك تحيا لتقص على الناس أينما حللت عن بطش الملك الوحيد لبلادنا، وعن خسران من يتحداه، لكن سأترك لك تذكارا صغيرا حتى لا تنسى هذا الدرس."

وبضربة سريعة، جدع أنف الرجل المسكين، ثم شق أذنيه، وركله ليسقطه أرضا باحتقار، قبل أن يلتفت لتيمور ويقول:

"ومن أنت؟ هذان غولان، وذاك دليلهما فمن أنت؟"

رد تيمور وهو يرتجف من الغضب، محاولا كبح جماح نفسه:

"ما أنا إلا فلاح متواضع من ساوة."

قال حسام باستخفاف:

"وما الذي أتى بك بعيدا عن أراضي ساوة وتجارتها؟"

فكر تيمور أنه بعد أن انتهى كل شيء، فماله إلا أن يسيطر على نفسه، ويسعى للنجاة من هذا الغادر، فقال مكرها متلعثما:

"لقد اقتادني الغيلان جبرا من بلدي. لأن لأهل ساوة نسبا مع الوريث، أرادني أن أكون رسول أمان له."

قال حسام:

"أحقا كان الوريث إمرأة؟"

رد تيمور:

"بلى يا مولاي امرأة عجوز، تزوجت من حاكم المدينة السابق، وأهل طرابل يحمونها، فلا يستطيع أحد نيلها."

ابتسم حسام منتشيا وقال:

"لا حاجة لنا بقتل امرأة."

كان سعيدا بنصره على الغول، فلم يجد في نفسه حاجة لقتل الفتى، خاصة بعد أن أكد له الأنباء الطيبة عن الوريث، وانتهاء عقب الملوك وسلالتهم، لذا أمر الرجال بضم الفتى للعبيد، الذين سيهديهم لقلعة الأهبال القادمة، ثم أشار لرجاله ليتحركوا مبتعدين.

وقبل أن يرحل، ألقى نظرة ساخرة على الجثتين المصلوبتين، وقال:

"حقا يصل بعض الناس لشأن من الحماقة، لا يداويها دواء إلا السيف."

(٤٦)

البعث

إن الظلام يبتلعني، ظلام خيبة وندامة، ونتاج حماقة وتهور. أتراني أعذب في الجحيم، بما جلبته أعمالي على رفاقي؟ أتوجد النار الموقدة في انتظاري، عند آخر هذا الطريق؟ لكن نيتي كانت طيبة، حتما الجنة مثواي، فإنما الأعمال بالنيات.

وما أدراني؟ لعلي لم أكن مخلصا في نيتي؟ لعلها شهوة متكبرة بأن أكون شيئا، وأن أغير الأحوال، لإثبات بأس فيّ ومكر لدي؟

يا إلهي الرحيم الطف بي، فما كنت أبغي غير صلاح البلد بعد طول فساد. يا رب يا مالك الملكوت، تؤتي الملك من تشاء، تهبه للأسود، أو غيره. ما كنت أنازع في ملك، وإنما على إصلاح.

رب ما أسألك غير المغفرة، رب ما أسألك غير المغفرة، رب ما أسألك غير المغفرة، وأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين.

أشعر بالنار تكوي جسدي. يا الله أأنا مقبل على العذاب؟ أحانت لحظة الحصاد؟ أهي نار القبر تشوي أجنابي؟ لطفك يا رب، لطفك يا رب، لطفك يا رب، لطفك يا لطيف يا حليم.

واجتاحني ألم رهيب، فصرخت. "وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا. رب أخرجني من هذا أعمل عملا صالحا".

"صالح بأمر الله، هون عليك."

كأني أسمع صوتا عذبا يحدثني؟ أهو ملاك يتنزل علي بالرحمة؟ أم شيطان يبغي فتنة؟

وكأني أحسست بنفحة من عاصفة باردة تجتاحني، فنهضت فجأة وأنا أشهق، وأنطق بالشهادة.

ولأول مرة، انقشع الظلام، وزالت غشاوة عيني. كان البياض حولي في كل مكان، وكانت هناك حورية ذات وجه مضيء، تصب عليّ الماء البارد، ورجال حولي يلبسون البياض.

ظننت لوهلة أنني في الجنة، ثم أدركت أنني مازلت حيا!"


عصير
الكتب

(٤٧)

حكاية الخاتون

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"نظرت حولي لرجال يرتدون البياض، تصورت أنني مت، وصعدت للجنة، لكني أفقت من الغشاوة، وأدركت أنني وسط قافلة من معتمرين أو حجاج، ولكن ترى ما الذي أتى بي لهنا؟

جلت بنظري بينهم، أتأمل الوجوه، لكن الألم غلبني، فأغمضت عيني لحظة، أو هكذا بدت، لكنها حتما كانت ساعات، إذ إنني لما فتحتها، وجدت إننا قرب الغروب، وقد حملوني على جمل كبير. استجمعت عزمي لأتكلم، لكني عجزت. فقد كانت أنفاسي ثقيلة، وصدري يؤلمني، ولساني بطيء لا يجاري أفكاري المتسارعة في رأسي، الذي يطن كأنما هوت عليه مطارق من حديد مصهور.

وأخيرا، قبل لساني أن يتحرك بسؤال واحد، فسألت عن أشد ما أصابني:

"أين تيمور؟"

قال أحد الرجال:

"لقد أفاق الرجل."

رد عليه آخر:

"دعه الآن وغدا تراه الخاتون."

قلت بوهن حتى لم أكد أن أسمع صوتي:

"أي خاتون؟"

سمعني الرجل الذي يجر جملي، فأجاب:

"هي السيدة التي أنقذتك أيها الغول. إنها السيدة المرصفية الشريفة، امرأة بألف رجل، تقدر أن تدبر أمورنا، وتفصل في أحوالنا، وعلى مالها يتعيش أيتامنا وأراملنا."

لم تجبني قصيدة المدح تلك عن سؤالي، لكني لم أهتم. لم يكن الألم في جسدي، والقلق في صدري، يسمح لي بالاهتمام، أو الفضول، لكني أحسست بالامتنان لقوله "أنقذتك"، فرددت الكلمة بخفوت:

"أنقذتني."

بدت لهم كسؤال، فقال الرجل:

"كنا ذاهبين للحج، حينما مررنا بكما مصلوبين، فخففنا إذ رأينا راية الأهبال، وأردنا ترككما وإسراع الخطى، لكنها نهرتنا بقولها: عار عليكم، أيقبل حجكم إن تركتم مسلمين مصلوبين في طريقكم؟ أنزلوهما، وادفنوهما، أو ارجعوا لبيوتكم خائبين.

ولم نجد ما نفعله غير ذلك، فأنزلنا زميلك ودفناه، ولما أتينا لك وجدنا بك رمق الحياة، فأسرعت تطببك، وتداوي جروحك الكثيرة بنفسها، حتى أنقذتك."

أحسست بشكر لا يجزيها، تلك السيدة العظيمة الملقبة بالخاتون. رغم كل ما حدث، فبفضل الله وفضلها نجوت، وربما أستطيع العودة لبلادي.

ودفعت الفكرة في صدري ببعض القوة، فسألتهم:

"وأين نحن الآن؟"

ردوا:

"على مشارف بيت الله الحرام، ألم نقل لك إننا في طريقنا للحج؟"

لم أستطع أن أبقي على يقظتي أكثر من هذا، وسرعان ما هزمني الظلام ثانية، ولم أستيقظ بعدها إلا في عصر اليوم التالي، أو الذي يليه.

أيقظتني الشمس الحامية، التي تسللت من فرجة بالخيمة، التي وضعوني فيها. فجرجرت نفسي، حتى ابتعدت عن قبسها الحارق، وكانت أول مرة أحرك فيها جسدي منذ عهد بدا لي كالدهر الطويل. وكأنما كانت سحب بددتها تلك الشمس، صفت رأسي فجأة من آلامها وطنينها، واستطعت أن ألمح طبقا به بعض التمرات جواري، فأدركت فجأة أنني لم آكل شيئا منذ غادرت طرابل مخزيا. وكأنما ذكرت بطني بهذا، فتحرك فيّ جوع قاتل، جعلني أتحامل على نفسي، ومددت يدي للتمر، فأكلت بعضه.

ودلف علي حينها أحد الحجاج، فتبسم لما رآني، وقال:

"أعطاك الله العافية يا أخا الإسلام. حمدا لله على سلامتك."

رددت:

"حمدا لله، وشكرا لكم على إنقاذي."

قال "بل الشكر لله أولا، ومن بعده، إن شكرت، فللخاتون."

لم أفهم ما يعني في البداية، ثم تذكرت، تلك السيدة، التي حدثوني عنها أنها حثتهم على إنقاذي، فاستخلصتني من الموت. أنا مدين حقا لهذه السيدة.

ثم تنبهت لأمر ما فقلت للرجل:

"أخبرتني أو أحد رفاقك إنكم من الحجاج، أليس الوقت مبكرا على موسم الحج؟"

رد علي مبتسما "هذا لأنك لست من بلادنا. عندكم يتفق الملك مع الفرنجة، صلحا أو حربا، ليؤمن طريق الحجاج. أما نحن، فلا نجد من يحمينا، خاصة إنه في موسم الحج، يزداد بطش الأعراب، وغاراتهم، ونهبهم، فنتفادى الفرنجة بالطرق الوعرة، غير المأهولة، ورشوة بعض أمرائهم، ونتقي شر الأعراب بألا نأتي لبلاد الحجاز إلا مع شهر رمضان، حيث يكفون أذاهم عن الطريق قليلا."

تجمدت يدي في طريقها للتمر، وسألت مفزوعا:

"أبدأ شهر رمضان؟"

قال مبتسما:

"لا حرج عليك! أنت مريض، وكنت في غيبوبة طيلة أسابيع ثلاثة، لم تذق فيها شيئا."

نظرت له مندهشا، فلم أتصور أنني قضيت ثلاثة أسابيع كاملة، ولكن ظلت غصة غريبة في حلقي، وأنا آكل التمر. لم أفطر يوما في رمضان منذ بلغت العاشرة، ورغم إن معي رخصتان للمرض والسفر، لكن في القلب شيء يعلق، وللصوم النفس تهفو. لكني لم أجرؤ على الصوم، متذكرا حديث الرسول َ « لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ

الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ.»، وقوله « عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللَّهِ الَّذِي رَخَّصَ لَكُمْ.» وما كان لي أن أرد منحة الله لي في وقت مشقتي.

كان مازال بي أثر من الحمى، لكني أجبرت نفسي على النهوض من فراشي، فعلي الكثير لأقضيه، وأوله ما فاتني من صلوات في غيبوبتي، وما كان لي أن أتكاسل عنها، وقد رأيت بعيني الأجل يكاد ينسلخ، ثم ارتد فجأة بأمر من الرحمن الرحيم.

كما إنّ علي أن أعد العدة لسفر طويل شاق لبلادي، وأن أجد عملا يقيم أودي، ويعينني على كلفة السفر.

وبين هذا وذاك، شاغلتني نفسي بأمرين، أأنتهز فرصة ذهبية وأرافق القوم لأحج حجة سهلة المنال، لم تكن على الخاطر، أم أنتهز فرصة خلو الطريق، وتشاغل الأعداء، لأعود لبلادي سالما؟ كنت أفكر في مرافقة الحجاج، ولكن ليس معي مال أو زاد، وصعب أن أحصل عليهم في هذه الأرض، التي لا أعرف أهلها، ولا أجيد حرفة من حرفهم.

ولكني وجدت الحجاج مرحبين بي، يمدونني من فضلهم، فاستمرأت الأمر رغم خجلي، ولكنها فرصة حج لا تعوض!

كنا على مسيرة يوم من مكة، وجهزت نفسي للغد، الذي ألاقي فيه الحرم، حينما أتاني الرجال يطلبونني للقاء الخاتون.

فاستعددت للقاء منقذتي المجهولة، تلك السيدة العظيمة، التي يتغنى الرجال بثنائها، فدخلت خيمتها الكبيرة متهيبا.

كانت ترتدي ثيابا ناعمة، تزينها جواهر غالية، ونقابها من حرير مشغول، وتجلس بين خادماتها جلسة، تذكرني ببنات الوالي في الزرقاء، حتما هي امرأة من بيت منعم ولا ريب.

ما أن دلفت الخيمة، حتى نظرت لي طويلا بعينين زرقاوتين كعيون الفرنجة، ثم تكلمت بصوت خفيض واثق:

"لن تدخل مكة معنا أيها الغول الأحمر!"

نظرت لها مذهولا، وقلت بصوت مرتجف:

"ولم؟"

ثم أتاني خاطر فأضفت:

"إن شئتم أن أفارقكم، وأسبقكم لهناك، خشية أن يؤذيكم وجودي معكم، فلا أملك إلا التسليم، وجزاكم الله خيرا عما فعلتموه لي، وإن قدرت على ...."

قاطعتني بصوتها الخفيض الواثق:

"أنت لن تدخل مكة، لا معنا، ولا وحدك، ولا حتى مع غيرنا. ستعود أدراجك فورا."

انقلب امتناني إلى جفاء، وأنا أسألها مغتاظا:

"وكيف هذا؟"

قالت:

"هذا أمري، وليس لك أن تعارض."

قلت:

"أتصدينني عن المسجد الحرام؟ فما جزاء هذا؟"

ردت بصوتها الواثق، كأنه لا يهتز أبدا:

"أهكذا تخاطب من تدين لها بعد الله بحياتك؟"

ألجمني ردها، وأخجلني، وسكت متحيرا. فأشارت للرجال ليتركونا، فخرجوا صاغرين، ثم قالت لي:

"اقترب."

اقتربت منها، وجلست قبالتها مباشرة، فنهضت خادماتها مبتعدات عنا بضعة أذرع.

وهنا كشفت عن وجهها، وأكاد أزعم أن الضوء سطع من وراء النقاب وهي تسحبه، يا الله! أيوجد مثل هذا الجمال بين البشر؟ بالكاد بقى لي شيء من لب، لكي أغض بصري الذي أعماه ضياءها.

قالت لي بصوتها الفتان هذا:

"ما سأطلبه منك، لا يجب أن يطلب في الأرض الحرام. أنت مدين لي بحياتك، ولا أقبل برد الدين، إلا بحياة القائد الأسود!"

نظرت لها بغضب للحظة، لكن مرأى وجهها أذهلني، فخفضت بصري ثانية، وقلت مرتبكا:

"لست ابن ملجم يا مولاتي الخاتون."

عبس وجهها كما بدا لي، وأنا أختلس له نظرة خاطفة، وقالت:

"لا أقبل الإهانة يا هذا. لست أعرض نفسي الغالية عليك، ولا أطلب منك رأس خليفة عادل، ألا تتقي الله! أتقارن عليّ العليّ، بالأسود المسود؟"

رددت بصبر:

"لا أقارن هذا بذاك، ولكني لست قاتلا مأجورا، يخدم سيدة لجمالها."

ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقد كشفت لها أن ما أرادته من كشف وجهها لي قد أعطى أثره، فانتقلت من فتنة الملامح، لفتنة الكلمات الأشد وطأة.

قالت لي موسوسة:

"دم الأسود مهدور بهدره دماء المسلمين، ولو قتلته فقد أرحت البلاد والعباد من شره."

رددت بحسم:

"لو قتلته بدون ملك يمسك البلاد مكانه، فقد أضعت أملها في الوحدة، واجتماع الكلمة."

ردت عليّ:

" الأسود ليس بالخير أبدا، لو تركته، فسيمنح ثلث البلاد، وجل ثغورها للأهبال والفرنجة."

دهشت لمعرفتها بتلك المؤامرة، التي يتكتم عنها الأسود وحلفاؤه، وما عرفتها أنا إلا صدفة. لكني عقدت العزم على إنهاء هذا الأمر، الذي زججت بنفسي فيه فوق طاقتي، فقلت:

"ولو قتلت الأسود، فسيجتاح الأهبال كل بلادنا."

أشرقت ابتسامتها الناصعة، وقالت:

"لا لن يفعلوا، بل سيرتدوا خائبين."

قلت ساخرا:

"أحقا؟ ومن سيردهم؟ ابتسامتك هذه؟"

قالت وهي لا تزال على هدوئها المستفز، الذي يهزني بأشد من لهيب الثوار:

"أعرف عن الأهبال أكثر مما تعلم. وأعلم ما يخططون له حتى من وراء ظهر الأسود."

نظرت لها مستخفا، فالأهبال أكثر خلق الله تكتما، وما من أمير أرسل عليهم عيونا إلا فقئوها، وما من حاكم تستر عليهم أمرا إلا كشفوه.

أكملت قائلة:

"لي على الأهبال عيون كثيرة، هم يتركون جل أعمالهم لعبيدهم، وبين العبيد رجالي، فأرى ما يرون وأسمع ما يسمعون. لو لم أكن خبيرة بأمر الأهبال، أتظن أولئك القوم يقبلونني أميرة عليهم، وأنا امرأة؟"

هزتني كلماتها، لكني تشبثت وقلت:

"اعلمي عنهم ما شئت فأنت لا تعلمين عن بلادنا شيئا، وما شأنك أيتها الخاتون الشريفة بذبح الأمراء والحكام في بلادنا؟"

هنا لأول مرة اهتزت، وبدا على وجهها الملائكي شياطين الحقد، وقالت بصوت موتور:

"هذا المسمى بالمغوار، الملقب بالقائد الأسود، هو أبغض خلق الله لي. لن يهنأ لي في الدنيا بال أو حال حتى أسفك دمه."

قلت مندهشا:

"القائد الأسود؟ ولم؟ هو لم يخرج من بلادنا منذ........"

ولكني قطعت كلامي، إذ تذكرت أمرا، كانوا يسمونها بالخاتون المرصفية، أتراها تكون......؟

وسألتها فورا:

"أنت هي؟ بنت المرصفي الأمير، الذي غدر به القائد الأسود في العاصمة، هو وعدوه الجبلي؟"

أكمل شيطان حقدها الحديث:

"نعم أنا هي، أنا من قتل أباها وأخاها، وسبى أمها الشريفة سليلة آل البيت، وطردها مشردة في البلاد، ملقاة لكلاب حقيرة جائعة. ولولا نجدة أتتني من الله، وعزمي وتشبثي بالحياة، لآخذ بثأري منه، لهلكت منذ زمن بعيد."

غلبني الفضول، فقلت:"وأنى لك بما أنت عليه اليوم؟"

ردت مستعيدة هدوءها:

"تلك حكاية تطول، وشرح لا يسرني، لذكرى أكره عودتها. لقد ألقى الله بك في طريقي أيها القبيل، وأنا ألد أعداء الأسود بعد أن سخر لي المال والأعوان، في وقت اشتدت فيه حاجة البلاد لك. أما سمعت بتخريب الأسود للثغر الكبير، بعد أن انقلب على حليفه ابن عامر، وقتله قتلة شنيعة بالخازوق، وترك جثته تنتن في المدينة المهدمة؟ أمثل هذا تأتمنه على بلادك ملكا؟ أما سمعت بقتله لمئات الدراويش المساكين في أحراش الشمال، لأنهم لم يرفعوا له الدعاء على منبر مسجد الشيخ الفولي؟ أما سمعت بخيانته وتعاونه مع أسطول الفرنجة، فشن

معهم حربا ضروسا على الزرقاء، ليبدل قراصنتها بالفرنجة الملاعين؟"

فتحت فمي مذهولا، لكنها أكملت:

"لو كنت سمعت بهذا، فكيف تقبل به ملكا؟ أتسأل عن توحيد البلاد؟ أما تراه انقلب على بني سلام، وذبح الآلاف منهم، فقط لأن أحدهم كان دليلك؟ أهذا ملك يوحد كلمة القبائل يا رجل؟ وفوق كل هذا، الأنباء أتتني بأن الأهبال يحشدون حشودا لغزو الثغر الصغير وما حوله من بلاد. إن الأسود لا يوحد كلمتكم، ولا يجمع فرقتكم؛ إنما هو يمزق البلاد أشلاءً، ليفوز بأكبر قطعة فيها، ملقيا بأطايبها للأعداء، على حساب جثث الخلصاء. هو يدمر كل من يطلب خير البلاد، لأنه لا يعلم غير الشر طعما، وغير الدم شربا."

وهكذا أخذت تلك الخاتون توسوس، وتوسوس. والله ما أعلم أنى لي - أو لغيري - بالصمود أمام فتنة عقل راجح، ووجه قاتل، وكلام معسول بتحريض مسموم!

لكن كانت هناك حقيقة واحدة لم تعرفها، عصمتني منها: أنا لست غولا أحمر، ولا أقدر على النيل من شعرة واحدة من شعر القائد الأسود. ولما كنت لا أقدر على البوح بهذه الحقيقة، خشية انتقامها مني، فقد كررت لها ما أخبرتها به من قبل :بدون

ملك يطلب العرش، ويتبعه الناس فلا أمل من حرب الأسود، وبقاؤه خير من قتله.

وأشهد إنها تلاعبت بي بقوة رهيبة، حتى أحسست أني دمية تتقاذفها أيدٍ عملاقة غليظة. أحسست أنني حقا بلا حول ولا قوة، أمام هذه الخاتون الرهيبة، التي تجيد التلاعب بالأفكار والأقوال. كدت أن أعقد العزم على السفر للعاصمة، واغتيال الأسود بالفعل! ثم فكرت في عجزي، الذي كان أقوى من أي شيء آخر! إنها قوة العدم، الذي لا ينبت، مهما سلطت عليه من محاريث! أنى للأرض العقيم أن تنتفع بجهد المجتهدين؟

ولكن لأنقذ رأسي من الضياع، قلت لها:

"الأمر قاطع سيدتي الفاضلة، وهو ليس أمري وحدي، بل أمر كل الغيلان الحمر، الذي اجتمعوا عليه! قد تعاهدنا أن نلزم جانب الحق، وأجمعنا على إن مصلحة الأمة في اتِّباع الملك ضد الأسود، فإن لم يكن ملك، فلا حرب ضد الأسود، ولا مساس به، ولا يمكنني أن أخرق عهد الغيلان، أو أطالبهم بتغييره."

أخيرا أخرستها! أخيرا جعلتها تدرك ألا جدوى من مناقشتي، فصمتت، وتركت لي فسحة من الوقت، أجمع فيها شتات فكري.

ولكن مثل هذا العقل الماكر لا يستسلم أبدا! فقد أخرجت لي من جعبتها المزيد من العجائب!

أخذت نفسا عميقا، وزفرته ببطء من بين شفتيها الفاتنتين، وحدقت في عيني مباشرة، فتحاشيت النظر لها مرتجفا، خشية أن تفضح عيوني أكاذيبي، أمام هذا البصر الثاقب، الذي يكاد يخترق الصدور،

وتكلمت مستعيدة هدوءها، وقالت:

"أتريد ملكا؟ كان الملك بين يديك، وسأعيده لك! هذا الفتى الذي أتى معك من ساوة........"

قلت "تيمور بن زهير؟ ماذا أصابه؟"

قالت "لقد أخذوه مع العبيد، وأهدوه للأهبال، هذا الفتى نسيب للأميرة الشهابية زوجة حاكم طرابل الأسبق، وبنت الشهابي آخر أحفاد الملك."

نظرت لها مندهشا، لا أدري كيف عرفت بهذا أو ذاك. ولاحظت هي دهشتي، فقالت:

"لا شيء يخفى عن الخاتون يا فتى، لا شيء يخفى عن الخاتون! على أي حال، فهذا الشاب يحمل دما ملكيا. تلك الوثيقة التي تنزع عنه، وعن نسل زهيرة الإمارة، لكنها لا تنزع حقه في المطالبة بالملك، إن تزوج بنت آخر الملوك. كم من ملك تولى في العرب أو الفرنجة ليس بنسبه، وإنما بنسب زوجته، وهذه شريعة معروفة بين الملوك والأمراء. كل ما عليك فعله، هو أن تزوجه الشهابية، وتشهد حاكم طرابل على العقد مع قاضيها،

وعقد الزواج مع شهادة نسبها، ونسبه المتصل بالخلفاء، وخطاب الخليفة بتولية الوريث، وكل هذا ستجده عند قاضي طرابل، إلا خطاب الخليفة، فهو معي وسأعطيه لك الآن........"

قاطعتها مذهولا:

"ماذا؟ لكن......"

قالت:

"لا تقاطعني! لا تسألني كيف حصلت على هذا، فهي أمور لا يقدر عليها إلا الخاتون الشريفة المرصفية!"

تبلبلت أفكاري تماما بما قالته، لكن الخوف من العودة لهذا الكفاح، بعد أن خلصت نفسي للراحة واليأس، دفعني للمجادلة فقلت لها:

"أنى لي بالحصول على تيمور بعد أن أخذه الأهبال؟ ليس اقتحام قلاعهم بأمر سهل حتى لغول أحمر! ثم كيف أقنعه هو والشهابية بالزواج! وأنى لحاكم طرابل أن يقبل بمثل هذا الزواج! ثم كيف يقبل الأسود والأمراء بذريعة مثل هذا الملك؟"

لم يهتز هدوءها الفتّاك، وقالت:

"أمر تيمور سهل. فقبل أن ترجع لطرابل، ستجده عند أتباعي معززا مكرما! وإقناعه لن يصعب عليك، وقد أقنعته بإتباعك في

تلك الرحلة المهلكة من قبل! وأما الشهابية، فهي امرأة عنيدة، لكني رغم كرهي لها؛ أعترف إنها حصيفة، وأشهد لها بالحكمة ولو كان لي أن أشهد لامرأة، أخرى غيري، بحكمة وشكيمة تسبق الرجال، لاخترتها هي، لولا إنها لا تبزني ذكاء، أو جمالا، وبالطبع شبابا! ستعلم في النهاية، بعد طول جدل، ما واجبها، وأن دماء المسلمين في رقبتها، ستستطيع أن تحاججها بأنه إذا ازداد بطش الأهبال بعد استقوائهم بالأراضي والثغور، التي سيكسبونها من الأسود، فإن طرابلس ستتهدد من انقلابهم عليها، كما تهددت من قبل. وأما زوج ابنتها، فسيرحب بأي أمر يزيح كاهل حماته عنه، فهو يخشاها، ويضيق بتدخلها في شئونه! ولا تتواضع وتقلل من شأن الغيلان الحمر، وقدرتهم على تليين الرؤوس الصلبة أو تهشيمها! إن لكم لرهبة في النفوس، لا تزال باقية على تطاول الزمن، وبعد المسافة."

نظرت لها مرتبكا، إنها تعد ردا لكل حجة، تلك الخاتون العجيبة، التي جمعت ما لا يجب أن تجمعه امرأة واحدة من قوة، ومكر، وذكاء، وجمال، وشرف، وزعامة، ودهاء! إنها لتبز الزباء بزا! خبيرة بأحوال النفوس، وأعماق الخلائق، ومفاتيح عقول الرجال، فتعبث بها كيفما شاءت، وإنها لتأتي بأمور أشبه بالخوارق! ألا فحقا إن كيدهن عظيم! اللهم اكشف عني كيد أمثال تلك المرأة، التي غلبتني، حينما لم يغلبني عتاة الرجال! إني لأكاد

أشفق على الأسود المسكين أن اتخذ لنفسه عدوا مثل هذه! وما كان لي أن أكرر خطئه!

وهكذا عدت مخذولا عن أبواب الحرم إلى طرابل، لا أدري كيف أقضي حالي فيها. لكني أثناء المسير، استبدلت اليأس بأمل كاسح. سواء كان ما قالته الخاتون عن قناعة، أو مجرد مكر تفتنني به، فلا أظن أن نجاتي من الموت، وعودتي للدنيا من أعتاب الآخرة، إلى طريق حجاج تقودهم عدوة كئود لعدوي؟ كل هذا لا يمكن أن أتجاهله! حتما هو قضاء من الله، وعون لي لأكمل طريقي بعد أن خلا، وأصبح أكثر أمنا، إذ عاد الأساودة لبلادهم ظافرين، وسمع الناس بمقتل الغول. اليوم نصرهم وجهلهم يستراني، لكي أجتاز ما عرفت من عوائق، وبقى أمامي عراقيل عجيبة، لم أختبرها من قبل، ولم أتصور أن تكون في رحلتي! ليس جنود متربصين، بل زوج عجيب، ألب زواجهما كخاطبة شمطاء!"

(٤٨)

خاطبة في دروع حمراء

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان:

"مضيت بالمال والمتاع، الذي منحتني إياه بنت المرصفي، على الدابة القوية، التي وهبتني، أحث الخطى، وأقلب عقلي في شأني.

كان الطريق، رغم الصيام، يسيرا إلى طرابل. فالطريق هادئ، ولي خبرة بقطع الصحراء، والاهتداء بالنجوم، ومن قابلتهم دلوني على الطريق بود، هداهم الله، وجزاهم عني.

كان الفرنجة قد جمعوا حشودهم لحرب الزرقاء، التي التهبت بأشد مما ظنوا، بعد أن دعمت بعض القبائل المدافعين عن المدينة، وأمد بعض ملوك العراق القراصنة بالسفن، نكاية في الفرنجة، حيث تدور حرب عاتية معهم في أراضي الرافدين. أما الأهبال فقد توقفت حروبهم، واختفوا من خارج قلاعهم، ولعل زحفهم على الثغر الصغير قد ابتدأ فعلا.

وأما أغرب الأمور، فهو إن شيوخ القبائل، وأمراءنا لزموا منازلهم، لا يحاربون في رمضان! لعمري هذا أمر عجيب، ابتليت به الأمة. فحكامنا يقعدون عن الجهاد طوال العام، ولا يقعدون عن الحروب المحرمة بينهم، التي تنشب طلبا للدنيا، إلا في رمضان، مع إنه ليس من الأشهر الحرم! أما إن سألتهم عن الأشهر الحرم، التي قال الله عن القتال فيها (قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ) فلا تجد ردا إلا رماحا مرفوعة، ودماءً مسفوكة، وحرمات منتهكة. بل أصبحت تلك الشهور، التي لا تحل فيها الحرب إلا لضرورة قصوى، ردا على عدو سبقنا بانتهاكها، فرصة لنهب الحجاج الأبرياء، بسيوف تزعم إنها مسلمة، وما تعرف عن الإسلام شيئا.

ليت شعري! لم استحل المسلمون المسلمين، وحرماتهم بنفس هينة، وحجج واهنة، ولا ينفضون عنهم أرجاس الأهبال، وأوساخ الفرنجة خوفا وطمعا؟

وصلت إلى سوق الفتوح، حيث منزل الخاتون العامر، فوجدت المزيد من أموالها ينتظرني، مع درع الغيلان الأحمر، قد نظف ولمع، وأصلح، وصنعوا منه نسخة أخرى، لتكون معي إن أصابه شيء! وأوقن إنهم صنعوا منه عددا، تنتفع به الخاتون في حيلها.

وجدت كذلك عددا من أتباعها المتحمسين لخدمتي، يطيعونني في كل أمري، ولكن بالطبع ليس فيهم مثقال ذرة من إخلاص غول الحق، رحمه الله.

أمرتهم بإعداد دواب، وزاد للرحيل، وسألت عن تيمور فظهر إنها حفظته في مكان بعيد، حتى أرجع لطرابل، كي تطمئن لعودتي لها، تلك الخاتون المحاذرة. فغادرت المكان، واتجهت إلى طرابل، فنزلت على بيت سلمان.

استقبلني سلمان بدهشة كبيرة، وكان أول ما ألقاه عليّ قبل رد التحية:

"ألم تقتل؟"

قلت:

"ليس من السهل أن تقتل غولا أحمر يا سلمان! دع عنك هذا، فهناك أمر جلل، ومهمة وعرة، أحتاج لك فيها."

وبدون مقدمات أخرى، ألقيت له الأمر كله!

نظر لي نظرة من يرمق مجنونا، وفتح فمه، ربما ليصرخ، ثم أغلقه مبهوتا، ثم فتحه، ثم أغلقه! فأكملت هجومي عليه:

"هل تستطيع أن تساعدني في هذا الأمر؟"

لو سقط أمامي مصابا بالفالج، لما لمته قط! لكنه بذل مجهودا - أحسده عليه - لكظم غيظه، وتكلم من بين أسنان تطحن بعضها البعض:

"فيم أساعدك؟ أساعدك على أن تزوج أميرة، بنت الملوك، سليلة الخلفاء، لفلاح وضيع، يصغرها في السن ربما بعشرين عاما، بعد أن كانت زوجة حاكم طرابلس السابق؟ ولماذا؟ لكي تضع عنقها تحت سيف طاغيتكم الأسود، وتثير علينا جنون طواغيت الأهبال؟ سواء كنت غولا، أو عفريتا، أو حتى شيطانا، فهذا أمر لا يمكن أن يكون له تمام."

قلت له:

"لا تكن بهذه الثقة، فإن كيد البشر أنكى من كيد الشياطين. ووالله إني لقيت امرأة، لو طلبت إبليس، لاستعاذ بالله منها! وإنها معي في هذا الأمر، وإنه - بإذن الله - مقضي. إني لأحس أن الأقدار تسير معي، غالبة من يغالبني."

نظر لي بفضول، وقال:

"أي امرأة تلك؟"

قلت له:

"وما شأنك؟ هي عقل حكيم ألقاه الله في طريقي، وسخره لي، لكي أقضي أمرا، هو بإذن الله مفعول. هذا الفلاح نسيب

للأميرة، وزواجه منها يجعله ملكا متوجا، وتملكه يحقن دماء المسلمين، التي سيريقها الأهبال، ويحفظ بلادهم. يا رجل ألم تقرأ في كتاب الله (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ *لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ*)؟ لو لم يظهر من بيننا من يدفع شر الأهبال، فسيعم فسادهم الأرض، حتى طرابل. ولو لم يأت من يدفع شر الفرنجة، فسيمتد بطشهم حتى الحجاز. لو لم نتصد لخيانة الأسود، فسينزل غضب السماء على المتخاذلين، قبل المعتدين. ثق إن طرابل لن تكون آمنة، لو سقطت بلادنا."

قاطعني في فزع:

"ولم؟ ما شأننا بكم؟ بل معونتكم هي التي ستجلب الوبال علينا، ونقمة الخانات، بلا فائدة ترجىّ!"

أدركت أن هذا وتر حساس، فعزفت عليه.. قلت مستعيدا هدوئي، متمثلا لهجة الخاتون الواثقة القوية:

"من الذي كسر الأهبال قديما، وحطم حلم زعيمهم الهول؟ بلادنا. وحين تسقط بلادنا، ألن تنتعش أحلامهم، ويسعوا لإعادة بناء مملكة الهول؟ سينتشرون في الأرض، لا يبقون أخضرا أو يابسا.

وماذا يحدث عندما يتخذ الفرنجة الزرقاء قاعدة لهم؟ سيملكون البحر تماما، ويقضون على ما بقى من موانيه الأصغر

بسهولة. ووقتها سيتحكمون في موانيكم، فلا تمر تجارة لطرابل، ولا لغيرها، إلا بأمرهم!"

اصفر وجهه، وقال:

"ما هذه إلا تخرصات منك، تبغي بها إثارتي، وجرفي معك إلى جنونك."

قلت مصرا:

"ما يحدث عندنا في الغرب، نزفه يدمي في الشرق. ولا نفاذ لكم من هذا المأزق، إلا بالسير خلف ملك يتبعه العامة والخاصة. ينشر العدل، ويقود الجند المجاهد، ويرد الطغاة على أعقابهم خاسرين، ويكسر جموع الأهبال مرة أخرى، لا يقومون منها أبدا."

نظر لي مستنكرا، وقال:

"أترى في الشاب الغرير تيمور ملكا كهذا؟"

قلت:

"ليس وحده. الملك لو التزم بالعدل والشورى، وخاف الله، فقد أصاب العبء الأكبر. سنكون معه، وقد رافقته مدة طويلة، ورغم شيء من سذاجة فيه، إلا إنه حقا غلام طيب مخلص، يحمل في قلبه قوة كفيلة بزحزحة الجبال."

قلتها مجاملا، لكن وأنا أفكر فيها، دار في ذهني كيف كان تيمور صلبا معي، وكيف أكمل الطريق - أو حاول أن يفعل - وحده عندما فرقنا الشاطر عدنان. ربما لو كان حكمي عليه يوم التقيته، لما جرؤت على هذه الصفة. لكني قلبت الأمر في ذهني مليا، ووجدته اكتسب في هذه الرحلة من الألم ما قد يجعله أكثر حذرا وفطنة. على أي حال، لم يكن أمامي إلا تيمور. هو القشة التي أتعلق بها في غرقي.

نظر لي سلمان مفكرا، ثم قال:

"لا أستطيع أن أعدك بشيء أيها المجنون، لكني سأحاول!"

لا أدري أي معجزة تلك، التي جعلته يسلم لي بالأمر. أغلب الظن بسبب بغض أهل طرابلس الشديد للأهبال. كان ذكر أي أذى يصيبهم يحمسه، وذكر أي ربح يكسبوه يخيفه.

كان سلمان مفتاحا لقلب القاضي والحاكم، وهما في ظني من يستطيعا تليين رأس الشهابية. أرجو أن يكون الحاكم كارها لحماته، كما زعمت لي الخاتون.

وبعد أن تحولت لخاطبة شمطاء، كان علي الذهاب للفتى تيمور، وإقناعه بالزواج من امرأة لا تصغر أباه كثيرا!

"تبا! ما الذي تزعم إنك تفكر فيه أيها الغول!"

كان هذا رده الحانق، عندما رجعت للنزل، الذي نزلت فيه، ووجدته ينتظرني، قد أرسله لي رجال الخاتون، فأقبل علي مهللا، لا يصدق رؤيتي حيا، قبل أن يرده كلامي عني!

جادلته، قلت له أن هذا هو الأمل الأخير لنجد ملكا ينقذ البلاد، لكنه رد بصرامة:

"لا أريد هذا الملك. تبا له ملك يغبط المرء على النجاة منه! أتيت معك التزاما بعهد جدي، لا لأجعل نفسي ملكا!"

رددت بهدوء:

"بل أتيت معي لإنقاذ البلاد من سفك الدماء وتضييع الحرمات، ورد الأهبال والفرنجة عنها......."

قاطعني بسخط:

"أو سنفعل هذا بالزواج من تلك العجوز ؟ دع عنك هذا. تريد الجهاد، احمل سيفك وجاهد، ودع عنك زيجات القصور، وألاعيب الدواوين، التي لا طائل منها!"

قلت:

"هذا ما لدينا. هي سنة الملوك، وزواجك من ابنة الملك، يؤهلك لطلب ميراثه، فيتبعك الأمراء و......"

قاطعني بحسم:

"دع عنك هذا! وابحث لها عن زوج غيري، فإن لي خطيبة في بلدي تنتظرني، ما تركتها إلا لنداء واجب على أهلي، وما تركتني أرحل إلا لأعود لها بطلا، لا ملكا على غير مملكة، بزوج كئود غليظة!"

للمرة الثانية لا أضع بديهية في الحسبان. وشاركتني الخاتون هذه المرة، فلم نتصور أن يكون للفتى قلب أحب، وعهد لا يستطيع خيانته. لكننا بصد جد، لا هزل فيه، فلم أجد بدا من الإصرار بقولي:

"لا أطلب منك أن تتزوجها، لتنجب منها خليفة، أو لتأخذ مالها وتنتفع به. هي سيدة شريفة جميلة، ذات ملك أهديها لك، لأهديك أنت لبلادنا."

طبعا لم يقنعه حديثي، واتضح أن مهمة إقناعه أصعب مما أتصور بكثير. لكن مازال في جعبتي الكثير من الحيل، الترغيب في الملك، والاستعطاف على أهل البلد، والتخويف من الأسود، بل، والتهديد ببطش الغيلان الحمر! لم أترك حيلة واحدة إلا واستخدمتها غير نادم.

لكن بدا لي أن الحيلة الوحيدة المجدية هي الإلحاح! الإلحاح الأشد مرارة من السحر، ليل نهار على أذنه حتى يستسلم.

وهكذا دخلت العالم الغريب الشائك للخاطبات! أسير بين الاثنين، أوسوس، وألح.

تركت أمر تيمور مراهنا على رقة قلبه، وعطفه على أهله، وذهبت لمعركة الأميرة الشهابية الصعبة. سيدة قوية، عركتها السنون والخطوب، تربت بعيدا عن بلادنا، فلا تعرف غير طرابل وطنا، ولن يكون أمرها أبدا سهلا.

بدأت بمن حولها، لنضغط عليها معا، فقد كنت في عجلة من أمري، أريد العودة بالملك، قبل أن ينهي الأسود حصار الزرقاء. لقد فقدت بالفعل ابن عامر، حاكم الثغر الكبير، بعد أن قتله الأسود، لمجرد إنه تعهد بإتباع رأي باقي الأمراء، إن أتى لهم الوريث. وسأفقد حتما باقي أمراء الغرب، لو حسم الأسود سريعا أمر الزرقاء، وسار بجيوشه قبلي نحو الغرب. لو سقطت أي من مدن الغرب، كواحة ساوة، أو حصن ساوة، أو مدينة الطارحة، فأجزم إن كل أمير سيأخذ جنوده، ويهرب بعيدا منكفئا على نفسه في ذعر، دون مزيد من قتال.

كان حاكم طرابل، زياد ابن أسامة، الشخص الوحيد المتحمس لأمري، ليس كرها في بقاء حماته قربه، فقد كان أبعد من هذا نظرا، لقد رأى أنه لو انتصر الملك، فسيكون حليفا قويا لطرابل، يكسر عنها تهديد الأهبال، وشوكة الفرنجة، ولو انهزم فسيرهق جنودهم، ويكتفون بما انتهبوه من بلادنا، لا يطمحون للمزيد من التوسع جهة الشرق، وربما ينقلبون على الأسود في حرب طويلة، وفي جميع الأحوال لن تخسر طرابل شيئا.

وقد أيدته في قوله، وزدت عليه بتخويفه من ترك الساحة لحلف الطغاة خالية. فلو التهموا بلادنا سائغة، فسيطمعون في المزيد من البلاد، فكما يقول الشاعر (إن الطعام يقوي شهوة النهم).

وبمساعدة زياد ابن أسامة، نجحت في إقناع ابن عمه، عبد الله بن محمد، ابن الشهابية، وزوج أخته. صحيح إن الجدال معه كان عنيفا، لكنه سلم لنا بالموافقة، لم أدرِ رهبة من الغيلان الحمر، الذين يتناقلون عنهم أساطيرا عجيبة في بلاد لم ترهم، إلا قليلا، أم طمعا في أن يصبح وليا للعهد، عقب تيمور، كما لمح له حاكم طرابل.

ولكن اتضح لي أن كلا الظنين مخطئ، كان الأمر متعلقا بتيمور نفسه! هناك نفوس ما أن تلتقي حتى تتآلف، وكان هذا ما حدث! ما أن تكلم الاثنان، حتى طابت نفس كل منهما للآخر، وتحدثا بهدوء بعد الغضب، وظهر لابن الشهابية إن الفتى راغب تماما عن هذه الزيجة، لولا إشفاقه على أهله من بطش الأسود والفرنجة.

بعد أن أقنعت عبد الله، ظننت أن الطريق أصبح ممهدا، واتفقت معهم على أن نجلس جميعا مع الشهابية في الغد، لإقناعها، لكني فوجئت بعائق آخر، لم يكن في الحسبان!

(٤٩)

الغيرة!

أتتني ابنة الشهابية، زوجة حاكم طرابل، قبل المجلس، فرحبت بها بهدوء، وأنا أنظر بحذر للحراس الخمسة المدججين، الذين أتت بهم معها، لكني فوجئت بها تخرج من بين ملابسها سكينا، ووضعته على عنقي!

فتحت فمي لأتكلم، لكن أحد الحراس كممني من الخلف بغتة، وقالت المرأة بصوت كالفحيح:

"مؤامرة الخاتون الحمقاء هذه، لن تجدي معي أيها الأفاق! لو لم تترك طرابل فورا، أنت وهذا الشحاذ، فلن ترحلا لأبعد من قبور طرابل!"

عقدت حاجباي في غضب. كنت واثقا إنها لن تجرؤ على قتلي في قلب قصر الحاكم هذا، لو إنها من النوع الذي يقتل أصلا. نزعت يدي بقوة من الحارس، فلم يمانعني كثيرا، وأمسكت بيدها أبعد السكين، وقلت في غضب:

"ما هذه الحماقة؟"

نظرت لي بعيون مجنونة، وقالت:

"لن أتركك تزيح أمي من طريق الخاتون يا مأفون."

بدت لي ربة منزل ساذجة، لا تفهم شيئا، فقلت محاولا تهدئتها:

"ما شأني وشأن الخاتون؟ لقد أتيت لمحاربة الـ......."

قاطعتني:

"لست بلهاء! رجالك وأعوانك وأموالك من عند الخاتون."

قلت:

"هي تساعدني لعداوة بينها وبين الـ......."

قاطعتني مرة أخرى:

"تساعدك لكي تزيح أمي عن كاهله، فيستطيع الزواج منها."

نظرت لها بغير فهم، وقلت:

"من يتزوج من؟"

قالت:

"زوجي حاكم طرابلس! يريد إزاحة أمي، ليتزوج عليّ من الخاتون."

فغرت فاهي مذهولا، ونظرت حولي غير مصدق، فرفعت سكينها مرة أخرى، وقالت:

"سأدافع عن زوجي بالدم يا أحمق، ولن تهمني دروع العالم كلها، مهما كانت حمراء."

واندفعت تغادر المكان، وهي تجهش بالبكاء! وقفت في مكاني متجمدا، فإذا بأحد الحرس يمد يده لي بخرقة قماش، ويقول:

"لقد جرحتك في عنقك! امسح الدم يا سيدي!"

نظرت له مستنكرا، فقال:

"آسف حقا لما فعلنا. إن مولاتي تغير غيرة غير عادية من الخاتون. مولاي الحاكم لم يستطع النوم طوال الأسبوع الماضي، منذ خاطبته في شأن مولاتي الشهابية، فهو في شجار دائم ليل نهار معها!"

تركته وأسرعت للحاكم. كان علينا أن نقابل الشهابية بعد ساعات، وما كنت أتصور أن غيرة النساء ستتدخل لتفسد أمري. لقد ضحى تيمور بالكثير، وأجبر نفسه على القبول بأمر سيجرح محبوبته، التي تنتظره في طرابل، وضحيت أنا بأرضي وحياتي، وفقد غول الحق روحه، أينهار كل هذا لغيرة تافهة، أم هي شهوة حقيقية لدى الحاكم؟

الخاتون حقا ليست بالتهديد اليسير لأي امرأة في العالم، ومع ضراوة تلك الابنة الشرسة، فعلي أن أتيقن أن الأمر لا يزيد عن شكوك نساء في بعضهن البعض. ولما واجهت الحاكم أفحمني برده

"يا رجل، ذقت حياة صعبة لأم تفرض عليّ آراءها، ولما كبرت وأصبحت حاكما لكل طرابل، كانت حماتي امرأة أقوى، تعد عليّ أنفاسي، أبعد كل هذا ألقي بنفسي في أتون جبارة كالخاتون؟ من ذاق الزواج مثلما ذقته، لم يطلبه مرة أخرى! لا أنفي إني، كغيري، معجب بالخاتون؛ لكني أخشاها. لها حكمة كحكمة بلقيس، مع دهاء كدهاء إبليس، ووجه جميل كالملائكة، يغطي قلب مترفع كالأكاسرة! كلا! لست أهلا لها، ولا هي أهل لي. ربما تفتت غيري بلسانها، الذي يذيب الحديد؛ لكنني لن أرى منها إلا كبرها، الذي يحقر أي مريد. لن أريدها، ولن أكون من مريديها."

بدا لي غزله الممزوج بالذم مقلقا، لكن منطقه أقنعني. في الحقيقة، حاولت وضع نفسي مكانه، وفزعت! أن أكون زوجا للخاتون ليس بالأمر الذي يغبط عليه المرء، حتما إلا لو كان يهوي العبودية! أعوذ بالله من هذه الفكرة. أكون زوجا للخاتون؟ لم أحتمل بقائي في خيمتها ساعة، فأنى لي بفكرة حمقاء كهذه!

تركت الحاكم ليهنأ بدقائق من راحة قبل الاجتماع المرتقب. أخذت أعدد حججي، وأفكر في هذا الجدل الطويل القادم. لم أقابل الشهابية من قبل، إلا للحظات معدودة، ولا أعرفها، ولكن الجميع يؤكد فطنتها، وقوة شكيمتها. ترى كيف أقنع امرأة مثلها؟

جلسنا في مجلس القاضي، ننتظر الشهابية، فدخلت علينا مع ابنتها، وزوجة ابنها، وجلسن قبالتنا صامتات، بينما تنظر لي الابنة متحفزة، حتى أكاد أقسم إنها، في أي لحظة، ستقفز عليّ، لتنهش عنقي، كما يفعل ابن آوى بفريسته!

لكن الشهابية نفسها كانت هادئة، رصينة، تذكرني بهدوء الخاتون لكنها أكثر وقارا.

تكلم القاضي أولا، فقال:

"بسم الله الذي له ما في الأرض، وما في السماء، مالك الملكوت، رافع العبيد، وخافض الملوك. قد جمعنا الله لأمر مبارك، أن ننظر في حلف بين بلدين مسلمين، ضد أعداء الإسلام، في زمن لم يعد المسلم يتحالف فيه، إلا لكي يتقي شر أخيه المسلم! حلف نختمه بإذن الله، بزواج مبارك، يعقد لواء الملك لمن يرفع لواء الجهاد."

صدرت صرخة مزعجة من زوجة الحاكم، التي نظرت بذهول للقاضي، وقالت:

"مولانا وشيخنا، ألم تحدثني بالأمس عن إن الزواج لا يجوز بغير كفء؟"

تنحنح القاضي، وقال:

"قد وضح لي سيدتي عظم الفائدة، وصلاح الحال في الزيجة، كما أن أمر قبول الكفء وغير الكفء في يد الولي من ناحية، وهو مولانا الحاكم، وفي يد مولاتي الشهابية، فهي ثيب، ومشهود لها بالحكمة."

انبثقت ابتسامة مكتومة على وجه زياد، وأحسست أن ما رأيته هذا الصباح، لم يكن سوى شاهد قبر، مدفون في داخله مؤامرات بحجم الأفيال!

لكن الشهابية تكلمت، فصمت الجميع منصتين، بدأت بذكر اسم الله، والثناء عليه، ثم قالت:

"ما أن سمعت بطلب الزواج المجنون هذا، حتى ضحكت واستهزأت، وكدت آمر بنفيك أيها القبيل من المدينة، وما كان ليهمني أن تكون غولا أحمرا، أو تنينا أسودا! لكني في حياتي لم أقطع أمرا، مهما بدا محتما، إلا بالاستشارة، والاستخارة، أما الاستشارة، فكانت وبالا عليك، لم يكسرها إلا زوج ابنتي الهمام، لغرض في نفس يعقوب!

لكن الاستخارة كان أمرها عجبا! لم أشهد في حياتي تغيرا لحالي، وتقلبا لصدري، بين يوم وليلة مثل اليوم. أدركت أنها زيجة

لمصلحة المسلمين، لا أدري أكان في حلمي، أم في يقظتي أني سمعت تيمور يهمس في أذني (عصمة الدم أولى.).

لم يبد لي كهذا الشاب الواقف أمامي، بل بدا رجلا مهيبا، قوي العزم، لعله جده العلاف، صاحب الفضل على أهلي.
والله إن فيك أيها القبيل سر ما، لا يعلمه إلا الله! لعله الإخلاص، الذي وصفه بعض الصالحين، إنه قادر على زحزحة الجبال بأمر الله! إني لأرى أنك منصور بأمر الله، والله غالب على أمره، ولو كره الكافرون."

كان حديثها هادئا، واثقا، مفعما بالإيمان. تلك امرأة أتاها الله الحكمة، لتعمل بها، وليست كالخاتون، تعمل لصالح حالها وثأرها فقط.

نظرت بقلق للابنة الشرسة، لكني وجدت كل الوجوه قد سكنت، وهدأت، وانطفأت الشياطين التي كانت تتقافز في عيني الابنة الغيور. فقلت مرتاح البال:

"جزاك الله خيرا يا مولاتي الأميرة، وإن هذا أمر، لا يأتي من ورائه إلا الخير بإذن الله."

قالت الشهابية:

"حسبك، لم أكمل كلامي بعد. قلت لكم إني لما أتيت بالاستخارة، لم يطمئن قلبي لغير القبول بهذا الأمر العجيب، لأتزوج من شاب في عمر ولدي، لم أره قبل أسابيع قليلة،

فأسافر معه لبلاد لفظتني قبل أن أولد، وأهدرت دماء والدي، رحمه الله، بغير ذنب. تلك ليست ببلادي، فأنا مولودة في طرابل، ولها أنتمي، وفيها عيشي ومقامي، وإني لأخشى على أهلها من ورائي الاضطراب. لو رحلت عن طرابل، فلن اطمأن في سفري، إلا ومعي ابني، وحينها سأترك نعجة نهمة، كزوج ابنتي، فريسة سهلة لذئبة جامحة كالخاتون! وما كان لي أن أفعل هذا أبدا!"

أخ!.. ها قد عدنا لحديث الغيرة، ما كنت لأسمي حاكم طرابل بالنعجة أبدا، وإني أظنها، رغم عظم قدرها، حماة لا تعطي زوج ابنتها قدره أبدا!

رددت بنفاد صبر:

"ليست الخاتون ذئبة متربصة ببلادكم، وإنها لفي الحرب معنا، ولا اسمي حاكم طرابل بالنعـ..........."

قاطعتني بقولها:

"التمس لي عذرا يا هذا! فقد عاشرت نعجة نهمة لسنوات طوال، ولولا حصافتي، لأضاع ميل زوجي للنساء طرابل وما حولها! لم تعش بيننا، وتسمع الحكايات العجائب عن اللاتي اذهبن عقله من حسناوات، دسهن علينا الأهبال! لولا ما ألهمني الله به من تدبير، لما كان الحال هو حالنا اليوم. أمثال الخاتون أعرفهن، وأخبرهن جيدا، وإنهن لا يؤتمنّ أبدا. ولو

تسلطنت على رجل، مهما صور له غروره من عزة وكرامة، فستذله، وتحوله برضاه عبدا حقيرا لأقدامها! لن أرحل من طرابل، وخطر تلك الملعونة يتربص بمدينتي."

آآآآآآآآآآآآآآآآه! هذا هو تباغض النساء، وكيدهن لبعض! لا أملك دواء لهذا العناد.

حاول الحاكم أن يدافع عن نفسه، وأن يقسم لكن الشهابية أخرسته بإشارة من يدها، وقالت:

"قل لي يا تيمور، لماذا قبلت بتلك الزيجة، رغم أنك تحب امرأة أخرى تنتظرك ؟"

رد تيمور بصوت كئيب:

"ما كان لي أن أبني حبي فوق دماء الأبرياء، علي أن أضحي."

قالت الخاتون:

"وما أطلبه أهون من هذه التضحية، أيها القبيل يا زعيم الغيلان، لن أرحل إلا إذا وجدت الخاتون زوجا غير الحاكم، وما كنت لأجد زوجا لها أفضل منك! لتتزوج أنت الخاتون، وترحل بها معنا على نفس المركب!"

(٥٠)

الزواج

"ألجمتني المفاجأة! بينما أتى الرد الشرس من حيث لا أحتسب! من شقيقة الحاكم، زوجة عبد الله! ثارت وقالت:

"أتأخذينها مع ولدك في مركب واحد! والله لا آمن على زوجي منها، ولو كانت متزوجة، فإنها إن لم تغوِهِ، أذهبت عقله، وقلبته على أهل بيته!"

قالت الشهابية ببساطة، كأنما تدعوها للتنزه في حديقة غناء:

"فلتأت أنت الأخرى معنا إذن!"

وهنا تجهم الحاكم، خوفا على أخته، وتجهمت الأخت خوفا على زوجها، وتجهم الزوج من إلحاح الزوجة!

بينما انفجر غيظي، وقلت:

"تلك رحلة قد لا تأتي منها عودة، وما أحب أن أجمعكم إلى الموت معا! كلما قل عددنا، وخف حملنا زادت آمالنا. لن أرحل ويثقلني نصف نساء طرابل، لأنكن تخشين من الخاتون! دعوني أخبركم أن الخاتون لا ترى في أي من رجالكم من هو أهل لها،

ولا حتى القبيل زعيم الغيلان، أو ابن أسامة حاكم طرابل!
الخاتون لا تبحث عن زوج، وإنما كل ما تبغيه هو رأس القائد الأسود."

نظروا لي بغير فهم، مع استهجان من النساء، فأردفت بقولي:

"ماذا تعرفون عن الخاتون، قبل أن تأتي لطرابل؟"

قال ابن الشهابية، بسرعة أندمته نظرة زوجته عليها:

"كانت زوجة لشهبندر سوق الفتوح، وورثت عنه بعض ثروته."

قلت لهم:

"هي بنت الأمير المرصفي، الذي كان قائدا للجند في عاصمتنا، وغدر به القائد الأسود، فسلب ماله وسبى نساءه، وقتل أغلب ولده، إلا واحدا جعله له خادما ذليلا. كانت الخاتون أميرة غير متوجة على العاصمة، فذاقت الويل والهوان والسبي على يد الأسود. لا تحمل في قلبها إلا حقدا عليه، فلن تنازعكن في ملككن يا نساء طرابل، فدعونا من هذا الشأن، فهي معنا على غريمنا، ولن تجرؤ على مضايقتكن، حتى لا نرجع عن حرب الأسود. وإذا انتهت الحرب بنصرنا، بإذن الله، فستعود لقصر أبيها، تعمره بعد خراب، وترفع رايتها مكان راية الأسود."

هدأت نفوس النسوة، ربما لأنهن كن يبحثن عن الهدوء، فأطعنني فيه! أو لعلها طبيعتهن في حب أحاديث النميمة، وأخبار الماضي، وأسرار الغريمات! أيا كان، فقد انتزعت بعد مشقة موافقة الشهابية، وتيمور، وأتم القاضي الزواج في جلستنا.

ما أن أنهينا عقد القران، وانفض مجلسنا الصغير، وجلسنا مع قاضي طرابل، ليكتب لنا شهادته، حتى أتى الحرس يقولون إن هناك رسولا من الخاتون ينتظر.

شحب وجهي، ونظرت تجاه الشهابية قلقا، لكنها قالت بجفاء:

"أدخلوه."

دخل شاب صغير، أنيق الزي، فانحنى، وقال:

"تحية وتعظيم لمولاتي الملكة الشهابية."

ثم أعطاها لفافة مختومة، وقال:

"هدية زواج من مولاتي الخاتون."

مدت الشهابية يدها للفافة بفضول، ثم تداركت نفسها، فوضعتها جانبا، وأشارت بكبرياء للرسول ليرحل. وما أن غاب عنا الرسول، حتى قالت بغيظ:

"كيف ومتى علمت؟"

انقضت ابنتها على الرسالة، ففتحتها، ونظرت لها مذهولة، ثم سلمتها لأمها، التي احمر وجهها، وقالت:

"تلك الماكرة، كيف تستطيع أن تصنع تلك الأمور، والله لا أثق فيمن بمثل مكرها أبدا! كيف أرحل عن طرابل، وأتركها للخاتون؟"

(٥١)

حكاية البحار عمر ابن الأشرف

٥١- ١ (الرحيل)

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان:

"أخيرا أعددنا العدة للرحيل بعد شد وجذب، وبدأت أتجهز، وقد زادت ثقتنا، وتضاعفت آمالنا. اتفقنا على الرحيل بالبحر، لأنه أكثر أمنا، خاصة مع ما أصاب سفن القراصنة في حصار الزرقاء الدامي. أشهد أن هؤلاء اللصوص يدافعون عن وكرهم بقوة، أشد مما دافع أهلها عنها في الغزوة الأولى! وكان هذا لحسن طالعنا.

لكن محطة بلادنا الوحيدة على البحر الشرقي هي الزرقاء نفسها، التي تحترق بالحرب والحصار. وهنا سألت، فقال الناس لي:

"عليك ببحار لا مثيل له، هو عمر ابن الأشرف".

كان يملك سفينة صغيرة، لكنها سريعة، ويتفاخر دوما بأنها أسرع ما يجري فوق البحار جميعا، بأمر الله.

تحدثت مع ابن الأشرف قليلا، لكي أرى كيف يكون رحيلنا. ولم أخبره بالطبع عن أخبارنا وغرضنا. فقط أعلمته بأنني أريد الرحيل لساوة، لتزور الشهابية قبر أبيها.

أخبرني إن السفر طويل خطر، ولا جدوى من محاولة التسلل للزرقاء. وقال:

"لا يوجد في بلادكم ميناء غيرها، والبحر الشمالي لا أنصح به، رغم أنه أقصر وأيسر، أعرف بحارة طيبين يعملون فيه، يمكنني أن أدلكم عليهم إن أردتم، لكن خطر سفن الصيادية والسور العلي هناك كبير، والثغر الصغير يزحف الأهبال عليه -كما سمعت- والكبير قد تهدم، وخضع للقائد الأسود، وهو طاغية قاسٍ، لا آمن على أميرتنا الشهابية منه."

قلت له، كأنني لا أعرف مثله وأكثر:

"فما الحل إذن؟"

رد:

"لتركبوا معي في أسرع سفينة وسط البحار، اليوم حرب على الزرقاء، سيعقبها تشتت القراصنة، يهيجون في كل البحر. فلننتهز الفرصة، وأمضي بكم سريعا لأقصى الجنوب. هناك ميناء

صغير أعرفه، يستخدمه بعض التجار سرا، بعيدا عن عيون القراصنة، أنقلكم لهناك، وترحلون منه عبر بلاد الأحباش والسواد، فتركبوا النهر شمالا، حتى تصلوا لبلادكم."

بدت لي فكرة جيدة، رغم طول السفر، وضيق الوقت. فقط لأدعو الله أن يظل الأسود عالقا في الزرقاء، ولا يشن هجومه على الغرب الآن.

وهكذا هرعنا للسفر على سفينة ابن الأشرف (السالمة)، لا نحمل إلا القليل من المتاع، وأغلاه طبعا هذا الخطاب الثمين، الذي أوصلته لنا الخاتون. لا أدري كيف تفعل هذه المرأة ما تفعله! كيف وهي وسط صحراء الحجاز البعيدة، وصلت إلى الخليفة لتنتزع منه خطابا يعترف بتيمور ابن زهير ملكا على بلادنا!

تلك ضربة قاصمة، أفرغت فيها كل حقدها على الأسود! حقا إن كيدهن عظيم! لكن مهما أوتيت الخاتون من عجائب، فمازالت الحرب ضد الأسود مريرة، غير يسيرة.

اليوم، وقد أصبحت أفضل حالا مما بدأت، وامتلكت أقصى ما كنت أحلم به ويزيد، كان اليأس يراودني. بعد أن اقتربت ساعة الحق، وفرغت من أمر الوريث، أخذت أفكر فيما هو تالٍ. سأختبر الآن معدن الأمراء. والكارثة إني أعلم بالفعل كم هو خسيس هذا المعدن! سينفض أغلبهم عنا حتما، الوحيد الذي

كنت أعقد أملا على شهامته ومروءته، هو ابن عامر، الذي غدر به الأسود، وقتله شر قتلة.

لكن أوان التراجع قد فات، ليتني كنت حقا زعيما للغيلان الحمر، لأجد منهم نصيرا للحق. لكن عهد الغيلان، ومن يعتنقون الشجاعة مذهبا، قد ولى عن بلادنا بغير رجعة.

أخرجت كتاب الشجاعة، أسلي نفسي فيه. الغول الأحمر لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا. ليتني أمتلك مثل هذه الشجاعة الحمقاء، أو على الأقل لأمتلك من الإيمان قدر يعوضني، ويثبتني في رحلتي هذه. آه عليك يا غول الحق، رحمك الله. كم أحتاج اليوم لنصرتك.

هنا دخل علي ابن الأشرف، يدعوني لطعام أول غداء في الرحلة، قائلا:

"أتفاءل بأن نأكل جميعا معا أول يوم، لتربطنا مودة الإطعام، فما يكون لي أن أضايق ضيف مائدتي، وما يكون لمن أطعمته أن يغدر بي. ولو إني أعرف بالطبع أن رفاق الشهابية لن يغدروا!"

ألقيت كتاب الشجاعة جانبا، ونهضت، فأمسك به ابن الأشرف متسائلا:

"ما هذا؟ لا أقرأ فاعذرني إن سألت."

رددت عليه مخفيا ارتباكي:

"دعك منه، إن هو إلا كتاب توارثته عن أسلافي."

صمت لحظة يتأملني، ثم خرج دون رد. فاتبعته، وجلسنا على مائدته، نتناول السمك الشهي، والخبز الساخن، مع بعض التمور الحجازية الشهيرة.

٥١- ٢ (حكاية أبو الشوارب)

أخذ يقص علينا حكايات، وحكايات عن البحر والبحارة والقراصنة. كان فخورا بمهنته، وسفينته المسماة بالسالمة. ويحفظ قدرا هائلا من أخبار البحارة، ولم يدخر فرصة، طوال الرحلة، ليقص علينا بعضا منها.

"فمثلا، ذات يوم أبطأت السفينة، رغم هدوء البحر، ويمن الرياح، فنظرت أبحث عن الشاطئ، فأدركت أنه بعيد وأن المكان ليس بالضحل، ولما كنت على علم بقليل من عمل البحر، منذ كنت صبيا، يخرج مع والده للصيد، فقد تعجبت من هذا، فرد عليّ:

"إنها الشعب! أسفل الماء هنا، ينمو مرجان كثيف، لو اصطدم بقعر أي سفينة، فسيغرقها. البحارة عادة ما يلتفون بعيدا عن المكان، ليضيعوا أياما في مياه ضحلة، قرب الشاطئ، لكني أعرف طريقي بينها جيدا، فأسلك الطريق المختصر ولكن بحذر طبعا. ذات مرة اعترضني أبو الشوارب، ربما لا تذكرونه، لكنه كان قرصانا رهيبا مشهورا في كل مكان. لم تكن الزرقاء قد سقطت، بعد فكان أبو الشوارب ينتقل بين كل الموانى، مهددا السفن. هاجمني، لكن السالمة الحبيبة سبقته، فتبعني بإصرار، فجررته لهذه المنطقة، وشاهدته وأنا أضحك، بينما سفينته تغرق،

وقد قصمها المرجان، حتى كادت تشطر لنصفين. وشاهدته يركب مركبا صغيرا، ولم أظن له النجاة، فسخرت منه، وقلت له "سألقي لك ببعض الطعام، والماء العذب، إن حلقت شواربك يا أبا الشوارب!"

وكان في ضيق عظيم حقا، لكني لم أظنه يفعلها، فوجئت أنا ورجاله به يخرج خنجره، ويقطع به شاربه العظيم بغلظة، وألزمتني كلمتي، فألقيت في الماء قربه بعض الطعام والماء، وابتعدت مسرعا. وحينما عدت إلى ميناء الزاهرة، أمسك بي هو ورجاله في مقهى هناك!

أيقنت لحظتها أني هالك لا محالة، ورقبتي ستلحق بشاربه! لكن الرجل فاجئني للمرة الثانية، فقدم لي كيسا به عشرة آلاف درهم!

لم تسمعني خطئا! نعم بالفعل عشرة آلاف درهم، لا تنقص واحدا! وقال لي:

"أبو الشوارب لا يأخذ في البر ما أخذ منه في البحر، ما كان لي أن أثأر منك على الشاطئ يا من غلبني في مملكتي، خذ هذا المال، واهجر الملاحة."

وأخذت منه المال الحرام، فوزعته على الأيتام، والثكالى، الذين أفقدهم أبو الشوارب عوائلهم. وعدت للملاحة مرة أخرى متجاهلا طلبه، أتدري ما حدث؟ حاول مطاردتي مرة أخرى،

لكني كنت أكثر حذرا منه، فهربت منه بفضل سرعة سفينتي وخبرتي الكبيرة. فماذا فعل أبو الشوارب؟ هل تتصور؟ لقد اعتزل البحر، بعد أن غلب فيه! لم يقبل أن يجد من يتفوق عليه في البحار، وأبى أن يأخذ ثأره بالغدر في المقاهي. رجل غريب أبو الشوارب هذا. هو مجرم لص، لكنه كان يحمل في قلبه شيئا من الرجولة".

وأنهى ابن الأشرف حكايته العجيبة، وانتهت معها منطقة الشعاب، فأسرعت السفينة مع الريح مسرعة نحو الجنوب.

وأخذت أتأمل بشوق وحنين صفحة الماء الهادئة أثناء الليل، حينما كنت صبيا، كان والدي إذا اشتدت بنا الفاقة، يخرج للصيد سرا أثناء الليل. كان يختار الليالي المقمرة في الصيف الهادئ، فيأخذني معه، ويتجه نحو المياه العميقة، فيصيد ما يمكنه، ويتركني ألهو كما أشاء حوله، أو أتأمل النجوم اللامعة. ونجوم البحر، غير نجوم البر، غير نجوم الجبل. كل منها له مذاقه، ومتعته. وحين ينهي أبي صيده، ينزلني أجرجر السمك في جوال من الخيش نحو المنزل، متسللا بعيدا عن أعين جباة الضرائب، بينما يعود هو لهم بالقارب خاويا عند المرسى.

كنت أذهب بدلا من أخي الأكبر رحمه الله، لأنني أحب هذه الرحلات الليلية، التي يتأفف منها شقيقي. ثقل الحمل الذي أجرجره خلفي، يهون لساعات اللذة، والبحر ملكنا وحدنا، أما

أخي فكان يقول إن علينا مواجهة الجباة، ليكفوا أيديهم عن نهبنا، بدلا من التسلل برزقنا كاللصوص. رحمه الله، ما نال غير السيف! وما نال أبي أيضا غير السيف، وأظن السيف ينالني في النهاية!

٥١- ٣ (حكاية السمكة الفتانة)

بينما كنت غارقا في ذكرياتي، انتشلني منها ابن الأشرف قائلا:

"لا تقف كثيرا أثناء الليل على سطح السفينة، فنحن نمر الآن جوار جزر الغطسان."

نظرت له بغير فهم، فبدأ كعادته يحكي:

"جزر الغطسان جزر صغيرة، يغمرها الماء عند المد، وتظهر فقط في أوقات الجزر، أو عند اكتمال القمر. يقال إنها كانت عامرة بالسكان، فتمردوا وتجبروا على خلق الله، حتى أتى ولي من الأولياء، دعا عليهم، فغطست الجزر بهم. ولكن لا أظن هذا، فلا يظهر لي فيها - حينما تبرز- أثرا لمبنى أو حجر. لكن البحارة يخشون منها المرور ليلا، حتى لا تخرج لهم كما يزعمون السمكة الفتانة".

سألته عن السمكة الفتانة، فأجاب:

"هي مخلوق شرير، يقال إنها كانت ابنة جميلة، لساحر يعمل عند ملك عظيم. لكنها لم ترض بما رزقت به من جمال ونفوذ، فقد كانت حسودة حقودة، تنهشها الغيرة لما في يد غيرها. قالت لنفسها :

"أيقال عني جميلة، وزوجة الملك أجمل؟ أيقال عني غنية، وابنة الملك أغنى؟ أيظنونني معروفة بين الناس مرموقة، والملك أشهر؟"

حقدت كثيرا على الملك وأسرته، ودبرت لهم المكائد. فاختلست من أسحار أبيها شيئا، ألقته على الملك، فأصابه المرض والضعف والشرود.

واحتارت زوجة الملك لما أصاب زوجها، فدارت تسأل وتأتي له بالحكماء والسحرة، فلم يعرفوا ما أصابه، وما تخيلوا أن تأخذ ابنة الساحر شيئا، تؤذي به سيدها. وهنا وسوست الفتاة الحقود للزوجة المسكينة، فقالت لها:

"مثل هذا الذي يصيب الرجال إذا أحبوا! لقد سقط الملك العجوز في قبضة شيطانة صغيرة، طامعة في تاجك يا مولاتي."

قالت الزوجة المكروبة:

"وكيف هذا، ومن هي؟"

قالت الساحرة:

"أما ترينه يتغير إذا أتته ابنته مع صديقاتها؟ تلك الملعونة ميمونة، التي تختال بنفسها أمام الرجال؟ إنها سبب تغير حال زوجك، ولو طردتيها من القصر، فسيعتدل حاله."

غارت الأم على زوجها، وتشاجرت مع ابنتها، تريد إجبارها على مقاطعة صديقاتها جميعا.

وهنا أتت الساحرة للأميرة، في صورة الوصيفة المخلصة النصح، تقول لها:

"لا أفهم لم تغضب أمك على صديقاتك فجأة؟ ربما يكون في الأمر شيئا، تخشى أن يعارضنها فيه."

سألت البريئة المسكينة:

"وأي شأن تتدخل صديقاتي فيه؟"

قالت الخبيثة:

"أما ترين مولانا الملك مريض قد ضعف؟ في هذه الأوقات تسعى الممالك لتقوية ملكها بمصاهرة الحلفاء، حتى لا تغري وعكة الملوك أعداءهم."

فهمت البنت ما تلمح له الساحرة. كان لهم حليفا ملكا عجوزا، تبغضه بشدة لما عرف عنه من اشتهاء النساء، وإيذاءهن. وظنت أن أمها تسعى لتزوجها له، لتقوي عرش أبيها وأخيها، وقالت الساحرة:

"تستبق رفضك بإضعافك حتما. لو بقيت صديقاتك إلى جوارك، فحتما سيقوينك على الرفض، ويشددن من أزرك!"

غضبت البنت من أمها، وأصرت على إبقاء صديقاتها قريبات منها. لو تنازلت في أمر صديقاتها اليوم، فالله أعلم ما ستجبرنها على التنازل عنه غدا!

وازداد الشقاق في البيت، الذي كان آمنا، فتعجبت أم الملكة مما دار بين حفيدتها وابنتها أثناء مرض الزوج. فحاولت الإصلاح بين الثلاثة قدر استطاعتها. واندفعت الساحرة تدور بين الثلاثة، حاملة رسائل الجدة، كأنما تساعدها بإخلاص في الصلح؛ لكنها ألقت النار على الفتنة دوما.

وأحست الجدة بالتعب. لا تفهم ما يحدث، لأن كل واحدة تكتم مخاوفها عن الأخريات، فإذا بها تحدث الساحرة تستفهم منها عن أصل الشجار، فزعمت لها أن البنت الصغرى قد وقعت في حب غلام من غلمان أخيها، وتريد الزواج منه. ولضعة الفتى، وخشية الفضيحة، فالوالدين يكتمان الأمر.

ودست الخبيثة من سحرها ووسوستها، ما جعل الظنون تتوالى على الجدة، حتى توهمت أن الفتاة قد أذنبت مع الغلام.

وثار الدم الحار في عروق الجدة، التي عرفت بشدتها. فدبرت قتل الغلام، وحبست الأميرة في سجن لا يعرفه سواها!

تعجب الملك من اختفاء ابنته، بينما غضب الابن لمقتل مساعده. وأخذ يبحث عن السبب، لكن الساحرة كانت سباقة، أوهمته أن الجدة - أم الملكة - لما علمت بمرض الملك،

وأن موته قد يكون قريبا، تبغي رؤية ابنها هي وريثا للعرش، ولذا تكيد لحفيدها. وبدأت بقصقصة أجنحته، باستهداف أعوانه المخلصين، ورميهم باتهامات لا يمكن تصديقها.

وأصيب الفتى بالخشية على الملك، الذي لا يملكه! وهذا نوع قاتل من الخوف، يصيب بالجنون، ويذهب بالعقول، وكم من جرائم ارتكبها ولي عهد تجاه أبيه، وأخ في حق أخيه، ممن يجري في عروقهم نفس الدم.

ودبر الأمير بمعاونة الساحرة ثورة دموية، باستخدام عدد من السجناء والمجرمين، فقتل الملك والملكة، وجدته وخاله، وانفرد بالعرش المسموم، وأجلس الساحرة زوجة إلى جواره، جزاء مساعدتها له.

لكنها تدخلت في شئون الحكم، فضاق بها، وخشي على نفسه من مكرها ودهائها، فذهب لها وقال:

"إن أختي حبيسة الجدران، التي وضعتها جدتي فيها، وإني أخشى إن أطلقتها أن تجمع الناس عليّ ثأرا لأبيها. ولو أبقيتها سجينة فقد تهرب، ولو قتلتها فربما يثور عليّ القادة. أريد أن أسقيها شيئا مسحورا، يحولها لشكل قبيح منفر، يبعد عنها الناس، ويعجزها، فلا تقدر على عمل شيء ضدي. لا أريدها أن تموت، وفي الوقت نفسه لن تظل حية!"

بحثت الفتاة في أكوام السحر التي خلفها والدها خلفه، فوجدت شرابا يحول من يشربه إلى سمكة، تموت لو خرجت من الماء نهارا، وتعود في الليل بشرا.

ذهبت فرحة لزوجها بنصرها، وقالت له:

"اسقها هذا الشراب. في الصباح تختنق لو خرجت من الماء، فلا تجرؤ على مغادرة سجنها، وفي الليل يراها الناس حية، لا يتهمونك بقتلها. كل ما عليك أن تضعها في سجن في الصحراء، حتى لا يأتي عليها النهار، وهي في طريق به ماء."

أخذ الملك الشاب الشراب الملعون، فأخفاه لديه يوما، ثم دسه لزوجته في الشراب. ولما تحولت لسمكة، وضعها في إناء، وأمر رجاله بحبسها في قلعة في الصحراء، لتظل سجينة لديه للأبد.

لم يرد أن يقتلها، فقد ظن أن يديه قد تلطخت بدماء كثيرة، ولو أكثر القتل عن هذا، فسيخشاه أعوانه، ولن يأمنوا له. كما إنه ظن أنه قد يحتاج لشيء من سحرها في حمايته من أعدائه.

وفي سجنها، أغوت الساحرة بجمالها، وعذب لسانها، ومكرها أحد الحراس، وأوهمته أنها تحبه، حتى أصبح ألعوبة في يدها، وأوهمته أنه لو قتل زوجها، فستتزوجه وتهرب معه.

ودبرت معه حيلة ماكرة. فأرسل الحارس رسالة للملك، يخبره أن بعض الثوار هاجموا القلعة، يريدون خطف الملكة لمساومته عليها.

وأصاب الملك الفزع، وخاف أن تسقط أسراره في يد أعدائه مع الملكة الناقمة، فتكشف للناس أنه قاتل أبيه وأمه، وأنه من دبر الثورة الوهمية التي سفكت دماء عائلته، لينقلبوا عليه.

هرع الملك للحصن مع جنوده، وأرسل مع الحارس الخائن رسالة للقائد بالصمود أمام الثوار بأي ثمن، حتى يأتيه بالدعم.

فتح الحارس خطاب الملك، وغير كلماته كما أمرته الساحرة. وذهب للقائد يخبره بفزع إن الملك اعتبر حرس القلعة متمردين، وينوي مهاجمتهم، وقتلهم جميعا، ليتخلص من زوجته، ملصقا تهمة قتلها في الحراس المتمردين. وأبرز له الخطاب المزيف، الذي أصبح موجها لقائد الجيش، يأمره بسحق المتمردين عند قلعة الصحراء!

وهنا أمر القائد رجاله بالدفاع عن أنفسهم، فأخبره عشيق الساحرة إن أفضل وسيلة لهذا هي أن يجعلوا القلعة تبدو خاوية تماما، فيختبئون في أعماقها، فإذا دخلها الملك ليفتشها، هاجموه هو ورجاله، ويباغتونه، فيقتلونهم، ويهربون بعدها إلى الميناء، ومنه عبر البحر إلى أي بلد، حاملين تاج الملك، المزين بألف جوهرة، يقتسمونها بينهم.

وأحكم التدبير، فذهب الملك بجيشه، ليجد الحارس الخائن ينتظره، فأخبره إن المتمردين قد انكسروا عن القلعة، فتراجعوا واحتشدوا خلف الجبال، لكن الملكة تطلبه لأمر هام.

خشي الملك إن ذهب للملكة، أن تؤذيه بسحر ما، وإن خذلها الآن وهو قريب منها، أن تنتقم بالهروب إلى الثوار، فأرسل جيشه لتتبع المتمردين المزعومين، وذهب بصفوة جنوده الذين يثق تماما في إخلاصهم له، ليحتمي بهم في زيارته للملكة.

وهنا وجد الموت والقتل في انتظاره، جزاءا وفاقا لما فعله بأهله!

وأسرع الجنود المتمردين يهربون من القلعة في الصباح، حاملين وعاءا كبيرا من الماء، يحوي الملكة السمكة، وتاجا ذهبيا، سالت بكل جوهرة فيه دماء بريء.

ركب الجنود سفينة ليرحلوا بها عن البلاد، وفوق سطح السفينة، استمرت الساحرة في لعب لعبتها القاتلة في زرع الفتن، فألبت الرجال على بعضهم البعض، كل منهم يظن أن الآخر يريد الفوز بالتاج وحده، تطمع أن تفوز هي به في النهاية وحدها.

ولكن لعبتها ازدادت لهيبا، فشب قتال عنيف، قتل فيه كل الملاحين، الذين يعرفون هذه المياه الخطرة، فاصطدمت السفينة بجزر الغطسان، وغرقت بمن فيها.

وقبل أن تموت الساحرة بلحظة واحدة، انبلج الفجر، وتحولت لسمكة، ونجت.

لكنها بقيت ملعونة مدى الحياة، تذوق كل يوم طعم الموت مرتين. عند الفجر يخنقها الهواء، لا ترتاح ألا لو غرقت في البحر، وعند الغروب يغرقها الماء، تموت لو لم تخرج للسطح.

وفي كلا الحالين، تطاردها الآلام من وحوش الأسماك، ولأعاجيب البحر، وما أكثرها. لكنها ما فكرت أبدا في التكفير عن ذنوبها، بل تفجر الحقد في قلبها تجاه كل البشر، فكل من عبر آمنا في سفينته ليلا، وكانت في شكلها البشري، خرجت له وحدثته، ففتنته بحديثها، وجمالها لكي تغرقه.

مرة توهم الناس أنها جنية من بنات ملك الجان، لو تتبعها في الماء لن يغرق، وإنما يصبح لها زوجا، وفي مملكتها أميرا، وتارة توهمه أنها عروس البحر، ستدله على كنز الكنوز في جزر الغطسان، وتغريه بالتاج الثمين، زاعمة إنه جزء ضئيل من الكنز المدفون، فيتبعها المسكين، حتى يدركه المد عند الفجر، فيغرق وتنجو هي كالسمكة.

يزعمون إنها تقول أحيانا إنها سقطت من سفينة هاجمها القراصنة، فتصعد للسفينة التي تنقذها، وهنا يكون أشد شرها إذ لا تهدأ حتى تقلب كل البحارة ضد بعضهم البعض، حتى يهلكوا جميعا.

إن حياة البحارة أيها الغول الأحمر شاقة حقا. والخطر كل الخطر أن تنشق صفوفنا، فليس للتمرد على سطح السفينة مكان. حتى القراصنة الأجلاف، إن اختلفوا يصفون خلافاتهم بالدم، إما من سفينتين، أو على البر. لكن لا تنجو سفينة أبدا في وجود فتّان، يجعل من عليها يتنازعون. لهذا فخطر السمكة الفتّانة كبير جدا، يتطير منه البحارة أيها الغول الأحمر".

٥١- ٤ (مصيب الشيخ الفولي)

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

انهى ابن الأشرف حكايته، فصمت أفكر فيها، ثم انتبهت فقلت:

"كيف علمت أني غول أحمر ؟"

ابتسم، وقال:

"لست بغبي، أنت تمسك بكتابك، الذي يشبه ما يتناقلونه عن كتاب الغيلان فهذه السفينة نقلت غيلانا حمر في عهد أبي، وقد حكى لي عنهم حكايات كثيرة. وإلى جانب هذا، فمعك الأميرة الشهابية ترحل لساوة. الكلام كثير، والحديث كثير يا سيدي. فبلادكم بأكملها تتحدث عن نبأ الوريث القادم مع الغول، الذي نصره الشيخ الفولي، ومنحه الرمح المصيب! لعل هذا الشاب أو ابن الشهابية هو وريثكم المنتظر ؟"

نظرت له بدهشة، وقلت:

"ماذا تسمع عن الغول والوريث ؟ أتتحدث البلاد عن هذا ؟"

ضحك وقال:

"كل ميناء، صغير أو كبير، يتعامل مع بلادكم تأتيه الحكايات. بعد أن هدم الأسود مسجد مجاذيب الفولي، وقتل أغلبهم، هرب بقيتهم متناثرين في البلاد، يبشرون الناس في كل مكان، حتى أصغر القرى، بل حتى في قلب مضارب بني الأسود، وفي الحي الذي يوجد به قصر المغوار! يتحدثون إنه لما عم الظلم الأرض، ذهب زعيم الغيلان، فقرأ الفاتحة للفولي، وأدركته غفلة، فجاءه الشيخ في المنام، يأمره بالذهاب إلى طرابل، ليجد الوريث الحقيقي، فيعود به للناس، لينشر العدل، ويهزم الأسود. ولما اشتكى ضعفه، وقلة جنده أمام الأساودة الغلاظ، قال له إنه ممنوح المصيب.

استيقظ زعيم الغيلان، فقص على كبير المجاذيب رؤياه، فكبروا وقالوا إن النصر آت

ولما كبروا، ارتجت الأرض لتكبيرهم، وأرعدت السماء، ونزل المطر إلا على بقعة واحدة من الأرض، غشيها نور له جلال.

ذهب كبير المجاذيب لتلك البقعة، فنبشها فوجد فيها رمح الشيخ الفولي، الذي لا يهزم حامله أبدا، فكبر، ومنحه لزعيم الغيلان، الذي ألقاه نحو شجرة بعيدة، تبعد ألف ذراع، فأصابها حيث شاء، فكبر، وأسمى الرمح بالمصيب، وتوعد بهزيمة الأسود، فقد ظهرت العلامات جميعا، وحان وقت عودة



الوريث لملك الأجداد. وغادر زعيم الغيلان إلى طرابل، لا يغالبه إلا مهزوم!"

٥١- ٥ (شياطين القائد الأسود)

ضحكت كثيرا وأنا أسمع تلك الحكاية الغريبة عني، ولم أملك نفسي أن أقول:

"يا لهم من أفاقين مساكين! غفر الله لهم، فهم يرفعون شأن الفولي لما يفوق مقامات البشر! يسعدني أن يؤلبوا الناس على الأسود، لكنهم أعجزوا رمحي الآن، فلو قاتلت به، فسيتبعني الناس نصرة لصنم الفولي، بدلا من الجهاد في سبيل الله ضد الطغاة والظالمين، طلبا للعدل في أرض الله."

قال ابن الأشرف:

"لن أتركك حتى تحكي لي حقيقة ما دار بينك وبين المجاذيب. أما دعوتهم فما هي إلا جزاءً وفاقا لأفعال الأسود. حينما بدأ ملكه في الظهور، كانت تصلني حكاياته السقيمة، التي ينشرها بين الناس في المواني ومدن الشرق. كان يزعم إن له أنصارا من الجن، وأنه حينما خرج من قبيلة أبيه، خرج له شيطان ملك، كان قد عقد حلفا مع جد الأساودة الأكبر، إذ غلبه في قديم الأزل، فعاهده إن تركه أن يحمي قبيلته، من أن تشق أبدا، فأراد معاقبته على خروجه عن طاعة أبيه.

فقال له القائد الأسود:

"إني لأطلب طلبة عظيمة، وعظم المطالب ترجو عظم البذل. أطلب ملك البلاد ووحدتها، فشقي لصف الأساودة حينا، إنما هو بذل لرأب صدع كل البلاد."

فقال الشيطان:

"بجنودي وملكوتي، لا أتركك تخرق عهدي لجدك. حكمت عليك بلعنة أبدية، تغرق في رمال الصحراء، مع صعاليك الجن المجانين."

وحبسه في واد هو سجن الجن، يحبسون فيه من يصاب بالجنون فيهم، ولا يرجى شفاؤه، فقاتلهم الأسود بسيفه، حتى غلبهم جميعا، وأخضعهم لأمره، وسار بهم يبغي الخروج من باب السجن.

فقال له ملك الشياطين:

"كيف غلبت هؤلاء، وجمعتهم على كلمتك، وهم مجانين؟"

قال الأسود:

"حينما تختل العقول، لا يبقى إلا السيف مقنعا. ولكي يتبعك الجنود، فعليهم أن يتبعوا عقلك وحده. فوقتها لا فارق بين جندي مجنون، وآخر عاقل!"

وبارز ملك الشياطين فغلبه، فعاهده على تركه، على أن يساعده على البطش بأعدائه، مهما بعدت بهم المسافة.

وغير هذا من أساطير أرهب بها الناس حينا، وحينما ظهرت أسطورتك أيها القبيل، وجدوا فيك ضالتهم، لتحميهم من شياطين الأسود!"

(٥٢)

من أرض الأحباش

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان:

"أحسست براحة في نفسي، لما أبلغني به ابن الأشرف من أنباء. كنت قلقا ألا يجيبنا أحد حينما ندعو لتيمور، لكن، في ظني، لن نواجه الآن تلك العقبة. مادامت الناس تنتظر الوريث، فأي وريث يأتيها لن تنازعه، أو تشكك فيه، سيبدءون في حربه، والسعي لقتله فقط! ولو إنني أخشى ألا يتبعنا سوى العامة، فنلقى نفس مصير الوريث الكاذب، وأعيد سيرة أبي بأشد منها نكبا!

مضت بنا الرحلة أياما أخرى، منطلقين بسرعة عظيمة، لم أرَ مثيلها في سفينة من قبل. كان البحر صافيا، لم يعكره مطارد أو قرصان. الأسود بنفسه أخلى لنا الطريق، بحربه على الزرقاء، ولو إنني متحير، لماذا تشبث القراصنة بالمدينة، ولم يفروا منها قبل أن تحاصر، كعادتهم حين يهاجمهم أحد؟ ربما صور لهم الغرور إنهم قادرون على هزيمة سفن الفرنجة، وجيوش

الأساودة! وكيف هذا؟ منذ متى يهتم القراصنة بالمجد والمعارك، فجل اهتمامهم هو المال فحسب!

على أي حال لن أشكو من سهولة رحلتنا! نزلنا في هذا الميناء الصغير، القريب من بلاد الأحباش، وكان حاله بدائيا سيئا، لكنه يكفي لقضاء الحوائج.

عثرنا بسهولة على قافلة، قبلت بحملنا معها، مقابل أجر زهيد إلى شمال بلاد السُوّاد، ومنها نرتحل قليلا لجنوب بلادنا. كان طريق القوافل، الماضي بيننا وبين الأحباش والسوّاد، مطروقا، يخدمه حكام المدن وأمراؤها، ويندر أن تلقى فيه قاطع طريق، لشدة العسكر عليهم. أخذ تيمور يحكي لي كيف كانت الآبار متقاربة على طول الطريق المعبد، فتمر عليه تجارة ضخمة، تعبر مختلف الممالك والمدن شرقا وغربا، وراء كل الحدود التي نعرفها.

وأعجبتني حكمة قالها: "الطريق الآمن يكافئ حراسه جيدا!"

وحقا وجدت أن الأحباش حراس طرق مخلصون! رغم غلظتهم وخشونتهم في التعامل، وكثرة تذكرهم لحروب قديمة، دفن ثأرها منذ قرون، لكنهم حرصوا على الأمانة معنا في كل بيع وشراء، فلم نر منهم غشا أو غدرا. وعلمت أن هذا ديدنهم مع كل التجار، لأن الحكام هنا يهتمون بهم كثيرا. وقد قيل لي في سبب ذلك حكايات، أشهره إنه ذات مرة، أتى تاجر ومعه جارية فاتنة عابثة، ألقت بحبائلها على ابن أحد الأمراء، وأقنعته بأن يأخذها

بعيدا عن صاحبها. وفر بها الفتى غصبا، فاشتكاه التاجر للقاضي، وأرسل الباحثين يطلب حقه، بينما غضب الوالد لزواج ابنه من فتاة حقيرة المقام، فأرسل خلفه القتلة، يطلبون رأس زوجته!

وأتى الفتى بالفتاة للملك، يتوسل له، ويظهر له كيف إن حبهما عظيم. فرق قلب الملك لهما، وأمر الأب بإيقاف سيفه، وطرد التاجر المسكين، بعد أن عذبه، وصادر أمواله، وقيل بل قتله.

وهنا خاف التجار على تجارتهم وأرواحهم، وقال بعضهم لبعض:

"إذا كان الملك ينصف حب عابثين على جثة العدل والحق، فأنى لنا أن نأمن في تلك البلاد؟"

فاهتزت الأسواق، وضاعت أموال وأقوات كثيرة، مع موسم جفاف حل كالناعق المشئوم على البلد، حتى خشى الناس المجاعة، وظهرت بينهم أحاديث إن هذا عقاب السماء لظلم الأرض!

فاجتمع أهل الحل والربط في البلد، وأقسموا عهدا صارما لا ينفك، بألا يظلم في بلادهم تاجر أبدا، مهما حدث، وأن يأمن الغرباء على أموالهم وأهلهم، فربح الظلم مهما كبر خسران.

وهنا تذكرت الآية الكريمة (قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ)

فطمع الحكام في بلادنا زادهم هما، والبلاد فقرا. وحينما قاسموا التجار والصناع أموالهم، والفلاحين أقواتهم، خرب الحال، وضاع المآل!

وإذا بي أحترق غيظا، إذ أجد بلدا فقيرا كهذه، لا يوجد به ما عندنا من كنوز الأرض والبحر، ميناءه حقير لا يقارن بالزرقاء أو الثغور، قد امتلك من القوة والثروة ما فاق أحوالنا.

تجاوزنا أرض الأحباش الغليظة، ودخلنا في ممالك السوّاد التسعة. وأغلب أهل تلك البلاد العريقة سود البشرة بيض القلوب، على أن رؤوسهم سريعة الاشتعال، على المرء أن يحذر من أقل فعل، قد يفسر إنه إهانة لهم، أو خدش لكرامتهم.

وهي بلاد جميلة ثرية، وأشد ما أعجبني فيها هو الغابات. طوال عمري أسمع عن الغابة في القصص والحكايات، وكان هذا أول لقاء لي مع تلك الأماكن الشامخة!

فشاهدت - من بعيد- بعض الأسود، التي أمسكها الصيادون الشجعان، يبيعونها حية، أو بعض جلدها وأنيابها (وقد اشتريت بعضه لأتباهى به أمام أهل القرية. لكن الحقيقة، كان أكثر ما ربحته من الشراء هو قصص الشجعان، عن كيف صادوا تلك الأسود من أعماق الغابة المظلمة الخانقة!)

وأثناء توقف القافلة في إحدى القرى، ذهبنا مع أحد الأهالي، فجعلنا نشاهد الزراف. كنت - وأنا صغير - شاهدت أحد تلك

المخلوقات البديعة في الزرقاء، حيث عرضها أحد التجار الفرنجة على الناس، مقابل أجرة غالية. لكنني تسللت خلف الجموع، وتعلقت بحبال شراع سفينته لأشاهدها. لكنها اليوم، وهي حرة آمنة، بدت أبدع وأجمل بكثير.

سألت عن الغيلان كما وصفها لي الزنوج وأنا صغير، فقيل لي إنها قردة كبيرة مخجولة، وتوجد في أعماق الغابة في الجنوب البعيد، لا يراها الناس هنا. لكن رؤية فرس النهر الضخم، بفمه العملاق، عوضتني عن حسرتي.

كانت حقا رحلة متعة للأنظار والأسماع، ناهيك عن عطور غريبة، لم تعرفها أنفي من قبل، تأتي ممتزجة من كل اتجاه. على أن الحديث عن تلك الرحلة لا يطول، فقد كنا في عجلة من أمرنا، وبفضل الله لم يعطلنا شيء.

وصلنا لدار الزبرجد، فاستأجرنا منها بعض الحمالين والأدلة، ساروا بنا نحو تخوم بلادنا، نبغي الوصول لأقرب قرية أو مدينة على النهر.

وعلمنا من الحمالين أن الحرب على الزرقاء وضعت أوزارها أخيرا. هزم الأسود في البداية، وانشقت ثغرة في صفوف حصاره، دخل منها إمداد من الوقود والسلاح للمدينة، قدمه بعض أشقياء جبال الزرقاء فيما يزعمون، فقذفوا سفن الفرنجة بالمنجنيق، وأحرقوها. فاضطر جنود الفرنجة للنزول إلى البر،

واشتبكوا في معركة عظيمة مع القراصنة وحلفائهم داخل المدينة. بينما جاء الأسود بنفسه ليقود جيوشه، فأغلق الثغرة، ومنع القراصنة من الهروب برا أو بحرا، فأعملوا القتل الذريع في كل من بالزرقاء، حتى قيل إن النار، التي أحرقوا بها المدينة، ظلت موقدة لا تنطفئ أربعة عشر يوما، لا يقدر أحد على إطفائها، ليتسلمها الفرنجة قاعا صفصفا!

ولله الأمر من قبل ومن بعد. ها قد ذاق القراصنة كأسا اشد مرارة مما أذاقونا!

وحينما اقتربنا من الحدود، علمنا أن الأسود في الجنوب بجيوشه، يشن حملة جديدة على بني سليم، حلفائه القدامى، يريد اقتلاعهم من البلاد تماما، حتى لا تقوم لهم قومة، ولا تظهر منهم ثورة. يبدو أن الأسود يريد تحطيم كل من يعانده، قبل الذهاب للغرب.

كان أهالي السوّاد يكرهون الأسود، لتحالفه مع الفرنجة، حتى إنهم زعموا لي إن الكثير من شبابهم ذهب لمحاربته في الزرقاء. كان بغضهم للفرنجة رهيبا، لأنهم ينزلون على شواطئهم بسفنهم، فيعملون القتل والنهب با ،لقرى ثم يسوقون البشر عبيدا، ويجلبون بعض الحيوانات الفريدة، لتزين بها قصور ملوكهم في الشمال البعيدة وراء البحار. لا أدري هل هذا من فعل الفرنجة أم القراصنة، لكن الفرنجة، عامة، يحتقرون غيرهم من البشر، لا

يحترمون فيهم إلا اليد التي تحمل سيفا! يرون في أنفسهم أنهم خير البشر، وأجملهم ويشبهون أصحاب البشرة السوداء بالقرود! لعمري إن القرد ليخجل أن يحمل عقلا متغطرسا، أو قلبا قاسيا كالفرنجة!

مع تقدمنا في الطريق، كان قلبي يخفق لاقتراب ريح بلادنا. لكني وجدت رفاقي في شغل عني، فتيمور مع الشهابية وابنها عبد الله قد أصبحوا أسرة واحدة، تتقارب من بعضها، وأبدو بينهم غريبا! فاعتزلتهم تجاه الحمالين، أتحدث وأتبادل الأخبار. كانوا لطفاء ودودين، حكوا لي حكايات لطيفة عن الملك صفوان ملك الجان، الذي مات عن غير وريث، فوضع ثروته في قلب جبل، فلا يجد أحد مدخل الكنز، إلا إن كان فقيرا بحاجة إلى المال، لكنه ليس بطماع يبحث عن الكنوز. فإذا دخل وأخذ من المال قدر حاجته، خرج غانما. وإذا أصابه الجشع، وجمع أكثر من حاجته، أغلقت عليه الأبواب، فحبس بين صخور الجبل إلى يوم الدين!

وحكوا عن الحورية الجميلة، التي تظهر للشباب في شكل عجوز قبيحة، تطلب المساعدة. فمن يساعدها، تكرمه وتزوجه إحدى بناتها الجميلات، وإن نفر منها، أتته مرة أخرى، في شكلها الحسن، تطلب المساعدة. فإن أصر الرجل على النفور، قالت له من تحجر قلبه تحجر جسده فيمسخ حجرا في ساعته.

ومن ساعدها، قالت له من يجري وراء الأشكال هو أقبح الناس، فتمسخ وجهه لوجه قرد!

وعندما رأيت مرة قنفذا، أخبروني إن القنافذ إنما أتت من نسل الملك شوكان، الذي كان يؤذي أهله، ويظلم شعبه، فدعا عليه أحد الأولياء، فمسخ لفأر ذي شوك، فمن كان يبغي نجدة مليكه منهم، جرحت يده فينبذه!

وغير هذا من حكايات السمر، التي تبادلوها معي. لكن أغلب الليالي كانوا يتفاخرون بصيدهم لوحوش الأرض، أو خداعهم للفرنجة المتكبرين!

وصلنا أخير لميناء سلوطة. وهو ميناء كبير للتجارة عبر النهر، بني منذ قديم الزمن، في عهد الملك الصالح المنصور، ومازالت آثار العز والعظمة باقية فيه، رغم إن الحال تدهور به، فما عاد إلا مأوى للصيادين، الذين يؤجرون مراكبهم العتيقة لتجار الإبل، في موسم تجارتها قبيل الحج.

أخذنا نبحث عن سفينة تقلنا، لكن أغلب المراكب لم تقبلنا. كان موسم الحج على وشك البدء، وكل المراكب قد اتفقت مع التجار على نقلها، يريدون التنافس على أوائل الرعاة، الذين يكونون الأشد كرما، والأكثر ثراءً. فأول من يصل للحجاز ببضاعته، يبيع أفضل من غيره. وتعجبت كيف يقطعون تلك

الرحلة الخطيرة، معرضين أنفسهم لخطر قطاع الطرق، ونهب الأمراء، وغيرها. فرد علي أحد الصيادين بكلمة أعجبتني:

"هذا هو نهر حياتهم. والنهر يشق طريقه إلى المصب، لا يستطيع أحد إيقافه حتى الجبال!"

كان علينا أن نجزل العطاء بما يكفي، لكي نجد مركبا تقلنا، لكننا الآن في أراضٍ تدين للأسود بالطاعة، حتى ولو لم تكن في قبضته بعد. لذا كان علينا أن نبعد عنا الشبهات، فزعم تيمور إننا تجار، أغلقت أمامنا الزرقاء، ونريد نقل بعض العطور والأقمشة سريعا إلى العاصمة، لنلحق بموسم الزواج في عيد الأضحى!

ولكي أحكم الحيلة، أتيت ببعض الصناديق المحكمة، فملئتها بالحصى والتراب، ووضعت فوقها طبقة رقيقة من الأقمشة واللطائف، التي اشتريتها من الأحباش والسوّاد، ثم أحكمت غلقها. والطريف، إن تيمور وصحبه ظنوا أنها بضائع حقيقية، بعض الغيلان الحمر أعطوها لي سرا، بعد وصولنا. ووجدت أثرا طيبا لهذا الوهم، الذي أشعرهم بوجود حرس لهم في الطريق يراقبهم، فتركتهم في وهمهم!

وبهذه القافلة المزيفة، استأجرنا مركبا كبيرا ذا شراعين، ليصل بنا إلى الحاضرة، متجنبين جيوش الأسود، وقرى بني سليم المحترقة.

وأخيرا اعتلينا النهر، النهر العظيم، الذي قطعت عنا مياهه ظلما! كم اشتقت له!

والأهم، إنني أخيرا في أرض أعرفها! وأقترب حثيثا من نهاية الرحلة الطويلة.

وأرض الجنوب طيبة، رغم وعورتها، وبها الكثير من العشائر والقبائل، التي لها كلمة مسموعة فيها. وهي عشائر طيبة، تعيش جنبا لجنب مع الفلاحين، لا تفرض عليهم بطشها كما تفعل قبائل بني الأسود في الشرق مثلا. لكنهم يعتزون بأنفسهم، وبأصولهم بفخر لا يقل عن بني الأسود، لذا خرجت منهم ثورات وحروب كثيرة ضد القائد الأسود، كلما حاول أن يبسط سلطانه عليهم. على أن تفككهم وتشتتهم في الأرض أضعفهم. كما إن ثلاثة من أمراء جيشه أذاقوهم، وأهالي الجنوب جميعا، أهوالا ورعبا، وأولهم كلبه المسمى النعمان ابن المرصفي. الخادم المطيع، الذي أهدر دم والده طمعا في زينة الدنيا. لم أجرؤ على أن أتحدث بدعوة للوريث، أو نقد في الأسود، فلا آمن أن خوف الناس منه يجعلهم يغدرون بنا. فالخوف يمسخ الأرواح، ويقلب الطيبة شرا، والكرم غدرا. فقط حينما نصل لساوة، ويأمننا أهلها، سنستطيع الدعوة للحرب، وتتويج الملك الجديد. وحينما ينصرنا - بإذن الله - أمراء الغرب، سيلتف حولنا أفراد الجنوب والشرق وكل البلاد بإذن الله.

مضت بنا السفينة بحذر شديد، كلما اقتربنا من مكان على ضفافه كتل من غاب أو بوص، يطلق الربان العنان لسرعته خشية من اللصوص الكامنين. وكان يتحرك دوما في الظلام الحالك، أو الظهيرة القاتلة، لأنهما أكثر أمنا من بقية اليوم.

وبدا علينا تبرم من هذا الحال، فقال:

"فقط لنتجاوز مدينة أريح، ونخرج من الجنوب الأوسط إلى الجنوب الأدنى، حيث سلطان القائد الأسود، فسنأمن من اللصوص."

سألته:

"أتحب الأسود ملكا أيها الرجل الطيب؟"

قال:

"لا يهم أن أحبه أو أكرهه، قد يكون ظلم وقتل ونهب، لكن بالنسبة لي لقد أعاد الأمن لنصف النهر، وطهره من اللصوص. لا أحب ظلمه، لكني آنس لسلطانه وأحتمي به!"

حاورته:

"يزعمون إن آخر أمراء الملك سيعود للبلاد لمحاربة الأسود وتوحيدها. فلو خيرت بينهما، فمن تختار؟"

قال الرجل ببساطة:

"وما شأني بتنازع الملوك؟ كما قلت لك، لا يهمني إلا أن آمن على بيتي ورزقي. الأسود طهر نصف النهر، وهو لم يملك البلاد بعد فمن أعرفه خير ممن لا أعرفه!"

حينها قلت بصوت عال:

"إذن فأنت ترى أن الوريث سيكون أفضل من الأسود، فقط حين يطهر النصف الثاني من النهر؟ رغم إن مهمة تطهير كامل النهر أصعب، لأنك لن تكتفي بطرد اللصوص للجنوب قليلا، وإنما يجب أن تسحقهم سحقا."

وحين أتى الليل والنوم، اقترب مني تيمور يسألني عما قصدته حينها.

قلت له:

"مولاي الملك، إنما أردت أن أذكرك بأصل الأمور ومبدأها. لم يخلق الناس ليطيعوا الملوك، وإنما اختيرت الملوك لتسير أمور الناس. ما يحتاجه البسطاء في هذه البلد، ليس كلمات ودعوات. وحرب الأسود ليست إلا خطوة أولى، ستكون شرا لا خيرا إن لم تتبعها الخطوات الأشق. أردت أن أذكر نفسي، وأذكرك معي، بأن الأمن والرزق، عند أغلب البسطاء، يغنيهم عن دعاوى الملوك وأنسابهم وزيجاتهم الملتوية!"

صمت للحظات متفكرا، ثم قال:

"لم أطمع في هذا الملك، بل هو الذي طمع في، وفرض على جثتي فرضا! لم أغتر به، وأرجو من نفسي الضعيفة ألا تغتر به يا زعيم الغيلان. أعاهدك أمام الله إنني لن أكون للبلاد ملكا، وإنما للعباد خادما، ولن أهنأ قبل رفع الظلم عن البلاد، ونشر الأمن في ربوعها، أو أهلك دون ذلك. بإذن الله، لو نصرنا الله، فلن أنسى البسطاء وحيواتهم في طريقي."

ابتسمت وقلت:

"والله على ما نقول شهيد، الفاتحة."

وقرأنا الفاتحة على العهد، ثم باغتني بقوله:

"والآن أين عهدك أنت؟"

قلت:

"أي عهد؟"

ظننته يريد مني أن أبايعه أو شيء كهذا، لكنه أفحمني بقوله:

"تذكيري بحال العباد اليوم أمره سهل، وأنا طريد ملكي كأنما هو جريمة تطلب دمي! أريد عهدك إن نصرنا الله، واستقر الملك، أن تذكرني بما ذكرتني به اليوم، حينما أكون باطشا، قادرا، يخشى الناس أن يخلصوا لي النصح، طمعا أو رهبا! ترى هل يملك الغول الأحمر شجاعة كافية، ليقول كلمة الحق في وجه ملك

باطش! بدون تلك الكلمة، حتى أنا، لا آمن من نفسي على نفسي! فأين عهدك يا غول؟"

عاهدته على ما طلب، وبي وخز من تأنيب ضمير! حقا قد تكون الثورة على الحاكم الظالم محرمة بشدة، حتى لتخرج عن ذمة الدين، لكن أمر الله بقول كلمة الحق، ولو دفع ثمنها دما يتناساه الناس جبنا! أفهمني طلب تيمور كيف تكون الثورة بالسيف والقتل، ثم الفرار، أيسر كثيرا من المواجهة بالكلمة الشجاعة، وتحمل عواقبها! أظنه سيكون ملكا صالحا تيمور هذا. قد لا يستطيع الوفاء بعهده كاملا، كما قد لا أستطيع الوفاء بعهدي كاملا، لكن على أي حال لم يخلق بعد الأنبياء بشرا يحسن كل حكمه! لهذا كان الملك العادل في ظل الله يوم القيامة.

لكن ما شأني بهذا الآن؟ كما قال تيمور، الحديث في هذا الأمر سهل اليوم، لكن قيمته لا تنفع إلا إن قيل بعد هزيمة الطاغية. لا أملك الآن إلا أملا مراوغا، أن ترتاح بلادنا، التي اكتوت كثيرا فاللهم أغثها وانصرها.

أخيرا لاحت لنا مدينة الأريج قريبة، وتنفسنا الصعداء، فقد انتهى الجزء الشاق من الرحلة، بزعم الربان. وقريبا نصل لطريق القوافل جنوب العاصمة، فنعبره إلى ساوة، وتنتهي رحلتنا.

لكن القدر يخفي لنا مفاجآت حتى اللحظات الأخيرة! فمن وراء هويس قديم، كان على فم ترعة هجرت، خرجت ثلاثة زوارق للصوص أحكموا حصار المركب، وصعدوا عليها شاهرين أسلحة عليها لون الدم، الذي اختفى من وجوه البحارة المساكين، واشتهت له مياه النهر المترقب! فلصوص النهر لا يتركون وراءهم أحياء، حتى لا يعود لهم مطالب بالثأر. بدا إننا سنقتل على أعتاب النهاية بيد سارقة!

(٥٣)

نبأ حديث المغوار بن الأسود في طلب الملك

يقول القائد الأسود، المغوار بن الحازم الأسودي:

من يعرف قدره، وعظم همته، ومكانته العالية بين الناس، فلا يأخذها، فهو أحمق، حكم على نفسه بالذلة والندامة!

علمت منذ الصبا أنني ممن قالت فيهم الخنساء:

إذا القوم مدوا أيديهم إلى المجد

مد إليه المجد يدا!

كنت صبيا صغيرا، حديث السن، في أول تردده على الكتّاب، حينما أتى للعريف شيخ جليل، وصل من رحلة الحج مؤخرا. واجتمعنا، نحن الصغار، نتسمع بشوق لما بدا لنا مغامرات مذهلة، لكنه كان للشيخ الجليل عذابات وآلام في رحلة الإيمان. وإن نسيت، لا أنسى قوله: (لو قيد الله لبلدنا

هذه ملكا قويا، لنشر فيها الأمن، وأدب الفرنجة، وعصم الحجاج من الأعراب. ولكنه التخاذل أعاذنا الله من شروره)

ورد العريف مباهيا: (ها هم أولاد الأسود معي، عسى الله أن يخرج من بين ظهرانيهم من يفعلها.)

وهنا انتصبت قامتي فخرا، لتحطمها النظرة المستخفة من الشيخ الجليل.

على حداثة ذهني وفكري وقتها، لكني عقدت العزم، الذي لم يلن حتى اليوم، على أن أوحد بلادنا، وأجعلها قوية باطشة، ترهب أعداءها.

وهنا انكببت من صغري على تتبع حكايات الرسل المكرمين، والملوك الأولين، أنظر كيف كان سعيهم، وما هي طرق نجاحهم.

ولما ازدادت فطنتي، بحثت أكثر في أسباب هزيمة العظماء، وضياع ريحهم. فقد رأيت بعيني كيف اجتمع لأبي كل أسباب القوة، لكن أسباب الفشل غلبته في النهاية.

أدركت عدة أشياء، وضعتها نصب عيني، ونصحت بها كل من حولي.

أولا: إن المطالب العظيمة تحتاج لبذل أعظم، ولابد من التضحية المؤلمة في سبيلها.

ثانيا: إن النصر لا يأتي لفرد أبدا! لابد من جماعة تؤيد وتناصر.

ثالثا: إن العصبية لا تنصر سبيل وحدة قط! لئن غلبت قبيلة على غيرها، أو عشيرة على ما دونها، فإن الحرب ستظل سجالا لا ينفك! لابد أن تكون الجماعة المناصرة تعتنق فكرا لا دما. تنصر كلمة لا قربى. لابد من دعوة تجمع الناس حولي، لا تهتم بقرابة أو قبيلة. فقط هو الكفء المجاهد من يليق به أن يتبعني. وحتما، فالمماليك الذين يتبعون المال، أدنى مكانة من أن أتركهم بهذه البلاد أصلا!

فهكذا غلبت العرب العجم، ودانت الدول لسيوف الإسلام المطهرة، وغلبت العجم العرب حينما تفرقوا، ونسوا نصرة الدعوة، لغلبة الإثرة على البذل، وتشتت الجماعة، والانتصار للعصبية.

ونظرت أيضا، فوجدت إن حال البلاد لن يستقيم لي إلا إذا كان جيشي لا أمير به غيري، ولن يستقيم بعدي إلا إذا أعددت من ورائي رجالا يؤمنون بكلمتي، ويأتمرون بأمري، ويأخذون عهدي أمانة يكملونها من بعدي، إذا أصابني المصيب.

وكان أول ما قابلني من بذل مؤلم، هو أن أترك أهل القبيلة، وأبث دعوتي بين العوام. آمن بنصرتي فريق، بدأت في تجهيزهم، فلقيت الأذى والسخرية من قومي، وقطعوا عني المال والمعونة، ونهرني أبي عما سماه عبثا، وعمن سماهم صعاليكا.

لكن هذا البذل كان هينا علي. ما اشتد علي نفسي حقا فيه، هو اضطراري لسحق بعض من كنت أحبهم، وتربيت في كنفهم.

حقا المطالب العظيمة تتطلب بذل أعظم. كم آلمني أن اضطر لقتل بعض من رؤوس بني الأسود، حينما عارضوني!

ولما ازدادت قوتي وبطشي، وتهيأ لي مئات من الأتباع المخلصين، الذين يتبعونني أينما حللت، ازدادت حاجتي للمال. ولما كان الناس هم هدف رحلتي المؤلمة، لتوحيد البلاد، فإنما أسعى هذا السعي لصالحهم، كان عليهم ألا يكتفوا بحصد الثمار، فقررت أن أشركهم بنصيبهم في البذل، لا أقول بالدم والعرق كما أفعل بنفسي وأهلي، وإنما بما هو أدنى من هذا، بالمال اليسير.

لكن والدي، الذي لم ير إلا بني الأسود، وحقوق بني الأسود، وتناسى بقية البشر في مملكتنا المعذبة، ثار عليّ وهاج، حتى طردني من عنده. وإني كنت راحل نحو المجد من قبل أن يفعلها، لكنها الأقدار التي تقسم ألا تجزي إلا من يبتلى.

وجدت في العاصمة أمامي حفنة من الحمقى المنتفعين، الذين منحتهم فوضى البلاد مكاسبا جمة. كل هؤلاء، الذين لم يهمهم يوما أنين الشعب، ومعاناته، وافتقاده لأبسط حقوقه من أمن ومعيشة، كانوا يحولون بيني وبين الهدف الأسمى. متسلحين بما ورثوه من أعباء الخراب، الذي أقامه الملوك السابقين، بمعونة الأهبال والغيلان والفرنجة والقراصنة. حقا كم أنت عظيمة يا أمتي، فبعد كل تلك الطعنات والنهبات، مازلت حية صامدة.

فقط تحتاجين يدي أن تمد لك، لتخرجك عملاقا ثائرا، من أسفل رماد الطغاة.

كرهت بشدة أولئك المنتفعين اللصوص. لكن كان علي أن أصبر عليهم، قبل أن أؤدبهم. وهنا كان علي بذل جديد، فقد تذكرت سير بعض العظماء، كسيف ابن ذي يزن، وكيف استعانوا بالحكام الأجانب حتى حين، واستقووا بهم لفرض الطاعة في بلادهم. أدركت أنني إن بدأت معاندا للجميع، فسيهلكونني. فعليّ أن أفرق بينهم، بحلف مع هذا، وحرب مع ذاك، حتى تخلص لي البلاد، لا بأس أن أضحي ببعض المدن والثغور للفرنجة، أو أن أشارك في حروب مع المماليك، يقتل فيها الأبرياء. فتلك المدن ستفقد حتما، وأولئك الأبرياء سيهلكون غيلة أو جوعا. خير لهذا وذاك أن يكون في سبيل توحيد البلاد، وإحيائها، على أن يكون في سبيل إطعام أفواه جشعة، لا تشبع.

وقد أثبت الزمن حسن بصيرتي، إذ لم تمض علي أعوام قليلة في العاصمة، وعلى تحالفي المكروه مع الجبلي الجشع، إلا وقد طهرت المدينة من أذناب الحمقى واللصوص، ووحدتها في قبضتي الطاهرة الآمنة.

وإن يوم حلفائي الفرنجة لقريب بإذن الله! فقط بعد أن أتم تطهير بلادنا من رجس الأمراء والمماليك.

ولكن كلما ظننت أنني قد قطعت الشوط الأطول، ظهر لي أنه مازالت الأخطار محدقة، والأعداء متربصة.

لم أكد أتم توحيد العاصمة، حتى بزغت تلك الدعوة المزعجة. دعوة لتوحيد البلاد، على مثل ما أرغب، تحت يد ملك واحد قوي. لكنه كان رجلا كذوبا، يزعم إنه وريث الملك، ويطالب بحق آبائه! أي حق هذا لأي آباء؟ الذين ضيعوا البلد بالجور والتخاذل؟

لو إنني أثق أن هذا الرجل سيستطيع أن يفي بنصف عهدي، لاتبعته. لكن هذا الوغد لم يكتف بجمع العوام والدهماء، وحشد المجاذيب، ليسلب بهم القرى الصغيرة، وإنما اندفع على شخصي تقريعا وسبا. جعل دعوته الحقيرة تحذير الناس من ظلمي! نفاق مفضوح! هذا الحقير ضم له بعض الأرجاس، التي طهرت العاصمة منها، وكان يتودد لهم بشتمي. أي عاقل سيرى أن كل من قتلته، منذ أتيت للعاصمة حتى ثورة الكاذب، بمن فيهم مماليك أعدائي، أقل من عدد الأبرياء الذين ذبحوا بلا ذنب سوى أن وجدوا في مكان يتصارع عليه أميران، خلال عام واحد.

نعم أنا قتلت الكثيرين. لكني أنقذت ببذل أرواحهم أعدادا أكبر. إنها الضريبة الغالية، التي يجب على الشعوب دفعها في طريقها للمجد.

سحقت هذا الكذوب سحقا. هزمت جيشه المكون من شراذم أعدائي، ومن يحسدونني، وتأكلهم الغيرة من نصر الله لي. لكن بينما تشتت عنه المماليك، والجنود، والحلفاء، بقي العوام والدهماء ثابتين، يناجزونني عاما أو اثنين. من اتبعوا المال أو السلطان سحقتهم، رغم قوتهم في ضربة واحدة. لكن من آمنوا بالكلمة، صمدوا وعادوا للكر بعد الهزيمة، لم تغلبهم إلا الكلمة عندما كشفت لهم حقيقة الكذبة. كان هذا درسا صارما لي. علمت كيف يتحول الإنسان الحقير الذليل، لجندي صامد، فقط لأنه آمن بقائده، ويتبعه عن إخلاص. لو وجدت في جنودي إخلاص كهذا وأنا مهزوم، لما نجح العالم في إيقافي. لكن أنى لي أن أدخل لقلوبهم، وأعرف هل يتبعونني افتتانا، أم إيمانا ؟

وهنا علمت مدى خطر الغرب عليّ.

البلاد ثمانية أقاليم: ثلاثة جنوبية، وشمال وشرق، والثغر الصغير وما يتبعه، والإقليم الغربي، والحاضرة.

كان نفوذي بعد سقوط العاصمة، وانتصاري على الدعيّ الكاذب، يتمدد في إقليم الشمال، وأقاليم الجنوب بسرعة مذهلة. أما أهل الشرق، فقبائل يسهل إرضاءها، وجعلها إما أن تتحالف معي، أو تكفني شرها. فبني الأسود أقسموا لي سرا على الطاعة من بعد أبي. وبني سليم حالفوني، حتى سأمت من تفاخرهم ومضايقتهم للتجار، فأدبت عشائرهم.

أصبح لا يعوق طريقي إلا قراصنة الزرقاء، الذين تضخم نفوذهم وقوتهم، وأقصى أقاليم الجنوب، بكثرة سكانها، وتحالف عشائرها مع ملوك السوّاد التسعة، والغرب الذي كان بعيدا عن يدي بما يفصلنا من صحراء.

فأما الزرقاء، فلن تنفعني وأنا بلا عرش. بعتها للفرنجة، مقابل أن ينصروني. خضوع الميناء للفرنجة أشرف من بقائها بؤرة فساد في الأرض، تبخ سما فيما حولها. لو كنت أملك أسطولا يقدر على تأديب القراصنة، لما احتجت للفرنجة. على أي حال، فالزرقاء ليست إلا جزء صغير من البلاد، وقد ضاع منها بالفعل منذ وقت طويل. ومن يدري، فربما أستطيع استعادتها في المستقبل من الفرنجة.

وأما تحالف بعض عشائر الجنوب مع ملوك السواد، فقد كان أمره يسيرا. ملوك السواد أنفسهم تبرءوا من كل أعدائي، لمجرد إنني طهرت طرق التجارة والنهر من اللصوص! وجدوا إنني أحمي تجارتهم، فتخلوا عن بني سليم، وتركوني أحرقهم بسهولة. وبشيء من مجاملة ورشوة، وبعض من قوة وترهيب، سيخضع لي الجنوب. فقط عندما أملك عددا كافيا من الجند لوضع حامية في كل مدينة، فاستغني عن حلفائي من أمرائه.

كم كنت أهمل الغرب، وأستهين بشأنه! لكن درس الوريث أصابني بالفزع!

لماذا تخشى الغرب أيها المغوار؟ أتخشى صحراء يسكنها فلاحون!

هكذا يسألني أعواني. حمقى لا يقيّمون الأمور.

الغرب سكانه ثلاثة. فلاحون، ومماليك وأثرياء، وهاربون.

الهاربون، سيهربون مرة أخرى لما وراء البلاد. بعضهم قد يقف ويحاربني، لكني لا أخشاهم. من هرب مرة سيهرب الثانية.

أما المماليك، فهم على كثرتهم مشتتون كعادتهم. لا أخشى منهم حربا إلا قليلا. لكنهم يكنزون أنفسهم في قلاع حصينة، وتلك القلاع التي لم تتعرض لضربات فرنجة أو أهبال، أو حتى حروب عنيفة مع الأمراء.

لأدمر تلك القلاع أحتاج لأسلحة وخبرة لا أملكها. وحرب القلاع طويلة. قلاع لم تحرق من قبل، كقلاع الشرق والشمال، أو تقلب لقصور مرفهة، كقلاع أمراء الوسط والجنوب. ولو استعنت بالأهبال وأهل السور العلي، فسأجد التحريض من الصنف الثالث.

أتخشى الفلاحين يا مولاي؟ وأي فلاحين! أولئك الذين يعيشون على مطر وبئر!

الغرب أفقر الأقاليم الثمانية. وهذا الفقر جلب له هدوءً وأمنا جعله حقا أغنى الأقاليم! وفلاحوه متمرسون على الحرب، بسبب نزاعهم مع الأمراء.

كان هذا هو الدرس، الذي تعلمته من الوريث الكاذب. الفلاح الحقير لا يستهان به إن حارب مؤمنا بقضيته. لو دخلت الغرب غازيا مع حلفاء يكرههم الناس، كالأهبال والفرنجة، فستحرض تلك الفئران، المتحصنة في قلاعها، الفلاحين عليّ، كما حرض الكاذب فلاحي الشمال ضدي. سيدعونهم للجهاد ضدي. وحربهم لن تكون سهلة، لكثرة خبرتهم، وتباعد قراهم، وغلبة الصحراء المرهقة لجيشي بين أراضيهم.

كان يجب أن أغزو القلوب قبل البيوت. يجب أن أكون ملكا متوجا من قبل أن أخطو خطوة واحدة في الغرب. يجب أن يرهبني الناس، وينهزموا قبل أن أحاربهم! ويجب أن يخضع كل شبر في الجنوب لي، حتى لا يثور أثناء انشغالي في حصار القلاع الطويل. لهذا، كان الغرب يجبرني على أن يكون آخر حربي.

كدت أن أفعلها لولا أبي!

كلما ظننت أنني اقتربت من الظفر، ظهرت عقبة، وتلك المرة كان أبي واضعها.

هذا الحقود، الذي نسي إنني ابنه، ونسي إن هذه بلاده، وخشي على نفوذ قبيلة، وعصبية دم، فحرض أمراء الغرب ضدي! أخرتني حركته الحقيرة تلك عامين على الأقل! كان يجب أن انتظر حتى تصبح قبائل بني الأسود في سلطاني بعد موته، وكنت مضطرا للصبر على غزو الزرقاء، ومهادنة قراصنتها، ليقطعوا طريق الوريث المزعوم. فلست في حاجة لوريث جديد، يلتف الناس حوله كما المرة الأولى. واضطررت لتدمير الثغر الكبير أولا، كدرس لأمراء الغرب، ولأتخلص من نفوذ الرجل القوي فيه، ابن عامر، ثم أنسحب لأول مرة من مدينة فتحتها، لأنني لا أستطيع الاحتفاظ بها. تبا له من والد! وكم عميقة خيانته لهذا الوطن.

لكني استغللت الوقت فيما هو خير، تخلصت من نفوذ بني سليم في الجنوب، تحالفت مع عدد من المكارين في الشرق، لتسهيل غزو الأهبال للثغر الصغير، لأنني احتاجهم بقوتهم في حرب الغرب، بينما حرضت القراصنة، وقويت دفاعاتهم، أثناء مجاملتي الأولى لهم، ليكونوا شوكة في حلق الفرنجة.

كانت حرب الزرقاء أكبر نجاحاتي. كم آذيت الفرنجة بها! جعلتهم خدما لي، يدمرون القراصنة، ولكن بعد أن تدمرت قوتهم، وأسطولهم المزعج! سربت المقاتلين والمجاهدين من السوّاد لداخل المدينة، وأبقيتها مغلقة، أمنع من فيها من الهروب، بزعم الحصار، لأجبرهم على الصمود داخلها! كنت أمنح الفرنجة الزرقاء، وأبدأ

أولى خطوات سلبها منهم بتدمير أسطولهم! كان شرطي صارما:
"لو نجت سفينة قراصنة واحدة، لتؤذي حجاجي في المستقبل، فأنا في حل من عهدكم، بينما كان فعلي ساحقا، إذ لم أترك للفرنجة في المدينة إلا الرماد! دفعوا ثمنا، لبعض الحطام، آلافا من جنودهم، وعشرات من سفنهم، وكنت وبلادي الرابحين الوحيدين في المعركة!"

ثم مات والدي، يشيع البعض إن بعضا من أحبائي عجلوا بنهايته، ولو إن الرجل المعاند كان أصلا على حافة القبر.

اليوم أصبح بني الأسود وسيوفهم رهن إشارة مني أخيرا.
والأهبال والفرنجة يسيرون معي في جيشي، وقد أعددت لهم مفاجأة عظيمة، أشد من مفاجأة الزرقاء.

اليوم أمحو خطايا أبي، وخطايا الملوك قبلي في مسيرتي للغرب.

اليوم يوم وحدتك يا وطني، فافرح واستقبلني.

فقط خطوات قليلة، ويصل المجد لنا.

فقط خطوات قليلة.

(٥٤)

وبدأت الحرب

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان:

"كلما تصورت أن الأسوأ قد مضى، زادت المخاطر حدة، واقتربت النصال أكثر من حبل الوريد. فبعدما احتلت على لصوص النهر، وبعتهم (بضائعي) بحياتنا، وهربنا منهم مسرعين يطاردوننا، بعدما اقتسموا غنيمة من تراب وحصى، وقعنا في كمين لجند الأسود، معد للصوص النهر.

طلبوا منا أن يفتشوننا، وكان هذا معناه هلاكنا حتما، حينما يعثرون على درع الغيلان الحمر.

تسللت بهدوء للخلف، بينما يفتش الجنود البحارة. قلت لقائدهم، عندي أمر هام، أريد أن أريه لك، فأستأذنك في الذهاب لمتاعي. قبل القائد، لكنه بفطنة أصر على أن ينزع أولا سلاح رفاقي.

أسرعت نحو قاع المركب، حيث تخزن المؤن، فقبضت قبضة من دقيق، بللتها بالماء، فأصبحت كرة صغيرة من عجين، بحثت سريعا عن شيء أحمر أصبغها به، فلم أجد إلا أن أجرح نفسي وأصبغها بدمائي. وجريت لمتاع تيمور، فاستخرجت هذا الخطاب المزين الذي تعلوه أختام الخليفة، وحاكم طرابلس، وقاضيها فلففته، ووضعت كرة العجين الحمراء عليه، كأنما هي ختم له، ودعوت الله أن ينخدع بها.

صعدت ثانية، فوجدت الجنود يستعدون لتفتيش متاعنا، فصحت بهم:

"انتظروا!"

نظروا لي متحفزين فقلت متعبا:

"هذه رسالة مختومة كما ترون، هل ترى على ظهرها هذا الختم الملكي أيها القائد؟ إنها رسالة من ملك الأحباش، للقائد الأسود مولانا الملك المغوار. كنا ذاهبين له بهدايا، لولا أن سرقها اللصوص منا عند الهويس السابق."

نظر لي قائد الجند ذو الزي السود بتحفز، ثم قال:

"لن نترك اللصوص يهنئون ويرتعون في نهرنا. امضوا على بركة الله، وبإذنه سننال منهم، ونعيد بضاعتكم."

وتركونا نمر، بينما جمعوا بعضهم لاستعادة هدايا قائدهم المزعومة! وتركوا معنا بعض الحرس حتى نصل للعاصمة.

تسللنا أثناء الليل هاربين من السفينة سباحة، حتى وصلنا للشاطئ، محتمين بالغاب والبوص، من مطاردة دؤوب قام بها جنود الأسود لنا.

وبعد مغامرة شاقة، غلبها الطين، الذي أثار جنون الشهابية، الأميرة التي عاشت حياتها في القصور، التحقنا أخيرا بقافلة ذاهبة لساو،ة فإذا بنا نقع في أيدي (شهاب الشركسي).

كان (شهاب الشركسي) حاكم مدينة ساوة، حانقا عليّ منذ أول مرة زعمت فيها إنني زعيم الغيلان، وكان ممن يمالئون الأسود، ومدينته، التي ليست إلا حصن كبير، يحمي الطريق المؤدي للواحات الخصبة من غارات الأعراب، تتحكم في الطريق، الذي يبدأ من بعد جنوب العاصمة بقليل، حتى الواحات، فشدد مراقبته بأمر سيده ل،ه وإذا به يتعرفني، فأمسك بي!

اضطررت لأن أزعم إنني وحدي، تركت الشهابية وتيمور وعبد الله مع التجار يكملون مسيرتهم لساوة، وسلمت نفسي بلا قتال لجند الأمير.

اقتادوني لسجن في قعر القلعة، تحت حراسة مشددة، إلى أن يتدبر أمر إرسالي لسيده. كان الأمر على ما يبدو مربكا، لأن الأسود يظن أنني قتلت. وفهمت من أحاديث الجنود أن حسام

الأسود يظنها مؤامرة عليه للطعن في إخلاصه للقائد الأسود.
فبدوت في سجني مشكلة، لا يعرف الشركسي لها حلا.

لكن الحل أتى رغم أنفه! لقد وصل الملك سالما إلى ساوة، وثارت، وثارت خلفها كل البلاد!

الدعوة التي انتظرها الناس طويلا، بعدما بشر بها الدراويش، قد تحققت، فأتوا من كل فجاج الأرض لينصروه. الدعوة للجهاد ضد الطغاة، وتوحيد البلاد تحت ظل ملك واحد، يطرد منها أعداء الدين من الفرنجة والأهبال قد تأججت. فجرح سقوط الزرقاء، والثغر الصغير قد بخ صديده في وجوه أعوان الأسود أخيرا، ليطهر بلدنا من حمّاه.

أخرجني الشركسي من سجني معززا مكرما، وأعلن بجبن إنه منضم للملك!

وذهبت لساوة، تسبقني الأخبار عن إن الأسود جمع جيشا عظيما بلا مثيل، وسيسير نحو واحات ساوة مدمرا كل أمير يقف في طريقه، حتى يصل لرأس الملك.

لقد بدأت الحرب المطهرة، التي سعيت لها طويلا.

أخيرا...أخيرا سنحرر بلادنا.

فقط لنصبر قليلا حتى نتنسم الحرية.

فقط لنصبر قليلا.

(٥٥)

حشود الملك

٥٥- ١ (فقـراء)

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان:

"دخلت ساوة دخول الفاتحين. ووجدت مجلس الحرب منعقدا فيها بزعامة الشهابية، كانت، بما لها من خبرة في حكم طرابل، قد تولت زمام الأمر، للسير في الاتجاه الصحيح. فأرسلت الرسل لكل مكان في البلاد، تطلب البيعة للملك الجديد. أرسلت رسلا حتى لبني الأسود، وللقائد الأسود نفسه!

وأتت الوفود تلو الوفود، من أهالٍ فقراء، وصيادين معوزين، ومحاربين تشرذموا عن ساداتهم، يستجيبون لنا.

كان ظهوري في درعي الأحمر جاذبا للآلاف من البسطاء. فحكاية الغول الأحمر، حامل مصيب الفولي، المنصور بأمر الله، قد تركت أثرا عميقا فيمن ظلمهم القائد الأسود.

لكني كنت أدرك أن كل هذا زبد، يذهب جفاء. لقد نصر مثل هؤلاء الوريث الكاذب، فلم يملكوا أمام القائد الأسود إلا أن يذبحوا كالنعاج.

كان يجب أن نستعين بالأمراء، الذين بدأ بهم الأمر، وإليهم نهايته. تجاذبت مع أطراف مجلس الحرب الحديث، واستقررنا على أن ندعو كل زعماء الغرب مرة أخرى، في قصر ابن العبدلي. وأصرت الشهابية على أن تضع في رسالة الدعوة تهديدا صارما لمن يتخلف، ولو إنني أظن أن هذا لن يجدي، فمن يرغب في نفاق الأسود، سيأتينا هو الآخر، حتى يتحسس الأخبار، لكنها ردت بأنه على الملك ألا يترك شيئا للظنون، فعليه أن يأخذ بكل الأسباب.

وأتى الأمراء مهرعين لهذا الجمع بلا استبطاء، قد ظنوا أن الملك والأقاليم توزع غنيمة فيه من قبل أن تكسب! لم أجد من بينهم سائلا، أو مشككا في أمر الوريث، فقط كانوا يسألون عن العطايا، والولايات التي ستمنح لهم! حتى أصابني الضيق، فلم أحتمل، واندفعت صارخا بينما يتشاجر المركون ابن آسف مع قلبجك الدميرلي على مدينة سربة، وهتفت:

"أتعلمون من أنا ؟"

قالوا بأصوات مرتجفة:

"زعيم الغيلان الحمر."

قلت:

"وأتعلمون من هذا؟" مشيرا إلى تيمور.

ردوا:

"ملكنا ووارث بلادنا."

قلت:

"أين بيعتكم؟ أتقسمون له على الطاعة؟"

فردوا فورا:

"نقسم."

وهو قسم لو تعلمون خسيس! لقسم اللص أكثر وثوقا منه!

قلت مصرا:

"أتبايعونه على السمع والطاعة، وعلى القتال دونه حتى يكون غالبا؟"

ردوا بنعم.

فأكملت:

"أتعلمون من عدوه؟"

"القائد الأسود."

فقلت بغيظ:

"أستحاربونه معنا؟"

ردوا باستخفاف:

"بلى!"

فقلت وقد أتيت لطُلبتي أخيرا:

"فأين جنودكم وسلاحكم؟ لا أرى إلا شراذم، بينما جنودكم مكنوزين في قلاع تحمي ما انتهبتموه من قوت الفقراء، أين الجنود يا أمراء الغرب؟ هل تظنون أن حرب الأسود يسيرة لهذه الدرجة؟ أتوزعون الغنائم من قبل الحرب، بينما أسلحتكم صدئت في مخازنها؟ أين الجنود يا أمراء الملك!"

وكأنما أخذتهم على غرة! وأخذت في جدالهم لحشد الجنود معنا، فوافقوني بسهولة تثير الإحباط، عهد كعهد الأبالسة خلافه وفاء!

٥٥- ٢ (وأمـراء!)

عدنا لمعسكر الحرب في ساوة مع من تبعنا، وإذا بإحباطي يتبدل أملا، حينما رأيت المشهد الجديد. لقد جمعنا، والله، ما يكفي للحرب بفضل الله.

ثلاثون ألفا من المماليك المدربين، ما كنت أطمع من الأمراء في أكثر من هذا، رغم إنني أعلم علم اليقين أن قصورهم تخفي ضعف هذا العد.

وانضم لهم ما يقرب من عشرة آلاف من الشراذمة المختلفة الألوان، بين مجاذيب الفولي، والفقراء، والبسطاء. ربما لا يكونوا بالقوة التي يعتمد عليها في الحرب، لكن وجودهم وعددهم قد يصنع رهبة ما. وقد أثبتت الشهابية حسن الفطنة، عندما أتت بهؤلاء لحفر الخنادق، وإعداد التحصينات لنستفيد من أذرعهم بأفضل ما يمكن.

لكن ظهر حشد ثالث.

ما يقرب من ألف وخمسمائة من اللصوص، والهجامة، والعربان، الذين ظنوا أن فرصة النهب العظيمة آتية، فاحتشدوا مهددين ينتظرون وصول الأسود، ليسيروا معه، ويغتنمون معه.

وقد أجرى لعابهم ما تناقلته الألسنة عما احتمله الأسود من كنوز، حينما نهب مدينة الثغر الكبير، مدمرا قصور أمرائها.

ربضت جماعة المرتزقة المسماة أسود الجبل عند آبار بني مر، والتف حولهم المئات من الغوغاء في أيام قلائل. واضطررنا للانتظار، حتى أتتنا أنباء وصول طلائع حلفاء الأسود للحاضرة، من الأهبال، والفرنجة، وجنود من السور العليّ أيضا. فِأخذت ألفا من خيرة الجنود، وهاجمت حشد اللصوص أثناء الليل، فقتلتهم عن آخرهم، مستخلصا حسابا قديما من الرعب، الذي أذاقونيه في السنوات الخالية، ومنشرا فزعا جديدا من بطش الغيلان الحمر.

وهنا أتى المزيد من الأنصار لنا من كل البلاد. فأتى زعيم خدام الضريح، حاكم زمام الشيخ عصفور، بكل أنصاره وحلفائه في ستة آلاف دفعة واحدة. ومن ورائهم، ومعهم جماعات من الشرق والشمال، وكثير من أبناء عشائر بني سليم، الذين غدر بهم الأسود من قبل. كانت أعدادنا تتضاعف، حتى زاد الأمل لما يشبه اليقين.

وبقى علينا التربص لنرى خطوة العدو التالية.

كان أمام الأسود طريقين لغزو الغرب الشاسع. إما أن يسير عبر الساحل، ليهاجمنا. وهو طريق اخترقه من قبل بنجاح، كما إن دفاعات الثغر الكبير قد تدمرت، وأزيحت من أمامه. وإما

أن يلتف عبر الجنوب، مواجها قلعة مدينة ساوة الحصينة. وهو طريق صحراوي جاف، لكن عبوره من الممكن.

كنا متربصين في واحات ساوة، تحوطنا صحراء من كل اتجاه يصعب شقها. وشرقها بالطبع وادي الضياع، غير الصالح للعبور، لذا كان قلقنا من غزو في الجنوب يحتاج لصمود قلعة ساوة، أو هجوم على المدن والقرى المتركزة في الشمال، قرب الساحل وهي، على كثرة سكانها، دفاعاتها مشتتة. فكرنا أن البقاء في ساوة في المنتصف أفضل، حتى تأتينا أنباء تحرك جيش الأسود، فنسرع لملاقاته في أي من الاتجاهين.

لكنه تربص وانتظر. لا أعرف ما يدبره، ولماذا لم يسرع بضرب ضربته. أظنه ينتظر حتى يجتمع كل أعدائه في جيش واحد، يتخلص منه بضربة واحدة، لا يعاني بعدها من تمرد. لكن تأخره يزيدنا قوة، وقد أثار عبد الله بن محمد ولي العهد، وابن الشهابية قلقي، وقال إن الأسود، حتما، يدس بين الأنصار القادمة لنا في الشرق جواسيسا.

وهنا انتقيت بعض الرجال المخلصين، من خدام الضري،ح وعمال ابن العبدلي، ليندسوا بين الصفوف يأتوني بالأخبار، فأتتني الأخبار المريبة بسرعة البرق.

جماعة من المتطوعين أتوا من الثغر الصغير، يتراسلون مع بعض الأمراء؟

أهل الثغر الصغير أصلا لم ينهضوا لمحاربة الأهبال، حينما سقط.
فقط حاكمهم الخانع، وقف وقفة الرجال، صامدا رافضا للتسليم،
محاربا عن قصره، بعد أن تخلى جنوده عن أسوار المدينة،
ليقتل شر قتلة بعد دفاع مستميت، لم يزد عن الشهر.

٥٥- ٣ (وجواسيس!)

نزلت بنفسي متخفيا، أنظر لهؤلاء الرجال، فإذا بي أراه بشحمه ولحمه ومكره! الشاطر عدنان نفسه! هذا الملعون الخبيث، الذي أكثر لي في الأذى، لا يريد تركي في حالي، وأتى بشره خلفي حتى هنا؟ كدت أن أهجم عليه فأقتله، لولا بقية من حكمة.

ذهبت لابن العبدلي، التاجر الثري، الذي منحني كتاب الغيلان، وحينما جد الجد جمع كل رجاله خلفنا، ونصب لنفسه خيمة عظيمة، كانت مستقر قيادتنا. وأنفق من أمواله على طعام الجيش، ومعاونة الأهالي.

أخبرته بما حدث، فدبر معي تدبيرا. أتى ببعض من الخمور الفاخرة، وطلب مني أن أرسلها للشاطر ورجاله، زاعما إنها هدية صداقة من الأمير الشركسي، حاكم مدينة ساوة. اشمأززت من أمر الخمر، لكنه قال لي:

"هي الآن سلاح نحارب به عدونا!"

لو كان الشاطر عدنان مدسوسا من الأهبال أو الأسود، فحتما سيراسل الشركسي، أجبن الأمراء، والذي بيده أهم قلعة في

الغرب. لو استطعت استجواب هذا الشاطر، ومعرفة ما وراءه، فربما أتقي شرا عظيما.

كما توقعت، قبل الشاطر الهدية بسهولة، كأنما أتته مثلها من قبل. كان ابن العبدلي قد مزج الخمر بنبات منوم، يقال له القنب، فتربصنا حتى غلبت السكرة والتخدير أتباع الشاطر، فتسللنا عند الفجر بهدوء، للقبض على الشاطر عدنان.
وتعثرت، أو تعمدت أن أتعثر في الجسد الدنيء لكلثوم العملاق.

دهمنا خيمة الشاطر، وكان أمكر من أن يسلم نفسه للخمر. فاختطفناه بهدوء، وجذبناه، دون أن يشعر أحد، بعيدا، لنحبسه في منزل شيخ الواحة.

فتح الرجل عينيه الخبيثتين، ليجدني في دروعي الحمراء، أضع رمحي بين عينيه!

صاح بفزع:

"ظننتك هلكت!"

قلت:

"إذن فهذه أخبار سيئة جدا لك! لأنني سأكون شبحا أتى لحرق كبدك وأنت حي!"

قال:

"آه... لا .... طبعا أخبار مفرحة كونك حي. كذب علينا الأسود كعادته إذًا؟ لقد أخبرني إنه يريد محالفتك، ولذا ظننت أنني أحسن لك صنعا بإرسالك له؛ لكن هذا الذي باع البلاد، لا يصعب عليه أن يخدعـ...."

قاطعته زاعقا:

"خدعك؟ خدعك يا ملك الخداع؟ أنت يا أمكر الحقراء على ظهر البسيطة؟ اليوم تدفع الثمن كاملا غير منقوص!"

أيقن بالهلاك، فتحول لمتوسل:

"لا أرجوك."

قلت له:

"أنت خير من يعرف أن الغيلان الحمر لا تعرف الرحمة مع من يغدر بهم أو يخون."

قال:

"لكني سأفعل لك كل ما بوسعي. سأفعل أي شيء تطلبه مني، وأنت تعلم عظم نفعي."

صمت للحظات كأنني أفكر، ثم قلت:

"لو ظهر لي إنك ذو نفع، فربما أفكر في الإبقاء على حياتك."

قال بلهفة الجبناء:

"نعم، نعم. سأكون ذو نفع عظيم. أرسلني إلى الأسود، وسأريك ما سأفعله به......"

قاطعته:

"هل تراني أحمقا أمامك؟ لن أطلق ثعبانا مسموما مثلك من محبسه أبدا."

قال مراوغا:

"إن لم تطلقني، فكيف ينفعك مكري؟"

صمت كأنما بهتني، تاركا الأمل يداعب قلبه، ثم قلت:

"هممم. هذه حجة قوية حقا. عندك حق، إن لم أطلقك فلا نفع لك، ولهذا لا حل سوى قتلك."

وخرجت من الحجرة قائلا ببرود للمماليك الذين معي:

"جزوا رأسه، وعلقوه على باب المعسكر، عبرة لكل جاسوس."

مضيت مغادرا، وأصوات استغاثته تثقب الآذان. ترى كم مستغيث أغاثه هذا الحقير؟ كم من مغدور قتل بسببه؟ كم من مسافر آمن مات من الجوع والعطش، بعد أن تركته الدابة وسيلة وسط الصحراء القاحلة، لتعود لبائعها؟

قبل أن أغادر المنزل، وصلتني صرخته الأخيرة:

"سأدلك على الخونة من الأمراااااااء!"

عدت من فوري، أرفع عنه السيف الذي أدمى رقبته. كانت حالته مزرية حقا، ودموعه تلطخ خديه، ممتزجة بلعابه، الذي سال، بينما بوله قد نجس الأرض الطاهرة من أسفله.

قال - بمجرد أن رآني - منهارا:

"كنت أراسل الأمراء. كنت أراسل الأمراء، اتركني أدلك عليهم. سيغدرون بك. هم والأسود تآمروا عليك. أبق على حياتي وسأخبرك."

نظرت له باحتقار، وقلت:

"أخبرني، وربما ابقي على حياتك. أما تذكر حكاية البرغوث الذي أزعج الأسد؟ تلك التي سخرت مني بها؟ لا يكون الأسد إلا أحمقا، لو ترك البرغوث يهرب مقابل بضع كلمات."

كانت عيناه تدوران زائغتين بغير استقرار، وبدا أنه لم يفهم أغلب كلماتي. أدركت أن الشاطر رغم جرأته، لكنه جبان، وهو من النوع الذي يفزع حقا من الموت، حينما يلقاه محتوما، لذا فقد مالت نفسي لتصديقه.

قال:

"أستطيع أن أثبت لك. فعندي رسائل. كنت أنسخ الرسائل بخطي، وأحتفظ بأصل رسائل الأسود عندي. ظننت أن الملك

إن انتصر، فسيشترون مني الرسائل الأصلية بأي ثمن، وإن انتصر الأسود، فسيظنون أن خطي إنما له هو، فأنتفع به في خداعهم! كلهم يا مولاي خونة حقراء، أسوأ مني أنا اللص المسكين، الذي أذاه محدود! كلهم إلا الوكيع ابن عامر، وكايدهم ابن بارم ديله، يخونونك وستجد أسماءهم."

كان حديثه منطقيا، فالوكيع يطلب ثأر أبيه ابن عامر، الذي أحرقه الأسود حيا في الثغر الكبير، وكايدهم يطلب ثأر شقيقه جركس، الذي قتل في كمين مع أمير الزرقاء، ليلة أن غادرت قصر ابن العبدلي لجلب الوريث. ولكن الجميع يستطيعون أن يضيفوا لهما اسمين أو ثلاثة، يحفظون أنهم لن يهادنوا الأسود. وليست شهادة عدنان بالمقبولة.

قلت للشاطر:

"أين تلك الأوراق؟"

قال:

"أخرجني آتيك بها."

قلت:

"مرة أخرى تضيع وقتي عبثا. ورائي جند أهتم بهم......."

قاطعني متوسلا:

"أرجوك، لو قتلتني دون أن تصدقني، فستموت من ورائي حتما. دعني أسرع لك بالأوراق، فالأسود الآن يزحف نحوكم بمائتي ألف جندي، و حين يصـ........"

صرخت مقاطعا:

"كم تقول؟"

قال منهارا:

"الأوراق في صندوق مدفون، أسفل فراشي، في خيمتي. لا أحد غيري يعرف بوجوده. ولكن أحد رجالي أخبرني أن الأسود حشد مائتي ألف جندي من أنصاره، وحلفائه، وبني الأسود. وهو يخبر أمراء الغرب في رسائله إنهم مائة ألف فقط، لأنه ينوي التغرير بهم، والخلاص منهم جميعا. لكني واثق من أن جنده وصلوا لمائتي ألف، لذا استغرق في جمعهم وقتا طويلا. أظنه سيأتي بهم عبر الجنوب، حيث تستسلم له قلعة ساوة. والفرنجة أمدوه بأربعين ألف، ورأيت بأم عيني خمسين ألفا يتجهزون، من الأهبال، في الثغر الصغير. وعشرة آلاف من السور العلي، هم الآن في الحاضرة، يمدونه بأدوات الحصار، على أن ينصرهم ضد الصيادية! اقسم لك إنها حقائق، علمتها من رجالي. لو قرأت الرسائل، فستجد فيها بعضا مما أقول."

تبا لهذا، لو صدق فقد هزمنا من قبل أن نحارب. هذا حشد لم تر البلاد مثله منذ غزو الأهبال. بعد كل جهدنا لم نحشد إلا

خمسة عشر ألفا من الغوغاء، الذين لن يستطيعوا قتالا، وثلاثين ألفا من المماليك، سينفض عنا أغلبهم بأمر أمرائهم الخونة، ولم يتبق سوى ستة آلاف مقاتل، الذين أتى بهم زعيم خدام الضريح، أنى لهم بالصمود أمام كل هؤلاء؟

أرسلت رجلا ليتسلل لفراش الشاطر، ويأتيني بالصندوق، وأسرعت للملك والملكة، وولي العهد أخبرهم بالكارثة.

لم نجمع في مجلسنا سوى أربعتنا، وابن العبدلي، ووكيع بن عامر حاكم الثغر الكبير.

في البداية كانت الشهابية ثابتة الجأش، لكنها فاجأتني بقولها:

"مادام لا أمل من الحرب، فلنحقن الدماء، ونعد سالمين على طرابل!!!!!!!!!!"

أردت أن أرد عليها بكياسة، إن الدماء ستسيل أنهارا بمجرد دخول الأسود للغرب، لكن كان تيمور هو من رد عليها بحدة:

"والله إنا لا نقاتل طلبا لملك أو مغنم، وإنما طلبا لحق وجهاد! لا ضير عندي أن تجز عنقي في سبيل تحقيق ما أرجوه، فدعي عنك أوهام السلامة تلك، فإن طريق الجهاد مرير، ومن بدأ فيه فعليه ألا ينتكس عنه أبدا."

صمتت مكظومة من الغيظ، خاصة وأن ابنها قد أسرع معنا، يقلب الأمر ويحسبه.

كانت الأزمة صعبة، ولكن الشهابية عادت باقتراح أكثر حكمة من اقتراحها الأول:

"لنطلب من الأسود طرد الفرنجة والأهبال من البلاد، ونسلم له الملك، فنحن لا نطمع فيه، وإنما تثير غيرتنا هذا الانتهاك لأراضينا."

لكن وكيع رفض أي صلح مع قاتل والده، وطلبه للثأر حارق ماحق، لذا فقد رد بحجة قوية:

"أيسر على الأسود أن يحاربنا نحن، فلم نجمع بعد عددا من الجند يصل لجيش أحدهما، ناهيك عن أن يحاربهما معا!"

فقال ابن العبدلي:

"تربصوا لبعد غد، فحينها ستكون أنباء زحف الفرنجة والأهبال قد اتضحت، ونحكم عن بينة، لكن يجب أن نجمع أكبر عدد ممكن من الجند المخلصين، ونتكتم الأمر عن الأمراء، وإلا فلا نعرف كيف سيفعلون، إذا علموا بافتضاح أمرهم."

قلت:

"من أين نأتي بجنود آخرين؟ هم عند الأمراء الخونة!"

قال وكيع:

"هذا وقت الغيلان الحمر. أين غيلانك أيها القبيل؟"

صمت مبهوتا، قبل أن تسعفني بديهتي، فقلت:

"نعرف أن الأهبال يتلكئون حتى يتثبتوا من أمر الغيلان وأعدادهم."

قال لي:

"هذا صحيح."

قلت:

"فلم أعجل بظهور الغيلان الحمر؟ ليتلكأ رجالي عسى أن يزداد تباطأ الأهبال، فيفوتون المعركة ونكفى شرهم!"

بدت حجتي مقنعة، فصمت على مضض، وبدا أنه يفكر في رد آخر، لكن ابن العبدلي تدخل لينقذني محولا الحديث:

"هناك الكثير من صغار الأمراء والقادة، لا يأتمر أحدهم على أكثر من مائة أو مائتين من الجنود، لو جمعناهم فربما نستقوي بهم."

هنا أتتني فكرة مقلقة، لكن في هذا الظرف الكئيب بدت لي حتمية. فقلت:

"سأترككم الآن، محاولا تدبر أمر عدد من الجنود، ولنلتقي بإذن الله هنا بعد ثلاثة أيام في مجلس حرب."

نظروا لي بغير فهم، وفتح وكيع فمه لعله يريد السؤال عن الغيلان الحمر، لكني تركتهم ورحلت."

٥٥- ٤ (الشيخ غلاب)

"ركبت حصانا قويا، وعدت لقريتي القديمة.

لا لم أهرب، بل أتيت لأستنجد بأهلها!

كان شعوري غريبا حقا، حينما لاحت لي على مسافة طويلة. لأكن صادقا، لم أعتبر أن قريتي هي وطني الحقيقي، إذ لم أعش فيها إلا مدة قصيرة، لكن تلك الرحلة الطويلة، التي قطعتها وأنا أتمنى في كل لحظة ترك كل شيء والعودة لها، وكل تلك المرات التي كدت أن أموت، فتمنيت أن أدفن فيها، بدلا من أن أدفن غريبا شريدا، جعلت قلبي ينتفض حينما دخلتها، ونظرت لبيوتها الطينية البسيطة.

كم مر من وقت؟ آه شهور طويلة، ترى كيف حال أرضي؟ للأسف لم يحن بعد وقت القص، ومعرفة الأنباء، إن كان مثل هذا الوقت سيحين أصلا!

ذهبت إلى الشيخ غلاب، وكم كانت دهشته عظيمة غذ رآني! احمر وجهه بشدة، وأشار لمن معه بالانصراف، فخرجوا وقلوبهم تحترق من الفضول.

بعد السلام، قلت لشيخ بلدتي الشيخ غلاب:

"يا شيخي، تعلم الآن أنني من جنود الملك؟"

صرخ بغيظ:

"طبعا أيها الماكر المخادع الكاذب! تزعم إنك..."

قاطعته:

"لا أزعم شيئا، أنت من أعطاني الدرع، اليوم كل البلاد في حاجة لهذا الدرع، وفي حاجة أكبر لسيوفكم ودروعكم."

قال لي:

"أتدعونا للحرب! أبلغت جرأتك بعد ما فعلته أن تدعونا للهلاك معك؟ ولو افترضت إنني أجبتك، فكم رجل في القرية قادر على القتال بعيدا عن منزله؟ لو أكرهتهم بالسياط، فلن أزيدكم إلا خمسين مقاتلا."

استبشرت برده خيرا، لم يجادلني في سبب القتال وغرضه، فأدركت أنه مقتنع أنّا على حق، فقط هو كالبقية يخشى عاقبة الأمر، ويقعده عجز الموارد.

قلت:

"اليوم يوم الحسم. اليوم يوم الوحدة. منذ الآن لن تقاتل كل قرية وحدها. بل الخمسون القادمون من كل قرية سيقاتلون معا، دفاعا عن وطننا، ودرءا للأهبال والفرنجة عنا. اليوم حان الوقت للفلاحين أن يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم معا، فلا مكان لأمراء المماليك، لأنهم لن ينفعونا."

قال متبرما:

"وماذا بيدنا لنفعله؟ حاربوا أنتم إن شئتم."

قلت:

"اليوم ستدور حرب ضروس، مماليك وأعراب وفرنجة في جانب واحد، فمن بقى ليصدهم؟ ظننت أن اسم الوريث قد يجدي، فلم يغن شيئا، وخذله الأمراء. استعنت بأساطير الدراويش، فلم تجلب إلا شراذم، أغرينا الأمراء، ودفعنا للمرتزقة، فأغراهم السود، وأرهبهم بما فوق طاقتنا. كم بقى لنا من قوة ندفع بها أعداء الدين والوطن عنا؟ كم من قوة بقيت لنا لنصد طغيان السود من أن ينالنا، فتنهب أرضنا، ودماءنا حلالا لرجاله؟"

قال لي:

"لا شيء! لذا فعلينا أن نستسلم ونسالم. لا فائدة."

قلت:

"والله الذي لا إله إلا هو، لو أنك قلت لي هذه الكلمة من قبل لأطعتك! هل تعلم لماذا؟ لأن هذا هو ما نفعله دوما. نستسلم. لكن ماذا جنينا من الاستسلام والانكفاء؟ اضطررنا للحرب على أبواب بيوتنا مفزوعين، أو رحلنا مهجرين، كما فعل أبي. اليوم وقفت على أمر غريب. أكنت تصدق إنني سأستطيع

الذهاب لطرابل، وجلب الوريث، ومغالبة الأسود كل هذا الوقت يا شيخ غلاب؟"

هز رأسه نفيا، وقد التمع الفضول في عينه، لكن لم يكن هذا وقت لقص قصصي عليه، فأكملت:

"لم استسلم في هذه الرحلة المستحيلة. أتعلم كم شخص طيب وشرير أخبرني ناصحا ألا فائدة؟ من كل الأشكال والألوان فرنجة، وعرب، وأساودة، ولصوص، ومقاتلين أبطال! لكني نجحت. هل تعلم لماذا؟ لأن دافعي الأول في هذه الرحلة كان أنت يا شيخ غرب!"

انتفض جالسا، وقال:

"أنا؟"

قلت:

"نعم أنت! أتذكر حين عايرتني بوالدي الذي هرب؟ لقد هرب والدي من هنا للزرقاء، ومن الزرقاء لأحراش الشمال، فما نجح في الفرار من الموت! قلت لنفسي لأكمل المسير، فالموت محتوم. الموت محتوم يا شيخ غلاب. لكني قلت لنفسي لأمت مرة وأنا غير هارب! بل كار مهاجم! لأمت ميتة لا خزي فيها، ولا يعايرني بها الشيخ غلاب. ثم علمت أمرا آخر، هو أن الله لا يحاسبنا على ما حققناه، وما ظفرنا به. جزاء الشهيد واحد، سواء انتصر، أم غلب. فقد مات في سبيل الله، لا في سبيل النصر!

ألا تذكر هذا الحديث الشريف، الذي تتلوه علينا كلما خرجنا لحرب المجرمين الطامعين في نهب حصادنا ؟ (من قتل دون ماله فهو شهيد) فإني أذكرك بحديث آخر:" سَأَلَ رجل رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْقِتَالِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ غَضباً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً. قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ – وَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِماً – فَقَالَ « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ».

أفهمت يا شيخ غلاب الحديث ؟ لا أطلب منك القتال شجاعة، أو حمية، بل أقول لك قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فترفع بسيفك الظلم عن عباد الله.

أقول لك قاتل أعداء الله، الذين يبغون الفساد في الأرض، فيستحلون المحارم والدماء، مدمرين هويتنا، وإسلامنا، بسم السلطان والقوة والأمر والطاعة.

لا أقول لك الفرنجة، الذين استباحوا البلاد فقط، وإنما قبلهم الأمراء الفاسدين، الذين يظنونكم موتى لا تغضبون إلا على إناء طعامكم. هؤلاء الذين بثوا الفتن في البلاد. أتتركهم يكملون فسادهم، وينصبون طاغوتا ملكا ؟ أما حانت لحظة الحرب عليهم بعد، وهم من بدءونا بالحرب ؟

إني لا أدعوك لفتنة أو ثورة على ملك جائر، فنصبر طاعة لأمر الله، وإنما أدعوك لحرب ظالم تجبر، أتى لأبوابنا يطلب

دماءنا، متسلحا بالفرنجة والأهبال الكفرة، ومبيحا لهم دماءنا وأعراضنا. أفنرتد عنهم، لأننا لسنا أقوياء، ولسنا شجعان؟

كلا يا شيخنا، فإنا لا نقاتل في سبيل غنيمة أو نصر، ولن يحاسبنا الله على ما جمعناه من غنائم أو انتصارات. سيسألنا ويحاسبنا على لماذا قاتلنا، وكيف قاتلنا.

يا سيدي شيخ البلد، البلد التي تحكمها لم تذق من سواعد المرتزقة إلا الجور والفجور، فلم ينقذها إلا أيدي أبنائها، وكذلك، فبلادنا لن يوحدها إلا أيدي أبنائها.

مد يدك في يدي، وأرسل لكل القرى تجمع أبناءها، فالجهاد اليوم فرض عين لا فرض كفاية. مادام العدو أتى لأرضنا، فيجب على كل مسلم أن ينهض لدفعه، وقد وجب هذا منذ زمن بعيد، وحانت اليوم فرصته."

أنهيت حديثي الغاضب، وأخذت ألهث منتظرا في غير أمل. نادرا ما غيرت الكلمات إنسان، فالكلمات بخرها سريع أمام نار الدنيا، الموقدة بالفتن، وميل الهوى للدعة والراحة.

وجدت الشيخ غلاب ينهض دون رد، فقلت بصوت واه:

"إلى أين يا شيخ البلد؟"

قال بصرامة:

"سأحضر سلاحي، فأنا بحاجة له! ولا تضيع وقتي الآن، فستحتاج لكلمات أشد تميقا في كل قرية تمر عليها. اذهب لنائب القاضي، فلو أعلن دعوة عامة للجهاد، ووافقك، فلن يتبعك زمام الشيخ عصفور فحسب، بل كل الغرب. اذهب لمساجد القرى، فوبخ شيوخها لقعودهم عن الجهاد، فإنهم إن تبعوك تبعك الأهالي. لا تضيع وقتي يا غلام يا ابن الصياد!"

وهكذا بدأت في رحلة ظافرة، لجمع المجاهدين. حفنة من كل قرية، وجماعة من كل مدينة أو زمام. مجاميع صغيرة، كانت تكتفي بالدفاع عن قريتها بالكاد، لكنهم معا أصبحوا جيشا من عدة آلاف جمعتهم عند زمام الشيخ عصفور، وانطلقت بهم إلى ساوة مخلفا ورائي الدعاة، يحثون المزيد من الناس على الجهاد. والله ما كنت أظن أنني سأفلح في جمعهم، لكني رأيت حمى عاتية، تجتاحهم، وتدفعهم نحو الموت بلا سؤال عن مكسب أو مغنم. فمازال الخير في الأمة إلى يوم القيامة.

عدت شاعرا بالظفر، رغم أن أعدادنا ما زالت لا تقارن بجيش الأسود المزعوم، لأجد في ساوة أمرا عجيبا!

لقد ابتدر الملك تيمور الأمراء الخائنين، فاعتقل رؤوسهم، واستولى بغتة على مدينة ساوة، وانتزعها من يد شهاب الشركسي، وسجنه. وهنا تشتت أغلب الأمراء وجندهم، فارين كالفئران لقصورهم.

ألا بعدا وسحقا لهم. هم من حق فيهم قول العزيز الجبار الحكيم في كتابه الكريم (*لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا* وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ)

دخلت لمجلس الحرب في خيمة ابن العبدلي، حيث اجتمع الصامدون: الملك، وزوجه، وابنها، وابن العبدلي، ووكيع ابن عامر، وكايدهم ابن بارم ديله، واثنان آخران من الأمراء لا أعرفهما، وأخيرا رجل عجوز أحفظه جيدا!

عجوز عليم بأمور الحرب والحياة، أحد ثلاثة حكيت لهم قصتي الحقيقية، ويعرفون أنني لست بغول أحمر. تبا لي! لم لم أفكر في طلب مشورته؟ الشيخ وهدان الحكيم، بحر العلم والعمل، الذي أخذت بركته في بداية رحلتي، والذي دلني على أن ابن العبدلي هو صاحب الدرع الذي ألبسه.

حكوا لي ما فاتني.

كان ابن العبدلي أرسل يطلب كل من يعرفه، ويمكن أن ينفعنا، سواء من زملائه الأثرياء، أو بعض الأمراء الباقية في نفوسهم نخوة. والشيخ وهدان، لحكمته، وعلمه بالحروب منذ قدم الزمان.

فقال الشيخ وهدان مصححا لهم:

"لن يبحث الأسود عن الاستيلاء على جنوب الإقليم، أو شمال،ه وإنما سيذهب مباشرة لساوة، ليهزم جيش الملك. فهذه هي عادته، أن يذهب دوما لأكبر رأس، فيقطعها."

ورسم أمامهم على الأرض مخطط للغرب.

"بين الغرب وساوة، وادي الضياع ولا يجتازه إلا هالك. حاولت في شبابي مرة اختصار طريق في حافته، فكدت أن أهلك. تلاله وكثبانه وطرقه تتغير بسرعة مذهلة، وهو جاف لا يحوي ظل أو ماء. لذا فكلنا ندرك أنه يستحيل على أي فرد، ناهيك عن جيش أن يعبره. فإما أن يلتف حوله جنوبا، في طريق القوافل، أو شمالا."

قال تيمور:

"نعرف هذا كله. إما أن يحطم قلاع مدينة ساوة، أو أن يعاود الزحف شمالا عبر المدن المزدحمة."

فقال الشيخ وهدان بصبر:

"طريق الجنوب تعترضه قلاع ساوة الحصينة، ولن ينفعه ضخامة جيشه في اقتحامها، فهي تحتاج لحصار طويل. ولكن الحصار لجيش أغلبه من المشاة، وسط صحراء قاسية، سيجعل جيشه يعاني كثيرا. ولو حاول تركها، والمضي قدما لساوة الواحات، فسيجد مؤخرته تحت رحمتنا، والإمدادات - خاصة المؤن والطعام لجيشه الكبير - ستنقطع في زحفه البطيء، ولا

يوجد في الغرب كله ما يكفيه لإطعام وسقاية هذا الجيش الضخم!"

قال وكيع:

"وما أدراك أن أغلب جيشه من المشاة لا الفرسان؟ وقتها سيزحف بسرعة مكتفيا بحصار القلعة."

قال الشيخ وهدان:

"تزعمون إنهم مائتي ألف جندي؟ أنى له بدواب تحملهم جميعا؟ لو أننا أحكمنا قبضتنا على قلعة ساوة...."
أكمل تيمور كلماته:

"فسيضطر للاتجاه شمالا، أو سيلقى عنتا كبيرا بجيشه البطيء عطشا وجوعا. ستتحول ضخامة جيشه لنقمة عليه!"

وقال ولي العهد:

"وحتما سيضطر للالتفاف عبر الشمال، ليجدنا صامدين هناك أمامه، ولكني أخشى من الأهبال والفرنجة."

قال الشيخ وهدان:

"الأهبال تتلكأ خشية الغيلان. أصبحوا الآن يفضلون الفوز السهل غير ذي الشوكة. أما سمعتم أن مائة من الغيلان الحمر صمدت أمامهم شهرا كاملا، مع حاكم الثغر الصغير، أمام جيشهم ذي الخمسين ألف مقاتل؟ لن يقترب الأهبال منا، إلا بعد أن

يشتبك الأسود في القتال معنا ومع الغيلان فعلا. سيحطمون له القلاع الصغيرة لأمراء المماليك والأثرياء هنا وهناك، حيث أكوام الذهب مكدسة! لكنهم سيتأخرون عن دخول المعارك الكبيرة، كثيرة الكلفة، قليلة المغنم، وإلى أن يصلوا لنا، فسيكون أمامنا ما يشغلنا!"

قال ولي العهد مصرا:

"أوافقك على هذا، فهي طباع الأهبال، ولكن الفرنجة ليسوا كذلك، سيسابقون الأسود بحثا عن المدن والثغور. لا يهمهم الذهب، قدر ما يهمهم الأرض. سيسعون حتما للاستيلاء على الثغر الكبير، رغما عن أنف الأسود. فما من مرة دخل الفرنجة فيها ميناءً، إلا التصقوا به، ولو كان لحلفائهم!"

قال وهدان مبتسما:

"ها قد أصبت ما أرمي إليه! لو أغلقنا طريق الجنوب أمام الأسود، بالاستيلاء على قلعة ساوة، فسيضطر للسير الطويل شمالا بينما يتلكأ خلفه الأهبال، ويسرع قبله الفرنجة وحدهم منفردين."

أكمل ولي العهد:

"ووقتها سيكونون وحدهم بخمسين ألفا فقط. ونستطيع أن نكتفي بترك حامية صغيرة قوية في قلعة ساوة، ونجمع باقي

جيشـنا كله بسهولة، مطمئنين لظهورنا لمواجهة الفرنجة. فإن فرغنا منهم، بدأنا في حرب الأسود دون عونهم له."

وإذ اتفقوا على تلك الخطة، طلب الملك لقاء الأمراء، لأنه يستعد للرحيل جنوبا للتحصن في قلعة ساوة، فأتوه فرحين يظنون أنه سيصبح في أيديهم لقمة سائغة، يسلمونها للأسود في سجن القلعة، بعيدا عن أيدي الأهالي والعوام المتحمسين، ليجدوا أنفسهم هم من يعتقلون، وتسرع سرية من خمسمائة مقاتل، من جنود خدام الضريح، للتسلل لمدينة ساوة والسيطرة على أبوابها. ورغم إن أكثر الجيش انصرف عنا، لكن البقية أكثر بركة ومنعة الآن.

وإذ أتيتهم بجيش جديد، شد من أزرهم أتتنا الأخبار من الكشافين، بأنه بالفعل لا أثر لجيش الأسود على الطريق الجنوبي، رغم إنه خرج من البوابة الجنوبية للعاصمة، فاطمأننا أننا دحرنا خطته الأولى، بتركنا نحاصر بين زحفه من الجنوب وزحف الفرنجة والأهبال من الشمال، وسيضطر للسير شمالا مسيرة طويلة.

وهنا لم يكن هناك وقت لنضيعه، إن كنا نرغب حقا في مباغتة الفرنجة قبل وصول الأسود لهم. فتركنا حامية في الواحة، من بقية جند خدام الضريح، مع بعض أهلها، وتركنا الملك في قلعة ساوة مع بعض المماليك من أتباع ابن العبدلي، أنفق عليهم جل

ماله ليشرفوا على حسن تحصين المدينة، وتركنا معهم جماعة الدراويش والمساكين المتحمسين، الذين لا يجيدون القتال فمن وراء الجدر، رأى تيمور، أنهم سيكونون أكثر نفعا عن ميدان القتال المفتوح. وفي الوقت نفسه نبعدهم عن تحركات جيشنا خشية، أن يكون فيهم جواسيس آخرون.

وهكذا تحركنا من واحة ساوة بجيش أقل من عشرين ألفا، أغلبه من الفلاحين، ودوابه من الحمير والبغال! لا يساندهم إلا فرسان وكيع، وكايدهم، فأسرعنا نبغي إنقاذ الثغر الكبير من أيدي الفرنجة.

قادنا في الطريق وكيع، لأنها مدينته، وفضل ألا ندخل المدينة، بل نتربص في الصحراء حولها حتى لا يصل نبأ عن وصولنا للفرنجة، لأن جواسيسهم كثر بالمدينة، فعسكر بنا في مكان كريه، يكثر فيه الحصى والحجارة القاسية، ومياهه برك مالحة، أو ممتزجة بقطران أسود! بزعم إنه بعيد عن العيون، لكنه أضاع من عيوننا النوم!

وسرعان ما وصلتنا الأنباء عن الزحف السريع للفرنجة نحونا. وهنا أخذ ولي العهد زمام القيادة، فهو أخبرنا بالحروب."

(٥٦)

معركة الثغر الكبير

"نزل جيشهم من الأسطول، بعد أول فروع النهر مباشرة، ثم حثوا الخطى نحو المدينة، يرافقهم الأسطول عن جوارهم، ووصلت طلائعهم لنا، فكمنا مختبئين وسط التلال، وتركناها بأمر ولي العهد تمضي لتدخل المدينة، وبدت الحسرة في عين وكيع، فسأله ولي العهد:

"أستسقط المدينة في يد تلك الشرذمة؟"

رد وكيع بإباء:

"بالطبع لا! سيصطادهم الأهالي، وسيرميهم رجالي في البحر طعما للسمك! لكنهم سيحرقون ويخربون في الميناء ومراسي الصيد. أغلب الصيادين تركوا زوارقهم، بأمري، في جزيرة مهجورة شمال المدينة، حتى لا تدمر في القتال، لكن بقيتها ليست خسارته بالهينة بعد ما فقدناه في غزوة الأسود لنا."

قال ولي العهد:

"يسرع الفرنجة بالطلائع لدخول المدينة لاختبار دفاعاتها. سنتركهم يفعلون، والمدينة بلا جيش لأن الجيش يبغي صيدا أكبر من الطلائع، وأثمن من سفن الصيد! ولكن ذكرني أن أسألك عن تلك المراكب فيما بعد!"

بالفعل عسكر جيش الفرنجة، وهم قرابة خمسين ألفا، شرق المدينة، لا يبعدون كثيرا عن معسكرنا لكنهم كانوا في مكان أفضل بكثير من أكوام الرمل التي أخفانا فيها وكيع! على أي حال، كفلاحين، فقد نمنا في أماكن أشد قسوة من هذه! أظن أن الأمراء المرفهين فقط، هم من سيعانون بأشد منا.

زحفنا طوال الليل في سكون، حتى أشرفنا على معسكر الفرنجة. كانوا مازالوا منشغلين في نصبه، فلم يرسلوا بعد الدوريات لتأمين المنطقة حوله. وهو خطأ لحسن حظنا، سنجعلهم يدفعون ثمنه عظيما! أو لعله هذا المكان الكريه، الذي اختاره وكيع لنعسكر فيه، قد أنفت كشافتهم دخوله!

أخذت أرقبهم وهم ينصبون الخيام الضخمة كالبيوت لكل أمير من أمراءهم، وللفرنجة أمراء كثر مثلنا، لكنهم وقت الحرب يجتمعون على قلب واحد، بينما تشتتنا الأهواء!

لكن هذا لن يحدث اليوم بإذن الله.

قدت الهجوم الأول رافعا رمحي، وشاهرا رايتي، وضوء الفجر يلمع على درعي الأحمر، وخلفي أسود لا تشتهي إلا الدم. دماء تغسل ذنوب سنين من الخضوع والفزع.

ورأينا الجبارين المتفاخرين يتشتتون كالنعاج في فزع، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة.

شققت طريقي في صفوفهم، لا أدري من أين أتتني شجاعة كهذه؟ كأن الخوف مات ودفن في قبر عميق، لا أعرف له شاهد.

أهم فرنجة؟ وفرسان محترفون؟

لا يهم.

أأنا غول أم فلاح أم ابن صياد هارب؟

لا يهم.

فقط كل ما أعرفه، أنني سأذيقهم اليوم طعني!

كان أول من اعترضني منهم فارس جلف ضخم، ولكن قبل أن تمتد يده لسيفه كان رمحي الطويل يتحاشى دروعه، ليمزق عنقه ببراعة لم أعرفها في نفسي، ثم يتركها ليهوي على رأس آخر فزع، يجري من أمامي، ثم وجدت الرمح يعود للخلف ليسقط ثالث عن يساري!

شققت طريقي، ومن معي، في تلك الصفوف المرتجفة، نمضي كسيل عارم لا يتشتت أبدا، بل يحتفظ بصفوفه موحدة، كبنيان مرصوص. تنكسر على جوانبنا كل الهجمات، التي تحاول شراذمهم شنها علينا، لكننا لا نحيد عن هدفنا المرسوم أبدا. الخيمة الكبرى في قلب معسكرهم، حيث يوجد أجل أمرائهم عادة.

قاتل من معي بشراسة، ممهدين طريقا من دم وأشلاء. ولكن الكونتات والأمراء جمعوا شملهم، واستعادوا اتزانهم، ليقاتلونا بشراسة أخرى لا تعرف الرحمة.

أصوات نفيرهم تعلو، لتوقظهم، فتردها صيحة الله أكبر لتبهتهم. وأنين غضبنا يعلو فوق صراخ محتضريهم، فالنار تشتعل في مؤنهم، وسيوفنا تلمع كالبرق الخاطف لنور عيونهم.

انتظمت صفوفهم كتل متراصة أمامنا. وازداد جمعهم يبغون حصارنا وكسرنا. لكن هيهات. ليس اليوم فهو ليس يوم انكسارنا أبدا!

واجتمع عدد منهم على الساحل، يرموننا بالسهام. ها قد استيقظ الرماة من نومهم، ليمطروننا بالهلاك فهل وجدت أحدا منا يبالي؟ هيهات.

وهنا أتاهم الهجوم الثاني بقيادة وكيع.

مئات من مراكب الصيادين الصغيرة، خرجت فجأة، تنقض على سفنهم، التي انشغل بحارتها بمراقبة هجومي، أو النزول على الشاطئ لإمطارنا بنبالهم.

مئات المراكب المدهونة بالسواد، فلا تظهر في الليل، اقتربت من السفن سرا، وقد ملئت بالمقاتلين الأشداء.

انطلقت تلك المراكب مسرعة رشيقة، تلقي بجمار النار فتحرق، أو تنقض وتقتحم، لتلقي بالمغاوير على أسطح السفن، فيمزقون ولا يبقون.

وارتبك الفرنجة أيما ارتباك، حينما رأوا سفنهم تحترق، أو تهرب، فانحاز شطر منهم يطلب الفرار شرقا.

وهنا كان الهجوم الحاسم الأخير بباقي الجند، خلف ولي العهد.

كنت، ومن معي، محاصرين من الشمال برماة النبال، وبعض الكتائب، ومن الجنوب بفيلق كامل، وأمامي جهة الشرق جيوش أمزقها. ثم أتى هجوم وكيع من البحر في الشمال، مزق رماتهم وكتائبهم، وأتى الآن هجوم ولي العهد من الجنوب، لتصبح فرقهم هي المحاصرة إما بيني وبين وكيع، أو بيني وبين جيش ولي العهد.

وأعملنا في يائسيهم التقتيل، ورأيت الشيخ غلاب يأخذ شطرا من الرجال، ويندفع لقلب معسكرهم حيث جمعت أكبر حظائر الخيول، فشتت خيولهم، قبل أن يركبوها، ليصبح أغلبهم مشاة، لقمة سائغة لفرسائنا وراكبينا.

دار القتال العنيف من الفجر، حتى الظهيرة، لكنه كان قد حسم لنا بالفعل، منذ هجوم ولي العهد، وفرار عدد كبير منهم شرقا.

انتهت المعركة أخيرا، بنصر مبين وجثث الآلاف من الفرنجة مكومة في كل مكان، مع عشرات من سفنهم المحترقة.

وأخذت أتفحص خسائر جيشنا البطل، فوجدت إننا فقدنا أكثر من ألفي شهيد، وثلاثة آلاف جريح، وأفسد علي فرحة النصر أن كان من الشهداء الشيخ غلاب، وكثير من أهل قريتي.

رحمه الله، كان حكيما حصيفا، مات شهيدا، فاللهم أسكنه فسيح جناتك.

وجلسنا نلملم أحوالنا، ونوزع غنائمنا بعد النصر، وقد كانت أكبرها تلك الرسالة القوية، التي ألقينا بها إلى الأسود والأهبال!

ولكن قبل أن نلتقط أنفاسنا، ونكمل شأننا أتانا الصارخ المشئوم

الأسود يحرق واحات ساوة!"

(٥٧)

جيش آخر

"نظرنا مذهولين للنذير، وأتينا به لنا فورا. وهتفنا في صوت واحد:

"ماذا تقول؟"

قال لاهثا:

"الأسود نزل بجيوشه عند الواحات، وأحرق بالفعل الواحة الشرقية، فأرسلوني لكم. هو يزحف جنوبا، يبغي الملك الذي تحصن في قلعة ساوة، ومعه من فر من الواحات."

قلت مذهولا:

"لكن كيف؟ كيف وصل لهناك بهذه السرعة أصلا، إن لم يكن أتى من الطريق الجنوبي؟"

قال الرسول منهارا:

"إنه ليس بشرا! حتما هو صادق في زعمه أن له أخا من الجن، فقد ساعده شيطانه، الذي لا يهزم، لأن يعبر وادي الضياع بجيشه."

بدا الأمر غريبا لا يصدق، وادي الضياع لا يعبره إلا هالك. حتى أخبر الأدلاء وأحنكهم يعجزهم أطراف الوادي، ناهيك عن شق قلبه من العاصمة إلى ساوة مباشرة. كيف يعبره بجيش كامل؟ كيف؟

لكن لم يكن هناك وقت للبحث عن تفسير، أمام تلك الكارثة، فقد حوصر الملك الآن، بعيدا عن أغلب جيشه.

سأل وكيع:

"كم عدد جند الأسود؟"

قال الرسول:

"على الأقل خمسين ومائتي ألف مقاتل، مقسمين لخمسة فيالق كل منها خمسين ألفا، منهم ثمانين ألف فارس وهاجن."

أسقط في يدنا، وتجمدنا حيث نحن مذهولين.

قال كايدهم ابن بارم ديله:

"لا فائدة. هزمنا الفرنجة، وصددنا شرهم عن البلاد، لنهديها خالصة للأسود. فلنهادنه!"

حتى وكيع بدا مرتجفا. مائتان وخمسون ألفا بينهم ثمانون ألف هاجن وفارس! هذا شعب بأكمله! أنى له بكل هؤلاء!

وانتشر النبأ المفزع بين جنودنا كالنار في الهشيم، فثار الفزع، وبدا الاضطراب بين الجنود، حتى وصلتنا صرخات أناس، ينادون على بعضهم، للعودة إلى قراهم.

كان اليأس سيد الموقف، فحتى لو عاد معي بعضهم، فسيحاربون وقلوبهم مهزومة.

ونظرنا للسماء، ودعونا الله نستغيث، بينما خرج ولي العهد يخاطب في الجنود مثبتا قلوبهم.

وهنا أتانا نذير آخر.

"جيش زاحف يقترب!"

سرت موجة من الاضطراب.. أتكون فلول الفرنجة علمت بنبأ الأسود، فازدادت عزيمتها؟ أم لعلهم الأهبال قد وصلوا بأسرع مما أبلغنا الكشافة؟

وهنا ارتجت الأرض بصوت كالرعد.

لم يكن بدقات طبول حرب كما ظننا في البداية، فقد بدا إنه كدقات سيوف على دروع قوية.

قلت بصوت مبحوح:

"ليسوا الفرنجة حتما."

التقت عيوننا على أمر واحد. هم الأهبال حتما.

وبدون كلمة واحدة، قفز وكيع، منتزعا الراية من يدي، وقفز على جواده، وخرج يهتف بين الجنود:

"حي على الجهاد. حي على الجهاااااااد. الله أكبر الله أكبر."

بدأت الصفوف تلتئم، والجموع تحتشد، والسلاح يخرج من أماكنه. مادام الجهاد قد أتانا، فلابد أن نلبي نداءه. كان هذا حال الجنود، ولو أن اليأس كان مازال على وجوههم.

نهضنا نحن أيضا، لنعد العدة سريعا، أمام أولئك القادمين.

علت صوت الدقات كالرعد مقتربة.

ومعها أقدام ثابتة تدوي في الأرض، فتزلزلها.

نظر الناس وجلين، واهتزت القلوب، وغشيت الأبصار، ثم أمرنا ولي العهد بالتقدم لنرى ما الأمر.

آلأهبال أتوا بدمارهم؟ أم شطر من جيش الأسود أتى لنجدة الفرنجة، ومشاغلتنا عن نجدة الملك؟ أم أي مصيبة أخرجتها لنا الأرض من طياتها!

لكنه كان نصرا لم أر له مثيلا!

اليائسون هتفوا في حبور، من كانوا يعدون العدة للرحيل، عادوا مكبرين مهللين.

الكل ينظر نحوي مستبشرا.

هذا نصر الله ولا أعلم شيئا يا رفاق.

أهم ملائكة؟ ملائكة في صورة بشر أتت لتحارب معنا؟

لم يكن في العالم سوى ثلاثة غيلان حمر فقط.

ابن العبدلي وقد اعتزل، وغول الحق وقد قتل، وأنا!

زعموا إن الجنود الذين صمدوا في الثغر الصغير مع حاكمها، كانوا مائة من الغيلان الحمر، ظننت هذا مجرد أسطورة، تحية لهم على بطولتهم، كما أن الأهبال أبادوهم عن آخرهم.

إذن فمن أين أتى جيش الغيلان الحمر هذا!

من أين أتى عشرة آلاف غول أحمر، بدروعهم الحمراء، ورماحهم المنتصبة، في صفوف متساوية، تتقدم بقوة، وهي تدق على الأرض بأقدامها، وعلى الدروع برماحها، وعلى رأسهم شخص يحمل فوق درعه رأسا، لخان من خانات الأهبال!

عشرة آلاف غولا أحمرا، يسيرون نحونا بقوة وشموخ وعزة.

عشرة آلاف وقفوا تحت أقدامنا، أسفل التبة يهتفون:

"عاش القبيل زعيم الغيلان الحمر!"



لقد وصل جيش الغيلان كما وعدت! لكن كيف! لا أدري !!

(٥٨)

نبأ الغيلان الحمر الجدد

تقدم قادة جيش الغيلان الحمر نحونا. وما أن وصلوا لنا، حتى رفع زعيمهم رمحه، الذي يزينه رأس هذا الخان من خانات الأهبال، وهتف مرة أخرى:

"عاش القبيل زعيم الغيلان الحمر!"

رددوا من ورائه:

"عاش!"

هتف مرة أخرى:

"بأمر القانون الثامن الجديد، نلزم جانب الحق مهما كان، نقاتل اليوم بأمر الله في صفوف الملك الجديد، طلبا للعدل بين العباد، وجهادا في سبيل رب الأرض والسماء. الله أكبر."

هتف الجميع، الغيلان، والجند، والقادة:

"الله أكبر!"

كانت عينا وكيع مغرقتان بالدموع، وهو يربت على كتفي:

"الله أكبر، أخيرا أتى غيلانك، وأتوا في خير وقت!"

نظرت لوجهه الشاب المتحمس، لا أعرف بم أرد عليه. كنت مذهولا مأخوذا، كأنما أنا في حلم جميل، أهرب به من لحظات اليأس، لكن الأخيرة تأبى إلا أن تطاردني بمقارع من حديد! هل هم حقا غيلان؟ أأتت نجدة السماء بهذه السرعة؟ مرت علي مواقف كثيرة كنت أطلب فيها نجدة السماء، فلا تنزل لكن حينما يغلق حقا كل باب لاجتهاد بشري، وأطلبها، فإنها أتتني بسرعة مذهلة. ذات يوم في صورة الدليل عمران من بني سلام، فهل أتتني اليوم بهذه السرعة؟ ملائكة في صورة غيلان حمر!

لم يكونوا ملائكة، بل مجاهدين أشداء.

تبينت أخيرا الصوت المألوف، وعرفته، حينما خلع خوذته، ليظهر وجهه! هذا هو زعيم لعشرة آلاف غولا أحمرا! جابر، الشاب الذي عرفته ثائرا، منقذا، متحمسا في مدينة الغاربة!

أدخلته لخيمتي فورا، أسأله الأخبار، وأستفهم. وتبعني في هدوء، فلم يكن يرغب أن يسمع رجاله ما يقصه!

بعدما غادرت مدينة الغاربة، متجها إلى الزرقاء مع غول الحق، أخذ جابر ما جمعه عن لساني من قوانين الغيلان الحمر الجديدة، وأخذ يدعو الناس في مدينته المغلقة الأبواب لإتباعها. كان يقول للناس:

"إن إغلاق أبوابنا علينا لن ينقذنا من الخوف. لا يهزم الخوف إلا بمحاربته، ولا نصر في حربه إن لم نلزم جانب الحق، وهذا هو ما يدعوا له الغيلان الجدد."

كان يزعم لهم إنه انضم للغيلان الحمر، وقد رآها فرصة تكسب قوة لدعوته، في الوقوف ضد الطغاة، موقفا أشد من إغلاق أسوار المدينة عليهم. في البداية لم يتبعه إلا عدد قليل، تزايدوا لبضع عشرات مع اقتراب زحف الأهبال على الثغر الصغير. وطلب الشباب أن يخرجوا لجهادهم، بينما يطلب العجائز إحكام غلق الأسوار عليهم حتى تمر العاصفة. وحينما ذهب الأهبال للثغر الصغير، خرج مائة من غيلان جابر إليها، فدافعوا بضراوة عنها مع حاكمها، بعد استسلام حاميتها، وفرار أغلب أهلها.

قال لي جابر بأسف:

"حاول حاكم الثغر الصغير إنقاذ مدينته الصغيرة طويلا بالرشوة والنفاق والخضوع. لم يكن في حد ذاته رجلا سيئا كما بدا لنا، لكن الفساد الذي نثره في مدينته أسقطها تماما، فبقى وحده حاملا سيفه، وتحول جسده البدين لمتراس، يغلق أبواب القصر في وجه العدو بشجاعة، لم أتصور أبدا وجودها فيه، إلى أن نال الشهادة، وهو يقاتل فوق عرشه."

بعد أن صمد غيلان الغاربة شهرا كاملا في وجه الأهبال، وأثاروا فزعهم، تأكد الناس أن الغيلان حقا عادت، وأنهم في

جانب الحق بقوة تحميه. فذاع صيت جابر ومعسكره، وتبعته أغلب الغاربة، وكثير من القرى التي في شرقها، وهرب إليه بعض من رعايا الأسود المظلومين، وكثير ممن شردتهم الحروب، خاصة على الزرقاء.

وبقى جابر ساكنا في مكانه، خلف أسوار الغاربة، يدرب رجاله قدر استطاعته على فنون الحرب، وعلى ما ظنه قوانين وعادات الغيلان الحمر، التي استقاها مني! واعترف بخجل إنه تجاوز بعضها، كمرافقة حيوان ما لعام كامل، لأنه لم يفهم هذا الجزء عندما حكاه له تيمور!

كان ينوي أن يكون جيشه، الذي يتضخم بسرعة مذهل،ة درعا يفزع الأسود عن الغاربة. ولما عاد الوريث للبلاد، وبايعه الناس ملكا، ومنهم أهل الغاربة، عقدوا العزم على نصرته، فتبرع أغنياء المدينة بصنع دروع حمراء منقوشة، ورماح. واجتمع الغيلان الجدد، ومن حولهم من أهل المدينة، والمتطوعين، وبعض العشائر. اجتمعوا على قلب واحد، وبايعوا جابر على القتال، والجهاد، والالتزام بقوانين الغيلان.

أسرع ليلحق بالحرب، متتبعا جيش الأهبال المتلكئ، فباغتهم من خلفهم.

ستون ألفا من الأهبال، أمام عشرة آلاف فقط من الغيلان الحمر!

لكنها أولا المفاجأة الساحقة من الكمين، ومن رؤية الغيلان قريبون منهم في الشرق، ومعها الرهبة والذكرى المؤلمة التي في نفوس الأهبال من الغيلان الحمر، وأخيرا حسن تدريب جابر لرجاله زمنا طويلا، جعلهم حقا مقاتلين أفضل ممن اعترضوا الأهبال قبلها.

تشتت أغلب الأهبال فارين للثغر الصغير، متحصنين بالأرض التي كسبوها من الأسود دون مقابل، بعدما تخلوا عن نصرته. وسحق جابر بقيتهم سحقا، وقتل زعيمهم، وسار برأسه، ليريها لكل المدن، التي مر بها جيش الغيلان علامة الظفر!

وهنا عقدنا مجلس حرب جديد. مجلسا استبدل فيه بالرعب الأمل.

عقدنا العزم على السير إلى ساوة، بأسرع ما يمكن، لنجدة الملك.

قال الشيخ وهدان:

"أعدادنا لا تكفي."

رد جابر بحماسة:

"لا يهتم الغيلان بالأعداد."

قال الشيخ مبتسما:

"لم أطلب منكم ألا تقاتلوا، وإنما أن نتدبر الأمر. ربما يمكننا جمع بعض المتطوعين الجدد من القرى بعد نصرنا على الفرنجة، وانضمام الغيلان لنا، ولكنها لن تكفي. هناك نجدة عظيمة ما، لا أدري أأستطيع جلبها أم تعجزني. ترددت في أمرها كثيرا، لكن لم يبق في جعبتي غيرها، إذا كان الأسود قد استطاع اجتياز وادي الضياع، وجمع كل هذا الجند، فلا فائدة من التردد. اذهبوا فقاتلوا قدر ما تستطيعون، عليَّ آتيكم بالنجدة."

سألته:

"أي نجدة تلك؟"

قال:

"لا أدري حقا! هو أمر يصيب، أو يخيب فلا أدري حقا!"

تركنا ورحل، فلم نعرف ما في جعبته. لكن كان يجب علينا الرحيل بلا إبطاء، فأطلقنا النفير، للاستعداد للرحيل جنوبا."

(٥٩)

معركة ساوة الصغرى

"سرنا مسرعين إلى ساوة، يرافقنا مزيج من أمل ويأس. العدو مهول حقا بما وراء العقل. جيش لم يذكر إلا في الأساطير، التي تتحدث عن الهول، الزعيم الأكبر للأهبال!

لكن من ناحية أخرى، فالكثير من المعجزات، التي لا تعقل، قد حدثت ونصرتنا. وقد هزمنا الفرنجة بنصف جيشهم، وهزم الغيلان الحمر الأهبال بسدس الجيش!

وصلنا إلى ساوة بعد مسيرة شاقة لاهثة. وكما توقع ولي العهد، لم يبق فيها الأسود، بعد أن أحرق مزارعها، ونخيلها. فقد رحل بجنوده، ليحاصر مدينة ساوة وقلاعها، يبغي رأس الملك، وانضم لنا بعض من أشتات الجند، وأهل الواحة، والمتطوعين الذين يطلبون الجهاد. وعرفنا منهم إن الأسود يسانده عشرون ألفا من أهل السور العليّ، معهم الكثير من المجانيق، وعدد الحصار، وقد انضم له بعض من الأمراء والمماليك، فزاد جيشه لما ناهز ثلاثمائة ألفا!

بقينا في ساوة نرتاح الليلة، أردت أن نتحرك، لكن قائدنا وولي عهدنا، عبد الله ابن محمد، أصر على البقاء، وقال:

"سيأتينا الأسود، فلننتظره."

بالفعل أتانا من جنوب الواحة قوة تركها الأسود، غالبا لتعطيلنا. كانوا ثلاثين ألفا، جلهم من فرسان بني الأسود، وعلى رأسهم حسام الأسود، الذي قتل غول الحق، وكاد يقتلني في طرابل.

برزوا لنا، وخرج حسام مختالا يدعونا للمبارزة. أراد ولي العهد أن يخرج له، لكني منعته، وقلت:

"بيننا ثأر قديم، وأنت أدرى بإدارة جيشك."

خرجت له، مصمما على القتال حتى الموت. صحيح كان في عقلي شيء من رهبة، فأبناء شيوخ بني الأسود يربون على المبارزة من نعومة أظافرهم، لكن قلبي لم يكن فيه إلا الإصرار على جز رأسه.

خرجت له، فما أن رآني، حتى جحظت عيناه رعبا، وهتف:

"ألم تمت؟"

قلت بغل:

"ليس من السهل قتل غول أحمر يطلب الثأر!"

ألقى بدرعه، وأسرع هاربا! لم يبارز هذا المختال أصلا! ألقى دروعه، وكل ما يثقله، وقد ظنني شيطانا رجيما، فكبرت، وكبر الجنود ورائي، وبدأنا المعركة.

كان رجاله محترفين بارعين، وجنودنا مرهقين متطوعين، لكن الحماسة في قلوبهم ساوت الموازين. خاصة وإن معنا الغيلان الحمر، برماحهم الطويلة، القادرة على اصطياد الفرسان، فقد وقفوا في صفوف منتظمة، كلما هجم عليها بني الأسود، مزقتهم، وردتهم، بمساعدة سهام رماتنا، أدركنا منذ معركة الفرنجة مدى تأثير أمطار السهام على المهاجمين، فضربنا بها الأساودة بقوة.

أدرك حسام ألا فائدة من محاولته اختراق قلبنا، فأمر جنوده أن يلتفوا حول الغيلان من الميمنة، والميسرة، ليضرب باقي الجيش وراءهم.

هنا أوقع جيشه في خطأ فادح. كان فرسانه سريعو الحركة أكثر من اللازم، أسرعوا لتنفيذ أمره بسرعة كبيرة، فطاروا تجاه مؤخرتنا، لكن هذا ترك فراغا كبيرا في قلب جيشهم.

لم ينتظر وكيع أن يتقدم جنود الأسود من المؤخرة لسد تلك الثغرة، فأمر فرسانه فورا بالهجوم، مخترقا، كالسكين في الزبد، قلب الأساودة، تجاه قائدهم. أدركت أنها مخاطرة بالهلاك في معركة ضد جند أقوى وأكثر، لكنها فرصة لنصر حاسم سريع، فأخذت شطرا من الغيلان، وحملت معه، لأصبح في قلب

فرسان بني الأسود، أقاتل برمحي، مسقطا هذا عن يميني، وذاك عن يساري.

احتمى القتال، وتأججت السيوف بدماء فرائسها، وأحسست أن فرسان بني الأسود يلتفون حولنا، ليعزلونا عن باقي جيشنا، لكن وكيع شن عليهم هجوما كاسحا، مع زمرة من رجاله، كسر الحصار، وأعاد الإرتباك لصفوف بني الأسود.

بدت المعركة في صالحنا، ونحن نشق صفوفهم واحدا تلو الآخر، ونصد هجماتهم المضادة. لا أدري كم قتلت منهم، لكنه ليس بالعدد اليسير.

وانكسرت أخيرا صفوف بني الأسود، وبدأنا نعمق اختراقنا لهم، لو نجحنا في شطر جيشهم لنصفين معزولين، فسنسقط أحدهما بين نار السيوف، ولهيب السهام، معزولين عن قائدهم. فتحمسنا، وكبرنا، وزدنا في الطعان.

لم أنتبه للخدعة الماكرة إلا متأخرا. وجدت الفرسان تتحرك من أمامنا، لتلتف خلفنا. سمح حسام لنا باختراق صفوفه، أكثر من قدرتنا، ثم أمر رجاله بالهجوم على المنطقة الضعيفة، التي تفصلنا عن باقي الجيش، بعد أن ابتعدنا عن مرمى رماتنا، وأنهكنا التوغل وسط فرسانه.

وأدركت من ارتباك الأسهم الطائرة فوقنا، أن فرسانه الأوائل نجحوا أخيرا في الالتفاف حول باقي الجيش، ليحاصروه، ويضربوا مؤخرته.

لم يكن النصر مستحيلا، لكن موقفنا أصبح دقيقا. كنت ووكيع نحاول التقهقر، مقاتلين، لنعود لباقي الجيش، بينما يحاول ولي العهد ضم صفوفه معا، ليقلل من أثر الحصار عليها، حينما سمعت صوتا عاليا، يصرخ بظفر:

"ألف دينار لمن يجز رأس زعيم الغيلان، ويحضره لي."

نظرت تجاه الصوت، مزيحا جسدا ثقيلا عن طريقي، فرأيته، كان حسام محاطا ببعض حراسه الأشداء. مكره انقلب عليه مرة أخرى، فقد سمح لنا باختراق قلبه، حتى أصبح قريبا منا، ولم يرجع للمؤخرة ربما لثقته في النصر.

قلت لنفسي:

"تتباهين دوما ببراعتك في استخدام الرمح؟ حان يوم البلاء الفاصل."

هتفت بأربعة من الغيلان أن يتقدموني، ويفسحوا لي المجال، فاندفعوا يصدون السيوف، التي تكاثرت طمعا في الجائزة. انطلق رمحي كالطير الأبابيل، فدفع حسام ثمنا غاليا لدرعه، الذي ألقاه هربا من مبارزتي! لم يجد الوقت الكافي، ليطلب من حراسه صد الرمح القادم، ولا أن يجد درعا يصد عنه الضربة.

ارتفعت ذراعه الخالية بسرعة، حاملة درعا وهميا، فاخترقها الرمح، واندفع يكمل طريقه إلى صدره، فشقه وأسقطه من فوق جواده صريعا، لتدهسه خيول حراسه، ويموت ميتة أشر مما أذاقها غول الحق.

أخيرا أخذت بثأرك يا أخي، لو مزقتني السيوف المتكاثرة الآن، فسأموت هنيء البال.

لكن السيوف خفتت، وتراجعت.. كنت أكبر:

"الله أكبر"

بينما الأساودة يتمتمون:

"مصيب الفولي!"

إذا كان القائد الأسود جعل رجاله يصدقون أوهام إنه منصور بملك من الجان، فقد دفع الثمن، إذ صدق رجاله في رهبة حكاية مصيب الفولي! ولأن الأسود عوّد رجاله على اتبّاع عقل قائدهم فقط، فقد فقدوا عقولهم، لما أسقطت قائد جيشهم. اختبلت قراراتهم، وتخبطوا، وتشتتوا، رغم إن الظفر كان قريبا منهم. ولم يلبثوا أن انسحبوا مهزومين، يطاردهم فرساننا، حتى قتلوا منهم الكثير.

كان نصرا مؤزرا ساحقا، لكنه مجرد البداية. فأغلب جيش الأسود لم يمس، وهو يحاصر مدينة ساوة في الجنوب، ويستطيع أن يرسل لنا عشرة جيوش أخرى، كالتي هزمناه!

أراد أغلب الرجال السير فورا لقتل المغوار نفسه! كان الحماس يملؤنا. فقد هزمنا الفرنجة، والأهبال، وبني الأسود. وبقيت معركة واحدة للوصول للنصر. لكن ولي العهد رفض تماما أن نتقدم أكثر من هذا، وقال:

"يجب أن يرتاح جنودنا تماما من أثر السفر المتكرر، والمعارك المتتالية، ونطبب جرحانا، عل بعضهم يلحق بنا قبل المعركة."

كان بقاؤنا عالة على أهل الواحات ثقيلة. خاصة بعدما أصابهم من قحط، ونهب في غزو الأسود المباغت. لكن ولي العهد كان مصرا على البقاء. أرجح أنه لم يغتر بنصرنا، وقد أقلقته الأنباء عن ضخامة جيش الأسود، حتى لو بدت عسيرة التصديق. كنا نشكك فيها، ونقول إن الناس تبالغ، فأنى له بعبور وادي الضياع بكل هذا العدد، وعبوره أصلا معجزة أذهلتنا؟ لكن ولي العهد فضل الانتظار، لكي يرسل الأسود لنا جزءً آخر من جيشه، فنحارب قواته مفتتة، خير من أن نلقي بأنفسنا بين أنيابها.

وهكذا مكثنا أياما في ساوة. لم يرسل الأسود لنا أحدا، كما أكدت العيون. وبدا أنه أدرك خطة ولي العهد، فلم يتبعها،

وفضّل أن يتركنا ننتظر، بينما يسقط هو القلعة. لكننا ربحنا الراحة، وعلاج الجرحى، وانضمام المزيد من الأنصار لنا.

عقدنا أخيرا أول مجلس حرب بعد المعركة. ووجدت وكيعا، وقد غطت جسده الأربطة، وكذلك جابر، الذي أصيب إصابة شديدة، لكن بريق عينيه المصرتين، ظل كما هو، يدعو للقتال والجهاد.

سألت عن كايدهم ابن بارم ديله، فقال جابر مندهشا:

"ألم تعرف؟"

نظرت له متسائلا أنا ووكيع، فقد كنا في المقدمة، لم نعرف ما أصاب مؤخرة جيشنا.

كان حسام قد أرسل ميمنته ومقدمته، وشطر من القلب، للالتفاف حولنا، وضرب مؤخرة جيشنا ولكن قائد المؤخرة كان كايدهم، الذي صمد بمن معه صمودا مشرفا، أمام عدو أشد وأقوى. ظل كالسد المنيع يحمي جيشنا من الدمار، ولكن بعدما استعاد حسام سيطرته على الجيش، وامتص ضربة وكيع المباغتة، تساقط رجال كايدهم واحدا تلو الآخر، وانهالت عليه السيوف، ونجحوا في جره أسيرا جريحا معهم، وهم ينسحبون.

أحزنتني خسارة هذا الفارس الشجاع، ولعل الأسود الآن قد قطع رقبته، لكن ذكراه لن تموت معه. رأيت الكثير من شجعان المماليك، الذين يخشون الحرب والموت، لكني لم أر إلا القليل

جدا من أمثال كايدهم، الذين لا يخشون الوقوف إلى جانب الحق، والتخلي عن متع الدنيا في سبيل الجهاد.

بما قلت من قبل، إنه قاتل معنا ثأرا لشقيقه، لكني أقولها اليوم، إنه قاتل لأنه يعرف أين الحق، فاتبعه.

رحمه الله في موته، وفرج كربه إن كان حيا.

على أي حال، استقر مجلسنا على الذهاب لمدينة ساوة، دون المزيد من الإبطاء. لن نقف هنا مكتوفي الأيدي، بينما يهدم الأسود أسوارها سورا سورا، متصورا أننا سنبقى منتظرين حتى يتخلص من الملك.

وهكذا أمرنا الجنود فجأة بالمسير، نريد التحرك بسرعة لنسبق جواسيسه.

لكننا لم نفعل، فقبل الاقتراب من مشارف المدينة، قطع علينا الطريق كمين من رماة الأسود، بدا أنه أعد على عجل، فقد علم بقدومنا من هذا الطريق بوسيلة ما من وسائله الشيطانية، واستعد للمعركة جيدا.

استغرق التخلص من الكمين بعض الوقت، وفقدنا عددا من الرجال فيه، ودب الاضطراب في صفوف البقية، لكن ولي العهد أدار المعركة بحنكة، متقدما بجنود مدرعين ببطء، حتى نال من الرماة، واحتل الربوة التي كانوا مختبئين فيها.

وهنا حدث أمرين متتابعين، أثارا إحباط جنودنا، وضاعف قلقهم.

فأولا: رأوا، ورأيت معهم، بحرا من السواد لا أول له ولا آخر، يحيط بأسوار مهدمة، ومبان مفتتة محترقة! كان عدد جيش الأسود، الذي بلغنا، حقيقي! لم أتصور رؤية كل هؤلاء البشر في مكان واحد قبل يوم الحشر!

ومعهم كانت آلات حرب ضخمة، لم نعرف لها مثيلا، تقذف المدينة بسيل لا ينقطع من الأحجار والنار.

كان مئات الألوف من المشاة، يحوطون المدينة، كبحر هائل يموج وراء المجانيق، وجنود السور العليّ، بينما يحيط بهم فرسان الأسود في حلقة ضخمة تحميهم.

وزاد الأمر سوءً، أن نزل المطر. بدا لي ولي العهد مستبشرا، وهو يقول:

"نزول المطر قبل الحرب علامة خير، فهكذا ثبت الله أقدام الصحابة في غزوة بدر."

قلت بقلق:

"المطر علامة خير، لكنه خير ضائع! أغلب جيشنا من الفلاحين المزارعين، ونحن في الغرب نعتمد على المطر والآبار في الزراعة، وننتظر نزول المطر طوال العام بفارغ الصبر، فإذا نزل

فيجب أن نكون في أراضينا نرعاها. أن ينزل المطر على جنودنا، وهم بعيدون عن فلاحتهم، فهو أمر محزن لهم. هم الآن يفكرون في العاقبة، إن هزمنا فسيحرق الأسود قراهم، وإن انتصرنا فقد ضاع موسم الزراعة الجديد، وسيهلكهم الجوع."

قال وقد انتقل همي له:

"إن أمر الحكم لهو أصعب وأعتى من جمع الجيوش، ومحاربة المعتدين. تنتهي حربنا مع الأسود، عن قتل بسيف ثمنه درهمين، بينما حربنا ضد الجوع لا تنكسر."

وتنهد وقال:

"لكن حرب السيوف هي التي أمامنا الآن. أخبرني ماذا ترى؟"

قلت:

"لا أجد إلا أن تخطب في جنودك، لتحمسهم قليلا، ولكن أخبرني كيف سنفعل أمام هذا البحر الأسود؟"

أعطاني ظهره، يتأمل معسكر الأسود الهائل، الذي يفوق المدينة حجما وقال:

"لا يوجد خيار آخر أمامنا. لو بقينا هنا مدة أطول، فستحطم المجانيق آخر الأسوار. يجب أن ندمر المجانيق،

والأبراج التي أتى بها أهل السور العلي، لتكون أمام القلعة فرصة للصمود."

قلت:

"وكيف هذا، وأمامنا كل هؤلاء؟"

ارتجف صوته قليلا، وهو يقول:

"لو حاولنا الالتفاف حول جيشه، فسيوقع بنا في كمائن، ويحاصرنا بسهولة، أو نضطر للحيد بعيدا في قلب الصحراء. يسهل عليه أن يطلق فيلقا من أمامنا، وآخر من خلفنا ليوقعنا بينهما."

لم يجب سؤالي، فانتظرت في صبر، ثم قال كأنما يستجمع شجاعته:

"علينا أن نكون جميعا غيلانا حمرا اليوم. أن نلقي بأنفسنا بين فكي الوحش، كما يحكون عن الغول أغاغول، وثعبان السموم. لعلك سمعت حكايته؟"

لم أكن في مزاج رائق لسماع حكايات، لكنه كان قلقا بما يكفي ليضيع الوقت فيها، فلم ينتظر وقال:

(٦٠)

حكاية الحداد أغاغول وثعبان السموم

٦٠- ١ (المبدأ)

قال:

"يحكى إنه كان هناك حدادا شابا نحيلا، يعيش في قرية صغيرة، تبعد عن أقرب مدينة بعشرة فراسخ. ذات يوم، ذهب لمنزل شيخ البلد لإصلاح بعضا من عدة مطبخه، فإذا به يرى ابنة شيخ البلد، تقدم له الشراب.

لم ير من وجهها إلا عينيها، لكنه إذ نظر فيهما، أحس كأنما هوت صاعقة من السماء عليه، فقذفته من فوق جبل شاهق إلى هوة سحيقة بلا قرار.. أحس كأنه يطفو في الهواء. لا هو في بحر فيغرق، ولا في سماء فيقع، وإنما أصبح به خفة غريبة كالطير المحلق.

وهنا ذهب لشيخ البلد، يطلب يد ابنته.

نظر شيخ البلد لهذا الفتى، وامتعض. كان هزيل الجسد، ليس بذي بنيان مهيب، ورزقه محدود، فليس بالثري المرحب به، لكنه، من ناحية أخرى، الحداد الوحيد بالقرية، وهو لا يرغب في إغضابه ليرحل عنها.

قال شيخ البلد:

"لا أزوج ابنتي إلا لمن في مقامها، فإن كنت حقا راغبا فيها، فعليك أن تسمو بنفسك، لتصل لها"

سأله الحداد:

"وكيف ذلك؟"

قال شيخ البلد:

"لو إنك انضممت لتلك الجماعة، التي تسمي نفسها الغيلان الحمر، فسأقبل بك زوجا لابنتي".

كان شيخ البلد يظن أنهم لن يقبلوا فتى هزيلا مثله، ولو حدث وأنهم قبلوه، فأن يكون له نسيب بينهم، سيقوي شوكته، ويرهب أعداءه.

لم يكن الحداد يعرف عن الغيلان الكثير، سوى إنهم فرقة من الجند، تسمو بالشجاعة فوق كل شيء آخر في الحياة، وأن إحدى قلاعهم توجد قرب المدينة.

جمع الحداد متاعه القليل، ورحل نحو المدينة، يطلب قلعة الغيلان. ووقف على بابهم ملحا، يطلب رؤية كبير القلعة، أو الأغا الخاص بهم. وكان لقب الأغا لا يستخدمه الغيلان، بل المماليك، لذا فقد غضبوا منه، واستهزءوا به.

لكن الفتى ظل واقفا على بابهم ثلاثة أيام، ملحا بإصرار، فتأفف منه كبير القلعة، وأراد طرده بعيدا، فسأله أحد أعوانه :

"ولم لا تسمع منه ؟"

قال كبير القلعة:

"إنه رجل هزيل، ومثله لا يصمد في قتال."

قال المعاون:

"ومنذ متى كان الغيلان يقدرون الرجال بقوتهم، ألا تذكر ما نقوله في كتاب الشجاعة ؟ القوة قد تخذلك، بأن يأتي خصمك بأشد منها، أما الشجاعة فلا تخذل صاحبها أبدا ؟"

تأفف الكبير، لكنه أدخل الحداد ليقابله، وعزم على أن يطلب منه اختبارا مستحيلا، ليرده مخزيا.

نظر كبير الغيلان للحداد وقال له:

"ما حرفتك ؟"

قال:

"حداد"

قال له كبيرهم:

"كلا لو أردت أن تكون منا، فحرفتك هي أن تكون منا"!

صمت الفتى ولم يرد، فقال الكبير:

"كل غول لينضم لنا، إما أن ينضم منذ الصغر، في طفولته، قد نأخذه قسرا من أهله، أو يهدونه لنا ليتدرب على الشجاعة الحقة، أما من هم غير ذلك، فلابد أن يثبتوا شجاعة لا تضاهى لنقبلهم"

أحس الحداد بشيء من التردد، ثم تذكر عيني محبوبته، وكلمة والده، الذي كان يقول له: "ما لم يأت بالعسر، لن تعرف له لذة"

فأخذ نفسا عميقا وقال:

"وأنا مستعد لأي اختبار منكم".

نظر كبير القلعة له ساخرا، ثم قال:

"عليك أن تجتاز ثلاثة اختبارات، لا تلجأ فيها لجبن، أو غدر، أو خسة".

قال الحداد:

"أعاهدك على هذا".

قال كبيرهم:

"المهمة الأولى: أن تحضر كأس أمير المدينة المزينة بالذهب والجوهر"

وكانت هذه كأسا، وضعها الأمير كجائزة لمن يهزمه في المصارعة، التي كان ولعا بها، ولم يهزم فيها قط.

ونظر الغيلان باستهزاء، وضحكوا، إذ وجدوا الحداد، بجسده الهزيل، مازال واقفا بإصرار، منتظرا أن يعرف باقي المهام.

قال كبير الغيلان:

"والمهمة الثانية: أن تعبر وادي الهامات ليلا، وحدك".

كان هذا الوادي يتناقل الناس عنه أخبارا مفزعة، عن أشباح قاتلة، وجن وعفاريت يسكنونه، فمن عبره ليلا أو نهارا، ولم يقتل، خرج منه مجنونا

اهتز الحداد في داخله، لكن إصراره ثبت أقدامه، فخرج صوته حازما:

"والمهمة الثالثة؟"

نظر له كبير القلعة بغيظ، وظن أنه يستهزئ به، فاستبدل الفكرة الثالثة بأشنع منها، وقال:

"والثالثة أن تقتل ثعبان السموم".

شهق من حوله في دهشة، فقد كان هذا ثعبانا جبارا، طوله مائتي ذراع، وفكاه يستطيعان أن يقبضا على بقرتين، أو ثلاثة في وقت واحد، فيبتلعهم في قضمة واحدة.

لكن الفتى الحداد لم يهتز، لأنه تذكر كلمة والده: "لا تحمل هم الغد قبل أن تخلص من هم اليوم". إن حصل على الكأس، واجتاز الوادي، عندها فقط سيبدو الثعبان مخيفا.

والتفت الفتى مغادرا دون كلمة واحدة، فنظر له كبير القلعة متعجبا، وقال لنفسه:

"إما إنه سيرحل بلا عودة، وإما إنه شجاع لدرجة الجنون، وسيسعى لما همه، ولو كانت الثانية، فليس أقل من أن أعينه بشيء ما"

فنادى على الحداد، وقال له:

"قبل أن تغادر لمهمة تتبع الغيلان، فلك أن تمسك سلاحا من أسلحتهم."

وأعطاه سيفه. بدا للحداد الخبير سيفا ممتازا، لكنه لم يعرف أنه سيف غير عادي، يصيب أي هدف يطعنه في مقتل، مخترقا أقوى الدروع.

على أن السيف لم يكن لينفع الحداد في مهمته الأولى، فوضعه وسط متاعه، وتوجه نحو الأمير يطلب الفوز بالكأس

نظر الأمير بسخرية للفتى النحيل، وقال:

"أواثق أنك تطلب نزالي؟"

٦٠- ٢ (الكـأس)

قال له الحداد:

"نعم يا مولاي وليفز بالكأس أقوانا جسدا:

كان الأمير قد أخذ عهدا بألا يرد أي طالب للنزال، مهما كان، إلى أن يجد من يغلبه، ولذا خرج فورا للقاء الحداد

وغلبه بسهولة طبعا، رغم مقاومة الحداد الشرسة، فقال الحداد:

"ها أنت يا مولاي غلبتني في جولتك الأولى."

قال الأمير:

"ارحل يا غلام فإني لا أصارع الرجل إلا مرة، فليس لمهزوم أن ينال شرف مصارعتي."

قال الحداد:

"يا مولاي الأمير لم أذكر المصارعة. لكن النزال لكي نرى من منا له الجسد الأقوى، وقد أثبت أن ذراعيك أقوى من ذراعي بالمصارعة، فماذا عن باقي الجسد؟

نظر له الأمير بفضول، وقد حمت في قلبه حمى حب المخاطرة، والمنافسة، فسأل متصنعا عدم الاكتراث:

"ماذا تعني بباقي الجسد؟"

قال الحداد:

"يا مولاي الجسد ذراعين وقدمين وبدن وصدر ورأس. فلكي تثبت قوتك، عليك أن تغلبني في الخمسة، وقد غلبتني في نزال الذراعين فحسب.

قال الأمير مندهشا:

"وكيف أثبت قوتي في الأربع الباقية؟"

قال الحداد:

"أما القدمان فأمرهما بسيط. لنتسابق الآن، وأسرعنا في اجتياز طرقات القصر، هو الأقوى."

فاندفع الاثنان بأقصى ما يمكنهما من سرعة. على إن الأمير، رغم ثقل جسده، كان قوي البنيان، معتادا على الرياضة، فسبق الحداد.

وأحس بلذة النصر الجديد في فمه، فسأل الحداد بلهفة:

"أرني حرب البدن!"

قال الحداد:

"الأمر بسيط، فحرب البدن فيما تجيده البدن، ألا وهو الطعام، لنرَ من منا أقدر على احتمال طعام غيره."

وابتسم الأمير ساخرا، متصورا أن هذا أهون النزالات، التي دخلها في حياته، حتى إنه فكر في نبذه مستكبرا، لولا إنه بالفعل وافق الحداد على خمس نزالات.

لكن الأمر لم يكن كما تصور. فقد أصبح عليه أن يأكل شظف العيش، الذي يحيا عليه الحداد، من ملح، وخبز يابس، وماء، وبعض الفول.

أما الحداد، فنزاله أن يحيا حياة الأمير المرفهة، فيأكل أطايب الطعام، ولحم الغزلان.

والمهزوم من يتخلى عن هذا الطعام أولا.

وحتما كان هذا أشق نزال مر به الأمير. أسبوع كامل لا يأكل إلا أدنى الطعام، بينما أمامه الحداد، غارق في الملذات التي كانت له، وحارب بشدة يبغي الصمود، لا يصدق أن تكون معدته أضعف من معدة حداد حقير.

ولكن حينما بلغ به الضيق مبلغه، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة، أعلن الحداد إنه أصيب بألم في معدته، وأن طعام الأمير كالسم الحار، يكوي جسده، رغم أنه لذيذ على اللسان؛ لكنها لذة تتبعها سكرة الألم والمرض.

وأتى النصر للأمير بين شفتي الهزيمة، فمنحه هذا روحا متحمسة للإكمال. (ولو إنه أصبح متشككا في طعامه من بعدها، ولم يعد يأكل من يومها ما كان يأكله من قبل)

قال الأمير، وهو يتحسس بطنه بفخر!:

"هيا أيها الحداد، أخبرني كيف يتصارع الصدران؟"

قال الحداد:

"وماذا يفعل الصدر؟ يستنشق الهواء. فأما ما يريحه هو هواء الوديان، ونسيم البحار، وأما ما يرهقه ويجلب التعب والعسر، فهو استنشاق الدخان. أقوانا صدرا هو الذي يحتمل الدخان الكثيف مدة أطول من غيره، لا يسقط خلالها مختنقا، أو يهرب للهواء طالبا".

واختار الحداد حطب الورد المندى، لأنه يخرج دخانا كثيفا، لكنه غير مؤذ، كما زعم. فعمد الأمير إلى حديقة الورد الثمين في بساتينه، فاقتلعها، وكدس حطبها في زنزانة حجرية أسفل القصر، لا يكاد يدخلها الهواء، وحبس نفسه مع الحداد فيها، وأشعل النار في الحطب.

وانطلق الدخان الكثيف يملأ المكان، وهما يكتمان أنفاسهما بأقصى ما يستطيعان، ليتجنبا الدخان الحار الكثيف.

ومرة أخرى، بدا أن الحداد سينتصر. فعمله كحداد جعله معتادا على دخان الحطب، ونفخ الكير، والحرارة العالية للنار المتأججة.

وازرق وجه الأمير، وهو متشبث بمكانه، حتى كاد يهلك، لكنه تمسك بأقدامه، لا يريد خسران النزال.

وهنا انهار الحداد فجأة، وطرق على باب الزنزانة، يطلب الخروج.

وخرج الأمير خلفه، يستنشق الهواء من حدائقه الغناء، لا يصدق إنه مازال حيا، ومازال منتصرا.

وأحس بثقة لا حدود لها. ورغم إن الحداد لم يعد له أمل في الانتصار، إلا أن الأمير تحمس للسباق التالي: سباق الرأس

قال الحداد:

"هو سباق للمكر، ويجب أن يكون صعبا لكلينا، فلا ينصرك مالك أو قوة عضلاتك. يجب أن نكون متساوين أمام من نريد غلبته، للفوز بالسباق."

فعاهده الأمير المتعطش للتحديات على هذا، فقال الحداد:

"هناك امرأة بخيلة عجوز، تعيش في سوق المدينة، تبيع الأقمشة. وهي ماكرة جدا، وحادة الطبع، فلا يستطيع أحد أن يغلبها في ثمن بضاعتها، ولو استطاع أحدنا أن يأخذ منها شيئا بأقل من ثمنه، قبل الآخر، فهو الفائز"

فقبل الأمير متحمسا، وأراد الذهاب للسوق، لكن الحداد أوقفه قائلا:

"يا مولاي. ألا تذكر عهدك؟"

قال الأمير:

"بلى أذكره."

قال الحداد:

"لو رأت جندك، لخشيت بطشهم، ولو رأت ملابسك الفاخرة، طمعت في مالك، ولو كشفت عن ذراعيك المفتولتين، صمتت رعبا منك."

فقال الأمير متحيرا:

"إذًا فماذا أفعل؟"

قال الحداد:

"لا أرى حلا سوى أن ترتدي مثلي، ملابسا رثة ممزقة، وتضع أحد ذراعيك داخل الثوب، فتبدو أكتعا، بيد واحدة، فلا تخشاك، أو تطمع فيك."

وقبل الأمير الشرط على مضض، لكنه التزم بالوفاء بعهده، لم يحاول التملص منه، لأن وعد الحر دين عليه.

وخرج الاثنان وحدهما إلى السوق، فذهب لها الحداد أولا، يسألها عن أسعار أقمشتها نوعا نوعا. حتى أصابها السأم، لكنها لم

ترض أن تنزل في سعرها، ولما بلغ إلحاحه مداه، ثارت فيه، لترده مخذولا.

فتقدم الأمير، ففعل مثله قليلا، ثم طلب منها وشاحا رخيصا، فلما أحضرته، ألح عليها أن تلفه له، فلما فعلت، تعثر في كومة من الأوشحة الغالية، فأسقطها، فأخذ يعتذر، ويرفع الأوشحة، يردها مكانها، وفي غفلة من السيدة، استبدل وشاحه الذي في اللفافة، بأحد الأوشحة الغالية، ونهض أمامها حاملا اللفافة، فسألها عن ثمنها الرخيص، ونقدها إياه.

ذهب الأمير للحداد فرحا، وقال ها هو الوشاح، وها أنا غلبتك بذراعي، وقدمي، وبطني، وصدري، ورأسي أيها الفتى الأحمق، فابتعد عن وجهي أيها المهزوم.

فقال له الحداد:

"حق لك يا مولاي أن تفرح بانتصار رأسك، وسيذكر الناس حتما نصرك عليّ بأشد من أي نصر آخر، مهما طال العمر."

قال الأمير متعجبا، وفخورا:

"وما يميزه عن غيره من انتصاراتي، وأمجادي؟"

قال الحداد:

"لأن الناس ستذكر أن الأمير جرى في طرقات قصره كما يفعل الأطفال، واستبدل طعامه الفاخر بطعام خشن، واقتلع

زهوره الغالية، ليحبس نفسه في السجن معها، ويشعل النار في الحجرة، التي يجلس فيها، ثم ارتدى ملابس الشحاذين، وذهب ليحتال على عجوز مسكينة، فسرق وشاحها كما يفعل أدنأ اللصوص!

صمت الأمير مبهوتا، ثم قال:

"إليك عني. خذ الكأس الذهبي، وارحل. فلم يغلبني، ولن يغلبني من هو شر منك".

فأخذ الحداد الكأس، وذهب به لكبير قلعة الغيلان الحمر، فتعجب هو ومن معه، وقالوا:

"لكنك لم تصرع الأمير؟"

قال الحداد:

"صارعته دون خشية، وفزت لكم بالكأس، فماذا تريدون؟"

نظر كبيرهم بإعجاب إلى الكأس الجميلة، وقد تراقصت نفسه قليلا مع تلألؤها، فقال لنفسه:

"ولماذا أرد الكأس؟ مازال أمامه مهمتين لن ينجزهما."

فقال بصوت عال:



"قبلنا الكأس يا أغا غول (ساخرا من سؤاله عن أغا القلعة،
أول ما أتى لهم، فصار الحداد معروفا بهذا الاسم الغريب:
أغاغول)

٦٠- ٣ (الوادي)

وأصبح على الحداد، أو أغاغول، أن يعبر وادي الأشباح في ليلة، وزاد من الخوف أن كانت تلك الليلة غير مقمرة.

لكن أغاغول أعد عدته قدر استطاعته. كانت المشكلة إنه لا يوجد من عبر الوادي، من قبل، سليما لكي يسأله عن الأخطار التي ستواجهه فيه، لذا قرر إنه يجب أن يتأخر خلف شخص ما، حتى يرى ما يناله، قبل أن يتقدم هو.

أعد جملاً كبيرا، ووضع عليه حشوة من قش، على شكل إنسان، كما لو كانت الراكب، وأطلق الجمل أمامه، ومضى متسللا خلفه.

لم يمض وقت طويل، حتى بدأت أخطار الوادي تتوالى. كان أول ما صادفه أصوات عجيبة تدوي حوله. تبدو كما لو كانت تنطلق من كل حجر ونبتة أمامه. صرخات شنيعة مرعبة في البداية، لكنه تشبث بشجاعته، وبذكرى عيني عروسه المرتقبة، ومضى. ثم أتت ضحكات قوية، أشعرته بنشوة غريبة، ورغبة في أن يضحك حتى الموت

فأخذ يذكر كل أحزان حياته، ووفاة والده، وأمه، وأحزن القصص والأشعار، واجتاز تلك المنطقة بمشقة كبيرة.

وهنا بدأت أصوات أسوأ من سابقتها. أصوات مغرية فاتنة، تذيب القلوب، وتؤجج الأهواء، تدعوه لفتن وملذات لا حد لها، وتصور له إنها موجودة على جانب الطريق، لكنه إذ كاد يضعف، سد أذنيه وتقدم نحو جمله المضطرب، فغطى أذنيه هو الآخر، ليكمل المسير في صمم.

وقطع ثلث الوادي آمنا،

لكن الثلث الثاني بدأ بداية أكثر إفزاعا. لم تكن هناك أصوات، بل رؤى شنيعة.

كان يمشي مطمئنا، بعد أن حجب عن أذنيه تلك الأصوات المدمرة، فإذا به يرى محبوبته ساقطة على الأرض، وجمله يتقدم بإصرار، فيدهسها.

وأصابه الهلع، إذ رأى الدماء تتدفق منها، وجسدها الغض يتشوه، واندفع مسرعا نحوها، لولا أن ساعده الحظ، فتعثر في لجام جمله، وسقط أرضا، وحين نهض، وجد إن الجسد المحبوب تلاشى.

ونظر حوله، ليجدها في كل مكان. أشباح، وهوام تطير، وتسير، تصرخ، وتضرب، وتطلب رؤوس أناس لا يعرفهم، لكنه أحس برغبة عارمة في قتلهم، وتمزيقهم. كانت تصرخ بأصوات لا تسمع عبر الآذان، بل عبر القلوب، فلا ينفعه منها حماية، وكانت

تتحدث وتتحدث بإلحاح، حتى تجذب ذهنه، فتشرده عن الطريق.

أحس أنه يسقط في بئر عميقة بلا قرار، وأنه لا يرغب إلا في الرحيل عن هذا المكان بأي ثمن، وحينما فكر في هذا، وجد من يهمس في أذنه، أو على الأصح لقلبه بإغراء: ولو كان الثمن أبي، وأمي، وعيني محبوبتي.

لكن هذا كان خطأ تلك الهوام الجسيم. فقد أطلقت في عروقه دفقات غضب نارية، أنقذته من الحال الذي كان غارقا فيها، فثبت أقدامه، وتشبث بحبل ربطه في جمله، وخفض أذنه يبعدها عن رؤى الموت، والرعب، والفتن، والملذات، التي أخذت تتكرر أمامه، إما تدعوه لجانب الطريق، أو تخوفه من الاستمرار فيه.

وبعد زمن مضى عليه كدهر، انتهت تلك الرؤى الشنيعة، لكن بعدها وجد في نفسه وساوس أخرى تلح عليه.

يرغب في أن يصرخ، أو يرقص، أو يقفز. أحيانا يشعر بخفة، تجعله يظن أنه قادر على الطيران، أو أنه لو قفز وسط الرمال، فسيسبح فيها كما لو كانت بحرا. لكنه تحكم في نفسه، وظل كامنا في اختبائه، يمضي متسللا خلف جمله ذو الحشوة، وأخذ يكرر لنفسه آية الكرسي، والمعوذتين ليقوه تلك الوساوس.

وأخيرا قطع الثلث الثاني من الطريق بسلام.

بدا له أن المكان قد أصبح آمنا، وأن جمله يمشي في ثقة.
وأحس براحة كبيرة، وبدا له هذا الجزء من الوادي متسعا رحبا، بلا مخاطر.

ثم فجأة، تفتت الصخور، وتشققت الأرض حول جمله، وانطلق ضجيج ورعب، لتلفظ الأرض لهبا حارا لاسعا، لكنه أسود لا ضياء فيه، ونفثت دخانا مقبضا قاتما، خانقا بأشد من أي دخان رآه الحداد.

وكمن أغاغول مرتعبا خلف صخرة، يرقب فإذا بالأرض تلفظ شياطينا كثيرة مرعبة، لها قرون كقرون الثيران، وأذناب كذيول الذئاب، وأقدامها كأقدام البغال، وأسنانها حادة لامعة كأسنان الأسود، لولا إن أنيابها طويلة، كما لو كانت مسامير من الصلب، وتشهر مخالبها التي تشبه خناجر قاطعة.

صرخت تلك الشياطين بأصوات قبيحة، وهللت فرحة وهي تدور حول الجمل، وتصرخ وتعوي قبل أن تنقض عليه، فهجمت أولا على الحشوة القش. فلما وجدتها ليست بشرا، أشاروا لها بأصابعهم، فإذا بها تشتعل بلسان من لهب أحمر، ثم أسقطوا الجمل المسكين، وانهالوا عليه تمزيقا بمخالبهم وأنيابهم، وأغاغول يراقبهم في رعب. ثم لاحظ إنهم ينتزعون جزءً من أطيب الأماكن في الجمل، فلا يقربوه، وإنما يجمعوه في قدر كبير، كما أتوا بكأس ضخم من الحجر، عليه نقش يشبه الحمار، فملئوه بدماء

الجمل، ثم حملوه نحو شيطان كبير، يجلس منتظرا لا يشاركهم عبثهم، فأمسك الشيطان الكبير بقطعة من اللحم النيء، فمضغها، ثم بصقها وقال:

"ما هذا؟"

قالت باقي الشياطين بصوتها القبيح، الذي يشبه مزيجا من فحيح الثعبان، وعواء الذئب:

"أطيب لحم الجمل يا مولانا."

قال الشيطان الكبير:

"تبا لهذا ألا يوجد شيء من لحم البشر اللذيذ؟"

بدت الشياطين مرتجفة، وهي تقول:

"لم نجد مع الجمل بشرا يا مولان، كانت عليه حشوة من قش."

نظر لهم ملكهم المريع هذا بعين غاضبة، فأضاءت بضوء أحمر قوي، سطع على رمال الصحراء، فذابت لتتحول إلى زجاج. ومر به على أجساد أتباعه، فأطلقوا صرخات ألم، قبل أن يخفض عينيه إلى الكأس المملوء بالدم، فيرتشف منه رشفة ويقول:

"وما هذا الدم؟"

قالوا مرتعبين بصوت يشبه صوت البوم:

"دم من دم الجمل! طازج يا ملكنا لم يذقه أحد قبلك!"

مط ملكهم شفتيه وقال:

"لا بأس اذهبوا وامرحوا!"

هرعت باقي الشياطين عائدة للجمل، تلتهم من لحمه، وتشرب من دمه، وهي تغني غناءً بشعا، فتسلل أغاغول مقتربا، مستغلا انشغالهم هذا.

وهنا، التفت له الملك، وصرخ صرخة شنيعة، اهتزت لها صخور الوادي ورماله، فشهر أغاغول سيفه، واندفع يمزق ثلاثة، أو أربعة شياطين من طريقه، متجها نحو الملك.

الشياطين مخلوقة من نار - كما تعرف - فلا تؤذيها السيوف، لكنها إذا تجسدت، وخرجت في صورة البشر، لتؤذيهم أو تقتلهم، فإنها تمتلك بالمقابل الجسد، الذي تؤذيه السيوف والرماح، فتفقد حمايتها النارية. وهكذا اندفع أغاغول بالسيف، الذي أعطاه له كبير القلعة، ليسقط ثلاثة آخرين من حرس الملك، ثم أمسك الملك نفسه، فقبض على عنقه الأسود، المغطى بالشعر الخشن، ووضع سيفه على حلقومه.

ثارت الشياطين وهاجت، وشهرت مخالبها، التي تشبه الخناجر، تبغي تمزيق أغاغول، فضغط بنصل سيفه على ملك الشياطين، حتى جرحه، فخاف الأخير على حياته، فرفع يده نحو أتباعه يأمرهم بالسكون، فصمتوا.

ثم قال الملك:

"يا ابن آدم. قد قطعت علينا جمعنا، وهتكت سترنا، وقتلت من رجالنا. لكنك إذ ارتكبت هذا الجرم، فقد أبليت بلاءً حسنا، وأثبت شجاعة محمودة، ولذا فعليّ لك إنك إن تمنيت أي أمنية، أجبتها بلمح البصر. أطلقني، ثم تمنى عليّ، وسأحقق بقوتي وسحري ما تشاء، وسأجعلك أغنى أهل الأرض."

لكن أغاغول رجل حصيف، يعلم أن الشياطين لا تفي بوعودها، ولو أوفت فهذا شر من ألاّ تفي، لأن أمرهم لا يأتي منه خير قط. حتى لو أعطوه مالا، فسيكون مالا ملعونا، يزيد همومه ولا ينقصها.

لذا فقد قال:

"كلا! لن أتركك أيها الملك، حتى أخرج من الوادي آمنا، أو أهلك معك!"

فأخرج الشيطان من معطفه حجرا أصفرا لامعا، وقال:

"تعجبني رباطة جأشك، ولذا سأزيد المكافأة، خذ هذا الحجر السحري، يا ابن آدم وحدق فيه. لو حدقت فيه بقوة، فسترى كل كنوز الأرض في أماكنها، لتنال منها ما تشاء. لو ألقيته نحو عدو لك، فسيقتله هو ومن معه، ويعود لك سالما، ولو وضعته على رأس صديق لك، فسيشفى من أي مرض. لو أمسكت فيه، ونفخت فسترى نوايا من أمامك، وتعرف إن كان يضمر

لك خيرا أو شرا. هذه هدية ثمينة جدا، وكنز من كنوزنا الأعظم. خذه وجربه، فإني صادق معك، لأني أفتدي به حياتي. أقذفه على أي واحد من هؤلاء، فسيهلك، ويعود لك الحجر سالما، امسحه على رأسك، فستشفى جروحك.

تعلقت عينا أغاغول بالحجر مترددا، وهو يفكر، حتى إنه وجد يده تمتد له، وتمسك به دون أن ينتبه. وأثناء تحديقه فيه، تراءت لعينيه ألوان وبريق لامع، راودته نفسه إنه لو دقق فيها أكثر، فسيرى جواهر جميلة.

لكنه انتقل بشروده إلى جمال عيني حبيبته، وبدت له أجمل من كل الجواهر، فإذا به يراهما في الحجر

وهنا أفاق من السكرة، وأدرك إن الأمر لا يعدو مجرد سحر وفتنة، ثم تذكر الآية الكريمة (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ) فقال لنفسه: ولم الطمع؟ المرض والشفاء والموت والحياة والرزق كلها بأمر الله. نعم عليّ أن أسعى، ولكن ليس عليّ أن ألجأ للشياطين، فأكون كمن قال الله فيهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ا)؟

لو أصابني أنا أو أصحابي قضاء، فلن ينفعنا حجر الشياطين، ولو طمعت، فسيهلكني الذهب، فضحاياه كثر قبلي.

ورغم إن في نفسه بقية من تردد، وإحساس أنه قد يندم على هذا في المستقبل، لكنه تشبث بعزيمة الإيمان، وألقى بالحجر نحو واحد من الشياطين، بدا له هزيلا عن غيره، وقال له:

"خذ هذا الحجر لك، فلو كان كما قال، لجعلك ملكا على هذا الوادي!"

نظر الشيطان الهزيل فرحا للحجر، وأخذ يحدق فيه، وقد جذبته الألوان والتلألؤ، الذي جذب أنظار أغاغول من قبل، فإذا به ينظر حوله، كأنما هو بالفعل في الذهب والجوهر، وأخذ يبعثر الرمال، كما لو كانت لؤلؤا، وبدا عليه الخبال، قبل أن ينقض عليه شيطان آخر، قتله لينتزع الحجر منه، ثم اندفع عدد كبير منهم يتصارعون عليه.

قال أغاغول:

"إذًا، فهكذا أصبتم بالجنون من ينجو منكم، ويعبر الوادي؟ والله لن أتركك يا ملك الشياطين، حتى أخرج من هنا سالما بإذن الله."

وأخذ يدفع الملك أمامه خطوة بخطوة، والشياطين الأخرى تتبعه عاجزة، حتى وصل لنهاية الوادي، فوقفت جميعا عاجزة، وبدا الذعر في وجه وصوت الملك المذعور، وهو يقول:

" ألا يكفي هذا؟"

قال أغاغول بصرامة:

"تقدم."

قال الملك:

"أتوسل إليك. لو إنني تقدمت، فسأهلك معك. أنت تريد الاستمرار، هذا شأنك، لكن يوجد في نهاية الوادي وحش شرير مريع، لا ينجو منه إنس، أو جن، أو شيطان. حاول أن تقتله أنت، أو تهرب منه كما تشاء، لكننا نحن الشياطين لا نقدر على ذلك."

فكر أغاغول قليلا، ثم قال للشياطين الأخرى، التي تتبعه: ارجعوا أنتم وابتعدوا.

فأسرعوا يهربون، كأنما نار الجحيم تطاردهم، ولما غابوا عن نظره، أطلق ملك الشياطين، الذي أسرع يعدو هاربا هو الآخر، ثم توقف وهتف:

"أيها الأنسي الشجاع! اضرب الوحش في عينيه، إذا اقترب منك وجهه، فهذا سبيل نجاتك."

ثم أسرع يكمل عدوه نحو الجهة الأخرى من الوادي، فاندفع أغاغول بدوره يعدو نحو النهاية.

وهنا وجد شجرة كبيرة جدا، تسد الطريق. فتقدم زاحفا، يحاول أن يمر من أسفلها، فإذا به يجد إنها ليست شجرة.

كانت لحية مارد مهول، نائم على فم الوادي.

نهض المارد العملاق، لترتفع رأسه لعنان السماء، قدمه في حجم أضخم الأشجار، التي رآها أغاغول في حياته، أو أكبر. ويمسك بعصا غليظة، بدت لأغاغول في طول سارية مركب، من أضخم سفن أسطول الملك.

ثم أحنى العملاق رأسه، لينظر بوجهه القبيح لأغاغول، ويقول:

"من هنا؟"

قال أغاغول، وجسده يهتز من دوي صوت المارد:

"السلام عليكم. أنا حداد بسيط، كنت أعبر الوادي، فطاردتني الشياطين، وهربت منهم. أرجو أن تسمح لي يا سيدي بالعبور."

هنا انحنى المارد، حتى أصبحت أنفه ملاصقة للأرض، ليحدق بعينيه في أغاغول، الذي فكر إنه لو أطلق سيفه الآن، فسيعمي عيني العملاق، كما نصحه ملك الشياطين، ثم يستطيع التسلل من بين يديه، وينجو مبتعدا.

لكنه عاد، وفكر كم في هذا من ظلم. لقد انتظر العملاق حتى يتثبت من أمره، ويعرف من هو. وتذكر الآية الكريمة (إِنْ جَاءَكُمْ

فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) وعيب عليه إن ابتدر بالهجوم، قبل أن يتبين أمر العملاق، حتى لو كان ثمن المخاطرة شديدا.

تشمم المارد رائحة أغاغول بقوة، حتى إن الأخير أحس أن شهيقه سيجذبه لأعماق صدر المارد.

ثم قال المارد:

"رائحتك كالبشر، لكن البشر لا يحاولون عبور هذا الوادي ليلا!"

قال أغاغول:

"اضطررت لهذا. كان وعد قطعته على نفسي، وأنت يا سيدي الكريم خير من يعرف إن وعد الحر دين عليه."

هز المارد رأسه موافقا، ثم قال:

"لكن القلة التي رأيتها من البشر، تعبر الوادي في النهار، كانوا لا يصلون إليّ إلا مجانين مساكين، وأنت تحتفظ بعقلك."

قال أغاغول وهو يتحفز بسيفه - لأنه حتى وإن بدا المارد ودودا فإن الحذر ينفع ولا يضر- :

"أغروني بالذهب ليذهب عقلي، لكني فطنت أنه لا نفع في شيء يأتي من الشياطين."

فضحك المارد ضحكة شنيعة، دفع زفيرها أغاغول للخلف، وقال:

"هذا صحيح. ليتني كنت في فطنتك. أول مرة أتيت فيها لهذا الوادي منذ ثلاثمائة عام، تقربوا لي وتوددوا، وأهدوني حذاءً. لعلك تدرك مدى عظم تلك الهدية عندنا معشر المردة. فليس من السهل على من في مثل حجمي أن يجد حذاءً يناسبه، ولا على من يملك يدين غليظتين كيديّ أن يصنع واحدا. لكن ما أن ارتديت الحذاء، حتى اكتشفت إنه مسحور ملعون. لو خطوت به خطوة، فإنه لا يتوقف أبدا، حتى أبتعد عن أرضهم، ولو وقفت به خارج حدودها، فإنه يتوقف أبدا، ولا يتحرك، ويتشبث بقدمي لا يريد أن يخلع. أخذ الأمر مني خمسين عاما، لكي أستطيع العودة للوادي، سائرا مقلوبا على يديّ، لأقف على فمه، فأحبسهم فيه، وأدفع أذاهم عن باقي الناس، رغم إن سحر الحذاء اللعين يمنعني من أن أقتحم أرضهم."

ثم نهض العملاق مرة أخرى، وقال:

"حسنا يا ابن آدم. أنت ضيفي اليوم. سأطعمك غذاءً لم تذق مثله أبدا، فأنا خير من يطهو جذور الكافور. ليس كل يوم أقابل شجاعا من الأنس، غلب الشياطين."

قال أغاغول:

"أشكرك سيدي لدعوتك الكريمة، ولكني ملزم بعهدي أن أخرج من هذا الوادي قبل طلوع الفجر. يمكنني أن آتي لك وأزورك، وأحاول أن أفك عنك قيدك المسحور في وقت لاحق."

ابتسم العملاق قائلا:

"لا أظن أنك ستعود لي يا عزيزي".

قال أغاغول:

"ولم لا يا سيدي؟ سآتي من هذه النهاية للوادي، لأزورك مباشرة دون المرور بباقي أخطاره."

قال العملاق: لن ينفعك هذا. أنا دوما في نهاية الوادي. لو أتيت من تلك الجهة، فستمر بكل ما مررت به الآن، بنفس الترتيب، فهذا ليس واديا عاديا. لافارق بين هذا المدخل، أو ذاك. ولهذا فائدة، فهكذا استطعت حبس الشياطين فيه لا يخرجون منه.

شعر أغاغول بالحرج، ثم قال لنفسه: "لو أردت أن أنضم للغيلان الحمر الذين يرفعون الشجاعة فوق أي شيء آخر فلن أفلح إن جبنت عن زيارة هذا المارد الطيب."

فقال للمارد:

"أعدك يا سيدي إنني إن نجحت في مهمتي، ونجوت من ثعبان السموم، فسآتي لزيارتك مرة أخرى."

ابتسم العملاق ابتسامته الشنيعة، وقال:

"تفضل بالعبور آمنا بإذن الله، وأنا في انتظار عودتك، أدعو لك بالنجاح في مهمتك."

وهكذا عبر أغاغول الوادي قبل الفجر بقليل، ليقابل جماعة الغيلان تنتظره في ملل، لكنهم ذهلوا، وصرخوا مبهورين إذ وجدوه قد خرج منه آمنا.

حينها قال كبير الغيلان:

"لا حاجة لنا بالمزيد من الاختبارات. أنت يا بني من خير الغيلان الحمر."

فقال أغاغول:

"وعدتك بقتل ثعبان السموم، وسأفي بوعدي."

قال كبير القلعة:

"أنت في حل من وعدك."

قال أغاغول:

"وعد الحر دين عليه، ووعد الغول الأحمر سيف مسلط على رقبته، لا يجب أن يرجعه عنه أسوأ الأخطار.

كما ترى فإن أغاغول قد تغير بعد هذه التجربة، وأصبح محبا لمواجهة الأخطار، وأكثر عزما في مواجهتها. كان يشعر أن مواجهة ثعبان السموم أمر واجب، عليه ألا يتخاذل فيه، كما لو كان بينهما ثأر شخصي.

فرحل نحو الصحراء، التي يعيش فيها الثعبان، وكبير القلعة يتأسف عليه، ويتحسر على ضياع مثل هذا الغول الممتاز، وإن كان ما يهون الأمر، إنه قد حقق هدفه، وأصبح فعلا من الغيلان الحمر، قبل أن يموت."

٦٠- ٤ (ثعبان السموم)

وارتدى أغاغول ثياب الغيلان، ودروعهم الحمراء المنقوشة، وحمل سيفه الفتاك، نحو تلك الصحراء، باحثا عنه.

في البداية وجد دروبا ومدقات عريضة، يسهل المشي فيها، فاتخذها له طريقا أثناء بحثه. ثم عثر على بركة من ماء وسط الطريق، فانحنى ليشرب منها، ثم تراجع، إذ أدرك أن هذا الماء يلمع تحت ضوء الشمس، بأشد من الماء العادي. ونظر حوله متحيرا، وفجأة قفزت الحقيقة لذهنه.. هو ليس في طريق معبد، بل هذه آثار زحف الثعبان العملاق، وهذه ليست بركة مياه، بل هي بركة من لعاب الثعبان المسموم، ولو كان مسه بيده لقتله.

إذًا، فهذا الثعبان الماكر يعد كمائنا لفرائسه.

غمس أغاغول سيفه في بركة السم، ليزيد فتكه، ثم تقدم زاحفا بحذر، متتبعا الآثار ليرى الثعبان.

وليته لم يره! كان ضخما حقا، بأضعاف ما تتناقله الأساطير. لم يتصور وجود شيء في العالم بهذا الحجم المخيف! وأخذ يفكر من أي جهة يهجم، لينال منه؟

لو إنه تسلل من الخلف، فسيمزقه الذيل العظيم إربا، ولو التف من أحد الجانبين، فسيعتصره الجسد الجبار اعتصارا، ولو حاول الزحف من أسفل، فسيقتله الثقل المخيف.

وطبعا من الأمام، هناك الرأس الفتاك، بأنيابه القاتلة، التي تفيض سما!

أينتظر نومه؟ لكن كما تعلم، فإن نوم الثعابين مخادع، وبالذات تلك العماليق، التي تدرك أنها لن تفاجئ فرائسها أبدا، فتبدو لها خاملة، علها تخدعها.. نوم الثعبان مساوٍ لغدر الثعبان.

كان أمامه الرأس العظيم مباشرة، بالفكين الضخمين، الذين لو فتحا، لبدوَا كباب كهف كبير، والنابين اللامعين ينذران بالدمار لكل من يواجهها، والعينان البراقتان، اللتان يقال إنهما تصيبان من يتأملهما بنوم غاشم.

وأدرك أغاغول أنه لو أراد أن يصل لمقتل الثعبان، فلن ينفعه مراوغة أو مناورة. الهجوم المباشر هو الحل الوحيد، الذي به نفع، رغم إنه الأشد خطرا بين باقي الحلول. ولكن منذ متى كانت الغيلان الحمر تلقي بالا للأخطار، وأنت طبعا خير من يعلم هذا؟

اندفع صارخا نحو الثعبان، الذي تجمد للحظة مدهوشا من أمر لم ير له مثيلا من قبل. ثم فتح فكيه ممنيا نفسه بلحم البشر، واندفع بدوره كالطوفان، نحو هذه الفريسة السائغة

وهجم أغاغول مسرعا، فقفز بين فكي الثعبان إلى قلب فمه!

وحاذر أن تخدشه الأنياب السامة، وتجاوز الأسنان القاطعة، محتميا بدروعه الحمراء، حتى لا يمسه اللعاب المسموم. وما أن أصبح مستقرا في فم الوحش، أسرع مسابقا الوقت، قبل أن يبتلعه، بطعنه بكل قوة.

طعنة تلو الطعنة، يشق الطريق لدماء الثعبان

وتدفقت الدماء تغمر المكان كالفيضان، وتدفق سم الثعبان ليسري في دمائه، فصرخ الثعبان متألما، وقذف بما في فمه، ملقيا أغاغول الغارق في دماء الثعبان، ثم ارتفع الجسد المهول لأعلى وهو يرتجف، قبل أن يهوي خاشعا فوق أغاغول، الذي قفز متجنبا الثقل العظيم في آخر لحظة، وارتعش جسد الوحش رعشة أخيرة، وانتفض انتفاضة عظيمة، قذفت بأغاغول وأكوام من الرمال بعيدا، قبل أن يهمد للأبد.

٦٠- ٥ (المنتهى)

وأخيرا نهض أغاغول حاملا سيفه، فنظف جسده مما علق به بسرعة، حتى لا يصيبه السم. ثم اندفع بسيفه، وفأسٍ قوي، فكسر فم الثعبان، وانتزع أحد النابين، ونظفه من السم، وذهب به إلى الغيلان دليلا على نجاحه.

فرح به الغيلان كثيرا، وفرح أهل المدينة وما حولها من القرى بهلاك الثعبان الشرير، وأتاه شيخ بلدته فرحا، مقبلا بالعروس. ففرح أغاغول كثيرا، لكنه طلب تأجيل الزفاف شهرين كاملين، لأن عنده وعد قطعه على نفسه في وادي الأشباح، وعليه أن يفي به.

وتركهم ورحل نحو الوادي. لا أحد يعلم ماذا فعل في هذين الشهرين، لكن يقال إنه شق طريقه بسيفه الفتاك بين الشياطين، فأشبعهم قتلا وعاش لفترة مع المارد الطيب، وأهداه الناب الثاني للثعبان، ففرح بتلك الهدية كثيرة، وقاده في زيارة لعدة بلدان وأماكن عجيبة، ومرا بمغامرات يشيب لها الولدان، قبل أن يعود ظافرا للمدينة، فنصبه الغيلان كبيرا على قلعتهم، وتزوج من محبوبة قلبه، وعاش معها في سعادة لآخر الدهر.

(٦١)

حديث مع نفس تموت

أتم ولي العهد حكايته، التي يبدو أنه أطال فيها تلكؤا عن اتخاذ قرار مخيف. لكن أعترف إنها كانت مسلية، أزالت بعض التوتر الذي كنا نحسه، ومن ناحية أخرى، فكلما بقى الجنود مدة أطول على مشارف جيش الأسود، فربما اعتادوا مشهده، وبدا أقل وحشة في عيونهم!

أخذ يشرح لنا خطته. لم يكن يرى أمامنا إلا المجازفة بالاندفاع في خط مستقيم نحو القلعة، محاولين شق طريقنا بالقوة، والمفاجأة، وسط معسكر الأسود. علينا أن نخترق الصفوف الأولى للفرسان بسرعة، وبعدها سنمضي كالإعصار وسط بحر المشاة هذا، لنصل إلى كتائب السور العلي، ومجانيقها، فندمرها، ونعتصم بالقلعة مع من فيها، إن بقى منا ناجون!

كنا ندرك أن الخطة ستبوء بالفشل. فحتما سيصمد أمامنا المشاة بما يكفي لإطباق حصار الفرسان علينا. وحتى لو نجحنا، فإننا لا

ندري هل في القلعة من مؤن تكفينا مع المحاصرين مدة طويلة؟ وهل أسوارها تستطيع الصمود بعد ما أصابها؟

قلنا مخاوفنا بصراحة، لكن كان البديلان الوحيدان، إما أن نقف متفرجين على إعدام الملك تيمور، أو أن ننزل لجيش الأسود المستعد في قتال عاديّ، نهلك فيه عن آخرنا بسهولة تامة!

وقال وكيع، مؤيدا تلك الخطة المجنونة:

"أفضل لنا أن نلقي بأنفسنا وسط مشاتهم، عن أن نحاول الالتفاف حولهم، فيحاصرنا فرسانهم. يكفينا ما ذقناه من أهوال من أولئك الفرسان في واحة ساوة، فهم كالشياطين حقا!"

هنا تدخل جابر معترضا لأول مرة، فقال:

"حيثما تذهبون فإنا ذاهبون. ولكن أقنعوا الجنود إنكم لا تلقون بهم إلى التهلكة."

قال ولي العهد، مستعيدا رباطة جأشه وفطنته:

"علينا أن نأخذ فقط صفوة جنودنا، وأشدهم فنجعلهم في المقدمة. وسنأخذ الفرسان وأسرع الهجن فحسب، ونترك المشاة والبقية خلفنا فالسرعة أهم ما في المعركة. من لا يجيد القتال فوق دابته، عليه أن يتركها لغيره، جلبنا معنا عددا لا بأس به من الخيول من ساوة، لحمل الأثقال فعلينا أن نحررها، ونحولها لخيول

قتال جميعا. من يجيدون الرمي أفضل من غيرهم، سنتركهم هنا فوق التبة، يحمون ظهورنا، حتى يشتتوا هجمات الفرسان المضادة علينا. أهم شيء هو أن نتجاوز صفوف الفرسان سريعا، لنندفع بأقصى سرعة وسط المشاة، قبل أن تلحقنا بقية فرسانهم.
الأسود لا يتصور أننا سنهاجمه، على الأقل مباشرة، فقد ترك معسكره كما هو، لم ينظم صفوف مشاته. لذا فالهجمة ستكون مباغتة، دون إعداد أو تنظيم صفوفنا، حتى لا ينتبهوا لاستعدادنا للهجوم، فتنتظم صفوفهم في مواجهتنا. أملنا الوحيد هو السرعة العاتية، والمباغتة الكاملة."

قلت:

"لكن قوتنا الضاربة حقا هي الغيلان الحمر، وجلهم من المشاة الذين يقاتلون بالرماح الطويلة."

قال ولي العهد:

"أقوى ما في الغيلان هي الرهبة، التي يقذفونها في قلوب العدو. وبالطبع إلى جوار مصيب الفولي خاصتك! سنلجأ لحيلة قديمة، كما فعل المماليك قديما بالأهبال. اليوم نحتاج أن نكون جميعا في شجاعة الغيلان الحمر، الذين لا يخافون شيئا، ولا يهابون أحدا. سيتخلى الغيلان عن دروعهم الحمراء لفرساننا، ومن يستطيع منهم القتال من فوق فرس أو ناقة فبها ونعمت. قد يحمل الجمل القوي اثنين، أو ثلاثة مقاتلين، ولو إن هذا

سيبطئه. لذا فسنأخذ منهم قدر ما نستطيع، والبقية يتخلون عن الدروع الحمراء لزملائهم."

قال وكيع:

"وماذا عن المشاة؟"

قال ولي العهد:

"يتحصنون هنا في التبة يحمون ظهورنا ورماتنا، حتى إذا ما أصبحنا بعيدا عن حماية سهام الرماة، ينسحبون إلى واحة ساوة. وستكون أنت على رأسهم يا وكيع."

نظر وكيع له بغضب الشباب المتحمس، وقال:

"لن أتأخر عن الحرب معكم أبدا. فهذا يوم ثأري الكبير."

قال ولي العهد بصرامة:

"أنت أخبر قادتي، وأقدرهم على إبعاد هؤلاء المساكين عن بطش الأسود، ولك سلطان على الثغر الكبير، فيمكنك أن تتحصن بها معهم إن سارت الأمور على غير ما نحب، فنحفظها على الأقل من غارة أخرى للفرنجة. ولربما استطعت أن تجمع بعض الحلفاء من أمراء المماليك، ليشفعوا للمقهورين عند الأسود!"

نظر وكيع بعناد، حتى ظننت أنه سيرد بقسوة، لكنه تراجع فجأة، وقبل أمر ولي العهد.

فقلت:

"وماذا عنك يا مولاي؟ ألا ترجع أنت إلى ساوة؟ فلو أصابك مكروه، لا قدر الله، فقد ......"

قاطعني بصرامة:

"أعلم أنكم بايعتموني وليا للعهد، لكن لو قتل الملك ومعه أمي اليوم، فخير لي وللبلاد أن ألحق بهما. ليحسم الأمر الآن في معركتنا هذه، سواء بالظفر أو الخسران، لكني لن أشعل حربا طويلة ضد الأسود، مطالبا بملك خرب مزعوم. إما أن تتوحد بلادكم اليوم على يدنا، أو على يد الأسود، ويكفينا أننا رددنا الفرنجة والأهبال، عسى الأسود - وقد امتلك هذا الجيش العظيم - ألا يحتاج لهم مرة أخرى."

كانت خطة معقدة، ومربكة، وتحتاج إلى سرعة إعداد للجنود. فخرجنا نأمر العسكر بجمع الخيول، وأسرع الهجن والغيلان بخلع دروعهم. نظرت بقلق، بينما الاضطراب يعم صفوفنا، نحو البحر الأسود من أسفلنا، فطمأنني ولي العهد:

"سيظنون أننا نعد للانسحاب. الأسود سيتصور أنني سأعلن نفسي ملكا، وأخوض ضده جولة أخرى يائسة في مكان آخر ،حينما يلمح صفوفنا ترتبك وتتراجع. اطمئن، فبإذن الله لن يفهم أننا نعد للهجوم."

في الحقيقة حتى جندنا تصوروا أننا نعد للرحيل، خاصة حينما حمّلنا كل فارس وهجان بالقليل من المؤن، ننوي أن ندعم بها القلعة المحاصرة، لكنها بدت كما لو كانت تعد للرحيل! وقد ساعدنا هطول المطر على هذا التضليل، وبدا أنه أثار ضيقا في صفوف مشاة الأسود. وعندما اكتمل أغلب الإعداد، وتجهز الفرسان في الخلف، والرماة على قمة التبة كما أمر ولي العهد، ليبدو الأمر انسحابا لا هجوما، قال ولي العهد لي:

"خاطب الجنود، وأثر حماسهم قليلا."

قلت:

"أنت القائد وهذا واجبك."

ابتسم ابتسامة شاحبة، وقال:

"أنا غريب من طرابل! هم يعرفون أنك منهم، وأنت أخبر بأحوالهم مني، كما إنني أكره أن أقف تحت المطر لأخطب!"

خرجت للناس لا أدري ما أقول، أخذت أفكر فيم أدعوهم إليه؟ أأهتف بهم قائلا: "اليوم يوم الحسم إما النصر والرخاء أو الهزيمة والدمار؟" وما أدراني بالمستقبل؟ النصر يحتاج بعده لكفاح، كما سيعرفون وهم ينصتون لي.

وقفت على قمة التبة بين الرماة مشغول الذهن في خطبتي القادمة، فانتبهت فجأة إن الجنود قد تعلقت بي عيونهم، وقد أدركوا أنني سأخبرهم بما انتوينا عليه.

وجدت نفسي أهتف:

"اللهم انصرنا على القوم الظالمين."

رددوا ورائي:

"آمين."

أكملت الدعاء وقد وجدت فيه نجاتي:

"اللهم إنا على الحق، أتينا لنصرة المظلوم، فاللهم نصرك الذي وعدت."

"آمين."

"اللهم إن كان الأسود أعد جيشا كبيرا، فالله أكبر"

"الله أكبر"

أدركتني جلالة ما، فهفت نفسي للمزيد من الدعاء والتوبة. اللجوء للمغيث، الذي قال (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) فهو القريب سميع الدعاء.

"أقوة الأسود كبيرة؟ أوليس الله أكبر؟ هل تخشون جنده؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. ووالله إنهم ليخشونكم.

أما تدرون أن ما عندكم ينفد، وما عند الله باق؟ أما تعلمون أن النصر بيد الله، وكم من فئة قليلة غلبة فئة كثيرة بأمر الله؟ مادمتم على الحق فلا تخشوا شيئا. ادعوا الله أن ينصركم. اليوم يوم الفصل، إما أن يحكم علينا بالقهر والذلة والخراب على يد الأسود، أو ندفع الظلم. فالله لا يغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم. ويجب أن يدفع الناس بعضهم بعضا طلبا للعدل، لكي تنزل رحمة السماء. فادعوا الله أن ينصركم، ويثبت أقدامكم."

"آمين."

أحسست بسكينة غريبة أشبه بالخدر. خدر عجيب لم يخدر قلبي وأحاسيسي جميعا، وإنما انتقى ببراعة الخوف، والغضب، والحقد، والقلق، والندم، والظمأ، والتعب فأطفأ هذا كله، بينما زاد من العزيمة، والإصرار، وصفاء الذهن، حتى أحسست أنني أرى كل شيء بوضوح، كأنما أرى ما أمامي، وما يخفى عني أيضا! أتكون هذه أعراض تصيب من يوقنون بالشهادة؟

قلت للرجال:

"هلاككم آت لا محالة. فماذا بعده؟ وماذا أعددتم ليوم الرحيل؟ إما جنة، أو نار موقدة تطلع على الأفئدة. ستحاسبون على حربكم هذه، ولن تسألوا أهزمتم أم انتصرتم، وإنما سيكون الحساب: لماذا قاتلتم؟ وكيف قاتلتم؟ وهل أخلصتم؟ جنود الأسود ستكون إجابتهم: إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا

السبيل. تبعوهم طمعا في مال وسلطان، وقاتلوا بحمية الجاهلية، مغلقين قلوبهم عن الحق والإيمان.

فماذا ستكون إجابتكم أنتم يا من تجاهدون في سبيل الله والوطن؟ والله إنكم لغالبون حتى لو هزمتم! إن الله وعد المؤمنين بالنصر، ولو كان أمام كل مائة منهم ألفا "إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا."

قد نقتل عن آخرنا اليوم. دعوني أكون صادقا في ساعاتي الأخيرة! لكن في الانتظار، وراء الموت، جنة. ولأولادنا فخر وعزة، حتى لو هزمنا سيعلم الطغاة أن لحمنا مر، فسيخشون أبناءنا من بعدنا، ويكفوا عنهم أيديهم. فلنطلب الموت، لتوهب لنا ولمن خلفنا الحياة. وليطلبوا هم الحياة، فجهنم لا تشبع حطبا!

أوسنهلك؟ أقول لكم على الأرجح نعم! ولكن العدل سيبقى، طالما بقيت هناك سيوف مرفوعة في سبيله،

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

هذا كلام العلي العظيم وقد أكرمنا بقوله تعالى

(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرض)

قال سبحانه (بعضهم ببعض). يجب أن ندفع الظلم بأيدينا، ليدفعه الله عنا، ولو تخاذلنا فلن يرفع الظلم والطغيان عنكم،

وعن أبنائكم وأبناء أبنائكم! لو جاهدتم اليوم، فالنصر آت سواء اليوم، أو الغد فهذه سنة الله في خلقه، أما لو تخاذلتم، فلن ترفع عنكم سيوف الأهبال والفرنجة، حتى ترتوي. وهي لا ترتوي من دمنا أبدا!

ادعوا الله أن ينجيكم ويغيثكم"

قالوا بصوت عال:

"آمين"

قلت:

"والله إنها دعوة لا تنفع أبدا! فدعوة المتخاذل لا تنفع! إلا لو أتت من قلب مجاهد، فإنها تشق السماوات السبع، لا يحجزها عن الله حجاب. حساب الله لكم، ورضاه عنكم سيكون عن قتالكم، وليس عن نصركم، فلا تيأسوا من رحمة الله إن رأيتم بحرا أسودا يفيض ظلمات على سفينتكم، فإنها منجيتكم بأمر الله، اللهم هل بلغت اللهم فاشهد."

تركتهم بحثا عن جوادي، فقابلت ولي العهد محمر الوجه، وهو يقول لي:

"أهذه هي الكلمة التي تحمسهم بها!"

لم أرد، وتركته يخطب في الجند، يثير حميتهم، ويوقد صدورهم.

لا أعلم لماذا غشيني هذا السكون، كأنما كل غضبي وحنقي وحماسي وخوفي وفزعي و.. و.. و.. وكل مشاعري غرقت في بحر عميق. لا لم تغرق، وإنما تسبح في بركة هادئة تغسلها وتهذبها.

لم أفهم ما يحدث فيّ، لكني لم أهتم إلا بإلقاء نفسي وسط السيوف، لنيل الحق! كم بدت الغاليات رخيصة لي الآن، وكم ثمنت لدي رخائص! بدا أن تثميني للحياة وما فيها قد تغير تماما، بل قلب رأسا على عقب.

ربما كانت السكينة التي ينزلها الله على المؤمنين، أو إن نفسي، التي تصبو إليها، أوهمتني بذلك؟ وربما كان الاستسلام للمصير المحتوم، رفضا للاستسلام للحكم البغيض، بعد طول صراع أرهقني، ومزق عقلي؟

اليوم يحسم الصراع، الذي أهمني طويلا، فلم تهمني نتيجته! هل حقا لم أعد أخشى شيئا؟ بل أخشى فقط ألا أظل على نفس القدم الواثقة، التي كنت عليها، أخشى أن أهرب، أو أخذل نفسي، فأضيع كل ما فعلت، أخشى أن أكون كذبت على نفسي، فخدعتها بالشجاعة والمرؤة والسعي للجهاد، بينما الحقيقة جبن، سيظهر عندما تجلي السيوف الحقائق!

حتما هي النهاية، فهل أستسلم لها استسلاما شريفا بلا مراوغة لا تجدي؟ نهاجم بقلة كثرة كثيرة متحصنة، فهل أثبت في المعركة، أم تراودني نفسي؟

لم أكن أشعر بالخوف من القتال إطلاقا.

لكني ويا للعجب، كنت مرتعبا من الخوف ذاته! مرتجفا من أن يأتيني عند النهاية، فتكون الخاتمة على غير ما أشتهي، خائفا من أن أكتشف في نفسي غير ما كنت أظن، ويتضح لي زيف إخلاصي وعملي.

سمعت أن الموت إذا أتى الصالحين، كان ضيفا خفيفا، يستقبلوه بقلوب مطمئنة.

أترى قلبي مطمئن؟ أأكون من الصالحين حقا؟

ثم تلاشت تلك الأفكار من ذهني بغير اهتمام، يبدو أنه قبل الموت لا يهتم المرء بشيء، ولا حتى الموت ذاته أو ما بعده.

حينما ركبت فرسي، واندفعنا وسط المطر الغزير، أحسست أنني لا أعرف في هذا العالم إلا حقيقتين، أنني أريد من سيفي قوة الضربة، ومن قلبي ثبات في المكان!

(٦٢)

معركة ساوة الكبرى

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

لم نستغرق الكثير من الوقت في تنظيم الصفوف، كان أغلب من يجيد الركوب على دابته بالفعل، وأغلب الرماة قد اعتلوا قمة التبة منذ استولينا عليها. وضعنا قدر ما نستطيع من الغيلان، إما رديفا خلف الإبل، أو على الخيول التي تجر المؤن، والباقون خلعوا دروعهم للفرسان، وقسمنا الجيش ثلاثة أقسام.

الجزء الأول بقيادة ولي العهد، ومعه الأبطال والفرسان والهجن الأسرع، سيمضي حتى يصل للقلعة. والثاني هو المشاة والرماة، بقيادة وكيع، سيبقون فوق التلة، والثالث هم باقي الهجانة، مع من أركبناهم الدواب البطيئة كالبغال، سيشاركون الهجوم في بدايته مع بعض المشاة، لشق صفوف الفرسان الخارجية، وحماية ظهر المهاجمين، ثم ينسحبون، بقيادة وكيع، إلى التبة.

تجمعنا خلف الصفوف، وإذا بأحد الرجال يهتف أن هناك حركة وقلقا بين فرسان الأسود. فأشار ولي العهد بسيفه للهجوم، وصحنا معا صيحة مزلزلة:

"الله أكبر"

نزلنا مع المطر سيلا عرما، منحدرين ومطيحين بكل ما اعترض طريقنا، انطلقت السهام والحراب والرماح مفسحة لنا ثغرة وسط فرسان الأسود، الذين أثقلتهم الجراح والأمطار. إنهار سدهم الأول، من خمسة صفوف أو ستة، أمام سيوفنا وهجومنا المباغت، واشتبكنا فورا مع سدهم الثاني، نريد تفتيته. فشاغلتهم الكتيبة الثالثة من جيشنا من الركاب المثقلين، لنندفع أخيرا نحو المشاة.

بدا هجومنا مباغتا تماما لفرسان الأسود، لعلهم توقعوا أن ننتظر توقف المطر، أو أن نهاجم جوانبهم لا قلبهم، فكان هذا الهجوم الانتحاري، بدايته، لصالحنا.

سقط فرسان الأسود سريعا في الاشتباك. كنا في مكان الالتحام أكثرية تمتع بغطاء من رماة السهام والحراب، فاختلت صفوف السد الثاني، وتشتتوا متقهقرين يمينا ويسارا، منحازين لباقي فرسانهم، الذين يتكتلون محاولين الانقضاض على جانبنا، رغم دعوات ضباطهم اليائسين بالثبات.

أدرك ولي العهد خطورة الموقف، فهتف ثانية:

"الله أكبر. إلى القلعة."

تركنا مؤخرتنا تشغل الفرسان والمشاة عن فتحة الثغرة، واندفعنا نلقي بأنفسنا في بحر يموج من مشاة الأسود.

وكانت المفاجأة ساحقة!

ما أن تجاوزنا فرقتي الفرسان، وجدنا طريقا ممهدا سهلا! المشاة المصفوفة تهرب من وجوهنا، وهم ألوف مؤلفة! يصرخون فزعين، ملقين بأسلحتهم أرضا، في مشهد لم أسمع له مثيلا في حكايات الحروب! لو وقف في وجهنا عشرهم، لأهلكونا لكنهم ينطلقون، لا يبغون إلا الفرار من المكان كله!

وهنا حاول المشاة الهاربين في فزعة عظيمة، واضطراب، وفوضى، بلا مثيل أن يخترقوا حلقة الفرسان المحيطة بهم، ليهربوا مفسحين لنا الميدان حتى القلعة! وإذا بفرسان الأسود يتركوننا، لينهالوا على مشاتهم قتلا وتذبيحا، ليعيدوهم للصفوف دون جدوى!

لم يعترضنا إلا الصراخ والعويل، حتى إن وكيع انتهزها فرصة، فأخذ باقي الجيش والرماة، ونزل مخترقا الصفوف، يلحق بنا، بينما القتال تحول إلى صيد من فرسان الأسود لمشاته، تاركينا في حالنا!!!!

ليست هذه بمعركة، إذا ما نسينا قتال صفوف الفرسان الأولى، كأنما ألقى الله رعبا أعمى في قلوب مشاة العدو منا، فانقلب الحال خلطا في خليط!

أخيرا وصلنا للقلعة، فاعترضنا في البداية بعضا من كتائب الأسود الأقدم المخلصة له، لكنه، على ما يبدو، أمرها بالانسحاب، بعد اشتباك قصير. ولا ألومه، فترتيب صفوفه أصبح شغله الأعظم.

وصلنا ننهب الأرض نهبا لجنود السور العلي، وسلاحهم ومجانيقهم، فهاجمناهم بأقصى قوة، نريد تدميرهم قبل أن ينقلب علينا الأسود. لكنهم اصطفوا في صفوف منتظمة، كأنما هي بنيان حجر لا فرق بشر، وتراجعوا منتظمين، لا تنالهم أسلحتنا رغم إن عددهم أقل منا، واستطاعوا بحماية بعضهم بعضا الانسحاب بأمان بعيدا عنا، دون أن يفقدوا الكثير، بل حتى دون أن نحطم ربع مجانيقهم، التي كانت هدفنا الأصلي!

وأخيرا بدأت الغشاوة تنقشع، وأسرع الأسود ينظم فرسانه، بعد أن أجبرهم على التخلي عن المشاة، وذبحهم، أشهد له بالحنكة وقوة الشكيمة، فمن يرى الفوضى التي كان عليها جيشه، لا يصدق أنه استعاد نظامه بهذه السرعة.

كان معه قرابة الثمانين ألف فارسا بارعا، بينما كل جيشنا بالمشاة ربما لا يزيد عن ثلاثين أو أربعين ألفا، بمن فيهم من تحصنوا بالقلعة.

وهنا أخذت المبادرة، فهتفت للغيلان أن يتقدموا الصفوف. وقلت لولي العهد:

"ادخل برجالك إلى القلعة فورا."

قال لي بقلق:

"لو فعلنا وفتحت القلعة أبوابها لنا، فستكون فرصة ذهبية ليدهموها وراءنا."

قلت:

"لهذا يتربص محيطا بنا، ولم يبادرنا بالهجوم فالماكر يريد منحنا فرصة لدخول القلعة، لكني مع الغيلان سنبقى أمامها نصدهم عنها."

قال:

"هذا معناه إبادتكم حتى آخر رجل؟"

قلت:

"هذا معناه إننا نشتري بأرواحنا نجاة باقي الجيش، بدلا من هلاكنا جميعا."

بدا عليه التردد، لكنني كنت مصمما. لا أعلم ما رأي غيلان الغاربة في هذا الأمر، فهم ليسوا غيلانا حمرا حقا، لكنها بدت لي الفرصة الوحيدة.

لكن ظنوني، ومخاوف ولي العهد، لم تغن شيئا. إذ انطلقت الأبواق صاخبة! ونظرنا فوجدنا كل الأبواب تفتح. وارتفعت أعلام الملك مرفرفة من خلف الجدران المهدمة.

وظهر الملك تيمور خارجا من حمايتها.

خرج مع كل جنده فيما يظهر، فجريت نحوه فزعا أقول:

"ارجع! ارجع١ احتمِ!"

لكنه أشار لي بثبات، أن أبقى في موقعي. نظرت له، فلأول مرة لم أر تيمور الساواتي، الشاب العنيد المخلص، وإنما الملك تيمور القائد، الذي يتقدم جنوده في أحلك المواقف.

كان تاجه خوذة من حديد، مزخرفة بشعار الملك، لكنها بدت ذات هيبة في العيون، لم يكن زيه حريرا، وإنما هو من سائر أزياء الناس، ورغم ذلك بدا عليه شامخا. لا أزعم إنني رأيت ملوكا من قبل، لكن من يراه حتما سيعرف في عينه نظرة الملوك!

نظرة الأب، الذي يخشى على أبنائه الجنود، ويريد مشاركتهم المصير.

نظرة من يحمل عبئا، يعرف ثقله، لكنه يعرف أنه يجب أن يكون قادرا على حمله.

وصل على جواده لنا، وقال مبتسما:

"تهدمت القلعة كما ترون، ولو احتمينا خلفها، بعد نجاة عِدد السور العلي، فسنهزم في قلبها! لنواجه اليوم، ونحسم الأمر بالنصر بإذن الله."

انتظمت صفوفنا مع القوة الجديدة، وأخذ جنودنا يكبرون"الله أكبر." كالأسود المزمجرة.

لكن الأسود أثبت مرة أخرى أنه قائد أريب. لم يكتف بأن استعاد انتظام جيشه، أو ما بقى منه، بهذه السرعة الخارقة، وإنما بدل خطته، وصفوفه في دقائق معدودة، كأنما بفعل السحر. وبدلا من تقسيم جيشه جماعات، تطارد من يحاولون دخول القلعة، أصبحوا فجأة فرقا منتظمة من الفرسان، تحاصرنا من ثلاثة جوانب! ووسطها قلب قوي عسير الاختراق، وعلى جانبيه جناحين خفيفين قويين، يستطيعان حصارنا، والالتفاف على جوانبنا بسرعة البرق.

أخذ الملك ينادي الجنود محمسا:

"تجمعوا معا، ابقوا صفوفكم منتظمة كالبنيان المرصوص. اجمعوا بعضكم واحموا بعضكم بعضا كما رأيتم أبناء السور العليّ يفعلون."

كانت توجيهات طيبة، ولو إن رجال السور العليّ لهم خبرة مائة عام من الحروب مع الصيادية، أما جنودنا فخبرتهم في القتال ضد لصوص ومغيرين، فلا يستطيعون أن يتحولوا لقطع شطرنج يحركها القائد بإحكام، كما يفعل القائد الأسود في جنوده، أو يعملون معا في تناغم، كما يفعل أبناء السور العلي!

كان أخبرنا بالحروب هو ولي العهد، لما شارك فيه من معارك في طرابل، لذا سرعان ما أخذ زمام الأمر، ونظم الصفوف ملحا على الجنود:

"ابقوا دوما كتلة واحدة صامدة جوار بعضكم، تشدون أزر بعض. كتلة صلبة تحطم من يهاجمها."

وأمر الرماة باعتلاء ا لأماكن العالية في القلعة، لتعزيزنا، وليجددوا ذخيرتهم من السهام من مخزون القلعة.

ولكن قبل أن يدخلوا الأبواب، كان الأسود قد بادر بالهجوم.

انقض علينا كالكماشة. يتقدم الميمنة والميسرة على خيول خفيفة سريعة، تحيد عنا قليلا، تبغي ضرب جنبينا، بينما في القلب وضع الهجانة الثقيلة الواثقة.

الخيول السريعة ستبلي بلاءً حسنا في حصارنا، وربما تلتف حولنا للمدينة، لكن الهجانة الثابتة الأقدام فوق الأرض المبتلة بالمطر، ستكون قوة عاتية بطيئة، يصعب صدها أو اختراقها!

تكتلنا في فرقة واحدة كما أمرنا ولي العهد، متمسكين بموقعنا، نحاول حماية أبواب القلعة، وبدأنا في رمي فرسانه وهجانته ببعض النبال، واستعددنا للاشتباك العاتي.

لكن الأسود أظهر مكره!

كانت ميسرته أضخم من ميمنته بمقدار الضعف، وما أن وصلت لجانب جيشنا الأيمن، حتى انشطرت نصفين، نصف يشاغلنا ويمطرنا بالسهام، ونصف أكمل اندفاعه السريع مسابقا الريح للخلف. لم نستوعب في البداية غرضه، سوى وكيع الذي أدرك بسرعة بديهته خطة الأسود.

وهنا ظهر لنا عيب كون الجيش كتلة واحدة، بدلا من تقسيمه ميمنة وميسرة وقلب.

لقد هاجمنا الأسود بميسرتين، أحدهما تحارب والثانية تكمل طريقها كالبرق، تكبس على جنودنا أمام القلعة، تريد أن تعتليها فتستولي عليها، وتمطرنا نحن بالسهام منها! ولولا وكيع، لهزمنا هزيمة فورية، فقد انسلخ عنا بسرعة مع رجاله، في سباق مريع ضد رجال الأسود. ورغم إنه كان الأقرب للقلعة، لكنه لم يلحق بهم إلا وهم ينقضون على رماتنا، الذين كانوا مازالوا يدخلون عبر الأبواب، فأخذ يبارزهم بمن معه.

لو كان جيشنا مقسم لفرق، لسهل علينا أن نحرك إحداها للتصدي لهم، وأخرى لدعمه! لكن حركة وكيع المجنونة، كانت بلا

أمل، إلا كسب الوقت، وقد اشترى الوقت الثمين بروحه، وأرواح جنوده، إذ سهل على فرسان الأسود محاصرة مجموعته، وتمزيقها، ليسقط البطل أمام عيوننا شهيدا.

ظل حتى آخر نفس يقاتل، حتى مزقته السيوف، وتلونت ملابسه بخضاب الدم، ومازال واقفا يناجز، حتى أتته النجلاء.

ولكن الوقت الثمين، الذي اشتراه، مكن رماتنا من اعتلاء أماكنهم، وأمطروا الميسرة الأخرى بسهامهم، يطلبون الثأر للبطل الشريف.

انسحبت الميسرة الأخرى، بعد فشل هجومها مسرعة، لتلحق بباقي الميسرة في انقضاضها على جانبنا الأيمن، الذي كان قد اختل، بعد تسرب صفوفه مع وكيع.

وهنا اهتز جانبنا الأيمن بقوة وتخلخل. فكثير من جنده كانوا من أتباع وكيع، شاهدوا قائدهم يموت، كما أن الضغط عليه قد تضاعف. فاضطر الملك تيمور أن يسرع بنفسه لهذا الجانب مقاتلا، محاولا تنظيمه ثانية. ولما رأى الرجال ملكهم يحارب جوارهم، نفخت فيهم روح الجهاد من جديد.

لكن ظل الجانب الأيمن مختلا بشدة، حتى إن ولي العهد، وابن العبدلي من مكانهما في مؤخرة الجيش، أخذا يرسلان الجنود لتدعيمه.

كان جابر مع غيلانه الرائعين في الجانب الأيسر، صخرة صلبة لا تتحطم، وجند الأسود يقاتلون في كر عنيف، ثم يتراجعون سريعا مبتدعين عن السهام والرماح، قبل أن يعاودوا الكر.

ومضى القتال شرسا، وأشده شراسة عند الجانبين خاصة الأيمن.

بقيت القائد الوحيد في الوسط، أحاول الحفاظ على ثبات صفوفه، وتدعيم الجانبين، شاهدت الملك تيمور يقاتل بشراسة، وحراسه يفتدونه بحياتهم، ينقذونه من قلة خبرته، واندفاعه وجواره ابن العبدلي، قد استيقظت فيه روح الغيلان الحمر القديمة، يقاتل بيسراه رغم جرح رهيب، كاد أن يفصل يمناه عن جسده، كأنما هو أسد يطيح بذئاب غادرة.

وإذا بكتائب جديدة من فرسان الأسود تنقض على اليسار، حيث جابر والغيلان، لكن صفوفهم المنتظمة امتصت الهجوم، وصمدت عصية على الكسر، وكلما فقدوا جنديا، تقدم غيره من خلفه، يسد الثغرة بأسرع من البرق.

وأشار ولي العهد للرماة أن يزيدوا حميتهم على اليمين المختل، الذي يحوي الملك، حتى تركزت كل ضرباتهم عليه، ولولا أوامر ولي العهد، لذهبت لهناك بنفسي، أحاول تدعيم الصفوف أمام هذا الهجوم العتي.

وهنا ألقى الأسود بداهيته الجديدة!

أثبت لي إنه لم يأخذ شهرته من فراغ، وأنه قادر على قلب المائدة فوق الخصوم في لحظات!

تحركت فرقة السور العلي مجددا بمجانيقها نحو القلعة!

وأدرك ولي العهد الفزع، فاندفع بشطر من جنوده، يحاول التصدي لهم، وهنا. هنا فقط هجم قلب الجيش الأسود بكل قوته! تربص الماكر بأقوى جزء في جيشه، حتى أخذت جنودنا تنجذب رويدا نحو الجانبين، حيث أحمى القتال، وانشغل الرماة والمؤخرة بخطر المجانيق، التي لو تركناها فستسقط رماتنا بمواقعهم. وسهل عليه الآن أن يشق قلبنا بجنوده، كما يشق السيف قماشا باليا مهترئا!

الآن ذقنا الهزيمة، وعرفنا طعم العجز! تشتت جنودنا رغم محاولتي دفعهم للصمود، وانقسموا لشراذم يسهل محاصرتها وتصفيتها! نظرت حولي، فلم أجد إلا الفزع، والتفكير في التسليم، وعلمت أن الموت قد أتاني أخيرا، وذكرت نفسي أن النتيجة لا تهم، وإنما العمل! فأخذت لواء الملك، الذي سقط فرفعته عاليا فوق رمحي، وهتفت:

"الله أكبر، الله أكبر. هلموا يا رفاق، هلموا يا طلاب الشهادة، لا خوف بعد اليوم، إلى ثرى الجنة!"

أهي هزيمة؟ ومن يهتم

صرخت:

"إلى ثرى الجنة."

وتقدمت مندفعا نحو السيوف الظمأة، يتبعني من يتبعني وصوتي يجلجل:

"لا خوف بعد اليوم، هلموا إلى ثرى الجنة."

واهتز المكان بصوت من ورائي:

"إلى ثرى الجنة."

نعم فقد حانت لحظة احتضان ثراها! لا أدري من أو كم تبعني، ولم أر من هم، فجنود الأسود يقفون حائلا بيني وبين الجنة! اقتربت منهم بأشد مما اقتربوا مني، وكررت بصوت مهول، لم أظنه ليخرج مني أبدا، كأنما الله أرسل على الرياح أن تبلغ كل الوطن بآخر مكان في رحلتي:

"إلى ثرى الجنة!"

تجلجل صوتي في الصحراء، حتى أني لم أعرفه، وحينما غرقت في بحور السيوف، ظل صداه يعلو فوق صليلها، أحسست بوخزات خفيفة، لم أدر ما هي، لكن من هم أمامي لم يروا إلا الرعب والقتل.

أخذت أدفع صفوفهم للخلف قتلا وجرحا. حاربت كما لم أحارب في حياتي، حتى في أحلامي أو بالأحرى كوابيسي. رغم إنها كانت يدا واحدة، والأخرى ترفع فوق رمحي اللواء عاليا.

إلى ثرى الجنة مساري، وإليها بإذن الله معادي. إلى ثرى الجنة تنتهي رحلتي الطويلة. على ثرى الجنة.

وأخذ صناديد السود يترصدونني، يريدون إسقاط اللواء الشريف، فأبيت وأسقطتهم، وصدهم عني الرفاق ليعلموهم من هم الصناديد، ومن الأبطال الحقة، مزقت رؤوسهم بقوة الضربة التي تحرث الأرض، فتفجرت دماءهم تسقيها!

وعلا صدى الهتاف مجلجلا:

"الله أكبر.. هلموا يا طلاب الشهادة."

"الله أكبر.. لا خوف بعد اليوم."

"الله أكبر.. إلى ثرى الجنة."

"الله أكبر من الطغاة والمتجبرين، الله أكبر.. إلى ثرى الجنة."

لم يكن صدىً يخفت كما هي الطبيعة، وإنما يعلو ويزأر.

ودب الذعر في صفوف العدو، إذ تفجرت من أرض الصحراء أمواج سوداء تكرر الهتاف، أمواج تلو الأمواج، تلبي نداء الشهادة، أمواج تقصد اللواء المرفوع، تبغي نصرته.

وتردد بين الجنود إن الملائكة أتت تنصرنا، بينما ردد الأساودة إن الصحراء تخرج شياطينها، لتبتلعهم.

وإذا بصفوفنا تلتئم مرة أخرى، كأنما جرحها أتاه البلسم الشافي، وتقهقر جنود السور العلي إلى غير رجعة، معلنين الانسحاب لبلادهم، وأتت الموجات السوداء، تجتاح جيش الخصوم.

لم يكونوا ملائكة أو شياطين! بل كانوا مشاة الأسود، التي هربت من الميدان نجاة منا!

ليسوا جميعا، وإنما الكثير منهم. ألوف مؤلفة أتت تباعا، تحمل فؤوسا وسكاكينا، ولا تجد عندهم السيوف إلا قليلا، بل رأيت بينهم من لا يحمل إلا الحجارة، يقذفها على الفرسان! انقضوا على جيش الأسود انقضاض المنتقم، وبدا لي أنهم مساكين لا يجيدون من أمر القتال شيئا! لكنهم كانوا كثرة مخلصة، نصرتنا في وقت العسرة، ويتوافد المزيد منهم من كل اتجاه.

واصطبغ كل شيء بلون الدم. الأرض والهواء والأجساد. في كل لحظة مئات الرقاب تقطع، وفرسان الأسود يهيجون هنا وهناك، مثيرين القتل في كل ما تصل إليه أيديهم، وقد استعاد زعيمهم الجبار زمامهم، وأعاد لهم رباطة جأشهم.

وفي المقابل، زادت قوة رجالنا وعزيمتهم، فتقدموا بثبات يخترقون قلب جيش الأسود، ويمزقون جناحيه. أما رماتنا فقد انقطعت سهامهم، لا أدري لنفاد الذخيرة، أم لاضطراب المواقف.

فقد اختلط الحابل بالنابل مع قدوم المزيد من المشاة. وتشتت من كل فريق جنود في كل اتجاه، ولا أحد يعرف إلا إنه يضرب

فيمن حوله، لا يكاد يميز من هو، ومن يتبع! الدم عليك يغرقك، لا تعرف منك أم من عدوك، وربما كان حليفك! الأرض حمراء قانية، تفيض بدم فاق ماء المطر، والسماء ذبح ليلها شمسها، وأريقت دماءها تروي الأفق، فوق الفرق المتحاربة، وفقدنا الإحساس بالزمن والوجود، ولم نعرف أين الطعن والطعان، وبدأ الظلام يعم، بعد احتضار الشمس الجريحة، فإذا بالأسود يهتف برجاله أن انسحبوا.

وانتهت المعركة أخيرا.

سالت دماء كثيرة جدا اليوم في قتال ما بين الشروق للغروب.

لم يكن أمامنا نحن أيضا إلا التقهقر بحذر نحو القلعة، نراقب تقهقر الأسود بدوره جهة الشمال الشرقي.

وأتت ليلة فضت بين الذابحين وضحاياهم.

(٦٣)

ما بعد المعركة.. موت بطل

جلسنا بعض الوقت، عقب انقشاع ظلمة الحرب بظلمة الليل، نلتقط أنفاسنا، إلى أن هب أحد الجنود مكبرا:

"الله أكبر."

كبر الجنود وراءه، وهم يرفعون السيوف عاليا مهللين، لعلهم ظنوه نصرا.

وإذا به يهتف بالناس أن:

" هلموا إلى الصلاة."

نهضنا نحمد الله على نجاتنا، وأدينا ما فاتنا من صلوات الظهر والعصر والمغرب، وسجدنا لله شاكرين.

كانت روح الجنود المعنوية مرتفعة، فقد أجبروا الأسود على التقهقر، وهو أمر لم يحدث له من قبل. غير إنني ومن معي من القادة، كنا نعي أنه انسحب فقط، لأن الفوضى اشتدت،

وفاقت قدرته على السيطرة مع دخول الليل، فتراجع مؤقتا وسيهاجمنا بضراوة مع أول ضوء للشمس.

فكانت علينا ليلة ليلاء. نترقب في الفجر هجوما مروعا، وليس أمامنا إلا وقت ضئيل، لإصلاح بعض شأن القلعة، وقد خسرنا نصف جنودنا، ومن تبقى جريح أو منهك القوى، وخيولنا وجمالنا وحتى بغالنا قد أرهقت، واستنزفت، دون أن يهتم أحد بسقياها أو إطعامها، لأن الكل مشغول بمداواة جرحه هو أو زميله، غير من يبحثون عن أقربائهم بين أكوام الجثث.

وبينما أحاول البحث عمن يرعى الخيول الليلة، لشدة حاجتنا لها غدا، أتاني من يطلبني، لأن جابر يحتضر، ويريد رؤيتي.

يا الله! هذا الشاب الجميل الثائر؟ هذا الذي فتنته بأساطير وأكاذيب، فقلبها حقائق قلبت الحرب لصالحنا؟ أهذا البطل الجميل يموت؟

يا الله.

لم أبك في حياتي قدر ما بكيت وأنا أهرول نحوه. لم يعتصرني الألم القارس، الذي يذبحني إلا اليوم، ويوم مات غول الحق. أنا من فعل بك هذا يا مسكين، أنا من فتنك، وحرضك وأخرجك من أسوار مدينتك الآمنة. كان مرأى جسده الممزق وقد فقد ذراعيه، والدم كالطوفان، لا يسد جرح، إلا تدفق ليغرقني بالألم، يهزمني. آه يا غلامي المسكين. لم تر في الحياة إلا

الهم، ولما حاولت التصدي للهموم، مغترا بكلمات شياطيني، غادرتك الحياة كلها.

آه يا جابر، أيها البطل العظيم، الذي لم أر مثالا لإصراره وقوة عزيمته إلا في الأساطير.

لم تكن بشرا كالبشر، بل كنت بطلا من عالم آخر، مثالي، يقوم الناس فيه بعمل الحق، ونصرة المظلوم. عالم ليس عالمنا، لذا فقد غادرتنا. اليوم تموت قبل أن يجتاحنا الأسود، وفي فمك لمحة من نصر، آه يا جابر.

أخذت ألقنه الشهادة من بين دموعي المتدفقة، وحولي شباب الغاربة اليافع، الذين اسموا أنفسهم بالغيلان، يتحدثون مبهورين عنه، وكيف قتل هذا البطل أو ذاك، وكيف حارب كأنما هو الأسد وسط النعام، ولم توقفه ضربة أو طعنة، وبترت ذراعه، فلم يبال، وقاتل مصرا، متذكرا سيرة مصعب ابن عمي،ر وأتته الضربة الثانية تبتر اليد اليسرى، فبقى صامدا متذكرا الصحابي الجليل، الذي بقى في الميدان حاملا اللواء بعضديه. ولولا أن سحبه باقي الغيلان قسرا من المعركة، لبقى هناك حتى تدهسه الخيول.

لم أبال بتلك الأوصاف، لست مستمعا لسيرة أصفق لها الآن، بل أشعر أنني أب ينظر لولده الصريع، كأنما ولدته وربيته

وفقدته كل هذا في يوم واحد. انحنيت أزيح الدم عن وجهه المضيء، فأتت منه إفاقة، وقال:

"الحمد لله إنك أتيت يا سيدي القبيل، فقد كنت أرجو أن تزفني أنت إلى الجنة."

غسلت دموعي وجهه وأنا أقول:

"نادني بعبد الشهيد، اسمي عبد الشهيد يا جابر."

قال مبتسما:

"أتؤثر الأسماء في مصائرنا حقا؟ .... أتبكي يا سيدي؟ كنت أظنك ستكون سعيدا فخورا بي."

قلت له:

"أنا بشر، لا غول يا بني. فراقك ليس سهلا."

قال:

"لسنا غيلانا يا عبد الشهيد، بل طلاب شهادة. لقد سمعت نداءك، فلبيته فلم الحزن؟ سمعتك تقول هلموا يا طلاب الشهادة إلى ثرى الجنة، فأحسست أنك تقصدني لا غيري، وأشهد حينها إنني شممت حقا عبير الجنة، فأقبلت نحوها لا أبالي. أحسست برفقة نورانية، لا تعرفها أرضنا هذه، فغشيتني السكينة حتى بدت طعناتهم لي راحة لا عذابا.

لا تبك يا سيدي أرجوك، بل ابتهج وأنت تزفني للجنة."

لم أستطع أن أقاوم، فأخذت أزيح المزيد من الدم عن وجهه بدموعي، توقف يلتقط أنفاسه بصعوبة، ثم قال:

"ربما لو كنت في مقتل آخر، أو لو كنت جريحا في غير سكرات الموت، لبكيت معك. أتعلم إنني كنت أبكي إذا أصابني أقل جرح، حتى كان أبي يتهمني أنني أضعف من شقيقاتي الفتيات؟ لكني الآن في خير حال. حال أدهش له أنا نفسي، فلم أصدق من قبل زعمهم أن الشهداء يموتون مبتسمين، أريد أن أموت مبتسما مثلهم، فأرجوك يا سيدي لا تبكي."

ليس البكاء بالأمر الهين وقفه، حينما يمزقك الحزن والتخبط.

لكن كلماته بدت لي أمرا، عليّ طاعته، فهو السيد حقا بين الغيلان الحمر.

أتته رجفة، وقال:

"قولوا لأمي إن ابنها شهيد مع أبيه وخاله."

وظل يكرر الشهادة، وأنا أمسح شعره بيدي، وغارق إلى جواره في حزني، حتى أتت اللحظة، وحولوه لتجاه القبلة.

ووجدت لساني ينطق عن غير وعي:

"إنا لله وإنا إليه راجعون."

فأفاقت عقلي من ضبابه، ولكن لم تنقذ قلبي من حزنه.

وجلست في صلاة صامتة لهذا الشهيد، الذي أهدته الأرض أسمى هدية لأسمى جنان.

هذا هو حتما ممن خصهم الرسول بحديثه، إن عملهم كعمل خمسين من الصحابة، لأنهم لا يجدون من يعينهم على الخير. فقد عانى جابر وحده، وسط السلبية والخوف، وأصر على الصمود والعمل، ففعل ما لم يقدر أحد، أو يجرؤ أحد على فعله.
استغاث بقشة الغيلان الواهية، التي ألقيت بها له، فصنع منها سيفا مسلولا يجاهد في سبيل الله، ويرفع به الظلم.

حينما حملوه من فراشه، لم أحتمل، وسقطت منهارا، لا أقوى على رفع جسدي.

وحينها أقبل بعضهم فزعا:

"القبيل زعيمنا قد سقط."

أخذوا يقلبونني، وينزعون عني الدروع الحمراء، ومن وسط غشيتهم سمعتهم يقولون:

"يا الله! كيف بقي حيا يمشي! ألم يتركوا شبرا في جسده دون طعنة؟ سبحان الله! كيف ظل يمشي، ويتحدث كل هذا الوقت."

لم أدرك أنهم يتحدثون عني، إلا بعد أن نادوا بحثا عن طبيب لأجل القبيل زعيم الغيلان الحمر، وأنى لهم العثور على طبيب هنا؟

الآن فقط فهمت ما تلك الوخزات الخفيفة، التي أصابتني في المعركة.. الآن فقط اطمأننت على جابر، وأدركت أنه لم يتألم.. والآن فقط استسلمت لظلام، أعلم أن وراءه بإذن الله نور.

(٦٤)

ما بعد المعركة.. مشاة الأسود

لم أدر متى أفقت، ولا كيف أفقت. كانت هذه ثاني مرة أرافق فيها موتا رفيقا، ثم أرجع عن الموت صفر اليدين. لكني هذه المرة كنت مدركا لما حولي، إذ أن سطوع الشمس في عيني، جعلني أدرك أن النهار طلع، وأن حتما معركة الأسود، قد بدأت فقفزت من فراشي مفزوعا، أبحث عن الدرع والسلاح.

وإذ أصدرت ضجة، دخل عليّ الحجرة رجلان يرتديان السواد، ففزعت، وأيقنت أنني أسير عند جنود الأسود.

قال أحدهما:

"سيدي القبيل ماذا تفعل؟"

وقال الآخر:

"ارتح هنا يا سيدي، فمولاي الملك أمرنا أن نجعلك ترتاح، وإن أفقت فسيأتي هو لك."

قلت مترقبا:

"من أنتما؟"

قال الأول:

"أنا طعيمة وهذا أخي مكرم. أمرنا مولانا الملك تيمور برعايتك، حتى تشفى من جروحك العديدة."

إذ سمعت اسم تيمور تنهدت في ارتياح، وقلت:

"أبدأت المعركة؟"

قال طعيمة بتردد:

"أنت جرحت فيها يا مولاي."

قلت:

"أعني هجوم الأسود. ألم يهاجمنا مع الفجر؟"

قال مكرم:

"لا يا مولاي، بعد أن هزم منذ يومين..... فأنت جروحك كانت شديدة، ولولا قوة بنيانك لهلكت، لكنك غبت عنا يومين كاملين. بعد هزيمته، لم يعد للحرب، بل تقهقر للوادي المخيف ذاك."

نظرت له بدهشة، أحاول فهم مقولته، ثم سألته:

"ولم ترتدي السواد، وهو زي القائد الأسود؟"

قال مكرم:

"كنت في جيشه يا سيدي. كنت واحدا ممن سمعوا نداء الملك، ورأى رايته تخرق صفوف الملعون، فهببنا لنصرته."

أدركني الفضول، فقلت:

"أنت من مشاة الأسود؟ لم هربتم ثم انقلبتم عليه؟"

فحكيا لي حكايتهم. واتضح لي أن الأسود كان يريد اجتياح الغرب وتدميره عن آخره، فلا يبقي في رؤوسه رأسا واحد سليما، حتى بين من يهادنوه.

لكنه بعد أن ترك الجيوش في الجنوب، لتسيطر عليه، وحامية في الشمال تسد عيون الأهبال الجشعة، غير من تركهم قرب الزرقاء من بني الأسود، ليأمن شر الفرنجة لم يبق له إلا ثمانين ألفا من الفرسان، أغلبهم من بني الأسود، وليسوا من جنوده الذين أنشأهم بيده.

أدرك أن هذا العدد قد يكفي لهزيمة الملك، والمتمردين معه لكن لن ينفع، حينما يكشر عن أنيابه ويدمر قلاع المماليك. فطلب معونة الفرنجة والأهبال والسور العلي، متصورا أنهم سيمدونه بثمانين ألف أخرى.

لكنه فزع من حماسهم الشديد! خمسين ألفا من الفرنجة، وستين من الأهبال، وعشرين من السور العلي؟ فوق المائة والثلاثين ألف جندي لن يرحلوا في سلام!

خشي منهم الغدر، وقرر إنهم قد يسحقونه بعد الملك، لو خرج بثمانين ألفا فقط.

فكيف يضاعف عدد جنوده؟

جمع كل سكان العاصمة، وما حولها من قرى ومدن! رجال وأطفال وشيوخ، وحتى بعض الفتيات اللاتي جز جنوده شعورهن! وألبسهم السواد، فاجتمع له جمع عظيم كيوم الحشر! فقادهم بقسوة، وهو يهددهم بفرسانه، الذين ساروا حولهم في حلقة محكمة. ترك الفرنجة والأهبال يسيرون للشمال، مواجهين المقاومة العنيفة، وخدع الجميع فعبر بجيشه، أو من أسماهم جيشه وادي الضياع مباشرة نحو ساوة، من أقصر الطرق وأفزعها.

قال لي مكرم:

"لا أفهم كيف كان يعرف طريقه في هذا المكان المفزع، هناك فرقة تأخرت عنا مسيرة نصف ساعة فقط، فإذا بها تضل الطريق، لولا أن عاد لهم الأسود بنفسه، فأنقذهم من الهلاك. حتما كنا وكل هذا الحشد المهول سنباد عن آخرنا، لو بقينا في هذا الوادي وحدنا دون الأسود، الذي كان يشق طريقه فيه بثقة، ويجنبنا السير في أماكنه الخطرة المهلكة."

حتى رجال الأسود المقربين لم يفهموا كيف نجح في عبور هذا الوادي الرهيب، لكن المشاة المسكينة لم تأت للحرب، فبقوا

كأسرى أو مساجين في أماكنهم، بينما أعدادهم المخيفة تلقي الرعب في قلوب الجميع، حتى الأهبال والفرنجة.

لقد حارب الأسود بالخوف أكثر من السيف!

وحينما أزاح جيش الملك فرسان الأسود، واتجه نحو المشاة المساكين، هربوا في كل اتجاه، وتشتتوا. ولكن أوامر الفرسان السابقة، بقتل كل من يحاول الهرب منهم أصابت جيش الأسود بالجنون! وأخيرا هربوا من الساحة للصحراء، ليقفوا متحيرين.

لا يستطيعون العودة عبر الطريق الجنوبي للعاصمة، فالمعركة تقطع طريقهم ولا البقاء في الصحراء، ليهلكهم الجوع والعطش. فارتحل بعضهم للشمال يتخبط طريقه بحثا عن أي بلدة، وتربص الباقون ينتظرون انتهاء المعركة، للتسلل عبر الطريق الجنوبي.

وحين سمعوا الهتاف المجلجل، أدركتهم الحماسة، وظنوا أن الأسود ينهزم، وأن الفرصة حانت للانتقام منه، ومن جنوده، فأسرع بعضهم يلبون نداء الملك بالجهاد.

وحينما انتهت المعركة مع قدوم الليل، نزلت جماعات ضخمة منهم تبايع الملك، وتطلب منه الغوث والمؤونة.

أنهيا الحكاية العجيبة، ثم ساعداني على ارتداء ملابسي، ونهضت فاغتسلت، وتوضأت، وصليت ما فاتني في يومي الغيبوبة. وجلست التقط أنفاسي، ثم نهضت خارجا، أبحث عن الملك، وباقي قادته.

كنت داخلا إحدى حجرات قصر الشركسي، في قلب مدينة ساوة، فتجولت حتى عثرت على الملك، مجتمعا بمن بقى من القادة، وهم ليسوا بكثير. الملك، وولي العهد أصابتهما خدوش وطعنات خفيفة، بينما تحول جسدي للحم مفري كما يزعمون! وفقد ابن العبدلي إحدى ذراعيه.

ضم الملك لنا شيخ واحات ساوة، وأمير مملوكي ضخم اسمه بريك، يقولون أنه أبلى بلاءً حسنا، دفاعا عن الملك واستعاد صفوف جانبنا اليمن، بعدما تراخت.

سألت الملك:

"مولاي تيمور، ألم يهاجمنا الأسود؟"

قال الملك "مرحبا بك أولا يا سيد الغيلان! نجوت من الموت مرة أخرى؟ حقا ما يقال عنك، إنه ليس من السهل قتل غول أحمر!"

تذكرت موت غول الحق، وجابر بينما أرى نظرة رهبة وإعجاب في عين بريك، فرددت بصرامة:

"خير الغيلان هم من ماتوا دفاعا عن الحق، ولم يشأ الله أن يكرمني تلك المكرمة بعد."

قال بريك:

"لقد أرسلت بعض جنود الاستطلاع، بعد أن تعجبت من تأخر الأسود عن مهاجمتنا، ونحن فريسة سهلة له، تاركا لنا فرصة مداواة الجرحى، وإصلاح القلعة. لكني فوجئت إنه أخلى معسكره الجديد، وانسحب لوادي الضياع، متحصنا فيه متربصا. لا هو عاد للعاصمة، ولا خرج لضربنا كأنه ينتظرنا أن نتبعه لهناك ؟"

يبدو أنني سأعجب ببريك أنا الآخر، فهو حاسم عملي، أسرع يتجاهل الحديث عن الغيلان، ورد على سؤالي مباشرة، ورده يظهر إنه يسرع بإنجاز الواجب والمهام فورا. لو كان قلبه كما أرجو رقيقا، على عكس غلظة جسده، فسيكون بإذن الله خير معاون للملك. لكن لو كانت الأخرى، فوقانا الله شر بطانة السوء، التي إن رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة. ألا فهم العدو فاحذرهم.

لم نكن بالطبع نفكر في تتبع الأسود في وادي الضياع، لهذا أخذنا ننظم الرجال، ونحاول أن نقوي أنفسنا بمن يقدر من مشاة الأسود، وننتظر خطوته المقبلة.

وظللنا هكذا، حتى أتتنا الطبول بعد صبر ثلاثة أيام.

طبول عظيمة مدوية، طبول نعرفها جميعا في الغرب فهي طبول بني الطارق.

وثار الفزع فينا. أترى الأسود استطاع التحالف مع جيراننا في البلاد غربنا، كما تحالف مع أعدائنا في الشرق؟

كان بنو الطارق قبائل شهيرة، تملأ كل ما غربنا بعشائرها، ولهم بنا علاقة طيبة، وتجارة هادئة، وعرفنا عنهم قوة الحرب والقتال، وكثرة الجنود كعدد الرمال، لكنهم لا يحبون الغزو والسلب، وإلا اجتاحوا العالم كما فعل الأهبال.

هم محبون لبلادهم، يعيشون حياة بسيطة، لا تفرق فيها بين أمير ووضيع. لكن لعل الأسود غيّر فيهم شيئا، جعلهم يجتازون حدودا لم يعبروها لغير التجارة؟

أسرعنا نطلق الأبواق، ونعد الجنود، ونغلق أبواب القلعة تأهبا لهجوم غربي لم نتصوره.

لكن الحال غير الحال.

أتى لنا منهم رسولا ليس كأي مرسال!

كان الشيخ وهدان!

كدت أنسى هذا الحكيم العجوز، الذي غادرنا عقب معركة الثغر الكبير، ليجمع لنا كما زعم جنودا! وأي جنود جمع!

أتانا مهللا، يحكي لنا ما حدث".

(٦٥)

مبارزة بالحكايات

٦٥- ١ (لقاء عند العين الخفية)

يقول الشيخ وهدان:

"حينما علمت أن الأسود قد تجاوز ما يظنه العقل ممكنا، وجمع جيشا يفوق الأساطير، عابرا به ما ليس بالمعبر، أدركت بحلول الهزيمة، ما لم نجد جندا كثيفا بعدد الرمال.

ولكن من أين؟ إن ما حشدناه كان يفوق أحلامنا، ظن عبد الشهيد ابن سمعان أنه إن أتى بالوريث، فسيصطف خلفه الأمراء، ظنا ساذجا. فقد انفضوا، مغلبين العاجل على الآخر! ما حشدناه كان أقصى ما تستطيع الأرض أن تجلبه لنا من فلاحيها.

وهنا تذكرت فلاحين آخرين! آلاف المهاجرين، الذين رحلوا فرارا من الأسود، وقبله الأمراء والفرنجة وغيرهم. كثيرا ما استقبل الغرب اللاجئين، قبل أن يكملوا الفرار إلى ما غربنا من

بلاد بني الطارق. فالجنوب شديد الحر، والشرق أشد التهابا، ولم يبق للفرار إلا تلك البلاد الصحراوية.

لو استطعت إقناع أولئك القوم بالعودة لبلادنا، مقاتلين تحت لواء الملك؟ لربما جمعت ثلاثين ألفا دفعة واحدة، فهم ليسوا بالقلة حتما مع أصهارهم وحلفائهم من بني الطارق.

لم يترك لي الأسود خيارا، كنت أكره أن استبدل غزو الفرنجة بغزو بني الطارق، رغم طيب معشر هؤلاء القوم، لكن حينما تكون السيادة والقوة في أيديهم، فكيف سيرضون بالرحيل؟ لكن الآن الخيار بين اثنين أحلاهما مر، ولربما إن ثبتنا في حرب الأسود، كانت لنا شوكة يجاملها بني الطارق، وهم عامة لا يحبون الغزو والقتال.

وهكذا عدت لأيامي الخوالي، تلك التي كنت أجول فيها وحيدا في الصحاري، أخترق الجبال والأودية، متحسسا الدروب، ومزيغا عن المتربصين، وهازما الأعداء الكثر بالمكر وحده! آه! كم كانت جميلة أيام الشباب! وكم أخذت فيها من أمجاد! لكنها ولت، دون أن تترك لي سوى ندوب الجسد، والحكمة.

مضيت في تلك الدروب، التي أحفظها وتحفظني، حتى أتيت لأول واحة من البلاد الغربية. كانت واحة صغيرة مهجورة، لا يعرفها سواي لكن اليوم غير أيام الشباب.

اتجهت مباشرة للعين المختفية بين الصخور شمال الواحة. ليست بعين أو بئر؛ بل هي نضخ ماء، وسط الرمال، لكنها أعذب ماءً من تلك الكبيرة في وسطها. وإذ انحنيت عليها، أحاول عب الماء، وملء قربتي، سمعت وقع أقدام خلفي، فالتفت مسرعا، شاهرا سيفي، لأجده مشيرا لثمانية من الرجال، يبدو أنهم كانوا في صيد، وقد تتبعوا آثار دابتي حتى هنا، فخفضت سيفي وقلت:

"السلام عليكم يا إخوة العرب، إنما أنا مسافر عجوز، يقصد مدينتكم العابرة، وقد كنت أسقي من ماء العين الدافئة."

قال أحدهم بصوت أجش:

"أيوجد عين أخرى هنا؟ يبدو أنه يعرف الواحة خير منا!"

ابتسمت وقلت:

"كانت لي أسفاري في مثل عمركم يا أبنائي! هلا أعنتم رجلا عجوزا يا شباب؟"

لكن أحدهم، الذي بدا لي رجلا مهابا، وسيدا مطاعا من البقية، قال:

"وما أدرانا أي خطر تحمله معك يا رجل؟"

قلت:

"وأي خطر يأتي من رجل عجوز مثلي؟"

رد بصرامة:

"عجوز شهر سيفه بسرعة البرق! لا أستهين بك، كما استهان بنو عزام بالعراف.

٦٥- ٢ (حكاية العراف وبني عزام)

أما سمعت أيها العجوز بخبر العراف الهرم، الذي امتلأ قلبه حقدا على عزام التاجر لغناه وماله وكثرة أولاده وجمال زوجته؟ ولما مات عزام، أراد العراف نهب المال.

ذهب مستندا إلى عصاه القديمة، وقال لأولاده "يا أولادي إن بيتي متهدم، وأرغب في أن أؤجر من منزلكم حجرة، أعيش فيها. ستربحون مني، ليس فقط الأجرة، فأناس كثر يأتونني طلبا لعلمي، فسيروجون بضائعكم، ويجلبون القدم الجارية لمتجركم."

بدا الاقتراح مقبولا من الفتيان، لكن زوجة أبيهم لمحت في عين العراف نظرة، عرفتها وفهمتها، فهي لا تغفل عن فهمها النساء، فصرخت في الفتيان:

"هذا عجوز حقود ماكر، يكره أبيكم، فاحذروه، وابتعدوا عن شره."

وافقها الفتيان على ما وصفت، لكنهم استهزءوا بتحذيرها، وقالوا:

"نحن فتيان وفتوة، وهو عجوز يمضي نحو الهلاك يا حمقاء! أي خطر يقدر عليه!"

وأقام العجوز في المنزل، يتردد عليه الناس، يطلبون منه أمور الكهانة، حتى أتاه شاب، يطلب أن يعرف إن كانت فتاته تحبه حقا، أم تظهر غير ما تبطن، لوجود شخص آخر؟ فإنها كثيرة الدلال عليه، حتى لتذهب بعقله!

قال له الأعراف:

"لا أقرأ المكتوب في الصدور، دون النظر في العيون! ائت بفتاتك إلى هنا."

ثم ذهب العراف لأحد الأبناء الثلاثة، وكان قد تخصص في تجارة العطور، ويعرف عنه نهمه للمال فقال له:

"قد رأيت لك بين ثنايا الرمال وهمس الودع ثروة عظيمة، فاغتنمها، على أن تذكرني بخير عند زوجة أبيك، فهي تثقل لي في القول."

قال الفتى:

"وأي ثروة تلك؟"

قال العراف:

"لا تفصح الغيوب مصرحة دوما، لكن ما رأيته أنه سينزل عليك من أعلى وقت الظهيرة لؤلؤة بلا مثيل، إن أتيتها، فعليك أن تردها بعطر بلا مثيل، فأراك ملكا متوجا بذهب بلا مثيل!"

لم يفهم الشاب شيئا، لكن في اليوم التالي، أتى العراف الشاب العاشق مع محبوبته درة، كان اسمها كما عرف العراف درة.

قال لها العراف:

"لا تكذبي، فأنا أعرف من قبل أن تعرفي، ولكن الصدق مطهرة لنفسك، فينفعني لنفعك! أتحبين عاشقك هذا ؟"

قالت له بتبرم:

"نعم، لكنه كثير الغيرة كالمهووس حتى يخنقني، لا أدري أيحبني، أم هو مهووس بي هوس قد يشفى منه! لو إنك تستطيع مساعدتي ؟"

قال العراف:

"بالطبع فما أسهل هذا. لا تكشف الغيوب، ولا يسمعني الودع الفرق بين الهوس والحب! لكن الأمر يحتاج لحجاب جيد الصنع، فقط قلة من العرافين يجيدونه! خذي هذا الحجاب، قد يبدو لك أنه لا يحمل إلا التراب. ولكن كلما أخذت ذرات من التراب هذا، وحبيبك يمشي معك، فإذا لقيت رجلا فابتسمي، وألقي بالتراب عليه! فإذا نفد التراب من الكيس، والفتى على حاله من الحب دون الغيرة، فهو يعشقك عشقا حقيقيا، فتمسكي به، وإن نفد التراب، فظل على غيرته، فإنما هو يظنك بضاعة ثمينة يشتهيها طمعا، ويضن بها على غيره شحا، فدعيه فدعيه فدعيه وانجي بنفسك!"

أخذت الفتاة الحجاب، ووقفت منتظرة، فجاءه حبيبها فقال له العراف:

"تحبك حبا بلا نهاية، لكنها واقعة تحت سحر عميق لجني أريب! وقد رشاه ساحر جبار، لم يستطع إخواني من الجن المؤمنين معرفته، لعظم حيلته، حتى إنه ليتنكر في شكل رجل بسيط! وهو شرير خطير، يطمع في التفريق بينك وبين محبوبتك، لأنه يطمع في جمالها أن يكون هدية، وضحية، لملك الشياطين السفلية، يمنحه مقابلها الفدية الكبرى، التي لا يعرف بعظم خطرها إلا السحرة!"

صاح الشاب في فزع:

"وكيف أنقذها؟"

قال العراف:

"عليك بالفرار بها بعيدا عن هذا الشر! منحتها حجابا واقيا سيقوى كلما ناديتها باسمها بعشق، وحميتها بإخلاص، وأمسكت نفسك عن إيذائها بإصرار. لكن السحر سيتجدد، وسيغلب حجابي إن سقاها الساحر الماكر سحره مرة أخرى، فكن على حذر، فأخوه من الجن السفلي ذو سلطان جبار!"

شحب وجه الفتى، وخرج مرتعبا، يمسك بيد محبوبته، ويتلطف لها. فلما نزلت لصحن الدار، مقابلة الخدم نثرت عليهم بعض التراب مبتسمة، فانصرفوا متأففين! فتعجب الشاب، لكنه صبر

لما رآه من حجاب العراف الواقي! •وكلم حبيبته بلطف متذكرا كلمة العراف:

"يا درة يا درتي هيا بنا إلى بيتك."

ونزلت الفتاة مع الفتى من دار ابن عزام إلى الأسفل، حيث يقع متجر الأبناء الثلاثة، بائع العطور، وبائع الحلى، وبائع الأقمشة.

سمع بائع العطور كلمة درة فانتبه، الدرة هي اللؤلؤة، وهي تنزل عليه من أعلى وقت الظهيرة؟ لعلها أميرة، إن أهداها عطرا جيدا تهديه ثروة!

أسرع البائع يخطف قنينة من أثمن العطور، وتقدم نحو الفتاة مبتسما، فألقت عليه قبضة التراب، لكنه لم يرحل، ولم ينتبه لما تلقيه عليه.

نظر العاشق للرجل المتقدم بجنون، وإلى الزجاجة في شك، فلما قال البائع بألطف صوت يملكه:

"يا مولاتي، لو تقبلين هدية متواضعة مني؟"

اشتعل الغضب في قلب العاشق! حتما هذا هو الساحر الماكر يدس سحره في العطر، فانتزع القنينة بقسوة من الفتاة، التي بهتت، ونظرت إلى حجاب الساحر قد فرغ، وعاشقها غاضب، وتذكرت كلماته أن تنجو منه، فانفلتت منه صارخة:

"أنت مجنون مهووس، دعني ولا تأتيني أبدا!"

جن جنون العاشق، وظن أن السحر - لا المكر - نزل على محبوبته. فاستل خنجره، وطعن الفتى، وانطلق يجر الفتاة هاربا!

لم يمت بائع العطور، لكنه تدمر تماما، فقد تناقلت كل العجائز الأريبات قصة الفتى، الذي يغوي النساء بعطر مسحور، حتى فرق بين عاشقين كانا مضرب الأمثال، فاضطر الجريح للرحيل بعد بوار تجارته.

وهنا أتت زوجة الأب، تلح على الشقيقين الباقيين أن يطردا العراف، فهو حتما وراء ما حدث.

قال لها تاجر الأقمشة:

"أبعد خسارتنا لتجارة العطور، نخسر أجرة العراف وزبائنه؟ هذا فتى أخرق، بهته جمال امرأة غيره، فدفع الثمن!"

لكن العراف أدرك خطر تلك المرأة الجميلة عليه، بإلحاحها على أبناء زوجها. كان يشتهيها، ويعلم أنه لن ينالها، فوضعها هدفا له.

ذهب للشقيق الأصغر، تاجر الحلى وكان يعرف فيه نقيصة الفضول المميت، فقال له:

"قل لي يا فتى، وأنت تاجر شهير، تتردد عليك نساء من كل صنف ولون، فلم لم تتزوج؟ الزواج لشاب مثلك حصن، ولتجارتك رواج."

قال الفتى:

"وكيف يكون الرواج في الزواج؟"

قال العراف:

"أما تدري أن الرجال يحبسون عنك نساءهم، خشية عليهم منك؟"

قال الفتى:

"لكن شقيقي الأكبر لم يتزوج هو الآخر، وأغلب زبائنه مثلي من النساء."

رد العراف:

"ربما حتى الآن. لكن النجوم تؤكد لي أن في قلب أخيك فتاة ما تشغله."

وصمت ولم يكمل، وتركه لصومعة كهانته، فظن الفتى أنه عرف سرا جديدا عن أخيه.

اشتعل الفضول في ذهن الفتى، وأراد أن يعرف من هي التي تشغل ذهن أخيه، فأخذ يراقب من تتردد عليه من النساء، دون أن يجد ميلا لأيهن.

وألح في السؤال على العراف، حتى أضجره، فكان يرد بغموض:

"لم تجبني النجوم عن سؤالك، فهي تتكتمه ولا أدري السبب، هذه يا بني ضريبة العراف الصادق، فإما أن يعترف بجهله فيضيع رواجه، أو يتخلى عن الصدق وهو ما لا أرضاه لنفسي!"

ولما اشتد فضول تاجر الحلي، ذهب لأخيه مباشرة يسأله، فأنكر ولما ألح الفضولي بقوله إن الهم باد على وجه أخيه، فرد بغضب:

"أوليست المصيبة التي نزلت على رأس شقيقك الأوسط كافية؟"

لم يقنع الفضولي برد شقيقه، فعاد للعراف يسأله، فقال:

"قد استغلق عليّ أبواب الكهانة، لكن علم العقول وفهم النفوس لا يغلق أبدا، انظر حولك. من من النساء يربد لرؤيتهن وجه أخيك، أيهن يسمع لكلامها أكثر من غيرها؟ من منهن يهتم لأمرها وقربها منه؟ لو كان يحتفظ بشيء من أثرها لكان هذا دليلا حاسما، وتوقع أغرب النتائج، ما دامت النجوم قد استكتمت أمرها عني!"

فعاد الفضولي لتتبع أخيه بنصائح العراف، فأظهرت له نفثات الكاهن شكوكا مفزعة! ذهب بعقله الأحمق إلى حيث أراد عدوه! فزوجة أبيه مازالت شابة، وهي جميلة، وأخوه يوقرها كثيرا، بزعم إنها كأمه، ويقضي معها وقتا طويلا بزعم إنه ينهي لها حساباتها، وأرباحهما من ميراث أبيهم في التجارات الثلاث! رغم إنها لا تجلس معه، ولم تجلس أبدا مع تاجر العطور! كما إنها تأخذ حاجتها من الثياب منه دوما، وهو الذي يذهب بها للحائك.

كانت الفكرة البشعة، التي أوحى له بها العراف الحقير، أشنع من أن يصدقها. لكنها كانت كذبابة لحوح، لا تترك ذهنه إلا وتعود له. ولما لمح العراف ثمار حصاده في عيون الأخ المرتابة، اشتكت فجأة زوجة الأب من اختفاء أحد أزيائها، فذهب الأخ الفضولي مباشرة يبحث بين حاجات أخيه، فوجدها!

وظن أن ظنونه قد صدقت! ودار بين الأخوين شجار رهيب، ارتجت له المدينة، حتى كادا أن يقتلا بعضهما. وإذ حاولت زوجة أبيهم الفض بينهم، انهال عليها الأصغر بالسباب، فباراه الأكبر في سبها، يريد إظهار أنه يبغضها. ودون أن تفهم ما أصابهما، غادرت الدار مقهورة، مفسحة مجالا أوسع للعراف، لم يبق من خصومه إلا شقيقين متحاربين!

انتظر العراف قليلا، لتبرد النار التي أشعلها على الشقيق الأكبر، تاجر الأقمشة، ثم أصبح هو معركته التالية! فقد كان أكثرهم مالا، خاصة بعد أن أشرف على ما تركه تاجر العطور، وتركته زوجة الأب من أموال خلفهما، يديرها لهما.

كان هذا الأخ جريئا مقداما، لذا لم يكن يخاف من مواجهة العراف، وكان أول من استهزأ بخطره، رغم علمه علم اليقين ببغضه لوالده، وكان في قلبه حب للذة المغامرة، وعشق للتعرض للمخاطر، لولا أن أقعدته المواريث في مكانه. ظن العراف أنه قد يتلف المال إذا أذاق الفتى لذة المغامرة التي هجرها.

ذهب العراف لتاجر الأقمشة قائلا:

"إن براعتي في استكشاف الغيب قد بلغت شأنا لم أكن لأتصوره، ورغم كرهي للزينة والشهرة كما ترى - فأنا أكتفي بحجرة صغيرة في منزلكم، ولولا إنني أخشى أن أكتم علمي عن الناس، لما أخبرتهم وأعلمتهم بما ينتظرهم – فإن شهرتي تجاوزت الآفاق، ووصلت إلى أمير المدينة نفسه، وقد أرسل لي يطلبني في قصره، لتفسير حلم أتاه، لكنني كما ترى رجل عجوز، ولا أعرف دروب المدينة جيدا، فأحببت أن أتسند على شاب قوي مثلك في تلك الرحلة المهمة."

لم يكن الأمير طلب، أو حتى سمع بالعراف الخبيث، لكن جوار قصر الأمير في هذا الوقت من السنة، يتم عمل مولد كبير

لأحد الأولياء، مولد تجري فيه الآثام والمعاصي، كما يجري الماء في اليم!

وصل الاثنين للقصر، فقال العراف:

"آهه، يبدو أن المولد هنا! اذهب وتسلى فيه قليلا يا بني، فقد أتأخر عند الأمير."

قال التاجر:

"وكيف تستدل على مكاني أيها العجوز إن افترقنا؟"

ضحك العراف وقال:

"لا أكون عرافا إذاً إن تاه عني غلام في العقد الثالث من عمره!"

دلف الفتى لينظر بين الناس لعجائب المدينة، التي لا يعرفها في أطرافها. وسرعان ما رأى أحد الأفاقين يتحدى الناس بثلاث علب، ترى أيها يخفي تحتها الذهب وله الجائزة؟

تفرج الفتى قليلا يشاهد الرابح والخاسر، ثم انضم للمراهنين متحمسا.

وأخذته فتنة المقامرة! وجلس العراف بعد قليل جواره، يراقب راضيا عاقبة عمله، ثم همس للفتى بمكان العلبة الصحيحة، فراهن عليها وفاز.

في شبابه كان العراف هو من يلعب بالعلب في هذا المولد! كان خبيرا، حتى إن حيل الأفاق الغشيم بدت له ساذجة! وكلما أخبر تاجر الأقمشة بالعلبة الصحيحة، فزع الأفاق، وتحداه في لعبة جديدة، مع مضاعفة الرهان. وإلتذ الفتى بربحه المغامرة، فقبل التحدي، وأخذ الرهان يتضخم ويتضخم، والفتى يربح ويربح، حتى التف حوله الناس والأثرياء والأمراء، يراقبون هذا الفتى البارع المحظوظ!

وأصابت بعضهم حمى التحدي، فأخذوا يراهنون الفتى، ويزيدون في الرهان على خسارته، فيربحهم! حتى أصبح الرهان أضعافا كثيرة، وأخذ البعض يسجله في أوراق، وفي لحظة أخبر العراف الفتى بعلبة خاسرة، ليخسر كل ما ربحه وفوقه تجارته وتجارة أخوته!

وفرح العراف بنصره فرحا كبيرا، واشترى من الفتى المغلوب بيت عزام بثمن بخس، زاعما إنه يساعده، كما ساعدوه بتركه يعيش فيه، فسيبقى الوضع كما هو، غير إنه لن يدفع إيجارا، ولن يطالبهم بأجرة.

ولكن ما أن امتلك صك البيت في يده، حتى طردهم شر طردة! وانتصر على أبناء الرجل، الذي حقد عليه وظفر ببيتهم، وفرق شملهم!



ولكن الأيام مرت على الزوجة المظلومة، إذ رآها أمير المدينة ذات يوم، فوقع في حبها، فتزوجها، فكان مهرها رأس الخبيث!

٦٥ - ٣ (حكاية العجوز المستجيرة)

قال الشيخ وهدان:

"ولما سمعت الحكاية من هذا السيد، قلت له:

"يا سيدي، كان هذا خبيثا، يستغل نقائص الطمع والفضول والمقامرة، ولا أظن كريما مثلك يوجد به نقائص تقتل غير أعدائه! إنما أنا عجوز مستجير بكم، فأجيروني ولا تكونوا كمن خزل العجوز المستجيرة في وادي اللصوص،

أما سمعت بحكايتها؟

كان هناك وادٍ، يعيش فيه لصوص الصحراء، فبه يختبئون، وله أسراهم يسوقون، وفيه كنوزهم يدفنون.

وذات يوم، ساقوا أمامهم قافلة من العبيد للوادي، يوزعونها بينهم. وإذ اقتنصوا البنات والشباب، وجدوا بين الأسرى امرأة عجوز، انحنى ظهرها، فألقوها خارج الوادي، ليتركوها للذئاب تأكلها، أو العطش يفنيها.

لم تكن العجوز قادرة على أن تسير في الصحراء هاربة، وأخذت تستعطف اللصوص، فآذوها فلم تملك إلا أن تطوف حول الوادي، تحاول أن تختلس جيفة تأكلها، أو شربة تسقيها.

وذات يوم، أتت جماعة من الفرسان المغامرين، فأغاروا على وادي اللصوص، فقتلوا منهم من قتلوا، ثم أخذوا ما استطاعوا من كنوزهم غنيمة. فأسرعت لهم العجوز مستجيرة، تطلب منهم الغوث، فقالوا لأنفسهم:

"وماذا كانت تفعل تلك العجوز بين اللصوص، وما شأننا وشأنها؟"

فردوها ردا غير جميل، ثم رحلوا عائدين.

ولم يقطعوا مسافة طويلة، إلا وأمسكهم جنود الملك، يظنونهم لصوص الصحراء، فقبضوا عليهم، ثم هجم الجند على الوادي لا يبحثون إلا عن عجوز مستجيرة، فلما وجدوها قالوا لها:

"ادعي الله لمولانا الملك، فقد مرض مرضا شديدا، فاستجار بالله فأتاه حلم رهيب، به نار وجحيم أسود، وهاتف يهتف به (كيف يجيرك الله، وتلك العجوز تستجير في وادي اللصوص، فلا يسمعها أحد؟) فأدرك الملك أنه هالك، ما لم ينقذك."

وهنا نظر لها الفرسان المغامرون مستعطفين، واستحلفوها أن تشفع لهم عند الملك، فقالت:

"وما شأني وشأنكم؟"

فساقوهم للموت، لا يجدون مجيرا!

٦٥ - ٤ (حكاية زندي وشاهر)

قال هذا السيد للشيخ وهدان:

"أما وقد سمعت مقولتك، فإني لأكره أن أكون مجيرا لمستجيرٍ غادر، كما أجار الزندي شاهر!

أما سمعت بحكايته؟

يحكى أنه كان زندي فارسا هماما، عطوفا على الناس. إن مضى في طريق، أقام فيه العدل، وأغاث الملهوف. وذات يوم سمع استغاثة لصبي صغير، فاندفع لنجدته، فوجد رجالا يمسكون السيوف، يبغون قتل الصبي، فردهم بسيفه، وقتلهم. وكان سيفه بتارا لا يقهر، ربحه من حرب مع وحش، نصف جني ونصف إنسان، كان يرعب الناس في الطرقات، حتى هزمه. وأخذ زندي الصبي شاهر، فأجاره، وجعله يقيم عنده، حتى يستعيد قوته. ولما أفاق الصبي من غيبوبته، اطمأن زندي، وأراد أن ينهض ويكمل رحلته، لكنه وجد الفتى الملعون ينقض على عنقه، وينهشه بأسنانه. فشاهر لم يكن إلا ابن غول من غيلان الجن، أكل بعض الصبية، فطارده أهلهم يريدون الثأر، ولما أنقذه زندي دون أن يتبين حقيقة الأمر، ترك الغول يستعيد عافيته، ليأكل منقذه!

٦٥ - ٥ (الغـوث)

قال الشيخ وهدان:

"سمعت حكاية زندي وشاهر، فرددت عليها بحكاية البحار سامر، ليرد عليّ هذا الأمير بحكاية وأخرى، فأرده بأخرى!

وأخذت أبارز هذا السيد، حكاية بحكاية، حتى أتت الظهيرة، وحرها يؤلمنا، فقلت:

"تبدو متعبا يا مولاي، فهلا أكملنا حديثنا في قصرك ؟"

قال لي:

"وما أدراك أن لي قصرا ؟"

قلت:

"إنما عيني كليلة، لكنها تعي إنك سيد بين قبائل بني الطارق."

ولمحت في عيون رجاله نظرة استخفاف، فأدركت الحقيقة، فأكملت مسرعا:

"حتى لأكاد أظنك أميرا عظيما بينهم."

قال لي مبتسما:

"أعجبتني فراستك، كما أمتعتني حكاياتك، أنا حرب بن سلام، ملك بني الطارق، وصاحب العامرة وسيد مملكة بارق، فمن أنت ؟"

قلت له:

"لا يعرفونني خارج بلدتي، لكنهم يدعونني بالشيخ وهدان."

قال لي:

"ظننتك هو! الصوفي العالم الجليل! ما هو شهير عندكم نعرفه عندنا. فالتجار تتناقل الأنباء، ونبأك مع ملكك الجديد، نصره الله، فوق كل نبأ!"

قلت:

"لم أعلم أن جلالتكم تهتمون بما يحدث في بلادنا بمثل هذا العطف."

قال:

"أنتم إخوتنا في الإسلام، واقتراب الأهبال والفرنجة من حدودنا أمر غير محمود، لا يغفل عنه الملوك. غير ما بين بلادنا وبلادكم من تجارة بارت، بعد أن سلط الله بعضكم على بعض."

قال أحد رجاله:

"يا مولانا الشيخ وهدان، لم نأت لهذه الواحة البعيدة إلا لنتسمع أخبار بلادكم، فقد علمنا بأن موقعة عظيمة جرت، أو ستجري عند الثغر الكبير."

قلت:

"فالحمد لله من قبل ومن بعد. قد هزمنا الفرنجة، لكنهم سيعودون، فالأسود أتى لنا بجيش لا أول له ولا آخر، فأردنا نصرتكم لنا."

قال حرب بن سلام:

"ما شأننا والأسود؟ إنما نخشى الفرنجة والأهبال على حدودنا فحسب."

قلت:

"لكن الأسود وعدهم بالثغر الكبير."

ضحك وقال:

"حتى الأسود لن يفرط في ثغوره كلها بهذه البساطة."

قلت:

"أظننت أنه لو لم يدعهم لشيء في الغرب، كانوا سيزحفون معه؟ لِمَ يحارب الفرنجة والأهبال معه بعد أن قبضوا الثمن من ثغورنا الشرقية كاملا؟"

فاقتنع ملك بني الطارق فورا! لم أتصور أن أحقق هذا النجاح أبدا، وبهذه السهولة، لكنها الأقدار ساقتني إلى حيث مضربه، لأقنع رأس البلاد فورا دون جهد، فإذا به يعد العدة، ويطلب الجند على وجه السرعة للسير شرقا.

(٦٦)

حكاية وادي الموت

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"أتم الشيخ وهدان حكايته، وأسرع ليقدم لنا ملك بني الطارق، الحرب بن سلام، وقد أتى على رأس ستين ألفا من جنوده وعشائره، ومعهم جموع ممن هاجروا عن بلادنا، يريدون العودة لها عودة ظافرين.

كان متعجبا لما حققناه من نصر على الأسود، بجموعنا القليلة. وأخذ يقول للشيخ وهدان مازحا:

"جلبتنا من بلادنا بلا طائل، أكان يجب أن تتلكأ حتى تنتهي الحرب!"

لكننا كنا ندرك، كما قال ولي العهد، أنما تأخر الأسود، وانسحب مقهورا، لأنه عرف أن وجود هذا الجيش ضده يعني هزيمته.

وقد تحصن في وادي الضياع، مصرا مهددا، لو بقينا حيث نحن، فلن نحكم شبرا خارج الغرب، ولو زحفنا للعاصمة فسينقض

على ظهورنا! كنا مضطرين لتقبل التحدي الصعب، والسير في وادي الضياع الرهيب لملاقاته!

أعددنا للرحلة والزحف، وجمعنا كل ما استطعناه من جند، واستعنا بأخبر الأدلاء، وأعرفهم بالنجوم والرياح، فخطر الضياع في الوادي ألعن من خطر حرب الأسود!

سرنا ببطء شديد، تسبقنا دوما طلائع، تتقدم لمسافة قصيرة طالما هي أمام عيوننا ظاهرة! فإذا ما بدأت تختفي عن الأنظار توقفت، وغرست في الأرض علامة، وبيارق، ونار موقدة تبقى جماعة من الجند حريصة عليها، حتى إذا ما وصلنا لها أطلقنا جماعة أخرى، تفعل مثلما فعلت، لنتقدم تاركين خلفنا طريقا مضيئا!

كان الخوف مازال كامنا من عاصفة رملية تذهب، بكل ما صنعنا لكن الأدلاء يؤكدون أن عواصف الصحراء ساكنة هذه الأيام، وأنها ستنال من الأسود بأشد منا، لكن الأسود يعرف طريقه في هذا الوادي (الله أعلم كيف) بينما نحن لا نعرف!

لم نتوغل كثيرا في هذا الوادي الرهيب، ولم نتعرض للكثير من أخطاره، وانهيار الرمال علينا، وقرصات الثعابين والعقارب.

لأننا عثرنا سريعا على معسكر الأسود!

معسكر ضخم يمتد على مرمى البصر.

به جيش أضخم من جيشنا كامل العدد والعدة.

من الموتى!

ثمانون ألف فارس وهاجن بخيولهم وإبلهم موتى!

كأنما نزلت صاعقة من السماء أهلكتهم عن آخرهم، فأخذتهم في لحظة واحدة!

دب الفزع في قلوبنا، وأخذ الجنود يرددون في رهبة:

"وادي الموت! وادي الموت! لنخرج منه الآن!"

لكننا بقينا مصرين على البحث عن حي واحد بين أكوام الجثث،

أو على الأقل على جثة الأسود الملعون!

لم نعثر إلا على الأمير المملوكي الشجاع، كايدهم ابن بارم ديله.

الأسير المسكين، كان محموما هالكا من الجوع والعطش، ولابد أن الأساودة ظنوه مات، فألقوه خارج معسكرهم، قبل أن تحل بهم لعنة الوادي، حاولنا سقايته الماء، فرفض حتى أجبرناه بالقوة.

تشاورنا ماذا نفعل. كانت الرهبة تملأ قلوبنا، فبدت فكرة إرسال الجنود للبحث عن القائد الأسود سخيفة، غير مجدية، مع

ما دب في قلوب جنودنا من رهبة، خاصة إنه حينما استنطق بعضنا كايدهم ابن بارم ديله، لم يقل إلا كلمة واحدة مفزعة.

"الأسود قتل كل هؤلاء وحده!"

أشعل هذا رعبا ما بعده رعب من القائد الأسود في قلوب رجالنا. يبدو أنه، رغم كل شيء، متحالف بالفعل مع الشياطين، حتى يقهر وحده ثمانين ألفا من الفرسان! فانسحبنا عائدين لمدينة ساوة، تاركين الوادي الملعون خالصا له! على أي حال قد انتصرنا، وانتهى أمر الملك، لا يضرنا ولا ينقصنا غياب سلطاننا عن هذا الوادي الملعون.

زعم البعض إن الهزيمة أهلكت الأسود، فأصبح شبحا منتقما ناقما على رجاله، وأنه بعدما أنقذهم من الهلاك في المعركة، انقلب عليهم وأهلكهم عن آخرهم.

وزعم البعض إنما شياطين الوادي أتته، وعرضت عليه - لما رأته فيه من قوة وجبروت - أن يصبح ملكا عليها، على أن يفعل من الشر فعلا بلا مثيل، فقتل كل رجاله، ليصبح ملكا مخلدا في لعنات هذا الوادي! لكنه أصبح بلا سلوى، ولا ترف مما اعتاده في حياته البشرية، فأصبحت تسليته الوحيدة هي أن يخدع من يقوده سوء حظه للوادي، فيتسلى بإنقاذه من الضياع، حتى إذا شم رائحة النجاة قتله!

على أي حال فليهنأ بمملكته، لا نريد منها شيئا!"

(٦٧)

الخاتمة

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان:

"زحفنا منتصرين إلى الحاضرة، فاستسلم لنا من بقى فيها من عمال الأسود، وهرعوا لمبايعة الملك. واتبعهم جند الأسود وأعداؤه في كل البلاد، حتى البقايا القليلة التي تبقت من بني الأسود، وقد كادوا أن يبادوا في هذه الحرب. دخلنا في معركة مريرة ضد الفرنجة في الزرقاء، حتى طردناهم بعد ثمن باهظ من الدماء، اشتعل قتال، ونزاع بين خانات الأهبال في الثغر الصغير، فباغتتهم جيوشنا، فحطمناهم. وقد أبلى بقية بني الأسود في تلك المعركة بلاءً حسنا، تكفيرا عن ذنوبهم في العهد الذي انقضى.

كانت لا تزال أمامنا معارك عنيفة، لطرد بقية الأهبال والفرنجة، وإتمام السيطرة على البلاد بقبضة عادلة قوية، لكني أدركت أن دوري قد انتهى، فاليوم الملك تنصره جيوش كبيرة منظمة،

ويتحالف مع ملك بني الطارق، وقد اجتمعت الناس على كلمته بالرضا، كما لم تجتمع من قبل.

ولذا، كان يجب أن ينتهي أمر الغيلان الحمر، فأمرت رجال الغاربة بخلع الدروع الحمراء، وتدميرها وأعلنت لكل الناس نهاية الغيلان الحمر برضاهم، لأنه يجب ألا ترتفع راية أخرى سوى راية الملك، مادام قد تملك!

وذهبت لتيمور في الحاضرة، لأول مرة أدخلها، بعد أن خرجت منها مع أبي لنجيب دعوة الوريث الكاذب. فوجدت تيمور يرتدي تاجا من الذهب والفضة، فتقدمت منه، وخلعته عنه، وقلت:

"ما هذا يا مولاي؟"

قال:

"أهدته لي الخاتون، علامة الملك، وشعار الأسرة المالكة القديم."

قلت له:

"إذن فأنت تريد أن تنتهي مقتولا مثلهم! ثبت ملكك بأن تطعم بثمنه الناس! وإياك أن تستمع لبطانة السوء أبدا."
بدا على وجهه الخجل، وقال:

"الحمد لله الذي أكرمني بك إلى جواري."

قلت له:

"لن أبقى لجوارك، فقد خلعت زي الغيلان، وإني راحل لبلدتي!"

نظر لي مبهوتا، وقال:

"أتغادرني وأنا بحاجة إليك؟"

قلت:

"بإذن الله ما عادت لك بي حاجة! بإذن الله ستنتصر على الأهبال والفرنجة والأعراب، وستعيد مجد البلاد القديم، وتؤمن ما حولها من تخوم وطرقات. فبفضل الله، قد فقد الفرنجة أعدادا ضخمة، وسفنا كثيرة، ودب الشقاق والرعب في قلوب الأهبال، فسينصرك الله عليهم."

قال:

"أحتاج لشجاعتك وفطنتك أيها القبيل على جواري. حسنا، أعلم أنك لست بالقبيل، فقد أخبرتني بحكايتك الغريبة، رغم إنني لا أكاد أصدقها، لكنك كنت خير معين، وستكون خير وزير."

قلت له:

"يجب أن أرحل الآن يا مولاي، فموسم الزراعة قارب على الانتهاء، وستصاب البلاد بالمجاعة لو لم ندرك بعضه. كما قلت سابقا لك - لو تذكر- حرب الأسود تنتهي، لكن حرب الجوع لا

تنتهي! لقد قارب نصرك على الاكتمال، بفضل جند فلاحين. ولما أصبح لديك ما يكفي من الجند المحترفين، فعليك بترك البعض لزراعة الأرض حتى لا تبور. صدقني فأنت الآن في حاجة لضربات الفؤوس، أكبر من حاجتك لطعنات السيوف."

هنا لمعت عيناه بالدموع، وقال:

"أبعد كل هذا تتركني؟ أبعد الرحلة الطويلة، والرفقة المريرة يا قبيل، أو يا عبد الشهيد؟ أنت خير الرفاق، فاثبت معي في أيام البلاط."

قلت مبتسما:

"هي حرب أكبر من طاقتي تلك التي في البلاط! لو بقيت، فلن يرضى ملكك بي! اليوم يا مولاي يجب أن أرحل، وأنا واثق في عدلك وفطنتك، وأن مملكتك لن تبنى على الجور، مثل من هلكوا قبلك، وأهلكوا! أنك ستتبع نصيحة عمر ابن عبد العزيز أن حصنها بالعدل. لو بقيت، فسأذوق من المشاحنات، والمنافسات، وأجواء القصور ما لا أرضاه لنفسي من عنت، قد يضلني، فأضلك معي! وإنها لنصيحة ثمينة، أن تبعد بنفسك عنها."

نظر لي صامتا لحظات كالدهور، ثم قال:

"أعلم أنك عنيد، ولن أغير رأيك حتى تنال ما تريد، لو لم تكن كذلك، لما كنت أنا ملكا الآن، لن أكرهك على البقاء كما فعل

الأسود بأهل العاصمة، فكانوا سبب هزيمته. لكن على الأقل لدي لك هدية، فاقبلها."

قلت قلقا:

"وما هي؟"

قال:

"مثلك لا يتزوج إلا أميرة! وكنت أبغي لك خير النسب."

قلت مصرا:

"أرامل قريتي ويتامها أولى بي من أميرات طرابل. خذل والدي أهل القرية، ولن أخذلها بعدما ضحت بما استطاعت في حربنا."

قال مرتبكا:

"ليست أميرة من طرابل، وإنما من الحاضرة! امرأة لم تعرف لنفسها من الرجال كفئا سواك. الخاتون المرصفية حدثتني لأخطبك لها، أو أخطبها لك، أيهما أصح!"

آه! الفكرة القديمة وقلق نساء القصر من الخاتون! لن أسقط نفسي في هذا الفخ مرة أخرى. يكفيني ما نالني منه المرة السابقة!

قلت مفزوعا:

"وأين أنا من الخاتون؟ دعني لأرامل قريتي يا مولاي. أنى لي بمناطحة ذكاءها، ومكرها، وثروتها؟ الحمد لله إني عائد لقريتي، مبتعدا عن أثر فتنتها. والله لم يغلبني أحد بأمر مما غلبتني هي!"

قال وعلى شفتيه ابتسامة حزينة:

"والله لم أكن لأقبل بهذا الأمر، لولا أنك عائد إلى قريتك، تعلم أن بقاء الخاتون هنا، قرب قصر الملك، يثير قلقلة في القصر. وغيرة النساء وكيدهن لهما خطر على أي ملك! أرغب في غول أحمر ينقذني بشجاعته من هذا الخوف! ويأخذها معه لقريته! وقد قالت لي إنها لن تمانع في هذا."

لا أنكر، رغم رهبتي من الخاتون، إن في القلب ميلا لها، ومثلها ليميِّل القلب إلا من عصم ربك. لا يفتنني جمالها قدر ما يفتنني إخلاصها ومثابرتها وفطنتها. لكني مازلت أخشاها كثيرا.

وهنا أتاني من خلفي صوتها العذب، لائما، كأنما قرأ أفكاري:

"أحقا أنا مفزعة لهذه الدرجة؟ يزعمون إن الغول الأحمر هو المفزع!"

من أين تأتي تلك المرأة دوما في الوقت المناسب، عالمة بحقائق الأمور! نظرت لها مرتبكا، وقد تتدفق الدم لوجهي. لقد شهدت الموت، وذقت الحرب، وقابلت الطعن، فلم أرتبك مثلما ارتبكت أمامها!

قلت لها معاندا:

"لا أصلح لك يا سيدتي. قد علمت بحقيقة أمري، ولعله الأمر الوحيد الذي خدعك أحدهم فيه، فما أنا بغول أحمر، وإنما فلاح بسيط فقير، تمزق جسده بطعنات السيوف."

قالت:

"وما أدراك أني أبغي مالا، فلدي منه الكثير، أو جاها، فهو لا ينقصني؟ أنت من أتم ثأري، وأثبت شهامتك، والحياة في قريتك عندي أفضل من القصور مع غيرك. أنت تملك من الشهامة ما افتقدته حينما كنت أسيرة مغلوبة، مطرودة، مطاردة من هذه المدينة التي نقف فيها الآن! أبعد أن باعني أبي للأسود مقابل رأس خصمه، وترك إخوتي الكبار حمايتي جريا وراء الكنوز، وباع شقيقي الأصغر دم أبي وشرفي نفاقا للمغوار الأسود، أبعد كل هذه المعادن الخسيسة، التي أظهرها أقرب الرجال لي، ترى في نفسي طمعا لها؟"

في الحقيقة كنت لأراها تطمع، فقد شبت على الجاه والسلطان، وأصرت على استعادتهما، حينما سلبا منها! ولكن قلبي رق عن أن يغلظ لها الرد المكذب، فقلت:

"يا ذات النسب الشريف عن أمك، وسليلة الأمراء والقادة عن أبيك، والمال عن زوجك الشهبندر، والخبرة عن لطمات

الحياة! أنى لصبي غرير فقير مثلي، شوهته السيوف، بأن ينظر إليك؟"

قالت:

"هي أوسمة الجهاد على صدرك، فبها شرفت!"

كان زواجي بها مصلحة للملك -كما أظن - وحتما سعت الشهابية وابنتها له، وتطلبه الخاتون بنفسها، لا أدري لم؟ ربما تظن بالفعل إنني شخص يليق بمقامها السامي، لما أجراه الله بفضله على يدي؟ أو لأنني أخذت ثأر أبيها كما تقول؟

لكن ما كان بيننا أشد من أن أتجاوزه، مشهد الشيخ غلاب رحمه الله شهيدا في سبيل القرية، وحديثه لي عن إننا ننجو بأن يعين بعضنا بعضا. لذا قلت:

"لو اتبعت الهوى لتبعتك! ولو اتبع الناس الهوى لفسدت الأرض! في قريتي يتامى وأرامل أولى بي، والملك خير من يعرف أن هناك أمورا أوجب من الحب، عليه أن يفسح لها الطريق، حتى لو صرخ من الألم."

شحبت ابتسامة الملك، متذكرا ما كان من شأن حبه، بينما أكملت أنا:

"لذا، فرغما عما تحبه نفسي وتتمناه، أرجع لبلدتي، أتولى من أمر أهلها يا مولاتي الخاتون، فاعذريني."

تجمد وجه الخاتون، وقالت للملك:

"ربما اتبعه فيما بعد مطاردة، وربما لا أغفر له ردي عنه! لكن الآن يا مولاي ائذن لي بالمغادرة."

وانحنت، واتجهت مغادرة، فناداها الملك تيمور قائلا:

"أيتها الخاتون!"

التفتت له وهي تقول:

"أمر مولاي؟"

قال:

"لا تنحني، ولا ينحني أحد في مجلسي أبدا. فالإنحناء لا يكون إلا لله. خذي تاجك هذا، فأطعمي به الفقراء، أثبت لملكي منه."

قالت:

"لعل الغول الأحمر يعرف من فقراء ساوة خيرا مني، فقد اغتربت عن البلد طويلا!"

وتركتنا مغادرة. ونظرت للملك مودعا، ثم تبعتها لخارج القصر، فقلت لها:

"الله يشهد كم أحترمك، وأكن لك يا خاتون، ولكن........"

قاطعتني بقولها:

"هي أمور أوجب، لا بأس يا غول، ارحل الآن عني، لا تأمن نقمتي!"

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"وهكذا عدت إلى قريتي، أحاول أن أصلح فيها ما أحرقته الحروب، واستغرقتني فصول الزرع المتتابعة، كما استغرقت أحوال الملك المتقلبة مليكي".

(٦٨)

واختتم الراوي

أنهى سائقنا الأسمر حكايته الخرافية الطويلة، عند الفجر تقريبا، واختتمها لأبناء لمياء، الذين سرحت عقولهم في الشياطين والجن المنتقم قائلا:

" وهكذا يا أطفالي أحرق عبد الشهيد ابن سمعان، بفضل رمح الفولي، درع الأسود السحري، فكسر لعنته، وهزم شره، وحبسه للأبد منبوذا مهزوما في هذا الوادي، ودخل مع الملك تيمور الشجاع العاصمة، فحررها، وحكمها بعدله زمنا طويلا مجيدا. وظل هو وملك بني الطارق متحالفين، يحاربان الفرنجة والأهبال، حتى أزاحا خطرهما عن البلاد. أما عبد الشهيد فقد أصبح وزيره، وتزوج من الحسناء الخاتون المرصفية، وعاشا معا في قصر كبير في العاصمة، يجاورهما الغول الأحمر الحقيقي، ابن العبدلي، وأنجبا بنينا وبناتٍ، وعاشا في سعادة وهناء، حتى فرق بينهما الموت بعد عمر طويل سعيد."

وأخيرا ظهرت لنا أضواء بعيدة. فزع الأطفال في البداية، يظنونها نار الأسود السحرية، التي ذكرها في الحكاية، لكنها كانت أضواء العربات المسرعة على الطريق الرئيسي!

لقد نجونا أخيرا! تبا لهذا الدليل الذي أضاعنا! لو كنت أصدق الأساطير، لظننت أنه شبح القائد الأسود هذا!

على أي حال، جلسنا على جانب الطريق، ننتظر العربة الرحيمة القادمة، لتقلنا إلى وجهتنا.

(٦٩)

الفصل الأخير

عظم البذل وحماقته

يقول القائد الأسود المغوار بن الحازم الأساوديّ:

عظم المطالب يأتي بعظم البذل، أدركت حلول الهزيمة، وأن الأمر لن يخلص لي، لكني عرفت أنه مادام جندي وبني الأسود حافظين لشوكتهم، فلن يخلص الأمر لتيمور الساواتي هذا أبدا. فكان علي أن أبذل جيشي النفيس ثمنا لوحدة الوطن!

!

الكاتب:

محمد أحمد الدواخلي، من مواليد ١٩٨١ تخرج من كلية الصيدلة جامعة القاهرة عام ٢٠٠٣.

عضو في جماعة التكية الأدبية، ومحرر سابق في مجلة تحت الكوبري الإلكترونية

فاز بجائزة سند راشد لعام ٢٠٠٨ للمركز الأول في مسابقة قصة الخيال العلمي بتحكيم د. نبيل فاروق.

صدر له:

القصة القصيرة:

- شارك في مجموعة "اعذريني ومخاوف أخرى" عن دار اكتب، مع عدد من كتاب الرعب الشباب.

- شارك في عدد من إصدارات التكية الجماعية (حتى القهوة أصابها البرود- فأر في المصيدة)

كوميكس: "بيت التائهين" رواية مصورة بالتعاون مع فريق عمل الجنوبي للنشر.

الترجمة: "طلة على بلاد برة" (مختارات من الأدب العالمي).